سورة الزخرف

وهي تسع وثمانون آية مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ③ وَإِنَّهُۥ
فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ④ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن
كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ⑤ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ⑥ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ
إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⑦ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ⑧ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿حمٓ ① وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ يحتمل وجهين: الأول: أن يكون التقدير: (هذه حم والكتاب المبين) فيكون القسم واقعًا على أن هذه السورة هي سورة حم، ويكون قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ ابتداء لكلام آخر. الثاني: أن يكون التقدير هذه ﴿حمٓ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ فيكون المقسم عليه هو قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾.

وفي المراد بالكتاب قولان: أحدهما: أن المراد به القرآن، وعلى هذا التقدير فقد أقسم بالقرآن أنه جعله عربيًا. الثاني: أن المراد بالكتاب: الكتابة والخط، أقسم بالكتابة لكثرة ما فيها من المنافع، فإن العلوم إنما تكاملت بسبب الخط، فإن المتقدم إذا استنبط علمًا وأثبته في كتاب، وجاء المتأخر ووقف عليه، أمكنه أن يزيد في استنباط الفوائد، فبهذا الطريق تكاثرت الفوائد وانتهت إلى الغايات العظيمة، وفي وصف الكتاب بكونه مبينًا من وجوه: الأول: أنه المبين للذين أُنزل إليهم لأنه بلغتهم ولسانهم. والثاني: المبين هو الذي أبان طريق الهدى من طريق الضلالة، وأبان كل باب عما سواه وجعلها مفصلة ملخصة.

واعلم أن وصفه بكونه مبينًا مجاز؛ لأن المبين هو الله تعالى، وسمي القرآن بذلك توسعًا من حيث إنه حصل البيان عنده.

أما قوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ **ففيه مسائل:**

المسألة الأولى: القائلون بحدوث القرآن احتجوا بهذه الآية من وجوه: الأول: أن الآية تدل على أن القرآن مجعول، والمجعول هو المصنوع المخلوق، فإن قالوا: لمَ لا يجوز أن يكون المراد أنه سماه عربيًا؟ قلنا: هذا مدفوع من وجهين: الأول: أنه لو كان المراد بالجعل هذا لوجب أن من سماه عجميًا أن يصير عجميًا وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنه باطل. الثاني: أنه لو صُرف الجعل إلى التسمية لزم كون التسمية مجعولة، والتسمية أيضًا كلام الله، وذلك يوجب أنه

فعل بعض كلامه، وإذا صح ذلك في البعض صح في الكل. الثاني: أنه وصفه بكونه قرآنًا، وهو إنما سمي قرآنًا لأنه جعل بعضه مقرونًا بالبعض، وما كان كذلك كان مصنوعًا معمولاً. الثالث: أنه وصفه بكونه عربيًا، وهو إنما كان عربيًا لأن هذه الألفاظ إنما اختصت بمسمياتهم بوضع العرب واصطلاحاتهم، وذلك يدل على كونه معمولاً ومجعولاً. والرابع: أن القَسَم بغير الله لا يجوز على ما هو معلوم، فكان التقدير: (حام ورب الكتاب المبين)، وتأكد هذا أيضًا بما روي أنه عليه السلام كان يقول: يا رب طه ويس ويا رب القرآن العظيم. والجواب: أن هذا الذي ذكرتموه حق، وذلك لأنكم إنما استدللتم بهذه الوجوه على كون هذه الحروف المتوالية والكلمات المتعاقبة محدثة مخلوقة، وذلك معلوم بالضرورة ومن الذي ينازعكم فيه؟ بل كان كلامكم يرجع حاصله إلى إقامة الدليل على ما عرف ثبوته بالضرورة.

المسألة الثانية: كلمة (لعلّ) للتمني والترجي وهو لا يليق بمن كان عالمًا بعواقب الأمور، فكان المراد منها هاهنا: كي، أي أنزلناه قرآنًا عربيًا لكي تعقلوا معناه، وتحيطوا بفحواه. قالت المعتزلة: فصار حاصل الكلام: إنا أنزلناه قرآنًا عربيًا لأجل أن تحيطوا بمعناه، وهذا يفيد أمرين: أحدهما: أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض والدواعي. والثاني: أنه تعالى إنما أنزل القرآن ليهتدي به الناس، وذلك يدل على أنه تعالى أراد من الكل الهداية والمعرفة، خلاف قول من يقول: إنه تعالى أراد من البعض الكفر والإعراض. واعلم أن هذا النوع من استدلالات المعتزلة مشهور، وأجوبتنا عنه مشهورة، فلا فائدة في الإعادة، والله أعلم.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يدل على أن القرآن معلوم، وليس فيه شيء مبهم مجهول، خلافًا لمن يقول: بعضه معلوم وبعضه مجهول.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (إم الكتاب) بكسر الألف، والباقون بالضم.

المسألة الثانية: الضمير في قوله: (وإنه) عائد إلى الكتاب الذي تقدم ذكره في ﴿أُمِّ ٱلْكِتَـٰبِ لَدَيْنَا﴾ واختلفوا في المراد بأم الكتاب على قولين:

فالقول الأول: إنه اللوح المحفوظ لقوله: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]. واعلم أن على هذا التقدير فالصفات المذكورة هاهنا كلها صفات اللوح المحفوظ.

الصفة الأولى: أنه أم الكتاب، والسبب فيه أن أصل كل شيء أمه، والقرآن مثبت عند الله في اللوح المحفوظ، ثم نُقل إلى سماء الدنيا، ثم أُنزل حالاً بحسب المصلحة، عن ابن عباس رضي الله عنه: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ مَا يُرِيدُ أَنْ يَخْلُقَ»[1] فالكتاب عنده،

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد في (مسنده) (٥/ ٣١٧)، حديث رقم (٢٢٧٥٧) من طريق ليث عن معاوية عن أيوب... به، وأخرجه الترمذي في كتاب (القدر)، باب: (من سورة ن) (٥/ ٤٢٤)، حديث رقم (٣٣١٩). =

فإن قيل: وما الحكمة في خلق هذا اللوح المحفوظ، مع أنه تعالى علاّم الغيوب ويستحيل عليه السهو والنسيان؟ قلنا: إنه تعالى لما أثبت في ذلك أحكام حوادث المخلوقات، ثم إن الملائكة يشاهدون أن جميع الحوادث إنما تحدث على موافقة ذلك المكتوب، استدلوا بذلك على كمال حكمة الله وعلمه.

الصفة الثانية من صفات اللوح المحفوظ: قوله: ﴿لَدَيْنَا﴾ هكذا ذكره ابن عباس، وإنما خصه الله تعالى بهذا التشريف لكونه كتابًا جامعًا لأحوال جميع المحدثات، فكأنه الكتاب المشتمل على جميع ما يقع في ملك الله وملكوته، فلا جرم حصل له هذا التشريف، قال الواحدي، ويحتمل أن يكون هذا صفة القرآن والتقدير: إنه لدينا في أم الكتاب.

الصفة الثالثة: كونه عليًّا، والمعنى كونه عاليًا عن وجوه الفساد والبطلان، وقيل: المراد كونه عاليًا على جميع الكتب بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر.

الصفة الرابعة: كونه حكيمًا، أي محكمًا في أبواب البلاغة والفصاحة، وقيل: حكيم أي ذو حكمة بالغة. وقيل: إن هذه الصفات كلها صفات القرآن على ما ذكرناه.

والقول الثاني في تفسير أم الكتاب: أنه الآيات المحكمة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧] ومعناه أن سورة حم واقعة في الآيات المحكمة التي هي الأصل والأم.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وحمزة والكسائي (إن كنتم) بكسر الألف، تقديره: إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحًا، وقيل: (إنْ) بمعنى (إذ) كقوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٧٨] وبالجملة فالجزاء مقدم على الشرط، وقرأ الباقون بفتح الألف على التعليل أي: لأن كنتم مسرفين.

المسألة الثانية: قال الفرّاء والزجاج: يقال ضربت عنه وأضربت عنه، أي تركته وأمسكت عنه، وقوله ﴿صَفْحًا﴾ أي إعراضًا، والأصل فيه أنك توليت بصفحة عنقك، وعلى هذا فقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ تقديره: أفنضرب عنكم إضرابنا، أو تقديره: أفنصفح عنكم صفحًا. واختلفوا في معنى الذكر: فقيل: معناه أفنرد عنكم ذكر عذاب الله؟ وقيل: أفنرد عنكم

=وقال: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا عبد الواحد بن سليم قال: قدمت مكة فلقيت عطاء بن أبي رباح فقلت له: يا أبا محمد إن أناسًا عندنا يقولون في القدر. فقال عطاء: لقيت الوليد بن عبادة بن الصامت قال: حدثني أبي قال: سمعت رسول الله ﷺ. . . به. وفي الحديث قصة قال: هذا حديث حسن غريب. وأورده الألباني في (ظلال الجنة) (١/ ٤٢)، حديث رقم (١٠٧) من طريق معاوية. . . به، وقال: حسن. وصححه أيضًا في (سنن الترمذي) برقم (٣٣١٩)، وقال: صحيح.

النصائح والمواعظ؟ وقيل: أفنرد عنكم القرآن؟ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني إنا لا نترك هذا الإعذار والإنذار بسبب كونكم مسرفين، قال قتادة: لو أن هذا القرآن رُفع حين رده أوائل هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله برحمته كرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة. إذا عرفت هذا فنقول: هذا الكلام يحتمل وجهين: الأول: الرحمة، يعني أنا لا نترككم مع سوء اختياركم بل نُذكركم ونعظكم إلى أن ترجعوا إلى الطريق الحق. الثاني: المبالغة في التغليظ، يعني أتظنون أن تُتركوا مع ما تريدون؟ كلا بل نُلزمكم العمل وندعوكم إلى الدين، ونؤاخذكم متى أخللتم بالواجب وأقدمتم على القبيح.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): الفاء في قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ﴾ للعطف على محذوف تقديره: أنهملكم فنضرب عنكم الذكر.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ والمعنى أن عادة الأمم مع الأنبياء الذين يدعونهم إلى الدين الحق - هو التكذيب والاستهزاء، فلا ينبغي أن تتأذى من قومك بسبب إقدامهم على التكذيب والاستهزاء؛ لأن المصيبة إذا عمت خفت.

ثم قال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ يعني أن أولئك المتقدمين الذين أرسل الله إليهم الرسل كانوا أشد بطشًا من قريش، يعني أكثر عددًا وجَلَدًا. ثم قال: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ والمعنى أن كفار مكة سلكوا في الكفر والتكذيب مسلك من كان قبلهم، فليحذروا أن ينزل بهم من الخزي مثل ما نزل بهم، فقد ضربنا لهم مثلهم. كما قال: ﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٣٩]وكقوله: ﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥] والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ۝﴾

اعلم أنه قد تقدم ذكر المسرفين وهم المشركون، وتقدم أيضًا ذكر الأنبياء، فقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يحتمل أن يرجع إلى الأنبياء، ويحتمل أن يرجع إلى الكفار إلا أن الأقرب رجوعه إلى الكفار، فبيّن تعالى أنهم مقرون بأن خالق السموات والأرض وما بينهما هو الله العزيز الحكيم، والمقصود أنهم مع كونهم مقرين بهذا المعنى يعبدون معه غيره وينكرون قدرته على البعث، وقد

تقدم الإخبار عنهم، ثم إنه تعالى ابتدأ دالاً على نفسه بذكر مصنوعاته فقال: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ ولو كان هذا من جملة كلام الكفار لوجب أن يقولوا: الذي جعل لنا الأرض مهدًا، ولأن قوله في أثناء الكلام: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لا يتعلق إلا بكلام الله. ونظيره من كلام الناس أن يسمع الرجل رجلاً يقول: (الذي بنى هذا المسجد فلان العالم) فيقول السامع لهذا الكلام: (الزاهد الكريم) كأن ذلك السامع يقول: أنا أعرفه بصفات حميدة فوق ما تعرفه، فأزيد في وصفه. فيكون النعتان جميعًا من رجلين لرجل واحد.

إذا عرفت كيفية النظم في الآية فنقول: إنها تدل على أنواع من صفات الله تعالى:

الصفة الأولى: كونه خالقًا للسموات والأرض، والمتكلمون بينوا أن أول العلم بالله العلم بكونه محدثًا للعالم فاعلاً له؛ فلهذا السبب وقع الابتداء بذكر كونه خالقًا، وهذا إنما يتم إذا فسرنا الخلق بالإحداث والإبداع.

الصفة الثانية: العزيز، وهو الغالب، وما لأجله يحصل المكنة من الغلبة هو القدرة، وكان العزيز إشارة إلى كمال القدرة.

الصفة الثالثة: العليم وهو إشارة إلى كمال العلم، واعلم أن كمال العلم والقدرة إذا حصل كان الموصوف به قادرًا على خلق جميع الممكنات؛ فلهذا المعنى أثبت تعالى كونه موصوفًا بهاتين الصفتين، ثم فرع عليه سائر التفاصيل.

الصفة الرابعة: قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وقد ذكرنا في هذا الكتاب أن كون الأرض مهدًا إنما حصل لأجل كونها واقفة ساكنة، ولأجل كونها موصوفة بصفات مخصوصة باعتبارها يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية في كونها ساترة لعيوب الأحياء والأموات، ولما كان المهد موضع الراحة للصبي جعل الأرض مهدًا لكثرة ما فيها من الراحات.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ والمقصود أن انتفاع الناس إنما يكمل إذا قدر كل أحد أن يذهب من بلد إلى بلد ومن إقليم إلى إقليم، ولولا أن الله تعالى هيأ تلك السبل ووضع عليها علامات مخصوصة، وإلا لما حصل هذا الانتفاع.

ثم قال تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ يعني المقصود من وضع السبل أن يحصل لكم المكنة من الاهتداء، والثاني: المعنى لتهتدوا إلى الحق في الدين.

الصفة السادسة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ وهاهنا مباحث: أحدها: أن ظاهر هذه الآية يقتضي أن الماء ينزل من السماء، فهل الأمر كذلك أو يقال إنه ينزل من السحاب، وسمي نازلاً من السماء لأن كل ما سماك فهو سماء؟ وهذا البحث قد مرّ ذكره بالاستقصاء. وثانيها: قوله: ﴿بِقَدَرٍ﴾ أي إنما ينزل من السماء بقدر ما يحتاج إليه أهل تلك البقعة من غير زيادة ولا نقصان، لا كما أنزل على قوم نوح بغير قدر حتى أغرقهم، بل يقدر حتى يكون معاشًا لكم ولأنعامكم. وثالثها: قوله: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي خالية من النبات

فأحييناها، وهو الإنشار.

ثم قال: ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ يعني أن هذا الدليل كما يدل على قدرة الله وحكمته، فكذلك يدل على قدرته على البعث والقيامة، ووجه التشبيه أنه يجعلهم أحياء بعد الإماتة كهذه الأرض التي أُنشرت بعد ما كانت ميتة، وقال بعضهم: بل وجه التشبيه أن يعيدهم ويخرجهم من الأرض بماء كالمني، كما تنبت الأرض بماء المطر. وهذا الوجه ضعيف لأنه ليس في ظاهر اللفظ إلا إثبات الإعادة فقط دون هذه الزيادة.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ قال ابن عباس: الأزواج: الضروب والأنواع، كالحلو الحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى. وقال بعض المحققين: كل ما سوى الله فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، والقدام والخلف، والماضي والمستقبل، والذوات والصفات، والصيف والشتاء، والربيع والخريف، وكونها أزواجًا يدل على كونها ممكنة الوجود في ذواتها محدثة مسبوقة بعدم، فأما الحق سبحانه فهو الفرد المنزّه عن الضد والند والمقابل والمعاضد؛ فلهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي كل ما هو زوج فهو مخلوق، فدل هذا على أن خالقها فرد مطلق منزّه عن الزوجية. وأقول أيضًا: العلماء بعلم الحساب بينوا أن الفرد أفضل من الزوج من وجوه: الأول: أن أقل الأزواج هو الاثنان، وهو لا يوجد إلا عند حصول وحدتين، فالزوج يحتاج إلى الفرد، والفرد وهو الوحدة غنية عن الزوج والغني أفضل من المحتاج. الثاني: أن الزوج يقبل القسمة بقسمين متساويين، والفرد هو الذي لا يقبل القسمة، وقبول القسمة انفعال وتأثر، وعدم قبولها قوة وشدة ومقاومة، فكان الفرد أفضل من الزوج. الثالث: أن العدد الفرد لا بد وأن يكون أحد قسميه زوجًا والثاني فردًا، فالعدد الفرد حصل فيه الزوج والفرد معًا، وأما العدد الزوج فلا بد وأن يكون كل واحد من قسميه زوجًا، والمشتمل على القسمين أفضل من الذي لا يكون كذلك. الرابع: أن الزوجية عبارة عن كون كل واحد من قسميه معادلاً للقسم الآخر في الذات والصفات والمقدار، وإذا كان كل ما حصل له من الكمال فمثله حاصل لغيره لم يكن هو كاملاً على الإطلاق، أما الفرد فالفردية كائنة له خاصة لا لغيره ولا لمثله، فكماله حاصل له لا لغيره فكان أفضل. الخامس: أن الزوج لا بد وأن يكون كل واحد من قسميه مشاركًا للقسم الآخر في بعض الأمور ومغايرًا له في أمور أخرى، وما به المشاركة غير ما به المخالفة فكل زوجين فهما ممكنا الوجود لذاتيهما، وكل ممكن فهو محتاج، فثبت أن الزوجية منشأ الفقر والحاجة، وأما الفردانية فهي منشأ الاستغناء والاستقلال؛ لأن العدد محتاج إلى كل واحد من تلك الوحدات، وأما كل واحد من تلك الوحدات فإنه غني عن ذلك العدد، فثبت أن الأزواج ممكنات ومحدثات ومخلوقات، وأن الفرد هو القائم بذاته المستقل بنفسه الغني عن كل ما سواه، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾.

الصفة الثامنة: قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ وذلك لأن السفر إما سفر البحر أو البر، أما سفر البحر فالحامل هو السفينة، وأما سفر البر فالحامل هو الأنعام.

وهاهنا سؤالان:

السؤال الأول: لمَ لم يقل على ظهورها؟ أجابوا عنه من وجوه: الأول: قال أبو عبيدة: التذكير لقوله (ما) والتقدير: ما تركبون. الثاني: قال الفرّاء: أضاف الظهور إلى واحد فيه معنى الجمع بمنزل الجيش والجند، ولذلك ذكر وجمع الظهور. الثالث: أن هذا التأنيث ليس تأنيثًا حقيقيًا، فجاز أن يختلف اللفظ فيه كما يقال: عندي من النساء من يوافقك.

السؤال الثاني: يقال: ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك، وقد ذكر الجنسين فكيف قال تركبون؟ والجواب: غلب المتعدي بغير واسطة لقوته على المتعدي بواسطة.

ثم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ ومعنى ذكر نعمة الله أن يذكروها في قلوبهم، وذلك الذكر هو أن يعرف أن الله تعالى خَلَق وجه البحر، وخلق الرياح، وخلق جِرم السفينة على وجه يتمكن الإنسان من تصريف هذه السفينة إلى أي جانب شاء وأراد، فإذا تذكروا أن خلق البحر، وخلق الرياح، وخلق السفينة على هذه الوجوه القابلة لتصريفات الإنسان ولتحريكاته - ليس من تدبير ذلك الإنسان، وإنما هو من تدبير الحكيم العليم القدير، عرف أن ذلك نعمة عظيمة من الله تعالى، فيحمله ذلك على الانقياد والطاعة له تعالى، وعلى الاشتغال بالشكر لنعمه التي لا نهاية لها.

ثم قال تعالى: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾.

واعلم أنه تعالى عَيَّن ذكرًا معينًا لركوب السفينة، وهو قوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١] وذكرًا آخر لركوب الأنعام، وهو قوله: ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ وذكر عند دخول المنازل ذكرًا آخر، وهو قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩] وتحقيق القول فيه أن الدابة التي يركبها الإنسان لا بد وأن تكون أكثر قوة من الإنسان بكثير، وليس لها عقل يهديها إلى طاعة الإنسان، ولكنه سبحانه خلق تلك البهيمة على وجوه مخصوصة في خلقها الظاهر، وفي خلقها الباطن يحصل منها هذا الانتفاع: أما خلقها الظاهر فلأنها تمشي على أربع قوائم، فكان ظاهرها كالموضع الذي يحسن استقرار الإنسان عليه، وأما خلقها الباطن فلأنها مع قوتها الشديدة قد خلقها الله سبحانه بحث تصير منقادة للإنسان ومسخّرة له، فإذا تأمل الإنسان في هذه العجائب وغاص بعقله في بحار هذه الأسرار، عظُم تعجبه من تلك القدرة القاهرة والحكمة غير المتناهية، فلا بد وأن يقول: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ قال أبو عبيدة: (فلان مقرن لفلان)، أي ضابط له. قال الواحدي: وكان اشتقاقه من قولك ضرب له قرنًا، ومعنى أنا قِرن لفلان، أي مثاله في الشدة، فكان المعنى أنه ليس عندنا من القوة والطاقة أن نقرن هذه الدابة والفلك وأن نضبطها، فسبحان من سخرها لنا بعلمه وحكمته وكمال قدرته!!

روى صاحب (الكشاف): عن النبي ﷺ أنه كان إذا وضع رجليه في الركاب قال: «باسْم اللَّهِ»، فإذا استوى على الدابة قال: «الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾ »(١) وروى القاضي في (تفسيره): عن أبي مخلد أن الحسن بن علي عليهما السلام رأى رجلاً ركب دابة، فقال: سبحان الذي سخر لنا هذا. فقال له: ما بهذا أُمرت، أُمرت أن تقول: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، الحمد لله الذي مَنَّ علينا بمحمد ﷺ، والحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أُخرجت للناس، ثم تقول: سبحان الذي سخر لنا هذا. وروي أيضًا عن رسول الله ﷺ: أنه كان إذا سافر وركب راحلته، كبر ثلاثًا، ثم يقول: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا»، ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِي سَفَرِي هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَ الأَرْضِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ عَلَى الأَهْلِ، اللَّهُمَّ اصْحَبْنَا فِي سَفَرِنَا، وَاخْلُفْنَا فِي أَهْلِنَا»(٢) وكان إذا رجع إلى أهله يقول: «آئبون تَائِبُونَ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»(٣). قال صاحب (الكشاف): دلّت هذه الآية على خلاف قول المجبرة من وجوه: الأول: أنه تعالى قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ فذكره بلام كي، وهذا يدل على أنه تعالى أراد منا هذا الفعل، وهذا يدل على بطلان قولهم أنه تعالى أراد الكفر منه، وأراد الإصرار على الإنكار. الثاني: أن قوله: ﴿لِتَسْتَوُۥا﴾ يدل على أن فعله معلل بالأغراض. الثالث: أنه تعالى بيّن أن خلق هذه الحيوانات على هذه الطبائع إنما كان لغرض أن يصدر الشكر على العبد، فلو كان فعل العبد فعلاً لله تعالى، لكان معنى الآية إني خلقت هذه الحيوانات لأجل أن أخلق سبحان الله في لسان العبد. وهذا باطل؛ لأنه تعالى قادر على أن يخلق هذا اللفظ في لسانه بدون هذه الوسائط. واعلم أن الكلام على هذه الوجوه معلوم، فلا فائدة في الإعادة.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ واعلم أن وجه اتصال هذا الكلام بما قبله أن ركوب الفلك

---

(١) ذكره الزمخشري في (الكشاف) (٦/ ٢٢٠)، ورواه المحاملي في (الأمالي) (١/ ٢١٤)، حديث رقم (٢٠٧) من طريق ابن أبي ليلى عن الحكم عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب. . . به، وفي إسناده ابن أبي ليلى وهو ضعيف، ورواه محمد بن فضل في (الدعاء) (١/ ٥٧)، حديث رقم (٥٦)، وابن السني في (عمل اليوم والليلة) (٢/ ٤٥٥)، حديث رقم (٤٩٨)، كلاهما من طريق أبي إسحاق عن الحارث عن علي بن أبي طالب. . . به، وفي إسناده الحارث الأعور، وهو ضعيف.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم في كتاب (الحج)، باب: (ما يقول إذا ركب للسفر) (٢/ ٤٢٥/ ٩٧٨)، وأبو داود في كتاب (الجهاد)، باب: (ما يقول إذا سافر) (٣/ ١١٢٥)، حديث رقم (٢٥٩٩)، والترمذي في كتاب (الدعوات)، باب: (ما يقول إذا ركب الناقة) (٥/ ٤٦٨)، حديث رقم (٣٤٤٧). وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. والنسائي في (عمل اليوم والليلة) (٣٧٠)، حديث رقم (٥٤٨)، وأحمد في (مسنده) (٢/ ١٤٤)، حديث رقم (٦٣١١)، وكذلك في (٢/ ١٥٠)، حديث رقم (٦٣٧٤)، والدارمي في كتاب (الاستئذان)، باب: (في الدعاء إذا سافر وإذا قدم) (٢/ ١٦٦)، حديث رقم (٢٦٧٣)، وابن خزيمة في (صحيحه) (٤/ ١٤١)، حديث رقم (٢٥٤٢)، جميعًا عن أبي الزبير. . . به.

(٣) انظر سابقه.

في خطر الهلاك، فإنه كثيرًا ما تنكسر السفينة ويهلك الإنسان، وراكب الدابة أيضًا كذلك لأن الدابة قد يتفق لها اتفاقات توجب هلاك الراكب، وإذا كان كذلك فركوب الفلك والدابة يوجب تعريض النفس للهلاك، فوجب على الراكب أن يتذكر أمر الموت، وأن يقطع أنه هالك لا محالة، وأنه منقلب إلى الله تعالى وغير منقلب من قضائه وقدره، حتى لو اتفق له ذلك المحذور كان قد وطّن نفسه على الموت.

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٩] بيّن أنهم مع إقرارهم بذلك جعلوا له من عباده جزءًا، والمقصود منه التنبيه على قلة عقولهم وسخافة عقولهم.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم في رواية أبي بكر: (جُزُء) بضم الزاي والهمزة في كل القرآن وهما لغتان، وأما حمزة فإذا وقف عليه قال (جَزَا) بفتح الزين بلا همزة.

المسألة الثانية: في المراد من قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ قولان: الأول: - وهو المشهور - أن المراد أنهم أثبتوا له ولدًا، وتقرير الكلام أن ولد الرجل جزء منه، قال عليه السلام: «فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي» (١) ولأن المعقول من الوالد أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، ثم يتربى ذلك الجزء ويتولد منه شخص مثل ذلك الأصل، وإذا كان كذلك فولد الرجل جزء منه وبعض منه، فقوله: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ معنى (جعلوا) حكموا وأثبتوا وقالوا به، والمعنى أنهم أثبتوا له جزءًا، وذلك الجزء هو عبد من عباده.

واعلم أنه لو قال: (وجعلوا لعباده منه جزءًا)، أفاد ذلك أنهم أثبتوا أنه حصل جزء من أجزائه في بعض عباده، وذلك هو الولد، فكذا قوله: ﴿ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ﴾ معناه: وأثبتوا له جزءًا، وذلك الجزء هو عبد من عباده، والحاصل أنهم أثبتوا لله ولدًا. وذكروا في تقرير هذا القول وجوهًا أُخر: فقالوا: الجزء هو الأنثى في لغة العرب. واحتجوا في إثبات هذه اللغة

(١) تقدم.

ببيتين: فالأول قوله:

إِنْ أَجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبَ قَدْ تُجْزِئُ الحُرَّةُ المُذْكَاةُ أَحْيَانَا

وقوله:

زَوَّجْتُهَا مِنْ نَبَاتِ الأَوْسِ مُجْزِئَةً لِلْعَوْسَجِ اللَّدْنِ فِي أَبْيَاتِهَا غَزَلُ

وزعم الزجاج والأزهري وصاحب (الكشاف) أن هذه اللغة فاسدة، وأن هذه الأبيات مصنوعة.

والقول الثاني في تفسير الآية: أن المراد من قوله: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ إثبات الشركاء لله، وذلك لأنهم لما أثبتوا الشركاء لله تعالى فقد زعموا أن كل العباد ليس لله، بل بعضها لله وبعضها لغير الله، فهم ما جعلوا لله من عباده كلهم، بل جعلوا له منهم بعضًا وجزءًا منهم، قالوا: والذي يدل على أن هذا القول أَوْلى من الأول: أنا إذا حملنا هذه الآية على إنكار الشريك لله، وحملنا الآية التي بعدها على إنكار الولد لله، كانت الآية جامعة للرد على جميع المبطلين.

ثم قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾.

واعلم أنه تعالى رتَّب هذه المناظرة على أحسن الوجوه، وذلك لأنه تعالى بيّن أن إثبات الولد لله محال، وبتقدير أن يثبت الولد فجعله بنتًا أيضًا محال:

أما بيان أن إثبات الولد لله محال: فلأن الولد لا بد وأن يكون جزءًا من الوالد، وما كان له جزء كان مركبًا، وكل مركب ممكن، وأيضًا ما كان كذلك فإنه يقبل الاتصال والانفصال والاجتماع والافتراق، وما كان كذلك فهو عبد محدث، فلا يكون إلهًا قديمًا أزليًا.

وأما المقام الثاني: - وهو أن بتقدير ثبوت الولد فإنه يمتنع كونه بنتًا - وذلك لأن الابن أفضل من البنت، فلو قلنا: إنه اتخذ لنفسه البنات وأعطى البنين لعباده، لزم أن يكون حال العبد أكمل وأفضل من حال الله، وذلك مدفوع في بديهة العقل، يقال: أصفيت فلانًا بكذا، أي آثرته به إيثارًا حصل له على سبيل الصفاء من غير أن يكون له فيه مشارك، وهو كقوله: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٤٠]. ثم بيّن نقصان البنات من وجوه: الأول: قوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ والمعنى أن الذي بلغ حاله في النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل إثباته لله تعالى؟! وعن بعض العرب أن امرأته وضعت أنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة، فقالت:

مَا لِأَبِي حَمْزَةَ لاَ يَأْتِينَا يَظَلُّ فِي البَيْتِ الَّذِي يَلِينَا

غَضْبَانَ أَنْ لاَ نَلِدَ الْبَنِينَا لَيْسَ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا شِينَا

وَإِنَّمَا نَأْخُذُ مَا أُعْطِينَا

وقوله ﴿ظَلَّ﴾ أي صار، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة، قال صاحب (الكشاف): قرئ مسود ومسواد، والتقدير وهو مسود، فتقع هذه الجملة موقع الخبر. والثاني: قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم (يُنَشَّؤ) بضم الياء وفتح النون وتشديد الشين على ما لم يسم فاعله، أي يُرَبَّى، والباقون (يَنْشَأ)، بضم الياء وسكون النون وفتح الشين، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (يناشأ)، قال: ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء، المغالاة بمعنى الإغلاء.

المسألة الثانية: المراد من قوله: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ التنبيه على نقصانها، وهو أن الذي يربى في الحلية يكون ناقص الذات؛ لأنه لولا نقصان في ذاتها لما احتاجت إلى تزيين نفسها بالحلية، ثم بيّن نقصان حالها بطريق آخر، وهو قوله: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني أنها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت وكانت غير مبين؛ وذلك لضعف لسانها وقلة عقلها وبلادة طبعها، ويقال: قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بما كان حجة عليها. فهذه الوجوه دالة على كمال نقصها، فكيف يجوز إضافتهن بالولدية إليه؟!

المسألة الثالثة: دلت الآية على أن التحلي مباح للنساء، وأنه حرام للرجال؛ لأنه تعالى جعل ذلك من المعايب وموجبات النقصان، وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذل وذلك حرام؛ لقوله عليه السلام: «لَيسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ» وإنما زينة الرجل الصبر على طاعة الله، والتزين بزينة التقوى، قال الشافعي:

تَدَرَّعْتُ يَوْمًا لِلْقُنُوعِ حَصِينَةً ... أَصُونُ بِهَا عِرْضِي وَأَجْعَلُهَا ذُخْرَا
وَلَمْ أَحْذَرِ الدَّهْرَ الخَئُونَ وَإِنَّمَا ... قُصَارَاهُ أَنْ يَرْمِي بِيَ المَوْتَ وَالْفَقْرَا
أَعْدَدْتُ لِلْمَوْتِ الإِلَهَ وَعَفْوَهُ ... وأَعْدَدْتُ لِلفَقْرِ التَّجَلُّدَ والصَّبْرَا

ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد بقوله: ﴿وَجَعَلُواْ﴾، أي حكموا به، ثم قال: ﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ وهذا استفهام على سبيل الإنكار، يعني أنهم لم يشهدوا خلقهم، وهذا مما لا سبيل إلى معرفته بالدلائل العقلية، وأما الدلائل النقلية فكلها مفرعة على إثبات النبوّة، وهؤلاء الكفار منكرون للنبوة، فلا سبيل لهم إلى إثبات هذا المطلوب بالدلائل النقلية، فثبت أنهم ذكروا هذه الدعوى من غير أن عرفوه لا بضرورة ولا بدليل، ثم إنه تعالى هددهم فقال: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ وهذا يدل على أن القول بغير دليل منكر، وأن التقليد يوجب الذم العظيم والعقاب الشديد. قال أهل التحقيق: هؤلاء الكفار كفروا في هذا القول من ثلاثة أوجه: أولها: إثبات الولد لله تعالى. وثانيها: أن ذلك الولد بنت. وثالثها: الحكم على الملائكة بالأنوثة.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن كثير وابن عامر: (عند الرحمن) بالنون، وهو اختيار أبي حاتم

واحتج عليه بوجوه: الأول: أنه يوافق قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾[الأعراف: ٢٠٦] وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[الأنبياء: ١٩] والثاني: أن كل الخلق عباده فلا مدح لهم فيه. والثالث: أن التقدير أن الملائكة يكونون عند الرحمن لا عند هؤلاء الكفار، فكيف عرفوا كونهم إناثًا؟ وأما الباقون فقرأوا (عباد) جمع عبد وقيل جمع عابد، كقائم وقيام، وصائم وصيام، ونائم ونيام، وهي قراءة ابن عباس، واختيار أبي عبيد، قال: لأنه تعالى رد عليهم قولهم: إنهم بنات الله، وأخبر أنهم عبيد، ويؤيد هذه القراءة قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[الأنبياء: ٢٦].

المسألة الثالثة: قرأ نافع وحده: (أآشهدوا) بهمزة ومدة بعدها خفيفة لينة وضمة، أي (أ) أحضروا خلقهم، وعن نافع غير ممدود على ما لم يسم فاعله، والباقون: (أشهدوا)، بفتح الألف، من (أ) شهدوا، أي أحضروا.

المسألة الرابعة: احتج من قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية، فقال: أما قراءة (عند) بالنون، فهذه العندية لا شك أنها عندية الفضل والقرب من الله تعالى بسبب الطاعة، ولفظة ﴿هُمْ﴾ توجب الحصر، والمعنى أنهم هم الموصوفون بهذه العندية لا غيرهم، فوجب كونهم أفضل من غيرهم رعاية للفظ الدال على الحصر، وأما من قرأ (عباد) جمع العبد، فقد ذكرنا أن لفظ العباد مخصوص في القرآن بالمؤمنين فقوله: ﴿هُمْ عِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يفيد حصر العبودية فيهم، فإذا كان اللفظ الدال على العبودية دالاً على الفضل والشرف، كان اللفظ الدال على حصر العبودية دالاً على حصر الفضل والمنقبة والشرف فيهم، وذلك يوجب كونهم أفضل من غيرهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى نوعًا آخر من كفرهم وشبهاتهم، وهو أنهم قالوا: لو شاء الرحمن ما عبدناهم.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قالت المعتزلة: هذه الآية تدل على فساد قول المجبرة في أن كفر الكافر يقع

بإرادة الله من وجهين: الأول: أنه تعالى حكى عنهم أنهم قالوا ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ وهذا صريح قول المجبرة، ثم إنه تعالى أبطله بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ فثبت أنه حكى مذهب المجبرة، ثم أردفه بالإبطال والإفساد، فثبت أن هذا المذهب باطل، ونظيره قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ إلى قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] والوجه الثاني: أنه تعالى حكى عنهم قبل هذه الآية أنواع كفرهم، فأولها: قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، وثانيها: قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩]، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فلما حكى هذه الأقاويل الثلاثة بعضها على إثر بعض، وثبت أن القولين الأولين كفر محض، فكذلك هذا القول الثالث يجب أن يكون كفرًا. واعلم أن الواحدي أجاب في (البسيط) عنه من وجهين: الأول: ما ذكره الزجاج: وهو أن قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ عائد إلى قولهم الملائكة إناث وإلى قولهم الملائكة بنات الله. والثاني: أنهم أرادوا بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ أنه أمرنا بذلك، وأنه رضي بذلك، وأقرنا عليه، فأنكر ذلك عليهم. فهذا ما ذكره الواحدي في الجواب. وعندي: هذان الوجهان ضعيفان: أما الأول: فلأنه تعالى حكى عن القوم قولين باطلين، وبيَّن وجه بطلانهما، ثم حكى بعده مذهبًا ثالثًا في مسألة أجنبية عن المسألتين الأوليين، ثم حكم بالبطلان والوعيد، فصَرْف هذا الإبطال عن هذا الذي ذكره عقيبه إلى كلام متقدم أجنبي عنه - في غاية البعد. وأما الوجه الثاني: فهو أيضًا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ ليس فيه بيان متعلق بتلك المشيئة، والإجمال خلاف الدليل، فوجب أن يكون التقدير: لو شاء الله ألا نعبدهم ما عبدناهم. وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، فهذا يدل على أنه لم توجد مشيئة الله لعدم عبادتهم، وهذا عين مذهب المجبرة، فالإبطال والإفساد يرجع إلى هذا المعنى، ومن الناس من أجاب عن هذا الاستدلال بأن قال: إنهم إنما ذكروا ذلك الكلام على سبيل الاستهزاء والسخرية، فلهذا السبب استوجبوا الطعن والذم، وأجاب صاحب (الكشاف) عنه من وجهين: الأول: أنه ليس في اللفظ ما يدل على أنهم قالوا مستهزئين، وادعاء ما لا دليل عليه باطل. الثاني: أنه تعالى حكى عنهم ثلاثة أشياء وهي: أنهم جعلوا له من عباده جزءًا، وأنهم جعلوا الملائكة إناثًا، وأنهم قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ فلو قلنا بأنه إنما جاء الذم على القول الثالث لأنهم ذكروه على طريق الجد، وجب أن يكون الحال في حكاية القولين الأولين كذلك، فلزم أنهم لو نطقوا بتلك الأشياء على سبيل الجد أن يكونوا محقين، ومعلوم أنه كفر، وأما القول بأن الطعن في القولين الأولين إنما توجه على نفس ذلك القول، وفي القول الثالث لا على نفسه بل على سبيل الاستهزاء، فهذا يوجب تشويش النظم، وأنه لا يجوز في كلام الله.

واعلم أن الجواب الحق عندي عن هذا الكلام ما ذكرناه في سورة الأنعام، وهو أن القوم إنما

ذكروا هذا الكلام لأنهم استدلوا بمشيئة الله تعالى للكفر على أنه لا يجوز ورود الأمر بالإيمان، فاعتقدوا أن الأمر والإرادة يجب كونهما متطابقين، وعندنا أن هذا باطل فالقوم لم يستحقوا الذم بمجرد قولهم إن الله يريد الكفر من الكافر. بل لأجل أنهم قالوا: لما أراد الكفر من الكافر وجب أن يقبح منه أمر الكافر بالإيمان، وإذا صرفنا الذم والطعن إلى هذا المقام سقط استدلال المعتزلة بهذه الآية، وتمام التقرير مذكور في سورة الأنعام، والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى لما حكى عنهم ذلك المذهب الباطل قال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وتقريره كأنه قيل: إن القوم يقولون: لما أراد الله الكفر من الكافر وخلق فيه ما أوجب ذلك الكفر، وجب أن يقبح منه أن يأمره بالإيمان؛ لأن مثل هذا التكليف قبيح في الشاهد فيكون قبيحًا في الغائب، فقال تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بصحة هذا القياس من علم، وذلك لأن أفعال الواحد منا وأحكامه مبنية على رعاية المصالح والمفاسد، لأجل أن كل ما سوى الله فإنه ينتفع بحصول المصالح ويستضر بحصول المفاسد، فلا جرم أن صريح طبعه وعقله يحمله على بناء أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا ينفعه شيء ولا يضره شيء، فكيف يمكن القطع بأنه تعالى يبني أحكامه وأفعاله على رعاية المصالح مع ظهور هذا الفارق العظيم؟! فقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي ما لهم بصحة قياس الغائب على الشاهد في هذا الباب علم.

ثم قال: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي كما لم يثبت لهم صحة ذلك القياس، فقد ثبت بالبرهان القاطع كونهم كذابين خراصين في ذلك القياس؛ لأن قياس المنزّه عن النفع والضر من كل الوجوه على المحتاج المنتفع المتضرر - قياس باطل في بديهة العقل.

ثم قال: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ يعني أن القول الباطل الذي حكاه الله تعالى عنهم عرفوا صحته بالعقل أو بالنقل، أما إثباته بالعقل فهو باطل لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ وأما إثباته بالنقل فهو أيضًا باطل لقوله: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ والضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِهِ﴾ للقرآن أو للرسول، والمعنى أنهم (هل) وجدوا ذلك الباطل في كتاب منزّل قبل القرآن حتى جاز لهم أن يعولوا عليه، وأن يتمسكوا به؟ والمقصود منه ذكره في معرض الإنكار، ولما ثبت أنه لم يدل عليه لا دليل عقلي ولا دليل نقلي، وجب أن يكون القول به باطلاً.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ والمقصود أنه تعالى لما بيّن أن تمسك الجهال بطريقة التقليد أمر كان حاصلاً من قديم الدهر فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): قرئ: (عَلَى إِمَّةٍ) بالكسر، وكلتاهما من الأمّ وهو

القصد، فالأمة الطريقة التي تؤم، أي تُقصد، كالرحلة للمرحول إليه، والإمة: الحالة التي يكون عليها الآم وهو القاصد.

المسألة الثانية: لو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكفت في إبطال القول بالتقليد؛ وذلك لأنه تعالى بيّن أن هؤلاء الكفار لم يتمسكوا في إثبات ما ذهبوا إليه لا بطريق عقلي ولا بدليل نقلي، ثم بيّن أنهم إنما ذهبوا إليه بمجرد تقليد الآباء والأسلاف، وإنما ذكر تعالى هذه المعاني في معرض الذم والتهجين، وذلك يدل على أن القول بالتقليد باطل، ومما يدل عليه أيضًا من حيث العقل أن التقليد أمر مشترك فيه بين المبطل وبين المحق، وذلك لأنه كم حصل لهذه الطائفة قوم من المقلدة، فكذلك حصل لأضدادهم أقوام من المقلدة، فلو كان التقليد طريقًا إلى الحق لوجب كون الشيء ونقيضه حقًّا، ومعلوم أن ذلك باطل.

المسألة الثالثة: أنه تعالى بيّن أن الداعي إلى القول بالتقليد والحامل عليه - إنما هو حب التنعم في طيبات الدنيا وحب الكسل والبطالة وبغض تحمل مشاق النظر والاستدلال، لقوله: ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ والمترفون هم الذين أترفتهم النعمة، أي أبطرتهم، فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ويبغضون تحمل المشاق في طلب الحق، وإذا عرفت هذا علمت أن رأس جميع الآفات حب الدنيا واللذات الجسمانية، ورأس جميع الخيرات هو حب الله والدار الآخرة، فلهذا قال عليه السلام: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ».

ثم قال تعالى لرسوله: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي بدين أهدى من دين آبائكم؟ فعند هذا حكى الله عنهم أنهم قالوا: إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه وإن جئتنا بما هو أهدى ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ وإن كان أهدى مما كنا عليه. فعند هذا لم يبق لهم عذر ولا علة؛ فلهذا قال تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ والمراد منه تهديد الكفار، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بيّن في الآية المتقدمة أنه ليس لأولئك الكفار داعٍ يدعوهم إلى تلك الأقاويل الباطلة إلا تقليد الآباء والأسلاف، ثم بيّن أنه طريق باطل ومنهج فاسد، وأن الرجوع إلى الدليل أَوْلى من الاعتماد على التقليد؛ أردفه بهذه الآية والمقصود منها ذكر وجه آخر يدل على فساد القول بالتقليد، وتقريره من وجهين:

الأول: أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام أنه تبرأ عن دين آبائه بناء على الدليل، فنقول:

إما أن يكون تقليد الآباء في الأديان محرمًا أو جائزًا، فإن كان محرمًا فقد بطل القول بالتقليد، وإن كان جائزًا فمعلوم أن أشرف آباء العرب هو إبراهيم عليه السلام، وذلك لأنهم ليس لهم فخر ولا شرف إلا بأنهم من أولاده، وإذا كان كذلك فتقليد هذا الأب الذي هو أشرف الآباء أَوْلى من تقليد سائر الآباء، وإذا ثبت أن تقليده أَوْلى من تقليد غيره فنقول: إنه تَرَك دين الآباء وحَكَم بأن اتباع الدليل أَوْلى من متابعة الآباء، وإذا كان كذلك وجب تقليده في ترك تقليد الآباء ووجب تقليده في ترجيح الدليل على التقليد، وإذا ثبت هذا فنقول: فقد ظهر أن القول بوجوب التقليد يوجب المنع من التقليد، وما أفضى ثبوته إلى نفيه كان باطلاً، فوجب أن يكون القول بالتقليد باطلاً، فهذا طريق رقيق في إبطال التقليد وهو المراد بهذه الآية.

الوجه الثاني في بيان أن ترك التقليد والرجوع إلى متابعة الدليل أولى في الدنيا وفي الدين: أنه تعالى بيّن أن إبراهيم عليه السلام لما عدل عن طريقة أبيه إلى متابعة الدليل، لا جرم جعل الله دينه ومذهبه باقيًا في عقبه إلى يوم القيامة، وأما أديان آبائه فقد اندرست وبطلت، فثبت أن الرجوع إلى متابعة الدليل يبقى محمود الأثر إلى قيام الساعة، وأن التقليد والإصرار ينقطع أثره ولا يبقى منه في الدنيا خبر ولا أثر. فثبت من هذين الوجهين أن متابعة الدليل وترك التقليد أَوْلى فهذا بيان المقصود الأصلي من هذه الآية.

ولنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية:

أما قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ فقال الكسائي والفرّاء والمبرد والزجاج: (براء) مصدر لا يُثنى ولا يُجمع، مثل عدل ورضا، وتقول العرب: أنا البراء منك، والخلاء منك، ونحن البراء منك والخلاء. ولا يقولون البراءان ولا البراؤن لأن المعنى ذوا البراء وذوو البراء فإن قلت: بريء وخلي، ثنيت وجمعت.

ثم استثنى خالقه من البراءة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ والمعنى أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عزّ وجلّ، ويجوز أن يكون (إلا) بمعنى (لكن) فيكون المعنى لكن الذي فطرني فإنه سيهدين، أي سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته.

واعلم أنه تعالى حكى عن إبراهيم عليه السلام في آية أخرى أنه قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وحكى عنه هاهنا أنه قال: ﴿سَيَهْدِينِ﴾ فأجمع بينهما وقدر كأنه قال: فهو يهدين وسيهدين، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال. ﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي وجعل إبراهيم كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ جاريًا مجرى (لا إله) وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مجرى قوله: (إلا الله) فكان مجموع قوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ جاريًا مجرى قوله (لا إله إلا الله) ثم بيّن تعالى أن إبراهيم جعل هذه الكلمة باقية في عقبه، أي في ذريته، فلا يزال فيهم من يوحد الله ويدعو إلى توحيده ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم، وقيل: وجعلها الله، وقرئ (كَلْمة) على التخفيف و(في عقيبه).

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ﴾ يعني أهل مكة وهم عقب إبراهيم، بالمد في العمر والنعمة، فاغتروا بالمهلة واشتغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان - عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ وهو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُبِينٌ﴾ بيّن الرسالة وأوضحها بما معه من الآيات والبينات فكذبوا به، وسموه ساحرًا وما جاء به سحرًا، وكفروا به، ووجه النظم أنهم لما عولوا على تقليد الآباء ولم يتفكروا في الحجة، اغتروا بطول الإمهال وإمتاع الله إياهم بنعيم الدنيا، فأعرضوا عن الحق، قال صاحب (الكشاف): إن قيل: ما وجه قراءة من قرأ (متعتَ) بفتح التاء؟ قلنا: كأن الله سبحانه اعترض على ذاته في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فقال: بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك المبالغة في تعييرهم لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببًا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادًا، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ثم يُقبل على نفسه فيقول: أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك إليه. وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعل نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

اعلم أن هذا هو النوع الرابع من كفرياتهم التي حكاها الله تعالى عنهم في هذه السورة، وهؤلاء المساكين قالوا: منصب رسالة الله منصب شريف، فلا يليق إلا برجل شريف. وقد صَدَقوا في ذلك إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة، وهي أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ومحمد ليس كذلك، فلا تليق رسالة الله به، وإنما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكة والطائف، قال المفسرون: والذي بمكة هو الوليد بن المغيرة والذي بالطائف هو عروة بن مسعود الثقفي. ثم أبطل الله تعالى هذه الشبهة من وجهين: الأول: قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ وتقرير هذا الجواب من وجوه:

أحدها: أنا أوقعنا التفاوت في مناصب الدنيا ولم يقدر أحد من الخلق على تغييره، فالتفاوت الذي أوقعناه في مناصب الدين والنبوّة بأن لا يقدروا على التصريف فيه كان أَوْلى. **وثانيها:** أن يكون المراد أن اختصاص ذلك الغني بذلك المال الكثير إنما كان لأجل حكمنا وفضلنا وإحساننا إليه، فكيف يليق بالعقل أن نجعل إحساننا إليه بكثرة المال حجة علينا في أن نحسن إليه أيضًا بالنبوّة؟ **وثالثها:** إنا لما أوقعنا التفاوت في الإحسان بمناصب الدنيا لا لسبب سابق، فلمَ لا يجوز أيضًا أن نوقع التفاوت في الإحسان بمناصب الدين والنبوّة لا لسبب سابق؟ فهذا تقرير الجواب.

ولنرجع إلى تفسير الألفاظ فنقول: الهمزة في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ للإنكار الدال

على التجهيل والتعجب من إعراضهم وتحكمهم أن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوة، ثم ضرب لهذا مثالاً فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أنا أوقعنا هذا التفاوت بين العباد في القوة والضعف، والعلم والجهل، والحذاقة والبلاهة، والشهرة والخمول، وإنما فعلنا ذلك لأنا لو سوينا بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذٍ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا، ثم إن أحدًا من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على الخروج عن قضائنا، فإن عجزوا عن الإعراض عن حكمنا في أحوال الدنيا مع قلتها ودناءتها، فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في تخصيص العباد بمنصب النبوة والرسالة؟!

المسألة الثانية: قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ يقتضي أن تكون كل أقسام معايشهم إنما تحصل بحكم الله وتقديره، وهذا يقتضي أن يكون الرزق الحرام والحلال كله من الله تعالى. والوجه الثاني في الجواب: ما هو المراد من قوله: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؟

وتقريره أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين، فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها؛ لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض، وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى أجاب عن الشبهة التي ذكروها بناء على تفضيل الغني على الفقير بوجه ثالث، وهو أنه تعالى بيّن أن منافع الدنيا وطيباتها حقيرة خسيسة عند الله، وبيّن حقارتها بقوله: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ والمعنى: لولا أن يرغب الناس في الكفر إذا

رأوا الكافر في سعة من الخير والرزق، لأعطيتهم أكثر الأسباب المفيدة للتنعم: أحدها: أن يكون سقفهم من فضة. وثانيها: معارج أيضًا من فضة عليها يظهرون. وثالثها: أن نجعل لبيوتهم أبوابًا من فضة وسررًا أيضًا من فضة عليها يتكئون.

ثم قال: ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ وله تفسيران: أحدها: أنه الذهب. والثاني: أنه الزينة، بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤] فعلى التقدير الأول يكون المعنى: ونجعل لهم مع ذلك ذهبًا كثيرًا. وعلى الثاني أنا نعطيهم زينة عظيمة في كل باب.

ثم بيّن تعالى أن كل ذلك متاع الحياة الدنيا، وإنما سماه متاعًا لأن الإنسان يستمتع به قليلاً ثم ينقضي في الحال، وأما الآخرة فهي باقية دائمة، وهي عند الله تعالى وفي حكمه للمتقين عن حب الدنيا المقبلين على حب المولى، وحاصل الجواب أن أولئك الجهال ظنوا أن الرجل الغني أَوْلى بمنصب الرسالة من محمد بسبب فقره، فبيّن تعالى أن المال والجاه حقيران عند الله، وأنهما على شرف الزوال فحصولهما لا يفيد حصول الشرف. والله أعلم.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو: (سَقْفًا) بفتح السين وسكون القاف على لفظ الواحد لإرادة الجنس، كما في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦] والباقون ﴿سُقُفًا﴾ على الجمع، واختلفوا: فقيل: هو جمع سقف، كرَهْن ورُهُن، قال أبو عبيد: ولا ثالث لهما. وقيل السُّقُف جمع سقوف، كرُهُن ورهون وزُبُر وزُبُور، فهو جمع الجمع.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾ فقوله: ﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمال من قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ﴾ قال صاحب (الكشاف): قرىء معارج ومعاريج، والمعارج جمع معرج، أو اسم جمع لمعراج، وهي المصاعد إلى المساكن العالية كالدرج والسلالم ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أي على تلك المعارج يظهرون، وفي نصب قوله: ﴿وَزُخْرُفًاۚ﴾ قولان: قيل: لجعلنا لبيوتهم سقفًا من فضة، ولجعلنا لهم زخرفًا. وقيل: من فضة وزخرف، فلما حذف الخافض انتصب.

وأما قوله: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ قرأ عاصم وحمزة (لمَّا) بتشديد الميم، والباقون بالتخفيف، وأما قراءة حمزة بالتشديد فإنه جعل (لمَّا) في معنى (إلا)، وحكى سيبويه: نشدتك بالله لمَّا فعلت، بمعنى إلا فعلت. ويقوي هذه القراءة أن في حرف أبي (وما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا)، وهذا يدل على أن (لمَّا) بمعنى (إلا)، وأما القراءة بالتخفيف، فقال الواحدي: لفظة (ما) لغو، والتقدير لمتاع الحياة الدنيا. قال أبو الحسن: الوجه التخفيف؛ لأن (لمَّا) بمعنى (إلا) لا تُعرف، وحكي عن الكسائي أنه قال: لا أعرف وجه التثقيل.

المسألة الرابعة: قالت المعتزلة: دلت الآية على أنه تعالى إنما لم يعط الناس نعم الدنيا؛ لأجل أنه لو فعل بهم ذلك لدعاهم ذلك إلى الكفر، فهو تعالى لم يفعل بهم ذلك لأجل أن لا يدعوهم إلى الكفر، وهذا يدل على أحكام: أحدها: أنه إذا لم يفعل بهم ما يدعوهم إلى الكفر فلأن لا يخلق فيهم الكفر أَوْلى. وثانيها: أنه ثبت أن فعل اللطف قائم مقام إزاحة العذر والعلة، فلما بيّن

تعالى أنه لم يفعل ذلك إزاحة للعذر والعلة عنهم، دل ذلك على أنه يجب أن يفعل بهم كل ما كان لطفًا داعيًا لهم إلى الإيمان، فصارت هذه الآية من هذا الوجه دالة على أنه يجب على الله تعالى فعل اللطف. وثالثها: أنه ثبت بهذه الآية أن الله تعالى إنما يفعل ما يفعله ويترك ما يتركه لأجل حكمة ومصلحة، وذلك يدل على تعليل أحكام الله تعالى وأفعاله بالمصالح والعلل، فإن قيل: لما بيّن تعالى أنه لو فتح على الكافر أبواب النعم، لصار ذلك سببًا لاجتماع الناس على الكفر، فلمَ لم يفعل ذلك بالمسلمين حتى يصير ذلك سببًا لاجتماع الناس على الإسلام؟ قلنا: لأن الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا، وهذا الإيمان إيمان المنافقين، فكان الأصوب أن يضيق الأمر على المسلمين، حتى أن كل من دخل الإسلام، فإنما يدخل فيه لمتابعة الدليل ولطلب رضوان الله تعالى، فحينئذٍ يعظم ثوابه لهذا السبب.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ والمراد منه التنبيه على آفات الدنيا، وذلك أن من فاز بالمال والجاه صار كالأعشى عن ذكر الله، ومن صار كذلك صار من جلساء الشياطين الضالين المضلين، فهذا وجه تعلق هذا الكلام بما قبله، قال صاحب (الكشاف): قرئ (ومن يعشُ) بضم الشين وفتحها، والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل عشي، وإذا نظر نظر العشي ولا آفة به قيل: عشى، ونظيره عَرِج لمن به الآفة، وعَرَج لمن مشى مشية العرجان من غير عرج، قال الحطيئة:

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ[1]

أي تنظر إليه نظر العشي لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء، وقرئ (يعشو) على أن (مَن) موصولة غير مضمنة معنى الشرط، وحق هذا القارئ أن يرفع (نقيض). ومعنى القراءة بالفتح: ومن يَعْمَ عن ذكر الرحمن وهو القرآن. لقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾[البقرة: ١٨] وأما القراءة بالضم فمعناها ومن يتعام عن ذكره، أي: يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتعامى، كقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[النمل: ١٤]، و﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ قال مقاتل: نضم إليه شيطانًا ﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ يعني وإن الشياطين ليصدونهم عن سبيل الهدى والحق. وذكر الكناية عن الإنسان والشياطين بلفظ الجمع؛ لأن قوله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ يفيد الجمع، وإن كان اللفظ على الواحد ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ يعني الشياطين

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل للحطيئة، وهو هكذا:

فَنِعمَ الفَتى تَعشو إِلى ضَوءِ نارِهِ إِذا الريحُ هَبَّت وَالمَكانُ جَديبُ

وهو: جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة. ?- ٤٥هـ/ ? - ٦٦٥م.
شاعر مخضرم أدرك الجاهلية والإسلام. كان هجّاءً عنيفًا، لم يكد يَسْلم من لسانه أحد، وهجا أمه وأباه ونفسه. وأكثرَ من هجاء الزبرقان بن بدر، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسجنه عمر بالمدينة، فاستعطفه بأبيات، فأخرجه ونهاه عن هجاء الناس.

يصدون الكفار عن السبيل، والكفار يحسبون أنهم مهتدون، ثم عاد إلى لفظ الواحد فقال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ يعني الكافر، وقرئ (جَاءَانَا)، يعني الكافر وشيطانه، روي أن الكافر إذا بُعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده، فلم يفارقه حتى يصيرهما الله إلى النار، فذلك حيث يقول: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ والمراد: يا ليت حصل بيني وبينك بُعْد على أعظم الوجوه!

واختلفوا في تفسير قوله: ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ وذكروا فيه وجوهًا: الأول: قال الأكثرون: المراد بُعْد المشرق والمغرب، ومن عادة العرب تسمية الشيئين المتقابلين باسم أحدهما، قال الفرزدق:

لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوَالِعُ (١)

يريد الشمس والقمر، ويقولون للكوفة والبصرة: البصرتان، وللغداة والعصر: العصران، ولأبي بكر وعمر: العمران، وللماء والتمر: الأسودان. الثاني: أن أهل النجوم يقولون: الحركة التي تكون من المشرق إلى المغرب هي حركة الفلك الأعظم، والحركة التي من المغرب إلى المشرق، هي حركة الكواكب الثابتة، وحركة الأفلاك الممثلة التي للسيارات سوى القمر، وإذا كان كذلك فالمشرق والمغرب كل واحد منهما مشرق بالنسبة إلى شيء آخر، فثبت أن إطلاق لفظ المشرق على كل واحد من الجهتين حقيقة. الثالث: قالوا: يُحمل ذلك على مشرق الصيف ومشرق الشتاء وبينهما بُعْد عظيم. وهذا بعيد عندي؛ لأن المقصود من قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ المبالغة في حصول البعد، وهذه المبالغة إنما تحصل عن ذكر بُعْد لا يمكن وجود بُعْد آخر أزيد منه، والبعد بين مشرق الصيف ومشرق الشتاء ليس كذلك، فيبعد حمل اللفظ عليه. الرابع: وهو أن الحس يدل على أن الحركة اليومية إنما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب، وأما القمر فإنه يظهر في أول الشهر في جانب المغرب، ثم لا يزال يتقدم إلى جانب المشرق، وذلك يدل على أن مشرق حركة القمر هو المغرب، وإذا ثبت هذا فالجانب المسمى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنه مغرب القمر، وأما الجانب المسمى بالمغرب، فإنه مشرق القمر ولكنه مغرب الشمس، وبهذا التقدير يصح تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين، ولعل هذا الوجه أقرب إلى مطابقة اللفظ ورعاية المقصود من سائر الوجوه، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي الكافر يقول لذلك الشيطان: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت. فهذا ما يتعلق بتفسير الألفاظ. والمقصود من هذا الكلام تحقير الدنيا وبيان ما في المال والجاه من المضار العظيمة، وذلك لأن كثرة المال والجاه تجعل الإنسان كالأعشى عن مطالعة ذكر الله تعالى، ومن صار كذلك صار جليسًا للشيطان، ومن صار كذلك ضل عن سبيل الهدى والحق وبقي جليس الشيطان في الدنيا وفي القيامة، ومجالسة الشيطان حالة توجب الضرر الشديد في القيامة بحيث يقول الكافر: يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين أنت. فثبت بما ذكرنا أن كثرة المال والجاه توجب كمال النقصان والحرمان في الدين والدنيا،

---

(١) البيت للفرزدق، وقد تقدمت ترجمته.

وإذا ظهر هذا فقد ظهر أن الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، قالوا كلامًا فاسدًا وشبهة باطلة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ فقوله: ﴿أَنَّكُمْ﴾ في محل الرفع على الفاعلية، يعني ولن ينفعكم اليوم كونكم مشتركين في العذاب. والسبب فيه أن الناس يقولون: المصيبة إذا عمت طابت، وقالت الخنساء في هذا المعنى[(١)]:

وَلَوْلاَ كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي
وَلاَ يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ ... أُعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالتَّأَسِّي

فبيّن تعالى أن حصول الشركة في ذلك العذاب لا يفيد التخفيف كما كان يفيده في الدنيا، والسبب فيه وجوه: الأول: أن ذلك العذاب شديد، فاشتغال كل واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر، فلا جرم الشركة لا تفيد الخفة. الثاني: أن قومًا إذا اشتركوا في العذاب أعان كل واحد منهم صاحبه بما قدر عليه فيحصل بسببه بعض التخفيف، وهذا المعنى متعذر في القيامة. الثالث: أن جلوس الإنسان مع قرينه يفيده أنواعًا كثيرة من السلوة. فبيّن تعالى أن الشيطان وإن كان قرينًا إلا أن مجالسته في القيامة لا توجب السلوة وخفة العقوبة، وفي كتاب ابن مجاهد عن ابن عامر قرأ: (إذ ظلمتم إنكم) بكسر الألف، وقرأ الباقون (أنكم) بفتح الألف، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشى، وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى، وما أحسن هذا الترتيب! وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل؛ لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى، فإذا واظب على تلك الحالة أيامًا أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية، روي أنه ﷺ كان يجتهد في دعاء قومه، وهم لا يزيدون إلا تصميمًا على الكفر وتماديًا في الغي، فقال تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن

(١) تقدمت ترجمة الخنساء.

دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين.

ولما بيّن تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعدك، أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك. واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه السلام لأنه تعالى بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته، واليأس إحدى الراحتين، ثم بيّن أنه لا بد وأن ينتقم لأجله متهم إما حال حياته أو بعد وفاته، وذلك أيضًا يوجب التسلية، فبعد هذا أمَره أن يستمسك بما أمره تعالى فقال: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ بأن تعتقد أنه حق وبأن تعمل بموجبه؛ فإنه الصراط المستقيم الذي لا يميل عنه إلا ضال في الدين.

ولما بيّن تأثير التمسك بهذا الدين في منافع الدين، بيّن أيضًا تأثيره في منافع الدنيا فقال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أي إنه يوجب الشرف العظيم لك ولقومك، حيث يقال: إن هذا الكتاب العظيم أنزله الله على رجل من قوم هؤلاء.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الإنسان لا بد وأن يكون عظيم الرغبة في الثناء الحسن والذكر الجميل، ولو لم يكن الذكر الجميل أمرًا مرغوبًا فيه لما منَّ الله به على محمد ﷺ حيث قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ ولمَا طلبه إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] ولأن الذكر الجميل قائم مقام الحياة الشريفة، بل الذكر أفضل من الحياة؛ لأن أثر الحياة لا يحصل إلا في مسكن ذلك الحي، أما أثر الذكر الجميل فإنه يحصل في كل مكان وفي كل زمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال الكلبي: تُسألون هل أديتم شكر إنعامنا عليكم بهذا الذكر الجميل الثاني: قال مقاتل: المراد أن مَن كَذَّب به يُسأل: لمَ كذبه؟! فيُسأل سؤال توبيخ. الثالث: تُسألون هل عملتم بما دل عليه من التكاليف؟

واعلم أن السبب الأقوى في إنكار الكفار لرسالة محمد ﷺ ولبغضهم له - أنه كان ينكر عبادة الأصنام، فبيّن تعالى أن إنكار عبادة الأصنام ليس من خواص دين محمد ﷺ، بل كل الأنبياء والرسل كانوا مطبقين على إنكاره فقال: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وفيه أقوال:

الأول: معناه: واسأل مؤمني أهل الكتاب أي أهل التوراة والإنجيل، فإنهم سيخبرونك أنه لم يرد في دين أحد من الأنبياء عبادة الأصنام، وإذا كان هذا الأمر متفقًا عليه بين كل الأنبياء والرسل وجب أن لا يجعلوه سببًا لبغض محمد ﷺ. **والقول الثاني:** قال عطاء عن ابن عباس: لَمَّا أُسْرِيَ به صلى اللهُ عليهِ وسلم إلى المسجد الأقصى، بعث الله له آدم وجميع المرسلين مِن وَلَدِهِ، فأذَّنَ جبريلُ ثم أقام فقال: يا محمد تقدم فصَلِّ بهم. فلمَّا فرغ رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم من

الصلاة قال له جبريل عليه السلام: ﴿وَسْئَلْ﴾ يا محمد ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية، فقال صلَّى اللهُ عليه وسلم: «لاَ أَسْأَلُ لِأَنِّي لَسْتُ شَاكًا فِيهِ»(١).

والقول الثالث: أن ذكر السؤال في موضع لا يمكن السؤال فيه - يكون المراد منه النظر والاستدلال، كقول من قال: سل الأرض من شق أنهارك، وغرَس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك جوابًا أجابتك اعتبارًا. فهاهنا سؤال النبي ﷺ عن الأنبياء الذين كانوا قبله ممتنع، فكان المراد منه انظر في هذه المسألة بعقلك وتدبر فيها بفهمك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من إعادة قصة موسى عليه السلام وفرعون في هذا المقام - تقرير الكلام الذي تقدم، وذلك لأن كفار قريش طعنوا في نبوة محمد ﷺ بسبب كونه فقيرًا عديم المال والجاه، فبيّن الله تعالى أن موسى عليه السلام بعد أن أورد المعجزات القاهرة الباهرة التي لا يشك في صحتها عاقل، أورد فرعون عليه هذه الشبهة التي ذكرها كفار قريش فقال: إني غني كثير المال والجاه، ألا ترون أنه حصل لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي، وأما موسى فإنه فقير مهين وليس له بيان ولسان، والرجل الفقير كيف يكون رسولاً من عند الله إلى الملك الكبير الغني؟! فثبت أن هذه الشبهة التي ذكرها كفار مكة وهي قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] قد أوردها بعينها فرعون على موسى، ثم إنا انتقمنا منهم فأغرقناهم، والمقصود من إيراد هذه القصة تقرير أمرين: أحدهما: أن الكفار

---

(١) لم أجده إلا عند أهل التفسير وهو من غير إسناد.

والجهال أبدًا يحتجون على الأنبياء بهذه الشبهة الركيكة فلا يبالى بها ولا يلتفت إليها. والثاني: أن فرعون على غاية كمال حاله في الدنيا صار مقهورًا باطلاً، فيكون الأمر في حق أعدائك هكذا، فثبت أنه ليس المقصود من إعادة هذه القصة عين هذه القصة، بل المقصود تقرير الجواب عن الشبهة المذكورة، وعلى هذا فلا يكون هذا تقريرًا للقصة ألبتة، وهذا من نفائس الأبحاث، والله أعلم.

المسألة الثانية: في تفسير الألفاظ، ذكر تعالى أنه أرسل موسى بآياته وهي المعجزات التي كانت مع موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه، أي قومه، فقال موسى: إني رسول ربّ العالمين، فلما جاءهم بتلك الآيات إذا هم منها يضحكون، قيل: إنه لما ألقى عصاه فصار ثعبانًا، ثم أخذه فعاد عصًا كما كان؛ ضحكوا، ولما عرض عليهم اليد البيضاء ثم عادت كما كانت؛ ضحكوا، فإن قيل: كيف جاز أن يجاب عن (لما) بإذا الذي يفيد المفاجأة؟ قلنا: لأن فعل المفاجأة معها مقدر كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجأوا وقت ضحكهم.

ثم قال: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ فإن قيل: ظاهر اللفظ يقتضي كون كل واحد منها أفضل من التالي وذلك محال. قلنا: إذا أُريد المبالغة في كون كل واحد من تلك الأشياء بالغًا إلى أقصى الدرجات في الفضيلة، فقد يُذكر هذا الكلام، بمعنى أنه لا يبعد في أناس ينظرون إليها أن يقول: هذا إن هذا أفضل من الثاني. وأن يقول الثاني: لا بل الثاني أفضل. وأن يقول الثالث: بل الثالث أفضل. وحينئذٍ يصير كلَ واحد من تلك الأشياء مقولاً فيه إنه أفضل من غيره.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي عن الكفر إلى الإيمان، قالت المعتزلة: هذا يدل على أنه تعالى يريد الإيمان من الكل، وأنه إنما أظهر تلك المعجزات القاهرة لإرادة أن يرجعوا من الكفر إلى الإيمان. قال المفسرون: ومعنى قوله: ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي بالأشياء التي سلطها عليها، كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والطمس.

ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ فإن قيل: كيف سموه بالساحر مع قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾؟ قلنا: فيه وجوه: الأول: أنهم كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر؛ لأنهم كانوا يستعظمون السحر، وكما يقال في زماننا في العامل العجيب الكامل إنه أتى بالسحر. الثاني: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ في زعم الناس ومتعارف قوم فرعون، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾[الحجر: ٦] أي نُزل عليه الذكر في اعتقاده وزعمه. الثالث: أن قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وقد كانوا عازمين على خلافه، ألا ترى إلى قوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فتسميتهم إياه بالسحر لا ينافي قولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ ثم بيّن تعالى أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا ذلك العهد.

ولما حكى الله تعالى معاملة فرعون مع موسى، حكى أيضًا معاملة فرعون معه فقال: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ والمعنى أنه أظهر هذا القول فقال: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾ يعني الأنهار التي فصلوها من النيل ومعظمها أربعة: نهر الملك ونهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس، قيل: كانت تجري تحت قصره، وحاصل الأمر أنه احتج بكثرة أمواله وقوة جاهه على فضيلة نفسه.

ثم قال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ وعنى بكونه مهينًا كونه فقيرًا ضعيف الحال، وبقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حبسة كانت في لسانه، واختلفوا في معنى (أم) هاهنا فقال أبو عبيدة مجازها (بل أنا خير)، وعلى هذا فقد تم الكلام عند قوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ثم ابتدأ فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ بمعنى بل أنا خير. وقال الباقون (أم) هذه متصلة لأن المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلا أنه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ موضع (تبصرون)، لأنهم إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء. وقال آخرون: إن تمام الكلام عند قوله: ﴿أَمْ﴾ وقوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ ابتداء الكلام والتقدير أفلا تبصرون. أم تبصرون لكنه اكتفى فيه بذكر (أم) كما تقول لغيرك: (أتأكل أم) أي أتأكل أم لا تأكل، تقتصر على ذكر كلمة (أم) إيثارًا للاختصار فكذا هاهنا، فإن قيل: أليس أن موسى عليه السلام سأل الله تعالى أن يزيل الرتة عن لسانه بقوله: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] فأعطاه الله تعالى ذلك بقوله ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦] فكيف عابه فرعون بتلك الرتة؟ والجواب عنه من وجهين: الأول: أن فرعون أراد بقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ حجته التي تدل على صدقه فيما يدعي. ولم يُرد أنه لا قدرة له على الكلام. والثاني: أنه عابه بما كان عليه أولاً، وذلك أن موسى كان عند فرعون زمانًا طويلاً وفي لسانه حبسة، فنسبه فرعون إلى ما عهده عليه من الرتة؛ لأنه لم يعلم أن الله تعالى أزال ذلك العيب عنه.

ثم قال: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ والمراد أن عادة القوم جرت بأنهم إذا جعلوا واحدًا منهم رئيسًا لهم، سوروه بسوار من ذهب وطوقوه بطوق من ذهب، فطلب فرعون من موسى مثل هذه الحالة.

واختلف القراء في (أسورة) فبعضهم قرأ (أسوِرَة) وآخرون (أساورة) فأسورة جمع سوار لأدنى العدد، كقولك حمار وأحمرة وغراب وأغربة، ومن قرأ (أساورة) فذاك لأن أساوير جمع أسوار وهو السوار فأساورة تكون الهاء عوضًا عن الياء، نحو بطريق وبطارقة وزنديق وزنادقة وفرزين وفرازنة، فتكون أساورة جمع أسوار.

وحاصل الكلام يرجع إلى حرف واحد وهو أن فرعون كان يقول: أنا أكثر مالاً وجاهًا، فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع كونه رسولاً من الله؛ لأن منصب النبوة يقتضي المخدومية، والأخس لا يكون مخدومًا للأشرف، ثم المقدمة الفاسدة هي قوله: (من كان أكثر مالاً وجاهًا فهو أفضل) وهي عين المقدمة التي تمسك بها كفار قريش في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] ثم قال: ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يجوز أن يكون المراد مقرنين به، من قولك: قرنته به فاقترن. وأن يكون من قولهم: اقترنوا بمعنى تقارنوا، قال الزجاج: معناه يمشون معه فيدلون على صحة نبوته.

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أي طلب منهم الخفة في الإتيان بما كان يأمرهم به فأطاعوه ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق. ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أغضبونا، حكي أن ابن جريج غضب في شيء فقيل له: أتغضب يا أبا خالد؟ فقال: قد غضب الذي خلق الأحلام، إن الله يقول: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا﴾ أي أغضبونا.

ثم قال تعالى: ﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ واعلم أن ذكر لفظ الأسف في حق الله تعالى محال وذكر لفظ الانتقام، وكل واحد منهما من المتشابهات التي يجب أن يصار فيها إلى التأويل، ومعنى الغضب في حق الله إرادة العقاب، ومعنى الانتقام إرادة العقاب لجرم سابق.

ثم قال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا﴾ السلف: كل شيء قدمته من عمل صالح أو قرض فهو سلف، والسلف أيضًا مَن تَقدم من آبائك وأقاربك واحدهم سالف، ومنه قول طفيل يرثي قومه:

مَضَوْا سَلَفًا قَصْدَ السَّبِيلِ عَلَيْهِمُ وَصَرْفُ الْمَنَايَا بِالرِّجَالِ تُقَلَّبُ(١)

فعلى هذا قال الفراء والزجاج: يقول: جعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخِرون، أي جعلناهم سلفًا لكفار أمة محمد عليه السلام. وأكثر القراء قرأوا بالفتح وهو جمع سالف كما ذكرناه، وقرأ حمزة والكسائي (سُلُفًا) بالضم وهو جمع سلف، قال الليث: يقال سلُف بضم اللام يسلف سلوفًا فهو سلف أي متقدم. وقوله: ﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ يريد عظة لمن بقي بعدهم وآية وعبرة، قال أبو علي الفارسي: المثل واحد يراد به الجمع، ومن ثَم عطف على سلف، والدليل على وقوعه على أكثر من واحد قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ﴾ [النحل: ٧٥] فأدخل تحت المثل شيئين، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ ۖ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر أنواعًا كثيرة من كفرياتهم في هذه السورة، وأجاب عنها

(١) هذا البيت ضمن قصيدة من البحر الطويل، وهو للطفيل الغنوي وهو: طُفَيل بن عوف بن كعب، من بني غني، من قيس عيلان. ؟- ١٣ق. هـ/ ؟- ٦٠٩م.
شاعر جاهلي، فحل، من الشجعان، وهو أوصف العرب للخيل، وربما سمي (طفيل الخيل) لكثرة وصفه لها. ويسمى أيضًا (المحبِّر) لتحسينه شعرة، عاصر النابغة الجعدي وزهير بن أبي سلمى، ومات بعد مقتل هرم بن سنان. كان معاوية يقول: خلوا لي طفيلاً، وقولوا ما شئتم في غيره من الشعراء.

بالوجوه الكثيرة: فأولها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]وثانيها: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف: ١٩]وثالثها: قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]ورابعها: قوله: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهًا كلها محتملة: فالأول: أن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا: إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى. وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة. الثاني: روي أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]قال عبد الله بن الزبعرى: هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ «بَلْ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ» فقال: خصمتك ورب الكعبة، ألست تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيرًا وعلى أمه، وقد علمت أن النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيرًا والملائكة يُعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم [1]فسكت النبي ﷺوفرح القوم وضحكوا وضجوا، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]ونزلت هذه الآية أيضًا والمعنى: ولما ضرب عبدالله بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلاً وجادل رسولَ الله بعبادة النصارى إياه، إذا قومك قريش منه - أي من هذا المثل - يصدون أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحًا وجدلاً وضحكًا بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله، فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، وقالوا: أآلهتنا خير أم هو؟ يعنون أن آلهتنا عندك ليس خيرًا من عيسى، فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون. الوجه الثالث في التأويل وهو أن النبي ﷺلما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهًا لأنفسهم، قال كفار مكة: إن محمدًا يريد أن يجعل لنا إلهًا كما جعل النصارى المسيح إلهًا لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا: ﴿ءَأَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني آآلهتنا خير أم محمد؟ وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمدًا يدعونا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أَوْلى؛ لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أَوْلى. ثم إنه تعالى بيّن أنا لم نقل: إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبدًا أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمدًا يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه. فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.

---

(١) ضعيف :الفاكهي في (أخبار مكة) (٢/ ١٩٢)، حديث رقم (١٣٦٢) من طريق ابن ثور عن ابن جريج . . . به، وأورده الزمخشري في (الكشاف) (٤/ ٢٦٢)، وقال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٢/ ٢٥٤): غريب.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم (يصُدون) بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام، والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا، فقال الكسائي: هما بمعنى نحو يعرِشون ويعرُشون، ويعكِفون ويعكُفون، ومنهم من فرَّق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويُعْرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحمزة والكسائي (أآلهتنا) استفهامًا بهمزتين الثانية مطولة، والباقون استفهامًا بهمزة ومدة.

ثم قال تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول، لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مبالغون في الخصومة، وذلك لأن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يتناول الملائكة وعيسى، وبيانه من وجوه: الأول: أن كلمة (ما) لا تتناول العقلاء ألبتة. والثاني: أن كلمة (ما) ليست صريحة في الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظتي الكل والبعض عليه، فيقال: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله، أو إنكم وبعض ما تبعدون من دون الله. الثالث: أن قوله: إنكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة، فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة. الرابع: أن قوله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مقدم على العام.

المسألة الرابعة: القائلون بذم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] أن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تُصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل.

ثم قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه، حيث جعلناه آية، بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة، وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ لولَّدنا منكم يا رجال ﴿مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ كما يخلفكم أولادكم، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل لتعرفوا تميُّزنا بالقدرة الباهرة ولتعرفوا أن دخول التوليد والتولد في الملائكة أمر ممكن وذات الله متعالية عن ذلك ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ شرط من أشراطها تُعلم به، فسمي الشرط الدال على الشيء علمًا لحصول العلم به، وقرأ ابن عباس: (لَعَلَمٌ) وهو العلامة وقرئ للعلم وقرأ أُبي: (لَذِكْرٌ)، وفي الحديث: «أَنَّ عِيسَى يَنْزِلُ عَلَى ثَنِيَّةٍ فِي الأَرْضِ المُقَدَّسَةِ يُقَالُ لَهَا أَفِيقُ، وَبِيَدِهِ حَرْبَةٌ وَبِهَا يَقْتُلُ الدَّجَّالَ فَيَأْتِي بَيْتَ المَقْدِسِ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ وَالإِمَامُ يَؤُمُّ بِهِمْ، فَيَتَأَخَّرُ الإِمَامُ فَيُقَدِّمُهُ عِيسَى وَيُصَلِّي خَلْفَهُ عَلَى شَرِيعَةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ يَقْتُلُ الخَنَازِيرَ، وَيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، وَيُخَرِّبُ البِيَعَ

وَالْكَنَائِسَ وَيَقْتُلُ النَّصَارَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ بِهِ»(١) ﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ من المرية وهو الشك ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ واتبعوا هداي وشرعي ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي هذا الذي أدعوكم إليه صراط مستقيم ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ قد بانت عداواته لكم لأجل أنه هو الذي أخرج أباكم من الجنّة ونزع عنه لباس النور.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتفقوا على أشياء، فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية، وبالجملة فالحكمة معناها أصول الدين و ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِۖ﴾ معناه فروع الدين، فإن قيل: لمَ لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلنا: لأن الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرسول بيانها، ولما بيّن الأصول والفروع قال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في الكفر به والإعراض عن دينه ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلغه إليكم من التكاليف ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى ظاهر ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ أي الفِرق المتحزبة بعد عيسى وهم الملكانية واليعقوبية والنسطورية، وقيل: اليهود والنصارى ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ وهو وعيد بيوم الأحزاب، فإن قيل: قوله: ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْۖ﴾ الضمير فيه إلى من يرجع؟ قلنا: إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ وهم قومه.

ثم قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ فقوله أن تأتيهم بدل من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قالوا قوله ﴿بَغْتَةً﴾ يفيد عين ما يفيده قوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فما الفائدة فيه؟ قلنا يجوز أن تأتيهم بغتة وهم يعرفونه بسبب أنهم يشاهدونه.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾

(١) قال الزيلعي في (تخريج الكشاف) (٣/ ٢٥٤): هذا الحديث غريب بهذا اللفظ، وهو في تفسير الثعلبي هكذا من غير سند، وهو مفرق في غضون الأحاديث.

ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ
وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ
ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣ ﴾

اعلم أنه تعالى لما قال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأۡتِيَهُم بَغۡتَةٗ﴾[الزخرف: ٦٦] ذكر عقيبه بعض ما يتعلق بأحوال القيامة: فأولها: قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ والمعنى ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾ في الدنيا ﴿يَوۡمَئِذِۭ﴾ يعني في الآخرة ﴿بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني أن الخلة إذا كانت على المعصية والكفر صارت عداوة يوم القيامة ﴿إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ يعني الموحدين الذين يخالل بعضهم بعضًا على الإيمان والتقوى، فإن خلتهم لا تصير عداوة، وللحكماء في تفسير هذه الآية طريق حسن، قالوا: إن المحبة أمر لا يحصل إلا عند اعتقاد حصول خير أو دفع ضرر، فمتى حصل هذا الاعتقاد حصلت المحبة لا محالة، ومتى حصل اعتقاد أنه يوجب ضررًا حصل البغض والنفرة. إذا عرفت هذا فنقول: تلك الخيرات التي كان اعتقاد حصولها يوجب حصول المحبة إما أن تكون قابلة للتغير والتبدل، أو لا تكون كذلك: فإن كان الواقع هو القسم الأول، وجب أن تُبدل تلك المحبة بالنفرة؛ لأن تلك المحبة إنما حصلت لاعتقاد حصول الخير والراحة، فإذا زال ذلك الاعتقاد، وحصل عقيبه اعتقاد أن الحاصل هو الضرر والألم، وجب أن تتبدل تلك المحبة بالبغضة؛ لأن تبدل العلة يوجب تبدل المعلول. أما إذا كانت الخيرات الموجبة للمحبة خيرات باقية أبدية، غير قابلة للتبدل والتغير، كانت تلك المحبة أيضًا محبة باقية آمنة من التغير. إذا عرفت هذا الأصل فنقول: الذين حصلت بينهم محبة ومودة في الدنيا، إن كانت تلك المحبة لأجل طلب الدنيا وطيباتها ولذاتها، فهذه المطالب لا تبقى في القيامة، بل يصير طلب الدنيا سببًا لحصول الآلام والآفات في يوم القيامة، فلا جرم تنقلب هذه المحبة الدنيوية بغضة ونفرة في القيامة، أما إن كان الموجب لحصول المحبة في الدنيا الاشتراك في محبة الله وفي خدمته وطاعته، فهذا السبب غير قابل للنسخ والتغير، فلا جرم كانت هذه المحبة باقية في القيامة، بل كأنها تصير أقوى وأصفى وأكمل وأفضل مما كانت في الدنيا، فهذا هو التفسير المطابق لقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾.

الحكم الثاني من أحكام يوم القيامة: قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وقد ذكرنا مرارًا أن عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقوله: ﴿يَٰعِبَادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ وفيه أنواع كثيرة مما يوجب الفرح: أولها: أن الحق سبحانه وتعالى خاطبهم بنفسه من غير واسطة. وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية، وهذا تشريف عظيم، بدليل أنه لما أراد أن يشرف محمدًا ﷺ ليلة المعراج، قال: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾[الإسراء: ١]

وثالثها: قوله ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فأزال عنهم الخوف في يوم القيامة بالكلية، وهذا من أعظم النعم. ورابعها: قوله: ﴿وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فنفى عنهم الحزن بسبب فوت الدنيا الماضية.

ثم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ قيل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مبتدأ، وخبره مضمر، والتقدير: يقال لهم: ادخلوا الجنة، ويحتمل أن يكون المعنى: (أعني الذين آمنوا)، قال مقاتل: إذا وقع الخوف يوم القيامة، نادى منادٍ: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ فإذا سمعوا النداء رفع الخلائق رؤوسهم، فيقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ فتنكس أهل الأديان الباطلة رؤوسهم. الحكم الثالث من وقائع القيامة: أنه تعالى إذا أمن المؤمنين من الخوف والحزن، وجب أن يمر حسابهم على أسهل الوجوه وعلى أحسنها، ثم يقال لهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ والحبرة: المبالغة في الإكرام فيما وُصف بالجميل، يعني يكرمون إكرامًا على سبيل المبالغة، وهذا مما سبق تفسيره في سورة الروم.

ثم قال: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ قال الفراء: الكوب المستدير الرأس الذي لا أذن له، فقوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ إشارة إلى المطعوم، وقوله: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ إشارة إلى المشروب، ثم إنه تعالى ترك التفصيل وذكر بيانًا كليًا، فقال: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ وقد ذكرنا في وراثة الجنة وجهين في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١٠، ١١] ولما ذكر الطعام والشراب فيما تقدم، ذكر هاهنا حال الفاكهة فقال: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى بعث محمدًا ﷺ إلى العرب أولاً، ثم إلى العالمين ثانيًا، والعرب كانوا في ضيق شديد بسبب المأكول والمشروب والفاكهة، فلهذا السبب تفضّل الله تعالى عليهم بهذه المعاني مرة بعد أخرى، تكميلاً لرغبتهم وتقوية لدواعيهم.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝٧٧ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝٧٨ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ۝٨٠ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد، أردفه بالوعيد على الترتيب المستمر في القرآن.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج القاضي على القطع بوعيد الفساق بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ ولفظ المجرم يتناول الكافر والفاسق، فوجب كون الكل

في عذاب جهنم، وقوله: ﴿ خَٰلِدُونَ﴾ يدل على الخلود، وقوله أيضًا: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ يدل على الخلود والدوام أيضًا. والجواب: أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من لفظ المجرمين ههنا الكفار، أما ما قبل هذه الآية فلأنه قال: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٦٨، ٦٩]فهذا يدل على أن كل من آمن بآيات الله وكانوا مسلمين، فإنهم يدخلون تحت قوله: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ۝٦٨ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ﴾ والفاسق من أهل الصلاة آمن بالله تعالى وبآياته وأسلم، فوجب أن يكون داخلاً تحت ذلك الوعد، ووجب أن يكون خارجًا عن هذا الوعيد، وأما ما بعد هذه الآية فهو قوله: ﴿ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ والمراد بالحق ههنا إما الإسلام وإما القرآن، والرجل المسلم لا يكره الإسلام ولا القرآن، فثبت أن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على أن المراد من المجرمين الكفار، والله أعلم.

المسألة الثانية: أنه تعالى وصف عذاب جهنم في حق المجرمين بصفات ثلاثة: أحدها: الخلود، وقد ذكرنا في مواضع كثيرة أنه عبارة عن طول المكث ولا يفيد الدوام. وثانيها: قوله: ﴿ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي لا يخفف ولا ينقص، من قولهم: فترت عنه الحمى، إذا سكنت ونقص حرها. وثالثها: قوله: ﴿ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ والمبلس: اليائس الساكت سكوت يائس من فرج، عن الضحاك: يُجعل المجرم في تابوت من نار، ثم يقفل عليه فيبقى فيه خالدًا لا يرى، قال صاحب (الكشاف): وقرئ (وهم فيها) أي وهم في النار.

المسألة الثالثة: احتج القاضي بقوله تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فقال: إن كان خَلَق فيهم الكفر ليدخلهم النار فما الذي نفاه بقوله: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ وما الذي نسبه إليهم مما نفاه عن نفسه؟ أو ليس لو أثبتناه ظلمًا لهم كان لا يزيد على ما يقوله القوم، فإن قالوا: ذلك الفعل لم يقع بقدرة الله عزّ وجل فقط، بل إنما وقع بقدرة الله مع قدرة العبد معًا، فلم يكن ذلك ظلمًا من الله. قلنا: عندكم أن القدرة على الظلم موجبة للظلم، وخالق تلك القدرة هو الله تعالى، فكأنه تعالى لما فعل مع خلق الكفر قدرة على الكفر خرج عن أن يكون ظالمًا لهم، وذلك محال لأن من يكون ظالمًا في فعل، فإذا فعل معه ما يوجب ذلك الفعل يكون بذلك أحق، فيقال للقاضي: قدرة العبد هل هي صالحة للطرفين أو هي متعينة لأحد الطرفين؟ فإن كانت صالحة لكلا الطرفين فالترجيح إن وقع لا لمرجح لزم نفي الصانع، وإن افتقر إلى مرجح عاد التقسيم الأول فيه، ولا بد وأن ينتهي إلى داعية مرجحة يخلقها الله في العبد، وإن كانت متعينة لأحد الطرفين فحينئذٍ يلزمك ما أوردته علينا.

واعلم أنه ليس الرجل من يرى وجه الاستدلال فيذكره، إنما الرجل الذي ينظر فيما قبل الكلام وفيما بعده، فإن رآه واردًا على مذهبه بعينه لم يذكره، والله أعلم.

المسألة الرابعة: قرأ ابن مسعود: (يا مال) بحذف الكاف للترخيم، فقيل لابن عباس: إن ابن

مسعود قرأ (وَنَادَوْا يَا مَالِ) فقال: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم! وأجيب عنه بأنه إنما حسن هذا الترخيم لأنه يدل على أنهم بلغوا في الضعف والنحافة إلى حيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلا بعضها.

المسألة الخامسة: اختلفوا في أن قولهم: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ على أي وجه طلبوا فقال بعضهم: على التمني، وقال آخرون: على وجه الاستغاثة، وإلا فهم عالمون بأنه لا خلاص لهم عن ذلك العقاب، وقيل: لا يبعد أن يقال: إنهم لشدة ما هم فيه من العذاب نسوا تلك المسألة فذكروه على وجه الطلب. ثم إنه تعالى بيّن أن مالكًا يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ وليس في القرآن متى أجابهم، هل أجابهم في الحال أو بمدة طويلة؟ وإن كان بعد ذلك فهل حصل ذلك الجواب بعد ذلك السؤال بمدة قليلة أو بمدة طويلة، فلا يمتنع أن تؤخر الإجابة استخفافًا بهم وزيادة في غمهم، فعن عبد الله بن عمر: بعد أربعين سنة، وعن غيره: بعد مائة سنة، وعن ابن عباس: بعد ألف سنة. والله أعلم بذلك المقدار.

ثم بيّن تعالى أن مالكًا لما أجابهم بقوله: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ ذكر بعده ما هو كالعلة لذلك الجواب فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ والمراد نفرتهم عن محمد وعن القرآن وشدة بغضهم لقبول الدين الحق، فإن قيل: كيف قال: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلنا: تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتًا لغلبة اليأس عليهم، ويستغيثون أوقاتًا لشدة ما بهم، روي أنه يُلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكًا. فيدعون: ﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾.

ولما ذكر الله تعالى كيفية عذابهم في الآخرة، ذكر بعده كيفية مكرهم وفساد باطنهم في الدنيا فقال: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ والمعنى أم أبرموا، أي مشركو مكة، أمرًا من كيدهم ومكرهم برسول الله، فإنا مبرمون كيدنا كما أبرموا كيدهم. كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢] قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم في المكر به في دار الندوة، وهو ما ذكره الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الأنفال: ٣٠] وقد ذكرنا القصة.

ثم قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ السر: ما حدَّث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خالٍ، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعها ونطلع عليها ﴿وَرُسُلُنَا﴾ يريد الحفظة ﴿يَكْتُبُونَ﴾ عليهم تلك الأحوال، وعن يحيى بن معاذ: مَن ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السموات، فقد جعله أهون الناظرين إليه، وهو من علامات النفاق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (وُلْد) بضم الواو وإسكان اللام، والباقون بفتحهما ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قرأ نافع (فَأَنَا) بفتحة طويلة على النون، والباقون بلا تطويل.

المسألة الثانية: اعلم أن الناس ظنوا أن قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى، وذلك محال، فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية، وعندي أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول عن الظاهر، وتقريره أن قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية شرطية، والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداهما حرف الشرط وعلى الأخرى حرف الجزاء، فحصل بمجموعها قضية واحدة، ومثاله هذه الآية، فإن قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية مركبة من قضيتين: إحداهما: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، والثانية: قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ ثم أدخل حرف الشرط وهو لفظة (إن) على القضية الأولى وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية الثانية، فحصل من مجموعهما قضية واحدة، وهو القضية الشرطية، إذا عرفت هذا فنقول: القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء، وليس فيه إشعار بكون الشرط حقًّا أو باطلاً أو بكون الجزاء حقًّا أو باطلاً، بل نقول: القضية الشرطية الحقة قد تكون مركبة من قضيتين حقيقيتين أو من قضيتين باطلتين أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحقة مركبة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال.

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة، فإذا قلنا: إن كان الإنسان حيوانًا فالإنسان جسم، فهذه شرطية حقة، وهي مركبة من قضيتين حقيقيتين، إحداهما قولنا (الإنسان حيوان)، والثانية قولنا (الإنسان جسم)، وإذا قلنا: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين، فهذه شرطية حقة لكنها مركبة من قولنا (الخمسة زوج)، ومن قولنا (الخمسة منقسمة بمتساويين) وهما باطلان، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقًّا، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام، وإذا قلنا: إن كان الإنسان حجرًا فهو جسم، فهذا جسم، فهذا أيضًا حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا (الإنسان حجر)، ومن جزء حق وهو قولنا (الإنسان

جسم)، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق، فإنا فرضنا كون الإنسان حجرًا وجب كونه جسمًا، فهذا شرط باطل يستلزم جزءًا حقًّا.

وأما القسم الرابع: وهو تركيب قضية شرطية حقة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال؛ لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزمًا للباطل وذلك محال، بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزمًا للحق، وذلك ليس بمحال. إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول: قوله: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ قضية شرطية حقة من شرط باطل ومن جزاء باطل؛ لأن قولنا (كان للرحمن ولد) باطل، وقولنا (أنا أول العابدين لذلك الولد) باطل أيضًا إلا أنا بينا أن كون كل واحد منهما باطلاً لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقًّا، كما ضربنا من المثال في قولنا: إن كانت الخمسة زوجًا كانت منقسمة بمتساويين. فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه، فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا.

ومما يقرب من هذا الباب قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فهذا الكلام قضية شرطية، والشرط هو قولنا: ﴿فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ والجزاء هو قولنا: ﴿لَفَسَدَتَا﴾ فالشرط في نفسه باطل والجزاء أيضًا باطل لأن الحق أنه ليس فيهما آلهة، وكلمة (لو) تفيد الشيء بانتفاء غيره لأنهما ما فسدتا، ثم مع كون الشرط باطلاً وكون الجزاء باطلاً، كان استلزام ذلك الشرط لهذا الجزاء حقًّا، فكذا هاهنا، فإن قالوا: الفرق أن ههنا ذكر الله تعالى هذه الشرطية بصيغة (لو) فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ﴾ وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة (إنْ) وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن، قلنا: الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءيها صادقتين أو كاذبتين، على ما قررناه، أما قوله: إن لفظة (إنْ) تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا، قلنا: هذا ممنوع فإن حرف (إنْ) حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزمًا للجزاء، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع، فاللفظ لا دلالة فيه عليه ألبتة. فظهر من المباحث التي لخصناها أن الكلام هاهنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه، وأنه لا حاجة فيه ألبتة إلى التأويل، والمعنى أنه تعالى قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ لذلك الولد، وأنا أول الخادمين له، والمقصود من هذا الكلام بيان أني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقرًّا به معترفًا بوجوب خدمته، إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته ألبتة، فكيف أقول به؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه، فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده؟

وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به ألبتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر، فهذا ما عندي في هذا الموضع، ونُقل عن السدي من المفسرين أنه كان يقول: حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن ولا حاجة إلى التأويل، والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق. أما القائلون بأنه لا بد من التأويل فقد ذكروا وجوهًا: الأول: قال الواحدي: كثرت الوجوه في تفسير هذه الآية، والأقوى أن يقال: المعنى ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ أي الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه، ولقائل أن يقول: إما أن يكون تقدير الكلام: إن يثبت للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول المنكرين له، أو يكون التقدير: إن يثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولدًا فأنا أول المنكرين له. والأول باطل لأن ثبوت الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكرًا له؛ لأن قوله: (إن كان الشيء ثابتًا في نفسه فأنا أول المنكرين) يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول، والثاني أيضًا باطل لأنهم سواء أثبتوا لله ولدًا أو لم يثبتوه له، فالرسول منكر لذلك الولد، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكرًا لذلك الولد، فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثرًا في كون الرسول منكرًا للولد.

الوجه الثاني: قالوا: معناه: إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين الآنفين من أن يكون له ولد. من عبد يعبد، إذا اشتدت أنفته فهو عبد وعابد، وقرأ بعضهم (عبدين).

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد: إن كان للرحمن ولد في نفس الأمر فأنا أول الآنفين من الإقرار به. فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب، وإن كان المراد: إن كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فأنا أول الآنفين. فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزًا.

والوجه الثالث: قال بعضهم: إن كلمة (إنْ) هاهنا هي النافية، والتقدير: ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له.

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة، وقد بينا أنه لا ضرورة ألبتة فلم يجز المصير إليها، والله أعلم.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ والمعنى أن إله العالم يجب أن يكون واجب الوجود لذاته، وكل ما كان كذلك فهو فرد مطلق لا يقبل التجزؤ بوجه من الوجوه، والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه، فيتولد عن ذلك الجزء شخص مثله، وهذا إنما يُعقل فيما تكون ذاته قابلة للتجزئ والتبعيض، وإذا كان ذلك محالاً في حق إله العالم، امتنع إثبات الولد له، ولما ذكر هذا البرهان القاطع قال: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ والمقصود منه التهديد، يعني قد ذكرت الحجة القاطعة على فساد ما ذكروا، وهم لم يلتفتوا إليها لأجل كونهم مستغرقين في طلب المال والجاه والرياسة، فاتركهم في ذلك

الباطل واللعب حتى يصلوا إلى ذلك اليوم الذي وُعدوا فيه بما وُعدوا، والمقصود منه التهديد.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ **وفيه أبحاث:**

البحث الأول: قال أبو علي: نظرت فيما يرتفع به (إله) فوجدت ارتفاعه يصح بأن يكون خبر مبتدأ محذوف، والتقدير وهو الذي في السماء هو إله.

والبحث الثاني: هذه الآية من أدل الدلائل على أنه تعالى غير مستقر في السماء؛ لأنه تعالى بيّن بهذه الآية أن نسبته إلى السماء بالإلهية كنسبته إلى الأرض، فلما كان إلهًا للأرض مع أنه غير مستقر فيها فكذلك يجب أن يكون إلهًا للسماء مع أنه لا يكون مستقرًا فيها، فإن قيل: وأي تعلق لهذا الكلام بنفي الولد عن الله تعالى؟ قلنا: تعلقه به أنه تعالى خلق عيسى بمحض (كن فيكون) من غير واسطة النطفة والأب، فكأنه قيل: إن هذا القدر لا يوجب كون عيسى ولدًا لله سبحانه؛ لأن هذا المعنى حاصل في تخليق السموات والأرض وما بينهما من انتفاء حصول الولدية هناك.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وقد ذكرنا في سورة الأنعام أن كونه تعالى حكيمًا عليمًا ينافي حصول الولد له.

ثم قال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ واعلم أن قوله (تبارك) إما أن يكون مشتقًّا من الثبات والبقاء، وإما أن يكون مشتقًّا من كثرة الخير، وعلى التقديرين فكل واحد من هذين الوجهين ينافي كون عيسى عليه السلام ولدًا لله تعالى؛ لأنه إن كان المراد منه الثبات والبقاء، فعيسى عليه السلام لم يكن واجب البقاء والدوام؛ لأنه حدث بعد أن لم يكن، ثم عند النصارى أنه قُتل ومات، ومن كان كذلك لم يكن بينه وبين الباقي الدائم الأزلي مجانسة ومشابهة، فامتنع كونه ولدًا له، وإن كان المراد بالبركة كثرة الخيرات مثل كونه خالقًا للسموات والأرض وما بينهما، فعيسى لم يكن كذلك بل كان محتاجًا إلى الطعام، وعند النصارى أنه كان خائفًا من اليهود وبالآخرة أخذوه وقتلوه، فالذي هذا صفته كيف يكون ولدًا لمن كان خالقًا للسموات والأرض وما بينهما؟!

وأما قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فالمقصود منه أنه لما شرح كمال قدرته، فكذلك شرح كمال علمه، والمقصود التنبيه على أن من كان كاملاً في الذات والعلم والقدرة على الحد الذي شرحناه، امتنع أن يكون ولده في العجز وعدم الوقوف على أحوال العالم - بالحد الذي وصفه النصارى.

ولما أطنب الله تعالى في نفي الولد، أردفه ببيان نفي الشركاء فقال: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذكر المفسرون في هذه الآية قولين: أحدهما: أن الذين يدعون من دونه الملائكة وعيسى وعزير، والمعنى أن الملائكة وعيسى وعزيرًا لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، روي أن النصر بن الحارث ونفرًا معه قالوا: إن كان ما يقول محمد حقًّا فنحن نتولى الملائكة فهم أحق بالشفاعة من محمد!! فأنزل الله هذه الآية،

يقول: لا يقدر هؤلاء أن يشفعوا لأحد. ثم استثنى فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ والمعنى على هذا القول: هؤلاء لا يشفعون إلا لمن شهد بالحق، فأضمر اللام أو يقال: التقدير: إلا شفاعة من شهد بالحق فحذف المضاف، وهذ على لغة من يعدي الشفاعة بغير لام، فيقول: شفعت فلانًا. بمعنى شفعت له، كما تقول: كلمته وكلمت له ونصحته ونصحت له. والقول الثاني: أن الذين يدعون من دونه: كل معبود من دون الله، وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الملائكة وعيسى وعزير، والمعنى أن الأشياء التي عبدها الكفار لا يملكون الشفاعة إلا من شهد بالحق، وهم الملائكة وعيسى وعزير فإن لهم شفاعة عند الله ومنزلة، ومعنى من شهد بالحق: من شهد أنه لا إله إلا الله.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وهذا القيد يدل على أن الشهادة باللسان فقط لا تفيد ألبتة، واحتج القائلون بأن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة، فقالوا: بيّن الله تعالى أن الشهادة لا تنفع إلا إذا حصل معها العلم، والعلم عبارة عن اليقين الذي لو شُكك صاحبه فيه لم يتشكك، وهذا لم يحصل إلا عند الدليل، فثبت أن إيمان المقلد لا ينفع ألبتة.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ **وفيه مسألتان:**

المسألة الأولى: ظن قوم أن هذه الآية وأمثالها في القرآن تدل على أن القوم مضطرون إلى الاعتراف بوجود الإله للعالم، قال الجبائي: وهذا لا يصح لأن قوم فرعون قالوا لا إله لهم غيره، وقوم إبراهيم قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ [إبراهيم: ٩] فيقال لهم: لا نسلّم أن قوم فرعون كانوا منكرين لوجود الإله، والدليل على قولنا قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ [النمل: ١٤] وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢] فالقراءة بفتح التاء في علمتَ تدل على أن فرعون كان عارفًا بالله، وأما قوم إبراهيم حيث قالوا: ﴿وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ [إبراهيم: ٩] فهو مصروف إلى إثبات القيامة، وإثبات التكاليف، وإثبات النبوة.

المسألة الثالثة: اعلم أنه تعالى ذكر هذا الكلام في أول هذه السورة وفي آخرها، والمقصود التنبيه على أنهم لما اعتقدوا أن خالق العالم وخالق الحيوانات هو الله تعالى، فكيف أقدموا مع هذا الاعتقاد على عبادة أجسام خسيسة وأصنام خبيثة لا تضر ولا تنفع، بل هي جمادات محضة؟!

وأما قوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه لمَ تكذبون على الله فتقولون: إن الله أمرنا بعبادة الأصنام؟! وقد احتج بعض أصحابنا به على أن إفكهم ليس منهم بل من غيرهم بقوله: ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ وأجاب القاضي بأن من يضل في فهم الكلام أو في الطريق يقال له: أين يُذهب بك، والمراد أين تَذهب؟ وأجاب الأصحاب بأن قول القائل (أين يُذهب بك) ظاهره يدل على أن ذاهبًا آخر ذهب به، فصَرْف الكلام عن حقيقته خلاف الأصل الظاهر، وأيضًا فإن الذي ذهب به هو الذي خلق تلك الداعية في قلبه، وقد ثبت بالبرهان الباهر أن خالق تلك الداعية هو الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ **وفيه مباحث:**

الأول: قرأ الأكثرون: (وقيلَه) بفتح اللام، وقرأ عاصم وحمزة بكسر اللام، قال الواحدي: وقرأ أناس من غير السبعة بالرفع: أما الذين قرءوا بالنصب فذكر الأخفش والفراء فيه قولين: أحدهما: أنه نصب على المصدر بتقدير: وقال قيله وشكا شكواه إلى ربه، يعني النبي ﷺ فانتصب قيله بإضمار قال. والثاني: أنه عطف على ما تقدم من قوله: ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف: ٨٠]. (وقيلَه) وذكر الزجاج فيه وجهًا ثالثًا: فقال: إنه نصب على موضع الساعة لأن قوله: ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ معناه أنه علم الساعة والتقدير علم الساعة، وقيله، ونظيره قولك: عجبت من ضرب زيد وعمرًا. وأما القراءة بالجر فقال الأخفش والفراء والزجاج: إنه معطوف على الساعة، أي عنده علم الساعة، وعلم قيله يا رب. قال المبرد: العطف على المنصوب حسن وإن تباعد المعطوف من المعطوف عليه؛ لأنه يجوز أن يُفصل بين المنصوب وعامله، والمجرور يجوز ذلك فيه على قبح. وأما القراءة بالرفع ففيها وجهان: الأول: أن يكون (وقيلُه) مبتدأ وخبره ما بعده. والثاني: أن يكون معطوفًا على علم الساعة على تقدير حذف المضاف معناه: وعنده علم الساعة وعلم قيله.

قال صاحب (الكشاف): هذه الوجوه ليست قوية في المعنى لا سيما وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضًا. ثم ذكر وجهًا آخر وزعم أنه أقوى مما سبق، وهو أن يكون النصب والجر على إضمار حرف القسم وحذفه، والرفع على قولهم أيمنُ الله وأمانة الله ويمين الله، ويكون قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جواب القسم كأنه قيل: وأُقسم بقيله يا رب أو وقيله يا رب قسمي. وأقول: هذا الذي ذكره صاحب (الكشاف) متكلف أيضًا، وهاهنا إضمار امتلأ القرآن منه وهو إضمار اذكر، والتقدير (واذكر قيله يا رب)، وأما القراءة بالجر، فالتقدير (واذكر وقت قيله يا رب)، وإذا وجب التزام الإضمار فلأن يضمر شيئًا جرت العادة في القرآن بالتزام إضماره أَوْلى من غيره، وعن ابن عباس أنه قال في تفسير قوله: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ﴾ المراد وقيل يا رب، والهاء زيادة.

البحث الثاني: القيل: مصدر كالقول، ومنه قول النبي ﷺ: «**نَهَى عَنِ قِيلَ وَقَالَ**»(١) قال الليث: تقول العرب: كثر فيه القيل والقال. وروى شمر عن أبي زيد: يقال: ما أحسن قيلك وقولك وقالك وقالتك ومقالتك خمسة أوجه.

البحث الثالث: الضمير في قيله لرسول الله ﷺ.

البحث الرابع: أن النبي ﷺ لما ضجر منهم وعرف إصرارهم، أخبر عنهم أنهم قوم لا يؤمنون،

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب (الأدب)، باب: (عقوق الوالدين من الكبائر) (١٠/ ٤١٩)، حديث رقم (٥٩٧٥) من طريق المسيب... به، ومسلم في كتاب (الأقضية)، باب: (النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة) (٣/ ١٢/ ١٣٤١) من طريق الشعبي... به، جميعًا عن وراد... به.

وهو قريب مما حكى الله عن نوح أنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح: ٢١]

ثم إنه تعالى قال له: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأمَره بأن يصفح عنهم، وفي ضمنه مَنْعه من أن يدعو عليهم بالعذاب، والصفح هو الإعراض.

ثم قال: ﴿وَقُلْ سَلَامٌ﴾ قال سيبويه: إنما معناه المتاركة، ونظيره قول إبراهيم لأبيه: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [مريم: ٤٧] وكقوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]

قوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ المقصود منه التهديد.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع وابن عامر (تعلمون) بالتاء على الخطاب، والباقون بالياء، كناية عن قوم لا يؤمنون.

المسألة الثانية: احتج قوم بهذه الآية على أنه يجوز السلام على الكافر، وأقول: إن صح هذا الاستدلال فهذا يوجب الاقتصار على مجرد قوله: (سلام) وأن يقال للمؤمن: (سلام عليكم). والمقصود التنبيه على التحية التي تُذكر للمسلم والكافر.

المسألة الثالثة: قال ابن عباس: قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ﴾ منسوخ بآية السيف. وعندي أن التزام النسخ في أمثال هذه المواضع مشكل؛ لأن الأمر لا يفيد الفعل إلا مرة واحدة، فإذا أتى به مرة واحدة فقد سقطت دلالة اللفظ، فأي حاجة فيه إلى التزام النسخ؟! وأيضًا فمثله يمين الفور مشهورة عند الفقهاء، وهي دالة على أن اللفظ قد يتقيد بحسب قرينة العرف، وإذا كان الأمر كذلك فلا حاجة فيه إلى التزام النسخ، والله أعلم بالصواب.

قال مولانا المؤلف عليه سحائب الرحمة والرضوان تمّ تفسير هذه السورة يوم الأحد، الحادي عشر من ذي الحجة، سنة ثلاث وستمائة، والحمد لله أولاً وآخرًا وباطنًا وظاهرًا، والصلاة على ملائكته المقربين والأنبياء والمرسلين خصوصًا على محمد ﷺ وآله وصحبه أجمعين، أبد الآبدين ودهر الداهرين.

سورة الزخرف

مكيةٌ بإجماع. وقال مقاتل: إلا قولَه: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الزخرف: ٤٥]، وهي تسعٌ وثمانون آيةً[١].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

قولُه تعالى: ﴿حمٓ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٢]. وقيل: «حم» قسمٌ، «والْكِتَابِ الْمُبِينِ» قسمٌ ثانٍ، ولله أن يُقسمَ بما شاء، والجوابُ: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»[٣]. وقال ابنُ الأنباري[٤]: مَن جعل جوابَ «وَالْكِتَابِ» «حم» كما تقولُ: نزلَ والله، وَجَب والله؛ وقفَ على «الْكِتَابِ الْمُبِين»، ومَن جعلَ جوابَ القسم «إِنَّا جَعَلْنَاهُ»؛ لم يقف على «الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ومعنى: «جَعَلْنَاهُ» أي: سَمَّيناه ووَصفناه[٥]، ولذلك تعدَّى إلى مفعولين[٦]، كقولِهِ تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]. وقال السُّدِّيّ: أي: أنزلناه قرآناً. مجاهد: قلناه. الزجَّاجُ وسفيان الثَّوْري: بَيَّنَّاه. ﴿عَرَبِيًّا﴾ أي: أنزلناه بلسانِ العرب؛

---

(١) الوسيط ٤/ ٦٣، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠١، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٣.

(٢) عند تفسير الآية الأولى من سورة غافر.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧، والكشاف ٣/ ٤٧٧، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والنكت والعيون ٥/ ٢١٤.

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٣.

(٥) تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٢، والبغوي ٤/ ١٣٣.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٧.

لأنَّ كل نبيٍّ أُنزِل كتابُه بلسان قومه؛ قاله سفيانُ الثوري وغيره. وقال مقاتل: لأنَّ لسان أهلِ السماء عربيٌّ[١]. وقيل: المرادُ بالكتاب جميعُ الكتب المنزلة على الأنبياء؛ لأن الكتابَ اسمُ جنس، فكأنَّه أقسم بجميع ما أُنزِل من الكتبِ أنَّه جعلَ القرآنَ عربيًّا. والكنايةُ في قوله: «جَعَلْنَاهُ» ترجعُ إلى القرآن[٢] وإن لم يجرِ له ذكرٌ في هذه السورة، كقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: تفهمون أحكامَه ومعانيَه. فعلى هذا القولِ يكون خاصًّا للعرب دونَ العجم؛ قاله ابنُ عيسى. وقال ابنُ زيد: المعنى: لعلكم تتفكرون، فعلى هذا يكون خطاباً عامًّا للعرب والعجم[٣]. ونُعِت الكتابُ بالمبين؛ لأن الله بيَّن فيه أحكامَه وفرائضَه[٤]، على ما تقدَّم في غير موضع.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني: القرآن في اللوحِ المحفوظ ﴿لَدَيْنَا﴾ عندنا[٥] ﴿لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ أي: رفيعٌ محكم لا يوجد فيه اختلافٌ ولا تناقض؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧-٧٨] وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١-٢٢]. وقال ابنُ جُريج: المرادُ بقوله تعالى: «وَإِنَّهُ»، أي: أعمالُ الخلقِ من إيمانٍ وكفر، وطاعةٍ ومعصية. «لَعَلِيٌّ»، أي: رفيعٌ عن أن يُنال فيبدَّل، «حَكِيمٌ»، أي: محفوظ من نقصٍ أو تغيير[٦]. وقال ابن عباس: أَوَّلُ ما خلقَ الله القلمُ، فأمرَه أن يكتبَ ما يريد أن يَخلُق، فالكتابُ عنده، ثم قرأ: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٢) الطبري ٢٠/ ٥٤٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٥ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢١٥ .

(٤) الكلام بنحوه في الكشاف ٣/ ٤٧٧ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٣ ، والسمرقندي ٣/ ٢٠٢ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٥-٢١٦ .

ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[١]. وكسرَ الهمزةَ من «أمّ الكتاب» حمزةُ والكسائيُّ، وضمَّ الباقون، وقد تقدم[٢].

قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾

قولُه تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا﴾ يعني: القرآن؛ عن الضَّحاكِ وغيره. وقيل: المرادُ بالذكرِ العذاب، أي: أفنضربُ عنكم العذابَ ولا نعاقبكم على إسرافِكم وكفركم؟ قاله مجاهدٌ وأبو صالح والسُّدّيّ[٣]، ورواه العَوْفي عن ابن عباس. وقال ابنُ عباس: المعنى: أفحسِبتم أن نصفحَ عنكم العذابَ ولمّا تفعلوا ما أُمِرتم به[٤]؟ وعنه أيضاً أنَّ المعنى: أتكذبون بالقرآن ولا تُعاقبون؟ وقال السّدّيّ أيضاً: المعنى: أفنترُكُكم سُدًى فلا نأمُركم ولا نَنهاكم؟ وقال قتادة: المعنى: أفنُهلكُكم ولا نأمُركم ولا ننهاكم؟ وعنه أيضاً: أفنُمسك عن إنزالِ القرآن من قبلِ أنكم لا تُؤمنون به فلا نُنزله عليكم[٥]؟ وقاله ابن زيد[٦]. قال قتادة: والله لو كان هذا القرآن رُفِع حين ردَّته[٧] أوائلُ هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله كرَّره[٨] عليهم برحمته. وقال الكسائي: أَفنطوي عنكم الذكر طَيًّا فلا تُوعَظُون ولا تؤمرون[٩]؟ وقيل: الذِّكرُ: التذكرُ، فكأنه

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٦ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٣ .

(٢) التيسير ص٩٤ ، والسبعة ص٢٨٨ ، وسلف ٦/ ١١٩ . وكسرُ الهمزة لحمزة والكسائي في قوله: «في أمّ» هو عند الوصل، أما عند الابتداء بـ «أمّ» فبضمّ الهمزة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٥٨ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٦ ، وتفسير مجاهد ٢/ ٥٧٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٩ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦ .

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٤٩-٥٥٠ بنحوه، والكلام في زاد المسير ٧/ ٣٠٣ .

(٧) في النسخ: ردَّدته، والمثبت من الطبري ٢٠/ ٥٤٩ ، والبغوي ٤/ ١٣٤ .

(٨) في (م): ردَّده وكرَّره.

(٩) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

قال: أنترك تذكيركم لأنْ كُنتم قوماً مسرفين[١]، في قِراءةِ مَن فَتَح. ومَن كسرَ[٢] جعلَها للشرط وما قبلَها جواباً لها؛ لأنَّها لم تعملْ في اللفظ[٣]. ونظيرُه: ﴿وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة:٢٧٨] وقيل: الجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما تقدَّم، كما تقول: أنت ظالمٌ إن فعلت[٤]. ومعنى الكسرِ عندَ الزجاج الحالُ[٥]؛ لأنَّ في الكلامِ معنى التقريرِ والتوبيخ. ومعنى ﴿صَفْحًا﴾ إعراضاً؛ يقال: صَفحتُ عن فلانٍ: إذا أَعرضتَ عن ذنبِه، وقد ضربتُ عنه صفحاً: إذا أَعرضتَ عنه وتَركته[٦]. والأصلُ فيه صفحةُ العُنق؛ يقال: أَعرضتُ عنه، أي: وَلَّيتُه صفحةَ عنقي. قال الشاعر:

صَفوحاً فما تلقاكَ إلا بخيلَةً ... فمَنْ مَلَّ منها ذلك الوصلَ مَلَّتِ[٧]

وانتصب «صَفْحاً» على المصدر؛ لأنَّ معنى: «أَفَنَضْرِبُ»: أفنصفح[٨]. وقيل: التقديرُ: أَفنضربُ عنكم الذكرَ صافحين، كما يقال: جاءَ فلان مشياً[٩]. ومعنى: ﴿مُّسْرِفِينَ﴾ مشركين[١٠]. واختار أبو عبيدة الفتحَ في «أن» ـ وهي قراءةُ ابنِ كثير وأبي عمرو، وعاصم وابن عامر[١١] ـ قال: لأنَّ الله تعالى عاتَبهم على ما كان منهم، وعَلِمَه قبلَ ذلك من فعلِهم.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦، وينظر أمالي ابن الشجري ٣/ ١٦٢.

(٢) وهم: نافع وحمزة والكسائي. السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٩٥.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٤٩.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٤.

(٥) معاني القرآن للزجاج، ولفظه فيه: ومن كسرَها فعلى معنى الاستقبال. ٤/ ٤٠٥، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(٦) الصحاح (صفح).

(٧) البيت لكثيّر عزة في ديوانه ص٧٧، وفيه: صفوحٌ بالرفع. وهو برواية المصنف في زاد المسير ٧/ ٣٠٢.

(٨) البيان ٢/ ٣٥٢.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٨.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٦، وزاد المسير ٧/ ٣٠٣.

(١١) السبعة ص٥٨٤. قال الطبري ٢٠/ ٥٥١: الكسر والفتح في الألف في هذا الموضع قراءتان مشهورتان في قرأة الأمصار، صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب.

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ﴾ «كَمْ» هنا خبريةٌ، والمرادُ بها التكثير، والمعنى: ما أكثرَ ما أرسلنا من الأنبياء. كما قال: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٢٥] أي: ما أكثر ما تركوا. ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ﴾ أي: لم يكن يأتيهم نبيٌّ ﴿إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ كاستهزاءِ قومِك بك، يُعزي نبيَّه محمداً ﷺ ويسلِّيه، ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: قوماً أشدَّ منهم قوةً. والكنايةُ في «مِنْهُمْ» ترجعُ إلى المشركين المخاطَبين بقوله: «أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً»[1]، فكنَى عنهم بعد أن خاطبهم. و«أشدّ» نُصِب على الحال. وقيل: هو مفعولٌ، أي: فقد أهلكنا أقوى من هؤلاءِ المشركين في أبدانِهم وأتباعهم، ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: عقوبتُهم؛ عن قتادة[2]. وقيل: صفة[3] الأولين؛ فَخبَّرهم بأنهم أُهلِكوا على كفرهم؛ حكاه النَّقاشُ والمهدوِيُّ[4]. والْمَثَلُ: الوصفُ والخبر.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يعني: المشركين ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فأقرُّوا له بالخلقِ والإيجاد، ثم عَبدوا معه غيرَه جهلاً منهم[5]. وقد مضى في غيرِ موضع[6].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦ ، وتفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣ ، والكشاف ٣/ ٤٧٨ .

(٢) أخرجه عنه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٤ ، والطبري ٢٠/ ٥٥٣ .

(٣) في (م): صفحة، والكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٩٩ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

(٤) ذكره بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٦٤ عن النقاش.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٦ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٤ .

(٦) ٨/ ٣١٣ وما بعدها.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ وَصَفَ نفسَه سبحانه بكمال القدرة، وهذا ابتداءُ إخبارٍ منه عن نفسِه، ولو كان هذا إخباراً عن قولِ الكفارِ لقالَ: الذي جعلَ لنا الأرض ﴿مِهَٰدًا﴾: فراشاً وبساطاً. وقد تقدَّم[١]. وقرأ الكوفيون: «مَهْداً»[٢]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي: معايش. وقيل: طرقاً[٣]، لتَسلُكوا منها إلى حيثُ أردتم، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فتَستدلون بمقدوراتِه على قدرتِه. وقيل: «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» في أسفارِكم؛ قاله ابنُ عيسى. وقيل: لعلَّكم تعرفون نعمةَ الله عليكم؛ قاله سعيد بنُ جبير. وقيل: تَهتدون إلى معايشكم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ قال ابنُ عباس: أي: لا كما أُنزل على قومِ نوحٍ بغير قدر حتى أغرقهم، بل هو بقدرٍ لا طوفانٌ مغرقٌ، ولا قاصرٌ عن الحاجة[٥]، حتى يكون معاشاً لكم ولأنعامكم، ﴿فَأَنشَرْنَا﴾ أي: أحيينا[٦] ﴿بِهِۦ﴾ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ أي: مُقفِرةً من النبات، ﴿كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ أي: من قبورِكم؛ لأنَّ مَن قدر على هذا قدر على ذلك. وقد مضى في «الأعراف» مجوَّداً[٧].

---

(١) ١٤/ ٧٨.

(٢) السبعة ص٤١٨، والتيسير ص١٥١.

(٣) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٤، والنكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢١٧.

(٥) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٥.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ١٣٤، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤.

(٧) ٩/ ٢٥٥.

وقرأ يحيى بنُ وثّاب والأعمشُ، وحمزةُ والكسائي، وابنُ ذَكْوان عن ابن عامر: «تَخْرُجُونَ» بفتح التاءِ وضم الراء. الباقون على الفعلِ المجهول[١].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ﴾ أي: واللهُ الذي خلقَ الأزواج. قال سعيدُ بنُ جبير: أي: الأصنافَ كلَّها. وقال الحسن: الشتاء والصيف، والليل والنهار، والسماوات والأرض، والشمس والقمر، والجنة والنار. وقيل: أزواج الحيوانِ من ذكرٍ وأنثى؛ قاله ابن عيسى. وقيل: أرادَ أزواجَ النبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، و﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]. وقيل: ما يتقلَّبُ فيه الإنسانُ من خيرٍ وشرّ، وإيمانٍ وكفر، ونفعٍ وضر، وفقرٍ وغنى، وصحةٍ وسقم[٢].

قلت: وهذا القولُ يعمُّ الأقوال كلَّها ويجمعها بعمومه.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾: السفن ﴿وَالْأَنْعَامِ﴾: الإبل ﴿مَا تَرْكَبُونَ﴾ في البر والبحر، ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ ذكَّر الكناية؛ لأنه ردَّه إلى ما في قوله: «ما تَرْكَبُونَ»؛ قاله أبو عبيد[٣]. وقال الفرَّاء[٤]: أضافَ الظهورَ إلى واحدٍ؛ لأنَّ المرادَ به الجنسُ، فصار الواحدُ في معنى الجمعِ بمنزلةِ الجيش[٥] والجند، فلذلك ذكَّر وجمع الظهور،

(١) السبعة ص٥٨٤، والتيسير ص١٠٩، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٧، وزاد المسير ٧/ ٣٠٤، ووقع في (م) و(د): يخرجون بفتح الياء، وهو خطأ.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢١٧. دون: قول: أراد أزواج النبات، وهو في تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٣.

(٣) في زاد المسير ٧/ ٣٠٤: أبو عبيدة.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٢٨.

(٥) في (د) و(ظ): الجنس، والكلام أيضاً بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٥٥٦-٥٥٧.

أي: على ظهورِ هذا الجنس.

الثانية: قال سعيدُ بن جبير: الأنعامُ هنا الإبلُ والبقر. وقال أبو معاذ: الإبلُ وحدَها، وهو الصحيحُ؛ لقولِهِ عليه الصلاة والسلام: «بينما رجلٌ راكبٌ بقرةً إذ قالت له: لَمْ أُخلَق لهذا، إنما خُلِقتُ للحرث». فقال النبيُّ ﷺ: «آمنتُ بذلك أنا وأبو بكر وعمرُ». وما هما في القوم. وقد مضى هذا في أوّل سورةِ النحل مستوفى. والحمدُ لله[١].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ يعني به الإبل خاصَّةً بدليلِ ما ذكرنا، ولأنَّ الفُلكَ إنما تُركب بطونُها، ولكنه ذكَرهما جميعاً في أوّل الآية وعطف آخرها على أحدِهما. ويحتمل أن يجعلَ ظاهرها باطنها[٢]؛ لأن الماءَ غَمَره وسَتره، وباطنها ظاهراً[٣]؛ لأنَّه انكشفَ للظاهرين وظهرَ للمبصرين.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: ركبتم عليه، وذِكرُ النِعمةِ هو الحمدُ لله على تسخيرِ ذلك لنا في البرِّ والبحر. ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا﴾ أي: ذلَّل لنا هذا المركبَ[٤]. في قراءةِ عليّ بن أبي طالب: «سُبْحَانَ مَنْ سَخَّرَ لَنَا هَذَا»[٥]. ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مطيقين؛ في قولِ ابن عباس والكلبي[٦]. وقال الأخفشُ وأبو عبيدة: «مُقْرِنِينَ» ضابطين[٧]. وقيل: مماثلين في

(١) ١٢/ ٢٧٧، والحديث أخرجه أحمد (٨٩٦٣)، والبخاري (٣٤٧١)، ومسلم (٢٣٨٨)، عن أبي هريرة ﷺ.
قوله: وما هما بالقوم، أي: ليسا حاضرَيْن، والعبارة عند البخاري ومسلم: وما هما ثَمَّ.

(٢) في النسخ الخطية: باطنهما، والمثبت من (م) وهو الموافق لما في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤. والكلام منه.

(٣) في أحكام القرآن: ظاهر.

(٤) الوسيط ٤/ ٦٥، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨.

(٥) لم نقف عليها عند غير المصنف.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢١٨، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٥٩ قول ابن عباس.

(٧) مجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٢، وقول الأخفش في النكت والعيون ٥/ ٢١٨.

الأَيْد والقوَّة؛ من قولهم: هو قِرنُ فلانٍ، إذا كان مثلَه في القوَّة. ويقال: فلان مُقْرِن لفلان، أي: ضابط له. وأَقرنتُ كذا، أي: أَطقتُه. وأَقرنَ له، أي: أَطاقه وقوِيَ عليه، كأنه صارَ له قِرْناً. قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» أي: مطيقين. وأنشدَ قُطْرب قولَ عمرو بنِ مَعْد يكَرِب:

لقد علمَ القبائلُ ما عُقيلٌ لنا في النائباتِ بمُقرنينا[1]

وقال آخرُ:

رَكبتُم صَعْبَتي أَشَراً وَحَيْفاً ولستم للصِّعاب بمقرنينا[2]

والمُقْرِنُ أيضاً: الذي غلبته ضَيعتُه، يكونُ له إبلٌ أو غنمٌ ولا معينَ له عليها، أو يكون يسقي إبلَه ولا ذائدَ له يَذودُها[3]. قال ابنُ السِّكِّيت: وفي أصلِه قولان: أحدهما: أنه مأخوذٌ من الإقرانِ، يقال: أقرنَ يُقرنُ إقراناً إذا أَطاق. وأَقرنتَ كذا: إذا أَطقتَه وحكمتَه، كأنه جعله في قَرَن ـ وهو الحبلُ ـ فأَوثقه به وشدَّه. والثاني: أنَّه مأخوذٌ من المقارنةِ وهو أن يقرنَ بعضَها ببعض في السير. يقال: قَرَنتُ كذا بكذا: إذا ربطتَه به وجعلتَه قرينَه[4].

الخامسة: علَّمنا اللهُ سبحانه ما نقولُ إذا رَكبنا الدَّوابَّ، وعرَّفَنا في آيةٍ أخرى على لسانِ نوح عليه السلام ما نقولُ إذا رَكبنا السفن، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِيٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [هود: ٤١][5] فكم من راكبِ دابَّةٍ عَثَرت به أو شَمَسَت، أو تَقَحَّمت أو طَاحَ من ظهرِها فهلك[6]، وكم مِن راكبين في سفينةٍ

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٢) البيت للكميت بن زيد الأسدي وهو في ديوانه ص٤٦٢ ، ووقع في (ظ): وحيناً، بدل: وحيفاً، وهي رواية أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٢ ، وقال شارح ديوان الكميت: أي: ركبتم أمري، وأشراً: بطراً.

(٣) الصحاح (قرن).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٨ .

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٤ .

(٦) في (د) و(ظ): فهلكت.

انكسرتْ بهم فغرِقوا، فلمَّا كان الركوبُ مباشرةَ أمرٍ مخطر واتصالاً بسبب[١] من أسبابِ التلفِ؛ أُمِر ألَّا ينسى عندَ اتصالِه به يومَه، وأنه هالكٌ لا محالةَ فمنقلبٌ إلى الله عزَّ وجل غير منفلتٍ من قضائِه، ولا يَدع ذكرَ ذلك بقلبِه ولسانِه حتى يكون مستعدًّا للقاءِ الله بإصلاحِه من نفسِه، والحذر من أن يكونَ ركوبُه ذلك من أسبابِ موتِه في علمِ الله وهو غافلٌ عنه.

حكى سليمانُ بنُ يسار أنَّ قوماً كانوا في سفرٍ، فكانوا إذا ركبوا قالوا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» وكان فيهم رجلٌ على ناقةٍ له رَازِمٍ ـ وهي التي لا تتحرَّكُ هُزالاً[٢] ـ فقال: أمَّا أنا فإني لِهذه لَمُقرِنٌ. قال: فقَمَصت به، فدَقَّت عنقَه. ورُوي أنَّ أعرابيًّا ركب قَعوداً له، وقال: إني لَمقرِنٌ له، فركضت به القعودُ حتى صَرَعته، فاندقَّت عنقُه. ذكر الأوَّلَ الماورديُّ، والثانيَ ابنُ العربي[٣]. قال[٤]: وما ينبغي لعبدٍ أن يدعَ قولَ هذا، وليس بواجبٍ ذكره باللسان؛ فيقول متى ركبَ وخاصَّةً في السفرِ إذا تذكَّر: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ»، اللهمَّ أنت الصاحب في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال[٥]، اللهمَّ إني أعوذُ بك من وَعْثاء السفر، وكآبةِ المنقلَب، والحَوْر بعدَ الكَوْر، وسوءِ المنظر في الأهلِ والمال. يعني بـ«الحَور بعد الكور» تَشتُّتَ أمرِ الرجلِ بعد اجتماعِه.

وقال عمرُو بنُ دِينار: ركبتُ مع أبي جعفر إلى أرضٍ له نحوَ حائطٍ يقالُ لها:

---

(١) في النسخ: أمر محظور واتصالاً بأسباب، والمثبت من الكشاف ٣/ ٤٨٠ والكلام منه.

(٢) وقع بعدها في (ف) و(م) ما نصُّه: الرازم من الإبل: الثابت على الأرض لا يقوم من الهُزال، وقد رَزَمت الناقة ترزُم وترزِم رُزوماً ورُزاماً: قامت من الإعياء والهُزال، فلم تتحرك، فهي رازم. قاله الجوهري في الصحاح. اهـ. وهذا الكلام قد أُقحم في نص هاتين النسختين، فقد وقع حاشيةً في هامش كلٍّ من (ز) و(ك)، ولم يرد في (د) و(ظ).

(٣) الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢١٨ ، وابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٥ .

(٤) أي: ابن العربي.

(٥) هو بنحوه عند مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

مدركة، فركبَ على جملٍ صَعْبٍ فقلتُ له: أبا جعفر! أَما تخاف أن يصرعَك. فقال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «على سنامِ كلِّ بعيرٍ شيطانٌ إذا ركبتموها، فاذكروا اسمَ اللهِ كما أَمركم ثم امتهنوها لأنفسِكم، فإنَّما يحملُ الله»[(١)].

وقال عليّ بن ربيعة: شهدتُ عليَّ بن أبي طالب ركبَ دابةً يوماً فلمَّا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: باسم الله، فلما استوى على الدابةِ قال: الحمدُ لله، ثم قال: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ. وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ» ثم قال: الحمدُ لله والله أكبر ـ ثلاثاً ـ اللهمَّ لا إله إلا أنتَ، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت؛ ثم ضحكَ، فقلت له: ما أَضحكَك؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ صنعَ كما صنعتُ، وقال كما قلتُ، ثم ضحكَ، فقلت له: ما يُضحِكُك يا رسولَ الله؟ قال: «العبدُ، أو قال: عجباً لعبدٍ أن يقولَ: اللهمَّ لا إلهَ إلا أنت. ظلمتُ نفسي فاغفر لي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. يعلم أنه لا يغفرُ الذنوب غيره». خَرَّجه أبو داود الطيالسي في «مسنده»[(٢)]، وأبو عبدِ الله محمدُ بنُ خُوَيْزِمَنْدَاد في «أحكامه».

وذكر الثعلبيُّ نحوَه مختصراً عن عليٍّ ﷺ، ولفظُه عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «باسمِ الله، فإذا استوى قال: الحمدُ للهِ على كلِّ حال، سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا وما كنَّا له مُقْرِنينَ وإنَّا إلى ربِّنا لمنقلبون. وإذا نَزلتم من الفلكِ والأنعام فقولُوا: اللهمَّ أَنزلنا منزلاً مباركاً وأنتَ خير المنزلين».

وروى ابنُ أبي نجيح، عن مجاهد قال: مَن ركبَ ولم يقل: «سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ» قال له الشيطانُ: تَغَنَّه؛ فإن لم يحسن قال له: تمنَّه. ذكره النَّحاسُ[(٣)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٩) من طريق عمرو بن دينار، عن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين، عن النبي ﷺ، مرسلاً. وأخرجه مرفوعاً أحمد (١٧٩٣٨) (١٧٩٣٩)، من حديث أبي لاس الخزاعي ﷺ، و(١٦٠٣٩)، من حديث حمزة الأسلمي ﷺ.

(٢) برقم (١٣٢)، وهو عند أحمد (١٠٥٦)، والكلام السالف في أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٦٥.

(٣) في معاني القرآن ٦/ ٣٤٠، وينظر تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٤.

ويستعيذُ بالله من مقامِ مَن يقول لقرنائه: تعالَوْا نَتنزَّه على الخيلِ أو في بعضِ الزوارق، فيركبونَ حاملينَ مع أنفسِهم أواني الخمرِ والمعازف، فلا يزالون يسقون[١] حتى تُمَلّ طلاهم وهم على ظهورِ الدوابّ، أو في بطونِ السفن وهي تجري بهم، لا يذكرونَ إلا الشيطان، ولا يمتثلون إلا أوامرَه. الزَّمخشريُّ[٢]: ولقد بلغني أنَّ بعضَ السلاطين ركبَ وهو يشرب الخمرَ من بلد إلى بلد بينهما مسيرةُ شهر، فلم يَصْحُ إلا بعدَ ما اطمأنَّت به الدار، فلم يشعرْ بمسيرهِ ولا أحسَّ به؛ فكم بينَ فعلِ أولئك الراكبين، وبينَ ما أمر الله به في هذه الآية؟!

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أي: عِدْلاً؛ عن قتادة[٣]. يعني: ما عُبِد من دون الله عزَّ وجلَّ. الزجاجُ[٤] والمبرِّدُ: الجزءُ هاهنا البناتُ، عجَّب المؤمنينَ من جهلِهم؛ إذ أقرُّوا بأنَّ خالق السماوات والأرض هو اللهُ، ثم جعلوا له شريكاً أو ولداً، ولم يعلموا أنَّ من قدرَ على خلق السماوات والأرض لا يحتاج إلى شيء يعتضدُ به أو يستأنسُ به؛ لأنَّ هذا من صفات النقص. قال الماورديّ: والجزءُ عندَ أهلِ العربية البناتُ، يقال: قد أجزأتِ المرأةُ: إذا وَلدتِ البناتِ، قال الشاعرُ:

إنْ أَجزأتْ حُرَّةٌ يوماً فلا عجبٌ ... قد تُجزئ الحُرَّةُ المِذكارُ أحيانا[٥]

الزمخشري[٦]: ومِن بِدعِ التفاسير تفسيرُ الجزءِ بالإناث، وادِّعاء أنَّ الجزء في لغةِ

---

(١) في (م): يستقون.

(٢) في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وما قبله.

(٣) أخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ١٩٥، والطبري ٢٠/ ٥٦١.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٠٦.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩. والبيت أيضاً في المحرر الوجيز ٥/ ٤٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠١ وزاد المسير ٧/ ٣٠٥، واللسان (جزأ).

(٦) الكشاف ٣/ ٤٨١.

العرب اسمٌ للإناث، وما هو إلا كذبٌ على العرب، ووضعٌ مستحدَثٌ منحول، ولم يُقنعهم ذلك حتى اشتقُّوا منه: أجزأتِ المرأة، ثم صنعوا بيتاً، وبيتاً:

إنْ أَجزأت حرةٌ[1] يوماً فلا عجبٌ

زُوِّجتُها من بناتِ الأوسِ مُجزئة[2]

وإنَّما قولُه: «وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» متصلٌ بقوله: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ» أي: ولئن سألتَهم عن خالقِ السماوات والأرض لَيعترفُنَّ به، وقد جعلوا له مع ذلك الاعترافِ من عبادِه جزءاً، فَوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى «مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً» أنْ قالوا: الملائكةُ بناتُ الله، فجعلوهم جزءاً له وبعضاً، كما يكون الولدُ بَضْعَةً من والدِه وجزءاً له، وقُرئ «جُزُؤا» بضمتين[3]. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: الكافر[4] ﴿لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ قال الحسنُ: يَعُدُّ المصائبَ وينسى النعمَ[5]. «مُبِينٌ»: مظهرٌ الكفرَ.

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ الميمُ صِلةٌ، تقديره: أتخذَ ممَّا يخلقُ بناتٍ كما زعمتم أنَّ الملائكةَ بنات الله؟ فلفظُه لفظُ الاستفهام ومعناهُ التوبيخ. ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ أي: اختصَّكم وأخلصكم بالبنين[6]، يقال: أَصفيتُه بكذا، أي: آثرتُه به. وأَصفيتُه الوُدَّ: أَخلصتُه له. وصافيتُه وتصافينا: تَخالصنا[7]. عَجِبَ من إضافتِهم إلى الله اختيارَ البنات مع اختيارِهم لأنفسهم البنين، وهو مقدَّس عن أن

---

(١) في النسخ الخطية: حمدة، والمثبت من المصادر، وهذا الشطر هو نفسه صدر البيت السالف قبله.

(٢) هو صدر بيت، وعجزه: للعوسج اللَّدْنِ في أبياتها زَجَلُ، وهو في مجالس ثعلب ص١٤٥ ، واللسان (جزأ)، وصدر البيت هذا والذي قبله في الكشاف ٣/ ٤٨١ ، والكلام بعده منه.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥ ، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٦ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٦) الوسيط ٤/ ٦٦ ، وزاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٧) الصحاح (صفا).

يكون له ولدٌ إن توهَّم جاهل أنه اتخذَ لنفسه ولداً، فهلَّا أضافَ إليه أرفعَ الجنسين! ولِمَ جعل هؤلاء لأنفسِهم أشرفَ الجنسين وله الأخسَّ؟ وهذا كما قال الله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ [النجم: ٢١-٢٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: بأنَّه وُلِدت له بنتٌ ﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ﴾ أي: صارَ وجهُه ﴿مُسْوَدًّا﴾ قيل: ببطلانِ مَثَلِه الذي ضربه. وقيل: بما بُشِّر به من الأنثى[١]، دليلُه في سورة النحل ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾ [النحل: ٥٨].

ومِن حالِهم أنَّ أحدَهم إذا قيل له: قد وُلِدت له أنثى اغتمَّ واربدَّ وجهُه غيظاً وتأسُّفاً وهو مملوءٌ من الكرب. وعن بعضِ العربِ أنَّ امرأتَه وَضعت أنثى، فهجرَ البيتَ الذي فيه المرأةُ، فقالت:

ما لِأبي حمزةَ لا يأتينا ... يَظَلُّ في البيتِ الذي يلينا
غضبانَ ألَّا نلدَ البنينا ... وإنَّما نأخذُ ما أُعطينا[٢]

وقُرِئ: مُسودٌّ، ومسوادٌّ[٣].

وعلى قراءةِ الجماعةِ يكون وجهُه اسمَ «ظلَّ»، و«مُسْوَدًّا» خبرَ «ظَلَّ». ويجوزُ أن يكونَ في «ظَلَّ» ضميرٌ عائد على «أحد» وهو اسمُها، و«وَجْهُهُ» بدل من الضميرِ، و«مُسْوَدًّا» خبر «ظَلَّ». ويجوز أن يكون رُفِعَ «وَجْهُهُ» بالابتداء، ويرفع «مُسْوَدًّا» على أنه

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩.

(٢) الرَّجز في الكشاف ٣/ ٤٨٢ وفيه قبل البيت الأخير: ليس لنا من أمرنا ما شينا. وفي البيان والتبيين ١/ ١٨٦ و ٤/ ٤٧. وفيه زيادة على ما أورده المصنف.

(٣) لم نقف عليها عند غير الزمخشري ٣/ ٤٨٢؛ قال: على أن في «ظلَّ» ضمير المبشَّر، و«وجهه مسودٌّ» جملة واقعة موقع الخبر. وسيذكر المصنف جواز هذا الوجه لغةً، وذكر ذلك الفراء في معاني القرآن ٣/ ٢٨، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٢، ولم يذكرا أنها قراءة.

خبرُه، وفي «ظَلَّ» اسمُها، والجملةُ خبرُها. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أي: حزين؛ قاله قتادةُ. وقيل: مكروبٌ؛ قاله عكرمة. وقيل: ساكت؛ قاله ابنُ أبي حاتم؛ وذلك لفسادِ مَثَله وبطلانِ حجتِه[١]. ومَن أجازَ أن تكون الملائكةُ بناتِ الله فقد جعلَ الملائكةَ شِبهاً لِله؛ لأنَّ الولدَ من جنس الوالد وشبهه[٢]. ومَنِ اسودَّ وجهُه بما يُضاف إليه ممَّا لا يرضى، أولى من أن يسودَّ وجهُه بإضافةِ مثل ذلك إلى مَن هو أجلُّ منه، فكيف إلى اللهِ عزَّ وجل! وقد مضى في «النحلِ» في معنى هذه الآية ما فيهِ كفايةٌ[٣].

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ **فيه مسألتان:**

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا﴾ أي: يُرَبَّى و يَشِبُّ. والنُّشوءُ: التربيةُ[٤]، يقال: نَشأتُ في بني فلان نَشْئاً ونشوءاً: إذا شَبَبْتَ فيهم، ونُشِّئ وأُنشئ بمعنًى[٥]. وقرأ ابنُ عباس، والضحَّاكُ وابنُ وَثَّاب، وحفصٌ وحمزة، والكسائيُّ وخلف: «يُنَشَّأ» بضم الياءِ وفتح النونِ وتشديد الشين، أي: يُربَّى ويَكْبَر في الحِلْية. واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى. وقرأ الباقون: «يَنْشأ» بفتحِ الياء وإسكان النون[٦]، واختاره أبو حاتم، أي: يرسخُ وينبت[٧]، وأصلُه من نشأ، أي: ارتفعَ، قاله الهروي. فـ «يُنَشَّأ» متعدٍّ، و«يَنشَأ» لازمٌ.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢١٩ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٦٣ قول قتادة.

(٢) بنحوه في زاد المسير ٧/ ٣٠٥ .

(٣) ١٢/ ٣٤٠ وما بعدها.

(٤) تفسير البغوي ٤/ ١٣٥ ، والنكت والعيون ٥/ ٢١٩ .

(٥) الصحاح (نشأ).

(٦) السبعة ص٥٨٤ ، والتيسير ص١٩٦ ، والنشر ٢/ ٣٦٨ .

(٧) في (ظ): يثبت.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلْحِلْيَةِ﴾ أي: في الزينة. قال ابنُ عباس وغيرُه: هنَّ الجواري زِيُّهن غيرُ زِيِّ الرجالِ. قال مجاهد: رُخِّص للنساءِ في الذهبِ والحرير؛ وقرأَ هذه الآية[١]. قال الكيا[٢]: فيه دلالةٌ على إباحةِ الحُليّ للنساء، والإجماعُ منعقدٌ عليه، والأخبارُ فيه لا تُحصى.

قلت: رُوي عن أبي هريرةَ أنه كان يقول لابنتِه: يا بُنَيَّة، إياكِ والتَّحلِّيَ بالذهب، فإني أخاف عليكِ اللهب[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أي: في المجادلة والإدلاءِ بالحُجَّة. قال قتادة: ما تكلمت امرأةٌ ولها حُجةٌ إلَّا جعلَتْها على نفسِها[٤]. وفي مصحف عبدِ الله: «وهو في الكلامِ غيرُ مبين»[٥]. ومعنى الآية: أَيُضاف إلى اللهِ مَن هذا وصفُه؟! أي: لا يجوزُ ذلك.

وقيل: المُنشَّأُ في الحلية أصنامُهم التي صاغُوها من ذهبٍ وفضةٍ وحلَّوها؛ قاله ابنُ زيد والضَّحاكُ[٦]. ويكون معنى: «وَهُوَ فِي الخصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» على هذا القولِ: أي: ساكتٌ عن الجوابِ. و«مَن» في محلِّ نصبٍ، أي: اتخذوا للهِ مَن يُنشَّأُ في الحِليةِ[٧]. ويجوزُ أن يكون رفعاً على الابتداءِ والخبرُ مضمرٌ؛ قاله الفراء[٨]. وتقديرُه:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٦٣-٥٦٤ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ٣٦٩ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١٩٩٣٨)، وأحمد في الزهد ص١٩٢ ، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨٠ ، والبيهقي في الشعب (٦١٩١) و(١٠٦٩١) بلفظ: ... لا تلبسي... قال الذهبي في السير ٢/ ٦٢٩ : هذا صحيح عن أبي هريرة، وكأنه كان يذهب إلى تحريم الذهب على النساء أيضاً، أو أن المرأة إذا كانت تختال في لبس الذهب وتفخر، فإنه يحرم، كما فيمن جر ثوبه خيلاء.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٤ .

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٤٩ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٦٥ عن ابن زيد.

(٧) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٤٠ .

(٨) في معاني القرآن ٣/ ٢٩ ، وقاله مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٠ .

أَوَ مَن كان على هذه الحالةِ يَستحقُّ العبادة؟ وإن شئتَ قلتَ: خُفِض ردًّا إلى أوّل الكلام، وهو قولُه: «بِما ضَرَبَ»، أو على «ما» في قوله: «مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ»[1]. وكون[2] البدل في هذين الموضعين ضعيف؛ لكونِ ألفِ الاستفهام حائلةً بين البدلِ والمبدَلِ منه.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ قرأ الكوفيون: «عِبَادُ» بالجمع[3] واختاره أبو عبيد؛ لأنَّ الإسنادَ فيها أعلى، ولأنَّ الله تعالى إنَّما كذَّبهم في قولهم: إنَّهم بناتُ اللهِ، فأخبرهم أنَّهم عبيدٌ، وأنَّهم ليسوا ببناتِه. وعن ابن عباس أنَّه قرأ: «عِبادُ الرَّحْمَنِ»، فقال سعيد بنُ جبير: إنَّ في مصحفي: «عند[4] الرحمن» فقال: امحهُا واكتبها «عِبَادُ الرَّحْمَنِ». وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[5] [الأنبياء: ٢٦]، وقولُه تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟ عِبَادِى مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ [الكهف: ١٠٢]، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤].

وقرأ الباقون: «عند الرحمن» بنون ساكنةٍ. واختارَه أبو حاتم[6]. وتصديقُ هذه القراءةِ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦] وقولُه: ﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ﴾[7] [الأنبياء: ١٩]. والمقصودُ إيضاحُ كذبِهم وبيانُ جهلِهم في نسبةِ الأولادِ إلى الله سبحانَه، ثمَّ في تحكُّمِهم بأنَّ الملائكةَ إناثٌ، وهم بناتُ اللهِ. وذِكرُ العبادِ مدحٌ لهم، أي: كيفَ عَبَدوا مَن هو في نهاية العبادة، ثم كيف حَكموا بأنَّهم إناثٌ من غير دليل. والجعلُ هنا بمعنى القولِ والحُكْم، تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٣٦ .

(٢) في (ظ): وكونه.

(٣) وكذا قرأ أبو عمرو. السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٤) في (د) و(م): عبد. وهو خطأ، والكلام بنحوه في إعراب للنحاس ٤/ ١٠٣ .

(٥) ينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٣ .

(٦) قرأ بها من السبعة نافع وابن كثير وابن عامر.

الناس، أي: حكمتُ له بذلك[١].

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ﴾ أي: أَحضَروا حالةَ خلقِهم حتى حكموا بأنَّهم إناث[٢]. وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ سألَهم وقال: «فما يُدريكم أنَّهم إناثٌ؟» فقالوا: سَمِعنا بذلك من آبائنا؛ ونحن نشهدُ أنَّهم لم يَكْذبوا في أنَّهم إناث، فقال الله تعالى: ﴿سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ﴾ أي: يُسألونَ عنها في الآخرة[٣]. وقرأَ نافعٌ: «أَأُشْهِدُوا»[٤] بهمزةِ استفهامٍ داخلةٍ على همزةٍ مضمومةٍ مسهَّلة[٥]، ولا يَمدُّ؛ سوى ما رَوَى المسيَّبي عنه أنه يمدّ[٦]. ورَوى المفضل عن عاصمٍ مثلَ ذلك وتحقُّقَ الهمزتين[٧]. والباقون: «أَشَهِدُوا» بهمزة واحدةٍ للاستفهام[٨]. ورُويَ عن الزُّهري: «أُشْهِدُوا خَلْقَهُمْ» على الخبر[٩].

﴿سَتُكۡتَبُ﴾ قراءةُ العامةِ بضمِّ التاء على الفعل المجهول، «شَهَادَتُهُمْ» رفعاً. وقرأَ السُّلمِيُّ وابنُ السَّمَيْفَع وهُبيرة عن حفص: «سَنَكْتُبُ» بنون، «شَهَادَتَهُمْ» نصباً بتسميةِ الفاعل[١٠]. وعن أبي رجاء: «سَتُكْتَبُ شَهَادَاتُهُمْ» بالجمع[١١].

---

(١) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٣ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧ ، والوسيط للواحدي ٤/ ٦٧ ، وزاد المسير ٧/ ٣٠٧ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٨ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٦ .

(٥) اختلف رسمها في النسخ، فوقع في (د) و(ز) و(م): أَوُشْهِدوا، وفي (ظ) و(ف): أو اشهدوا، والمثبت من (ق).

(٦) هي من رواية ورش عنه، وسهلها قالون مع إدخال ألف بخلف عنه. التيسير ص١٩٦ .

(٧) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠ . وذكر في السبعة ص٥٨٥ رواية المفضل عن عاصم مثل نافع.

(٨) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٩) المحرر الوجيز ٥/ ٥٠ .

(١٠) رواية هبيرة عن حفص في جامع البيان ٢/ ٤٠٠ .

(١١) نسبها في المحرر الوجيز ٥/ ٥٠ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ للحسن.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ يعني: قال المشركون على طريق الاستهزاء والسخرية: لو شاءَ الرحمنُ على زعمِكم ما عَبدنا هذه الملائكة. وهذا منهم كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ. وكلُّ شيءٍ بإرادة الله، وإرادتُه تجب، وكذا علمُه، فلا يُمكِن الاحتجاجُ بهما[1]؛ وخلافُ المعلومِ والمرادِ مقدورٌ وإن لم يقع. ولو عَبَدوا الله بدلَ الأصنام، لَعلمنا أنَّ الله أراد منهم ما حصل منهم. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» عند قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الآية:١٤٨]، وفي «يس»: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[2] [الآية:٤٧].

وقولُه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ مردودٌ إلى قوله: «وَجَعَلُوا المَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً» أي: ما لهم بقولهم: الملائكةُ بناتُ الله من علم؛ قاله قتادةُ ومقاتلٌ والكلبي[3]. وقال مجاهدٌ وابن جريج: يعني الأوثان[4]، أي: ما لهم بعبادةِ الأوثانِ من علم. «مِن» صِلة.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: يَحْدِسون ويكذبون، فلا عذرَ لهم في عبادة غيرِ الله عزَّ وجلَّ. وكان في ضمن كلامِهم أنَّ الله أَمرنا بهذا، أو رضي ذلك منّا، ولهذا لم يَنْهَنا ولم يُعاجِلنا بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١﴾

هذا معادِلٌ لقوله: «أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ». والمعنى: أَحضَروا خلقَهم، أم آتيناهم كتاباً من قَبْله؟ أي: من قبلِ القرآنِ بما ادَّعَوه، فهم به متمسكون يعملون بما فيه!

---

(١) في (م): بها.

(٢) ٩/١٠٢، و١٧/٤٥٦ - ٤٥٧.

(٣) تفسير البغوي ٤/١٣٦.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/٥٦٨ عن مجاهد.

قوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على طريقة ومذهب؛ قاله عمر بنُ عبد العزيز[1]. وكان يقرأ هو ومجاهدٌ وقتادة: «على إِمَّةٍ» بكسر الألف[2]. والإِمَّةُ: الطريقة[3]. وقال الجوهري[4]: والإِمَّة، بالكسرِ: النعمة. والإِمّةُ أيضاً لغةٌ في الأُمَّة ـ وهي الطريقةُ والدين ـ عن أبي عبيد[5].

قال عَديُّ بنُ زيد في النعمة:

ثـم بـعـدَ الـفَـلَاح والـمُـلْـكِ والإمَّـ ـةِ وارتْـهُـمُ هـنـاك الـقـبـورُ

عن غير الجوهري[6].

وقال قتادةُ وعطية: «على أُمَّةٍ»: على دِين[7]، ومنه قولُ قيس بنِ الخطيم:

كـنَّـا عـلـى أُمَّـةِ آبـائـنـا ويـقـتـدي الآخِـرُ بـالأوَّلِ[8]

قال الجوهري: والأُمَّةُ: الطريقةُ والدِّين، يقال: فلانٌ لا أُمَّة له، أي: لا دينَ له ولا نِحْلة. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

(٢) نسبها لعمر بن عبد العزيز ومجاهد الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٠ ، والنحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٠٤ ، والطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ وزاد نسبتها للجحدري.

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وتهذيب اللغة ١٥/ ٦٣٤ .

(٤) في الصحاح (أمم).

(٥) في (م)، وتفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٥ : أبو عبيدة.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٧١ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٠ ، عن ابن عباس وقتادة والسدي.

(٨) النكت والعيون ٥/ ٢٢١ .

وهـل يـسـتـوي ذو أُمَّـةٍ وكَـفُـورُ[١]

وقال مجاهد وقطرب: على دينٍ، على مِلَّة. وفي بعضِ المصاحف: «قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى مِلَّة». وهذه الأقوالُ متقاربة. وحُكِي عن الفرَّاء: على ملة: على قِبْلة. الأخفشُ: على استقامة، وأنشدَ قولَ النابغة:

حَـلَـفْـتُ فـلـم أتـرك لـنـفـسـكَ ريـبـةً وهـل يـأثَـمَـنْ ذو أُمَّـة[٢] وهـو طـائـعُ[٣]

الثانية: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: نهتدي بهم. وفي الآية الأخرى: «مُقْتَدُونُ»، أي: نقتدي بهم، والمعنى واحد. قال قتادة: مقتدون: متَّبِعون[٤]. وفي هذا دليلٌ على إبطال التقليد؛ لِذَمِّه إياهم على تقليدِ آبائهم، وتركِهم النظرَ فيما دَعاهم إليه الرسولُ ﷺ[٥]. وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة» مستوفًى[٦].

وحكى مقاتلٌ أنَّ هذه الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة وأبي سفيان وأبي جهل وعتبةَ وشيبة ابني ربيعة من قريش[٧]، أي: وكما قال هؤلاء فقد قال مَن قبلَهم أيضاً. يُعَزِّي نبيَّه ﷺ؛ ونظيرُه: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت:٤٣]. والمترفُ: المُنْعمُ، والمرادُ هنا الملوكُ والجبابرة.

قوله تعالى: ﴿قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ﴾ أي: قُلْ يا محمدُ لقومك: أوَليسَ قد جئتُكم من عند الله بأهدى، يريد: بأرشدَ ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم

(١) الصحاح (أمم).

(٢) قال في اللسان (أمم): ويروى ذو إمة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢١، والبيت في ديوان النابغة ص٨١، وسلف ٥/ ٢٦٠.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٧٢، وهو في النكت والعيون.

(٥) أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩.

(٦) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٢١.

﴿بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: بكلِّ ما أُرسِل به الرسل. فالخطابُ للنبيِّ ﷺ، ولفظُه لفظُ الجمع؛ لأنَّ تكذيبَه تكذيبٌ لمن سواه.

وقُرئ: «قُلْ» وَ«قَالَ»، وَ«جِئْتُكُمْ» وَ«جِئْنَاكُمْ» يعني: أَتتَّبعون آباءَكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟ قالوا: إنا ثابتون على دينِ آبائنا لا ننفكُّ عنه وإن جئتنا بما هو أهدى[1]. وقد مضى في «البقرة» القولُ في التقليد وذَمِّه[2]، فلا معنى لإعادته.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ بالقحط والقتل والسَّبي ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: آخِرُ أمرِ مَن كذَّب الرسل.

وقراءة العامة: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ». وقرأ ابن عامر وحفص: «قَالَ أَوَلَوْ»[3]، على الخبر عن النذير أنه قال لهم هذه المقالة. وقرأ أبو جعفر: «قُلْ أَوَلَوْ جِئْنَاكُمْ» بنون وألف[4]، على أنَّ المخاطبة من رسول الله ﷺ عن جميع الرسل.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ أي: ذكِّرهم إذ قال ﴿إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ البَراء يُستعمل للواحد فما فوقه؛ فلا يُثنَّى ولا يجمع ولا يؤنَّث؛ لأنه مصدرٌ وُضع موضعَ النعت[5]؛ لا يقال: البراءان والبراؤون؛ لأن المعنى: ذو[6] البراء،

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٤، وسيرد ذكر القراءات.

(٢) ٣/ ١٦ فما بعد.

(٣) السبعة ص٥٨٥، والتيسير ص١٩٦.

(٤) النشر ٢/ ٣٦٩.

(٥) تفسير الطبري ٢٠/ ٥٧٥، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٧، وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٠، والكشاف ٣/ ٤٨٤.

(٦) في (ف): ذوا، والكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٩، وزاد المسير ٧/ ٣٠٩، وينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٨.

وذوو البراء.

قال الجوهري[١]: وتبرَّأتُ من كذا، وأنا منه بَرآء، وخَلاءٌ منه، لا يثنَّى ولا يجمع؛ لأنه مصدر في الأصل؛ مثل: سَمِع سَماعاً. فإذا قلت: أنا بريءٌ منه وخَليّ، ثَنَّيتَ وجمعت وأنَّثت، وقلتَ في الجمع: نحن منه بُرَآء، مثل: فقيهٌ وفقهاء، وبِراء أيضاً، مثل: كريم وكِرام، وأَبْراء، مثل: شريف وأشراف، وأبرياء، مثل: نصيب وأَنصِبَاء، وبريئون. وامرأةٌ بريئة، وهما بريئتان، وهن بريئاتٌ وبَرايا، ورجلٌ بريء وبُراء، مثل: عجيب وعُجاب. والبَراء، بالفتح: أوّلُ ليلةٍ من الشهر، سُمِّيت بذلك لتبرُّؤ القمرِ من الشمس.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصل؛ لأنهم عبدوا اللهَ مع آلهتهم. قال قتادة: كانوا يقولون: اللهُ ربُّنا[٢]؛ مع عبادة الأوثان. ويجوز أن يكونَ منقطعاً[٣]؛ أي: لكن الذي فطرني فهو يهدين. قال ذلك ثقةً بالله، وتنبيهاً لقومه أنَّ الهداية مِن ربه.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ الضمير في «جَعَلَهَا» عائدٌ على قوله: «إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي». وضمير الفاعل في «جَعَلَهَا» لله عزَّ وجلَّ؛ أي: وجعل اللهُ هذه الكلمةَ والمقالةَ باقيةً في عَقِبه، وهم ولده وولدُ ولده؛ أي: إنهم توارثوا البراءةَ عن عبادة غيرِ الله، وأوصى بعضُهم بعضاً في ذلك. والعَقِبُ مَن يأتي بعده[٤]. وقال السُّدِّيُّ: هم آل محمدٍ ﷺ. وقال ابن عباس: قوله: «فِي عَقِبِهِ» أي: في خَلَفه[٥]. وفي

---

(١) في الصحاح (برأ).

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/٥٧٦ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٠٥ ، وينظر تفسير الرازي ٢٧/٢٠٨ .

(٤) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/١٠٦ ، والكشاف ٣/٤٨٤ .

(٥) النكت والعيون ٥/٢٢٢ ، وأخرج القولين الطبري ٢٠/٥٧٨ .

الكلام تقديمٌ وتأخير؛ المعنى: فإنه سيهدينِ لعلهم يرجعون وجعلها كلمةً باقية في عقبه، أي: قال لهم ذلك لعلهم يتوبون عن عبادة غير الله[١].

قال مجاهدٌ وقتادة: الكلمة: لا إله إلا الله؛ قال قتادة: لا يزال من عقبه مَن يعبد اللهَ إلى يوم القيامة[٢]. وقال الضحَّاك: الكلمة: أنْ لا تعبدوا إلا الله. عكرمة: الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٣] [الحج:٧٨]. القُرَظي: وجَعل وصيةَ إبراهيم التي وصَّى بها بنيه ـ وهو قولُه: ﴿يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ﴾ الآيةُ المذكورة في البقرة [الآية: ١٣٢] ـ كلمَةً باقية في ذُرِّيته وبنيه. وقال ابن زيد: الكلمة قوله: «أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ»، وقرأ: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[٤].

وقيل: الكلمة: النبوَّة. قال ابن العربي[٥]: ولم تزل النبوَّةُ باقيةً في ذُرِّيَّة إبراهيم، والتوحيد هم أصلُه، وغيرُهم فيه تَبَعٌ لهم.

الثانية: قال ابن العربي[٦]: إنما كانت لإبراهيم في الأعقاب موصولةً بالأحقاب؛ بدعوتَيه المجابتَين، إحداهما في قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] فقد قال: نعم إلَّا من ظلم منهم فلا عهد. ثانيهما قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. وقيل: بل[٧] الأولى قولُه: ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]، فكلُّ أُمة تعظِّمه، بنوه وغيرهم؛ ممن يجتمع معه في سامٍ أو نوح.

الثالثة: قال ابن العربي[٨]: جرى ذِكْرُ العَقِب هاهنا موصولاً في المعنى

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٦٩ .

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٥٧٦-٥٧٧ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٢ .

(٤) ذكر القولين البغوي ٤/ ١٣٧ . وأخرج الطبري ٢٠/ ٥٧٧ قول ابن زيد.

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) في أحكام القرآن: وقيل بدل.

(٨) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٦-١٦٧٠ ، وما بين حاصرتين منه.

[بالحِقب]، وذلك مما يدخل في الأحكام وتُرتَّبُ عليه عقودُ العُمْرَى والتحبيس[١].
قال النبيُّ ﷺ: «أيُّما رَجلٍ أُعمِر عُمْرَى له ولعقِبه، فإنها لِلذي أُعطِيَها، لا ترجع إلى الذي أعطاها؛ لأنه أعطى عطاءً وقعت فيه المواريث»[٢].

وهي تَرِد على أحدَ عشَرَ لفظاً:

اللفظ الأول: الولد. وهو عند الإطلاق عبارةٌ عمن وُجد من الرجل وامرأتِه في الإناث والذُّكور. وعن ولد الذكور دون الإناث لغةً وشرعاً؛ ولذلك وقع الميراثُ على الولد المعيَّن وأولاد الذكور من المعيَّن دون ولد الإناث؛ لأنه من قومٍ آخرين، ولذلك لم يدخلوا في الحُبس بهذا اللفظ؛ قاله مالكٌ في المجموعة وغيرِها.

قلت: هذا مذهبُ مالكٍ وجميعِ أصحابه المتقدِّمين، ومِن حجَّتهم على ذلك الإجماعُ على أنَّ ولد البنات لا ميراث لهم مع قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾ [النساء: ١١]. وقد ذهب جماعةٌ من العلماء إلى أنَّ ولد البنات من الأولاد والأعقاب يدخلون في الأحباس بقول[٣] المُحْبِس: حبستُ على ولدي، أو على عَقِبي. وهذا اختيارُ أبي عمر بنِ عبد البرّ وغيرِهِ[٤]؛ واحتجُّوا بقول اللهِ جلَّ وعزَّ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ﴾ [النساء: ٢٣]. قالوا: فلما حَرَّم اللهُ البنات فَحَرُمت بذلك بنتُ البنت بإجماع، عُلم أنها بنتٌ، ووجب أن تدخل في حُبْس أبيها إذا حَبَسَ على ولده أو عقبه. وقد مضى هذا المعنى في «الأنعام» مستوفًى[٥].

---

(١) العمرى: من قولهم: أعمرته الدار عُمرى: أي جعلتها له يسكنها مدة عمره، فإذا مات عادت إلي. والتحبيس: الوقف. النهاية (عمر) (حبس).

(٢) صحيح مسلم (١٦٢٥) من حديث جابر، وسلف ١١/ ١٥١ .

(٣) في (م): يقول.

(٤) الذي قاله ابن عبد البرّ في الكافي ٢/ ١٠١٨ : إذا حبس الرجل على ولده وولد ولده، أو على عقبه وعقب عقبه؛ فلا حقَّ لولد البنات في حُبسه ذلك؛ إلا أن يُسميَهم ويدخلَهم فيه، وإنما ذلك لولده وولد ولده الذكور ما تناسلوا.

(٥) ٨/ ٤٤٧ - ٤٤٨ .

اللفظ الثاني: البنون. فإن قال: هذا حُبْسٌ على ابني؛ فلا يتعدَّى الولدَ المعيَّنَ ولا يتعدَّد. ولو قال: ولدي، لَتعدَّى وتعدَّد في كلِّ مَن ولد. وإن قال: على بَنِيّ، دخل فيه الذكورُ والإناث. قال مالك: مَن تصدَّق على بنيه وبني بنيه، فإنَّ بناتِه وبناتِ بناته يدخلن في ذلك. وروى عيسى عن ابن القاسم فيمن حبس على بناته؛ فإنَّ بناتِ بنته يدخلن في ذلك مع بنات صُلْبه. والذي عليه جماعةُ أصحابه أنَّ ولد البنات لا يدخلون في البنين. فإن قيل: فقد قال النبيُّ ﷺ في الحسن ابنِ ابنته: «إنَّ ابني هذا سيِّدٌ، ولعلَّ اللهَ أنْ يُصلِحَ به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[١]. قلنا: هذا مجاز، وإنما أشار به إلى تشريفه وتقديمه؛ أَلَا ترى أنه يجوز نفيُه عنه، فيقول الرجل في ولد بنته: ليس بابني؛ ولو كان حقيقةً ما جاز نفيُه عنه؛ لأن الحقائق لا تُنفى عن مُنتسباتها[٢]. ألا ترى أنه ينتسب إلى أبيه دون أمه؛ ولذلك قيل في عبد الله بنِ عباس: إنه هاشميٌّ وليس بهلالي، وإن كانت أُمُّه هلالية.

قلت: هذا الاستدلال غيرُ صحيح، بل هو ولدٌ على الحقيقة في اللغة؛ لوجود معنى الولادةِ فيه، ولأن أهل العلم قد أجمعوا على تحريم بنت البنت مِن قول اللهِ تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]، فجعل عيسى من ذُرِّيَّته، وهو ابنُ بنته على ما تقدَّم بيانُه هناك[٣]. فإن قيل: فقد قال الشاعر:

بنونا بنو أبنائنا، وبناتُنا ... بنوهنَّ أبناءُ الرجالِ الأباعدِ[٤]

---

(١) صحيح البخاري (٢٧٠٤)، وسلف ٥/ ١١٦ .

(٢) في (ف): مشبهاتها، وفي أحكام القرآن: مسمياتها.

(٣) ٨/ ٤٤٦-٤٤٧ .

(٤) كتاب الحيوان للجاحظ ١/ ٣٤٦ ، والإنصاف لابن الأنباري ١/ ٦٦ ، ومغني اللبيب ص٥٨٩ ، والخزانة ١/ ٤٤٤ دون نسبة. قال البغدادي: هذا البيت لا يعرف قائله مع شهرته في كتب النحاة وغيرهم. ورأيت في شرح الكرماني في شواهد شرح الكافية للخبيصي أنه قال: هذا البيت قائله أبو فراس همام الفرزدق بن غالب. والله أعلم بحقيقة الحال.

قيل لهم: هذا لا دليلَ فيه؛ لأن معنى قولِه إنما هو أَنَّ[١] ولد بنيه الذُّكرانِ هم الذين لهم حكمُ بنيه في الموارثة والنسب، وأَنَّ ولد بناته ليس لهم حكمُ بناته في ذلك؛ إذ ينتسبون إلى غيره، فأخبر بافتراقهم بالحكم مع اجتماعهم في التسمية، ولم يَنْفِ عن ولد البناتِ اسمَ الولد؛ لأنه ابن؛ وقد يقول الرجل في ولده: ليس هو بابني؛ إذ لا يطيعني ولا يرى لي حقًّا، ولا يريد بذلك نفيَ اسمِ الولدِ عنه، وإنما يريد أن ينفيَ عنه حكمَه. ومَن استدلَّ بهذا البيتِ على أنَّ ولد البنت لا يُسمَّى ولداً، فقد أفسد معناه وأبطل فائدته، وتأوَّل على قائله ما لا يصح؛ إذ لا يمكن أن يُسمَّى ولدُ الابن في اللسان العربيِّ ابناً، ولا يُسمَّى ولدُ الابنة ابناً؛ من أجل أنَّ معنى الولادة التي اشتُقَّ منها اسمُ الولد فيه أَبْيَنُ وأقوى؛ لأن ولد الابنةِ هو ولدُها بحقيقة الولادة، وولد الابن إنما هو ولدُه بماله مما[٢] كان سبباً للولادة. ولم يُخرِجْ مالكٌ رحمه الله أولادَ البنات مِن حُبْس مَن حَبَس[٣] على ولده من أجل أنَّ اسم الولد غيرُ واقعٍ عليه عنده في اللسان، وإنما أخرجهم منه قياساً على الموارثة. وقد مضى هذا في «الأنعام»، والحمدُ لله[٤].

اللفظ الثالث: الذُّرِّيَّة. وهي مأخوذةٌ مِن: ذرأَ اللهُ الخلقَ؛ فيدخل فيه[٥] ولدُ البنات، لقوله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ إلى أن قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٥]. وإنما كان من ذريته مِن قِبَل أُمه. وقد مضى في «البقرة» اشتقاقُ الذرية[٦] وفي «الأنعام» الكلامُ على «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» الآية [٨٤][٧]؛ فلا معنى للإعادة.

(١) لفظة: أن ليست في (د) و(م).

(٢) في (د) و(ف): فما.

(٣) قوله: من حبس، من (ظ).

(٤) ٨/ ٤٤٧-٤٤٨ .

(٥) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٧ زيادة: عند علمائنا.

(٦) ٢/ ٣٦٨ .

(٧) ٨/ ٤٤٦ - ٤٤٧ .

اللفظ الرابع: العَقِب. وهو في اللغة عبارةٌ عن شيء بعد شيءٍ كان مِن جنسه أو من غير جنسه؛ يقال: أعقب اللهُ بخير؛ أي: جاء بعد الشِّدَّة بالرَّخاء. وأعقب الشيبُ السَّواد.

وعَقَب يَعْقُب عُقُوباً وعَقْباً: إذا جاء شيئاً بعد شيء؛ ولهذا قيل لولد الرجل: عَقِبه[١].

والمِعْقاب من النساء: التي تلد ذَكَراً بعد أنثى، هكذا أبداً. وعقب الرجل: ولده وولدُ ولدِه الباقون بعده. والعاقبة: الولد؛ قال يعقوب: في القرآن: «وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ». وقيل: بل الورثة كلُّهم عَقِب. والعاقبة: الولد؛ وكذلك[٢] فسَّره مجاهدٌ هنا. وقال ابن زيد: هاهنا هم الذُّرِّيَّة. وقال ابن شهاب: هم الولد وولدُ الولد. وقيل غيره على ما تقدَّم عن السُّدِّيّ[٣].

وفي الصحاح: والعَقِب، بكسر القاف: مُؤخَّر القدم، وهي مؤنثة. وعقب الرجل أيضاً: ولدُه وولدُ ولدِه. وفيه لغتان: عَقِب وعَقْب، بالتسكين، وهي أيضاً مؤنثة، عن الأخفش. وعَقَبَ فلانٌ مكانَ أبيه عاقبةً، أي: خلفه؛ وهو اسمٌ جاء بمعنى المصدر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[٤] [الواقعة: ٢].

ولا فرق عند أحدٍ من العلماء بين لفظ العَقِب والولد في المعنى. واختُلف في الذُّرِّيَّة والنسل، فقيل: إنهما بمنزلة الولد والعَقِب؛ لا يدخل ولدُ البنات فيهما على مذهب مالك. وقيل: إنهم يدخلون فيهما. وقد مضى الكلامُ في الذرية هنا وفي «الأنعام».

اللفظ الخامس: نَسْلي. وهو عند علمائنا كقوله: ولدي وولدُ ولدي[٥]؛ فإنه

(١) تهذيب اللغة ١/ ٢٧١ .

(٢) في (د) و(م): ولذلك، والمثبت من (ظ) و(ف)، وهو الموافق لما في أحكام القرآن.

(٣) في المسألة الأولى. وقول ابن زيد وابن شهاب أخرجهما الطبري ٢٠/ ٥٧٨ .

(٤) الصحاح (عقب).

(٥) في أحكام القرآن: ولد ولدي، بدل: ولدي وولد ولدي.

يدخل فيه ولدُ البنات. ويجب أن يدخلوا؛ لأنَّ نَسَل بمعنى خرج، وولد البنات قد خرجوا منه بوجهٍ، ولم يقترن به ما يَخُصُّه كما اقترن بقوله: عَقِبي ما تناسلوا.

وقال بعض علمائنا: إنَّ النسل بمنزلة الولد والعقب، لا يدخل فيه ولدُ البنات؛ إلَّا أنْ يقول المُحبِس: نسلي ونسلُ نسلي، كما إذا قال: عقبي وعَقِبُ عقبي، وأما إذا قال: ولدي أو عقبي مُفْرَداً، فلا يدخل فيه البنات.

اللفظ السادس: الآل. وهم الأهل؛ وهو اللفظ السابع. قال ابن القاسم: هما سواء، وهم العَصَبةُ والإخوة والأَخَوات[١] والبنات والعمات؛ ولا يدخل فيه الخالات. وأصل الأهل: الاجتماعُ، يقال: مكانٌ آهِل: إذا كان فيه جماعة، وذلك بالعصبة ومَن دخل في العقد[٢]، والعَصَبة مشتقَّةٌ منه، وهي أخصُّ به. وفي حديث الإفك: يا رسول الله، أَهْلُكَ! ولا نعلم إلَّا خيراً؛ يعني عائشة[٣]. ولكن لا تدخل فيه الزوجةُ بإجماع وإن كانت أصلَ التأهُّل؛ لأنَّ ثبوتها ليس بيقين، إذ قد يتبدَّل ربطُها وينحلُّ بالطلاق. وقد قال مالك: آلُ محمدٍ كلُّ تقي[٤]؛ وليس من هذا الباب. وإنما أراد أنَّ الإيمان أخصُّ من القرابة، فاشتملت عليه الدَّعوةُ وقُصد بالرحمة.

وقد قال أبو إسحاق التونسي: يدخل في الأهل كلُّ مَن كان من جهة الأبوين. فوفَّى الاشتقاقَ حقَّه، وغَفَلَ عن العُرف ومطلقِ الاستعمال. وهذه المعاني إنما تُبنى

(١) قوله: والأخوات ليس في (د) و(ظ) و(م).

(٢) كذا في النسخ الخطية وأحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨، والكلام منه، وبعدها في (م): من النساء. وقد ذكر أبو الوليد الباجي في المنتقى ٦/ ١٢٤ كلام ابن القاسم ثم قال: ومعنى ذلك عندي العصبة، أو من كان في قُعْددهنَّ من النساء. والقُعْدُد: الأقرب إلى الأب الأكبر. المصباح المنير (قعد).

(٣) القائل أسامة بن زيد ﷺ كما في البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠). وقد سلف ١/ ٣٩٩.

(٤) ذكره عنه ابن العربي في أحكام القرآن ٤/ ١٦٦٨. وقد أخرجه مرفوعاً العقيلي في الضعفاء ٤/ ٢٨٧، وابن عدي في الكامل ٧/ ٢٥١٣، والبيهقي ٢/ ١٥٢ من طريق نافع السلمي، عن أنس ﷺ. قال البيهقي: وهذا لا يحل الاحتجاج بمثله. وأخرجه الطبراني في الصغير (٣١٨)، والأوسط (٣٣٥٦) من طريق نوح ابن أبي مريم، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن أنس. قال الحافظ في الفتح ١١/ ١٦١: سنده واهٍ جداً.

على الحقيقة، أو على العرف المستعملِ عند الإطلاق، فهذان لفظان.

اللفظ الثامن: قرابة. فيه أربعة أقوال:

الأوّل: قال مالكٌ في كتاب محمدٍ وابنِ[١] عَبْدوس: إنهم الأقربُ فالأقربُ بالاجتهاد؛ ولا يدخل فيه ولدُ البنات ولا ولدُ الخالات.

الثاني: يدخل فيه أقاربُه من قِبَل أبيه وأُمِّه؛ قاله علي بنُ زياد.

الثالث: قال أشهب: يدخل فيه كلُّ رَحِمٍ من الرجال والنساء.

الرابع: قال ابن كِنَانة: يدخل فيه الأعمامُ والعمَّات والأخوال والخالات[٢] وبنات الأخت.

وقد قال ابن عباس في تفسير قولِه تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣] قال: إلَّا أنْ تَصِلوا قرابةَ ما بيني وبينكم؛ وقال: لم يكن بطنٌ من قريشٍ إلا كان بينه وبين النبيِّ ﷺ قرابة[٣]. فهذا يَضبِطه، والله أعلم.

اللفظ التاسع: العشيرة. ويضبِطه الحديثُ الصحيح: إن الله تعالى لما أنزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] دعا النبيُّ ﷺ بطونَ قريشٍ وسمَّاهم، كما تقدَّم ذِكْرُه[٤]، وهم العشيرة الأقربون، وسِوَاهم عشيرةٌ في الإطلاق. واللفظ يُحمل على الأخصِّ الأقربِ بالاجتهاد، كما تقدَّم مِن قول علمائنا.

اللفظ العاشر: القوم. يُحمل[٥] ذلك على الرجال خاصَّةً من العَصَبة دون النساء. والقوم يشمل الرجالَ والنساء؛ وإن كان الشاعر قد قال:

---

(١) لفظة: و، ليست في (م).

(٢) في بعض النسخ الخطية من أحكام القرآن (كما في حواشيه) زيادة: وبنات الأخ.

(٣) أخرجه أحمد (٢٠٢٤)، والبخاري (٣٤٩٧).

(٤) ١٦/ ٨٣.

(٥) قبلها في المطبوع من أحكام القرآن: قال القرويون.

وما أدري وسوف إخال أدري أقومٌ آل حِصْنٍ أم نساءُ[١]

ولكنه أراد أنَّ الرجل إذا دعا قومه للنُّصرة، عنى الرجال، وإذا دعاهم للحُرْمة، دخل فيهم الرجالُ والنساء؛ فتَعُمُّه الصفة وتخصِّصه القرينة.

اللفظ الحادي عشر: المَوَالي. قال مالك: يدخل فيه موالي أبيه وابنِه مع مواليه. وقال ابن وهب: يدخل فيه أولادُ مواليه.

قال ابن العربي[٢]: والذي يتحصَّل منه أنه يدخل فيه مَن يرثه بالوَلاء؛ قال: وهذه فصولُ الكلام وأصولُه المرتبطةُ بظاهر القرآن والسنة المبيِّنة له؛ والتفريعُ والتتميم في كتب[٣] المسائل، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ وقُرئ: «بَلْ مَتَّعْنَا»[٤]. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ أي: في الدنيا بالإمهال. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: محمدٌ ﷺ بالتوحيد والإسلام الذي هو أصلُ دين إبراهيم؛ وهو الكلمة التي بقَّاها اللهُ في عقِبه. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أي: يبيِّن لهم ما بهم إليه حاجة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ يعني القرآن. ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون[٥].

---

(١) سلف ٢/ ١٠٩ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ ، وما قبله منه.

(٣) المثبت من (ف) وأحكام القرآن، وفي باقي النسخ: كتاب.

(٤) هي قراءة الأعمش كما في المحرر الوجيز ٥/ ٥٢ ، وهي قراءة شاذة.

(٥) تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٦ .

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ﴾ أي: هلَّا نزل ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ وقرئ: «على رَجْل» بسكون الجيم. ﴿مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أي: من إحدى القريتَين؛ كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢] أي: من أحدهما[١]. أو على أحدِ رجلين من القريتين. القريتان: مكة والطائف. والرجلان: الوليدُ بنُ المغيرة بنِ عبد الله بن عمر ابن مخزوم عمُّ أبي جهل. والذي من الطائف أبو مسعود عروة بنُ مسعود الثقفي؛ قاله قتادة. وقيل: عمير بنُ عبد يالِيل الثقفي من الطائف، وعتبة بنُ ربيعة من مكة؛ وهو قول مجاهد. وعن ابن عباس: أنَّ عظيم الطائف حبيب بنُ عمرٍو الثقفي. وقال السُّدِّيّ: كنانة بنُ عبد بنِ عمرو. وروي أنَّ الوليد بنَ المغيرة ـ وكان يُسمى ريحانةَ قريش ـ كان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ حقًّا، لنزل عليَّ أو على أبي مسعود؛ فقال الله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾[٢] يعني النبوَّةَ فيضعونها حيث شاؤوا![٣]

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: أَفْقَرنا قوماً وأغنينا قوماً؛ فإذا لم يكن أمرُ الدنيا إليهم؛ فكيف نفوِّض أمرَ النبوَّة إليهم؟ قال قتادة: تَلْقاه ضعيفَ القوَّة قليلَ الحيلة عَييَّ اللسان وهو مبسوطٌ له، وتلقاه شديدَ الحيلة بسيطَ اللسان وهو مُقتَّرٌ عليه[٤].

وقرأ ابن عباس ومجاهدٌ وابن مُحَيْصِن في رواية عنه: «مَعَايِشَهُمْ»[٥]. وقيل: أي: نحن أعطينا عظيمَ القريتين ما أعطينا لا لكرامتهما عليَّ، وأنا قادرٌ على نزع النِّعمةِ عنهما، فأيُّ فضلٍ وقَدْرٍ لهما؟!

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي: فاضَلْنا بينهم، فمن فاضلٍ ومفضول

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٥ . وقراءة «رَجْل» بسكون الجيم شاذة.

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٠-٥٨٤ ، وينظر الوسيط للواحدي ٤/ ٧٠ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٤-٥٨٥ .

(٥) ذكر القراءة عن ابن عباس ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

ورئيس ومرؤوس؛ قاله مقاتل. وقيل: بالحرية والرِّق؛ فبعضهم مالِكٌ وبعضهم مملوك. وقيل: بالغِنى والفقر؛ فبعضُهم غنيٌّ وبعضهم فقير. وقيل: بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر[١].

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ قال السُّدِّيُّ وابن زيد: خَوَلاً وخُدَّاماً، يسخِّر الأغنياءُ الفقراءَ، فيكون بعضُهم سبباً لمعاشِ بعض. وقال قتادة والضحاك: يعني ليملكَ بعضُهم بعضاً[٢]. وقيل: هو من السُّخرِيَّة التي بمعنى الاستهزاء؛ أي: لِيستهزئَ الغنيُّ بالفقير[٣]. قال الأخفش: سَخِرت به وسَخِرت منه، وضَحِكت منه وضَحِكت به، وهزِئت منه وبه؛ كلٌّ يقال، والاسم: السُّخرِيَّة، بالضم؛ والسُّخْرِيُّ والسِّخْرِيّ، بالضمِّ والكسر[٤]. وكلُّ الناس ضمُّوا «سُخْرِيًّا» إلا ابنَ مُحَيْصِن ومجاهداً، فإنهما قرأا: «سِخْرِيًّا»[٥].

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أي: أفضل ممَّا يجمعون من الدنيا. ثم قيل: الرحمة: النبوَّة، وقيل: الجنة. وقيل: تمامُ الفرائض خيرٌ من كثرة النوافل. وقيل: ما يَتفضَّل به عليهم خيرٌ مما يجازيهم عليه من أعمالهم[٦].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قال العلماء: ذَكَرَ حقارةَ الدنيا وقلَّةَ خطرها، وأنها عنده من الهوان

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٣ .

(٢) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٥٨٥-٥٨٦ بنحوها.

(٣) ينظر تفسير أبي الليث ٣/ ٢٠٧ .

(٤) الصحاح (سخر)، وكلام الأخفش فيه.

(٥) ذكر قراءة ابن محيصن ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤ .

بحيث كان يَجعل بيوتَ الكَفَرةِ ودَرَجها ذهباً وفِضَّةً لولا غلبةُ حبِّ الدنيا على القلوب؛ فيَحمِلُ ذلك على الكفر[١].

قال الحسن: المعنى: لولا أنْ يكفُرَ الناسُ جميعاً بسبب ميلهم إلى الدنيا وتركِهم الآخرةَ، لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لِهوان الدنيا عند الله عزَّ وجلَّ. وعلى هذا أكثرُ المفسِّرين، ابنُ عباس والسُّدِّيُّ وغيرهم.

وقال ابن زيد: «وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً» في طلب الدنيا واختيارِها على الآخرة «لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سقُفُاً مِنْ فِضَّةٍ»[٢].

وقال الكسائي: المعنى: لولا أن يكونَ في الكفار غنيٌّ وفقير وفي المسلمين مِثلُ ذلك، لأعطينا الكفارَ من الدنيا هذا لهوانها.

الثانية: قرأ ابن كثيرٍ وأبو عمرٍو: «سَقْفًا» بفتح السين وإسكان القاف على الواحد، ومعناه الجمع، اعتباراً بقوله تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٢٦]. وقرأ الباقون بضمِّ السينِ والقافِ على الجمع[٣]؛ مثل: رَهْن ورُهُن. قال أبو عبيد[٤]: ولا ثالث لهما. وقيل: هو جمع سقيف؛ مثل: كَثِيب وكُثُب، ورَغيف ورُغُف؛ قاله الفراء. وقيل: هو جمع سُقُوف، فيصير جَمْعَ الجمع[٥]؛ سَقْف وسُقُوف، نحو: فَلْس وفُلُوس. ثم جعلوا فُعولاً كأنه اسمُ واحد، فجمعوه على فُعُل.

وروي عن مجاهد: «سَقْفاً» بإسكان القاف[٦].

وقيل: اللام في «لِبُيُوتِهِمْ» بمعنى على، أي: على بيوتهم. وقيل: بدل؛ كما

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٦٧٠ .

(٢) أخرج هذه الأقوال الطبري ٢٠/ ٥٨٧ - ٥٨٨ .

(٣) السبعة ص٥٨٥ ، والتيسير ص١٩٦ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٥٨٩ .

(٤) في تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ والكلام منه: أبو عبيدة.

(٥) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

تقول: فعلت هذا لزيدٍ لكرامته؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١] كذلك قال هنا: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ﴾[١].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَعَارِجَ﴾ يعني الدَّرَج؛ قاله ابن عباس، وهو قولُ الجمهور. واحدها مِعراج[٢]، والمِعراج: السُّلَّم؛ ومنه ليلة المعراج. والجمع: معارج ومعاريج؛ مثل: مفاتح ومفاتيح[٣]؛ لغتان.

«وَمَعَارِيجَ» قرأ أبو رجاء العُطَارِدِيُّ وطلحة بنُ مُصَرِّف[٤]؛ وهي المراقي والسلاليم. قال الأخفش: إن شئتَ جعلت الواحد مِعْرَج ومَعْرَج؛ مثل: مِرقاة ومَرقاة[٥].

﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: على المعارج يرتقون ويصعدون؛ يقال: ظهرت على البيت، أي: علوتُ سطحَه. وهذا لأنَّ مَن علا شيئاً وارتفع عليه ظهر للناظرين. ويقال: ظهرت على الشيء، أي: عَلِمْته. وظهرت على العدوّ، أي: غلبته.

وأنشد نابغةُ بني جَعْدةَ رسولَ الله ﷺ قولَه:

عَلَوْنا السماءَ عِزَّةً ومَهابةً وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرا[٦]

أي: مصعداً؛ فغضب رسولُ الله ﷺ وقال: «إلى أين؟» قال: إلى الجنة؟، قال: «أجل إن شاء الله»[٧].

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣١ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٧ .

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٤ ، وأخرج قول ابن عباس وغيره الطبري ٢٠/ ٥٩٠-٥٩١ .

(٣) الصحاح (عرج).

(٤) قراءة طلحة في القراءات الشاذة ص٨٥ . والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٥) الصحاح (عرج).

(٦) ورد البيت في الديوان ص٥١ و ٦٨ في قصيدتين، في الأولى براوية: بلغنا السماء مجدنا وجدودنا، وفي الثانية: بلغنا السما مجداً وجوداً وسودداً.

(٧) أخرجه البزار (٢١٠٤ كشف الأستار). قال الهيثمي في المجمع ٨/ ١٢٦ : فيه يعلى بن الأشدق، وهو ضعيف. اهـ . ورواية البيت فيه: علونا العباد عفة وتكرماً.

قال الحسن: واللهِ لقد مالت الدنيا بأكثرِ أهلِها وما فَعَلَ ذلك! فكيف لو فعل؟![١]

الرابعة: استدلَّ بعض العلماء بهذه الآيةِ على أنَّ السقف لا حَقَّ فيه لربِّ العُلْو؛ لأن الله تعالى جعل السقوفَ للبيوت كما جعل الأبوابَ لها. وهذا مذهبُ مالكٍ رحمه الله.

قال ابن العربي[٢]: وذلك لأنَّ البيت عبارةٌ عن قاعة وجدار وسقف وباب، فمَن له البيتُ، فله أركانه. ولا خلاف أنَّ العُلْوَ له إلى السماء. واختلفوا في السُّفل؛ فمنهم مَن قال: هو له، ومنهم مَن قال: ليس له في باطن الأرض شيء. وفي مذهبنا القولان. وقد بيَّن حديثُ الإسرائيليِّ الصحيحِ ـ فيما تقدَّم ـ أنَّ رجلاً باع من رجل داراً، فبناها فوجد فيها جَرَّةً مِن ذهب، فجاء بها إلى البائع فقال: إنما اشتريتُ الدارَ دون الجرَّة، وقال البائع: إنما بِعتُ الدار بما فيها، وكلاهما[٣] تدافعها. فقُضي بينهم[٤] أنْ يزوِّجَ أحدُهما ولدَه مِن بنت الآخرَ ويكون المال لهما[٥]. والصحيح أنَّ العُلْو والسُّفل له، إلَّا أنْ يَخرُجَ عنهما بالبيع، فإذا باع أحدُهما أحدَ الموضعين فله منه ما ينتفع به، وباقيه للمبتاع منه.

الخامسة: مِن أحكام العُلْو والسُّفل: إذا كان العُلْوُ والسُّفلُ بين رجلين، فيعتلُّ السُّفلُ أو يريد صاحبُه هَدْمَه؛ فذكر سُحْنون عن أشهب أنه قال: إذا أراد صاحبُ السُّفل أن يَهدِم، أو أراد صاحبُ العلو أن يبني عُلْوَه، فليس لصاحب السفل أن يهدم إلَّا مِن ضرورة، ويكون هدمُه له أرفقَ لصاحب العلو؛ لئلا ينهدم بانهدامه العلو،

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٨٧ .

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٠ . وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٣) في النسخ: وكلهم، والمثبت من أحكام القرآن.

(٤) في النسخ زيادة: النبي ﷺ.

(٥) أخرجه بنحوه أحمد (٨١٩١)، والبخاري (٣٤٧٢)، ومسلم (١٧٢١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وليس لربِّ العلو أن يبنيَ على عُلْوه شيئاً لم يكن قبل ذلك، إلا الشيءَ الخفيفَ الذي لا يَضُرُّ بصاحب السفل. ولو انكسرت خشبةٌ من سقف العلو، لَأَدخلَ مكانَها خشبةً ما لم تكن أثقلَ منها ويُخافُ ضررُها على صاحب السفل. قال أشهب: وباب الدار على صاحب السفل. قال: ولو انهدم السُّفلُ أُجبر صاحبُه على بنائه، وليس على صاحب العُلْوِ أن يبنيَ السُّفل؛ فإن أبى صاحبُ السُّفل من البناء، قيل له: بِعْ ممن يبني.

وروى ابن القاسم عن مالكٍ في السُّفل لرجل والعلوِ لآخَر، فاعتلَّ السُّفل، فإنَّ صلاحه على ربِّ السُّفل، وعليه تعليقُ العُلْوِ حتى يُصلِحَ سُفلَه؛ لأن عليه: إمَّا أن يَحمِلَه على بنيان، أو على تعليق، وكذلك لو كان على العُلو عُلْوٌ، فتعليق العُلوِ الثاني على صاحب الأوسط. وقد قيل: إنَّ تعليق العُلو الثاني على ربِّ العُلو حتى يبنيَ الأسفل(١).

وحديث النعمان بنِ بشير عن النبيِّ ﷺ قال: «مَثَلُ القائمِ على حدود الله والواقعِ فيها كمثل قومٍ اسْتَهَموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وبعضُهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوا من الماء، مرُّوا على مَن فوقهم فقالوا: لو أنَّا خرقنا في نصيبنا خَرْقاً ولم نؤذِ مَن فوقنا. فإنْ يتركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً. وإن أخذوا على أيديهم نَجَوا ونَجَوا جميعاً»(٢) أصلٌ في هذا الباب. وهو حُجَّةٌ لمالكٍ وأشهب. وفيه دليلٌ على أنَّ صاحب السفل ليس له أن يُحدِثَ على صاحب العُلْوِ ما يَضرُّ به، وأنه إن أحدث عليه ضرراً؛ لَزِمه إصلاحُه دون صاحبِ العُلو، وأنَّ لصاحب العُلو منعَه من الضرر؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «فإن أخذوا على أيديهم نَجَوْا ونَجَوْا جميعاً» ولا يجوز الأخذُ إلَّا على يد الظالم أو مَن هو ممنوعٌ من إحداث ما لا يجوز له في السُّنة.

وفيه دليلٌ على استحقاق العقوبةِ بترك الأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكر، وقد

---

(١) ينظر النوادر والزيادات ١١/ ٢٢٧، وعقد الجواهر الثمينة ٢/ ٦٤٣.

(٢) سلف ٩/ ٤٨٧.

مضى في «الأنفال»[١].

وفيه دليلٌ على جواز القُرعةِ واستعمالِها، وقد مضى في «آل عمران»[٢]. فتأمَّل كُلًّا في موضعه تجدْه مبيَّناً، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا﴾ أي: ولَجعلنا لبيوتهم. وقيل: «لِبُيُوتِهِمْ» بدلُ اشتمالٍ مِن قوله: ﴿لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾[٣]. «أبواباً» أي: مِن فضة. ﴿وَسُرُرًا﴾ كذلك؛ وهو جمع السَّرير[٤]. وقيل: جمع الأَسِرَّة، والأسِرَّة جمعُ السرير، فيكون جمعَ الجمع[٥].

﴿عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ الاتِّكاء والتَّوكُّؤ: التحامل على الشيء[٦]؛ ومنه: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٨]. ورجل تُكَأَة، مثال هُمَزَة: كثير الاتّكاء. والتُّكَأة أيضاً: ما يُتَّكأ عليه. واتَّكأ على الشيء فهو متَّكِئ؛ والموضع متَّكأ. وطعنه حتى أتكأه، على أَفْعَلَه، أي: ألقاه على هيئة المُتَّكِئ. وتوكَّأت على العصا. وأصل التاء في جميع ذلك واو[٧]، ففُعل به ما فُعل بـ: اتَّزن واتَّعد.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ الزُّخرف هنا الذهب؛ عن ابن عباس وغيرِه[٨]. نظيرُه: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ

(١) ٩/ ٤٨٧.

(٢) ٥/ ١٣٢.

(٣) مضى في المسألة الثانية من الآية السابقة.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٥) ينظر تهذيب اللغة ١٢/ ٢٨٧.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٧١.

(٧) الصحاح (وكأ).

(٨) أخرجه عنه وعن غيره الطبري ٢٠/ ٥٩٢-٥٩٣.

﴿بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾ [الإسراء: ٩٣][١] وقد تقدَّم[٢]. وقال ابن زيد: هو ما يتخذه الناسُ في منازلهم من الأمتعة والأثاث[٣]. وقال الحسن: النقوش[٤]؛ وأصله الزينة. يقال: زخرفت الدار، أي: زيَّنتها. وتزخرف فلان، أي: تزيَّن[٥]. وانتصب «زُخْرُفاً» على معنى: وجعلنا لهم مع ذلك زخرفاً. وقيل: بنزع الخافض؛ والمعنى: لَجعلنا[٦] لهم سُقُفاً وأبواباً وسُرُراً من فضة ومِن ذهب؛ فلما حَذف «مِن»، قال: «وزخرفاً» فنصب.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ قرأ عاصمٌ وحمزة وهشام عن ابن عامر: ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالتشديد. الباقون بالتخفيف[٧]؛ وقد ذُكر هذا. وروي عن أبي رجاءٍ كسرُ اللام من «لما»؛ ف «ما» عنده بمنزلة الذي، والعائدُ عليها محذوف، والتقدير: وإنْ كلُّ ذلك لِلذي هو متاعُ الحياةِ الدنيا[٨]، وحذفُ الضمير هاهنا كحذفه في قراءة مَن قرأ: ﴿مَثَلًا مَّا بعوضةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾[٩] [البقرة: ٢٦] و﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

أبو الفتح: ينبغي أنْ يكونَ «كُلُّ» على هذه القراءةِ منصوبةً؛ لأنَّ «إنْ» مخفَّفةٌ من الثقيلة، وهي إذا خُفِّفت وبطَلَ عملُها، لَزِمتها اللامُ في آخر الكلام؛ للفرق بينها وبين «إن» النافيةِ التي بمعنى «ما»؛ نحو: إنْ زيدٌ لقائم، ولا لامَ هنا سوى الجارَّة[١٠].

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٣٨ .

(٢) ١٣/ ١٧٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٣ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٢٥ .

(٥) ينظر تهذيب اللغة ٧/ ٦٧٢ .

(٦) في (د) و(م): فجعلنا. وينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٠٩ .

(٧) وهو الوجه الثاني لهشام. السبعة ص٥٨٦ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٨) المحتسب ٢/ ٢٥٥ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٤ .

(٩) أي: ما هو بعوضة. المحتسب ٢/ ٢٥٥ ، وهي قراءة شاذة، وينظر ١/ ٣٦٥ .

(١٠) المحتسب ٢/ ٢٥٥ . وقال ابن جني بعد ذلك: ولو جاءت معها لوجب أن تقول: وإنْ كلُّ ذلك لَلِما =

﴿وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يريد: الجنةُ لمن اتَّقى وخاف.

وقال كعب: إني لأجد في بعض كتبِ الله المنزلة: لولا أنْ يَحْزَن عبدي المؤمن، لكلَّلتُ رأسَ عبدي الكافرِ بالإكليل، ولا يتصدَّعُ ولا يَنبِض منه عِرْقٌ بوجع[(١)].

وفي صحيح الترمذيِّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الدنيا سجنُ المؤمن وجَنة الكافر»[(٢)]. وعن سهل بنِ سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِل عند الله جَناحَ بعوضة، ما سقى كافراً منها شَرْبَةَ ماء». وفي الباب عن أبي هريرة، وقال: حديثٌ صحيح[(٣)] غريب[(٤)].

وأنشدوا:

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسنٍ ... إذاً لم يكن فيها معاشٌ لظالمِ
لقد جاع فيها الأنبياءُ كرامةً ... وقد شَبِعت فيها بطونُ البهائمِ

وقال آخر[(٥)]:

تَسَمَّعْ[(٦)] من الأيام إن كنت حازماً ... فإنَّك فيها بين ناهٍ وآمِرِ
إذا أبقت الدنيا على المرء دينَه ... فما فاته منها فليس بضائرِ
فلا تَزِنُ الدنيا جناحَ بعوضةٍ ... ولا وزنَ زِفٍّ[(٧)] من جَناحٍ لطائرِ

= متاعُ الحياة الدنيا. وقال السمين الحلبي في الدرّ المصون ٩/ ٥٨٦: كان الوجه أن تدخل اللام الفارقة لعدم إعمالها، إلا أنها لما دلَّ الدليل على الإثبات جاز حذفها.

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ١٩٧ عن معمر، عن أبان.

(٢) سنن الترمذي (٢٣٢٤)، وهو عند أحمد (٨٢٨٩)، ومسلم (٢٩٥٦).

(٣) في (د) و(م): حسن.

(٤) سنن الترمذي (٢٣٢٠). وسلف ٨/ ٣٦٢.

(٥) هو أبو العتاهية، وقد سلفت الأبيات ٨/ ٣٦٣ باختلاف يسير.

(٦) في (م): تمتع.

(٧) في (د) و(ز) و(م): رق، وفي (ظ): زق، والمثبت من الموضع السالف للأبيات. والزف: صغار ريش النعام، أو كل طائر. القاموس (زفف).

فلم يرضَ بالدنيا ثواباً لمحسنٍ ولا رَضِيَ الدنيا عقاباً لكافرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ۝٣٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ وقرأ ابن عباسٍ وعكرمة: «ومَن يَعْشَ» بفتح الشين[١]، ومعناه: يعمَى؛ يقال منه: عَشِيَ يَعْشَى عَشاً: إذا عَمِيَ. ورجلٌ أعشى وامرأةٌ عشواء: إذا كان لا يُبصر؛ ومنه قولُ الأعشى:

رأتْ رجلاً غائبَ الوافِدَيْـ ـنِ مختلِفَ الخَلْقِ أعْشَى ضريرا[٢]

وقولُه:

أأَنْ رأتْ رجلاً أعشى أضرَّ به رَيْبُ المَنُونِ ودَهْرٌ مُفْنِدٌ خَبِلُ[٣]

الباقون بالضم؛ مِن: عشا يعشُو: إذا لَحِقَه ما يلحق الأعشى[٤].

وقال الخليل: العَشْو هو النظر ببصرٍ ضعيف؛ وأنشد:

متى تأتِهِ تَعْشُو إلى ضَوْءِ نارِهِ تَجِدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ مُوقِدِ[٥]

وقال آخر:

لَنِعمَ الفتى تعشو إلى ضوء ناره إذا الريحُ هبَّت والمكانُ جديبُ[٦]

---

(١) قراءة ابن عباس في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٢) ديوان الأعشى ص١٤٥ . والوافد: المرتفع من الخد عند المضغ. ومن شاب غاب وافداه. القاموس (وفد).

(٣) سلف ٥/ ١٧٤ .

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

(٥) البيت للحطيئة، وسلف ٤/ ٤٩١ . وكلام الخليل في تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ ، وينظر كتاب العين ٢/ ١٨٧ .

(٦) قائله الحطيئة، وهو في ديوانه ص٢٤٨ . قال شارحه: الشطر الثاني يعني في الشتاء والجدب.

الجوهريّ: والعَشَا ـ مقصور ـ مصدرُ الأعشى، وهو الذي لا يُبصر بالليل ويبصر بالنهار. والمرأة عشواء، وامرأتان عشواوان. وأعشاه اللهُ فعَشِيَ ـ بالكسر ـ يَعْشَى عَشًا، وهما يَعْشَيان، ولم يقولوا: يَعْشَوان؛ لأن الواو لمَّا صارت في الواحد ياءً لكسرة ما قبلها، تُركت في التثنية على حالها. وتعاشَى: إذا أرى مِن نفسه أنه أعشى. والنسبة إلى أَعْشَى أعْشَوِيّ. وإلى العَشِيَّة عَشَوِيّ. والعشواء: الناقة التي لا تُبصر أمامها؛ فهي تَخْبِط بيديها كلَّ شيء. ورَكِبَ فلانٌ العشواء: إذا خَبَط أمرَه على غير بصيرة. وفلانٌ خابطٌ خَبْطَ عشواء[(١)].

وهذه الآية تتصل بقوله أوَّلَ السورة: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ [الآية: ٥] أي: نواصل لكم الذِّكر؛ فمن يَعْشُ عن ذلك الذكرِ بالإعراض عنه إلى أقاويل المضِلِّين وأباطيلِهم «نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً» أي: نسبِّبْ له شيطاناً جزاءً له على كفره «فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ» قيل: في الدنيا، يمنعه من الحلال، ويبعثه على الحرام، وينهاه عن الطاعة، ويأمره بالمعصية؛ وهو معنى قولِ ابنِ عباس[(٢)].

وقيل: في الآخرة إذا قام مِن قبره؛ قاله سعيد الجُرَيْري.

وفي الخبر: أنَّ الكافر إذا خرج من قبره، يُشْفَعُ بشيطان لا يزال معه حتى يدخلا النار. وأنَّ المؤمن يُشْفع بملَك حتى يقضيَ اللهُ بين خلقه؛ ذكره المهدويّ[(٣)].

وقال القُشيري: والصحيح: فهو له قرينٌ في الدنيا والآخرة.

وقال أبو الهيثم والأزهري: عَشَوتُ إلى كذا، أي: قصدته. وعشوت عن كذا، أي: أعرضت عنه، فتفرّق بين «إلى» و«عن»؛ مثل: ملْتُ إليه، ومِلْتُ عنه[(٤)]. وكذا

---

(١) الصحاح (عشو).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ .

(٣) وأخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٩ عن سعيد الجُريري بنحوه، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٢٦ لسعيد بن جبير.

(٤) تهذيب اللغة ٣/ ٥٥-٥٦ .

قال قتادة: يَعْشُ: يُعْرِض؛ وهو قول الفراء[١].

النحاس[٢]: وهو غيرُ معروفٍ في اللغة. وقال القُرَظي: يولِّي ظهره؛ والمعنى واحد. وقال أبو عبيدة والأخفش: تُظْلِم عينُه [عنه][٣].

وأنكر القُتَبيُّ[٤] عشوت بمعنى أعرضت؛ قال: وإنما الصواب: تعاشيت. والقول قول أبي الهيثم والأزهري. وكذلك قال جميع أهل المعرفة.

وقرأ السُّلَمِيُّ، وابن أبي إسحاق، ويعقوبُ، وعِصْمة عن عاصم وعن الأعمش: «يقيِّض» بالياء؛ لِذِكر «الرَّحْمَن» أوّلاً؛ أي: يقيِّض له الرحمنُ شيطاناً[٥]. الباقون بالنون.

وعن ابن عباس: «يُقَيَّضْ له شيطانٌ فهو له قرين»[٦] أي: ملازمٌ ومصاحب. قيل: «فَهُوَ» كنايةٌ عن الشيطان؛ على ما تقدَّم. وقيل: عن الإعراض[٧] عن القرآن؛ أي: هو قرينٌ للشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: وإنَّ الشياطين لَيصدُّونهم عن سبيل الهدى؛ وذُكر بلفظ الجمع؛ لأن «مَن» في قوله: «وَمَنْ يَعْشُ» في معنى الجمع[٨].

(١) معاني القرآن له ٣/ ٣٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٥٩٦ . قال الفراء: ومن قرأها: يَعْشَ عن: يريد: يَعْمَ عنه.

(٢) في معاني القرآن ٦/ ٣٥٧ .

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة، وما بين حاصرتين منه، ونقله عنه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٥ ، وذكره البغوي ٤/ ١٣٩ عن أبي عبيدة والأخفش بلفظ: يظلم بصرف بصره عنه.

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٣٩٨ . ووقع في (د) و(ز) و(م): العتبي.

(٥) قراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥ ، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٦٩ ، ورواية عصمة ـ وهي عن أبي بكر عن عاصم ـ في جامع البيان ٢/ ٤٠١ ، والنشر ٢/ ٣٦٩ ، والقراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥ .

(٧) في النسخ الخطية: التعرض.

(٨) ينظر معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٢ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٠ .

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: ويحسب الكفار ﴿أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾. وقيل: ويَحسبُ الكفار أنَّ الشياطين مهتدون فيطيعونهم.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ على التوحيد قرأ أبو عمرٍو وحمزة والكسائيُّ وحفص؛ يعني: الكافر يوم القيامة. الباقون: «جاءانا» على التثنية(١)، يعني: الكافر وقرينه وقد جُعلا في سلسلة واحدة(٢)؛ فيقول الكافر: «يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: مشرق الشتاء ومشرقُ الصيف(٣)، كما قال تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن: ١٧] ونحوُه قولُ مقاتل(٤).

وقراءة التوحيد وإن كان ظاهرُها الإفراد، فالمعنى لهما جميعاً؛ لأنه قد عرَّف ذلك بما بعده؛ كما قال:

وعَيْنٌ لها حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ ... شُقَّت مآقيهما من أُخَرْ(٥)

قال مقاتل: يتمنَّى الكافرُ أنَّ بينهما بُعْدَ مشْرِق أطولِ يومٍ في السنة إلى مَشْرِق أقصرِ يومٍ في السنة، ولذلك قال: «بُعْدَ المَشْرِقَيْن»(٦).

وقال الفراء(٧): أراد المشرقَ والمغرب، فغَلَّب اسمَ أحدهما، كما يقال: القمران: للشمس والقمر، والعُمَران: لأبي بكر وعمر، والبصرتان: للكوفة والبصرة، والعصران: للغَدَاة والعصر. وقال الشاعر:

أخذنا بآفاق السماءِ عليكُمُ ... لنا قمراها والنجوم الطوالعُ(٨)

---

(١) السبعة ص٥٨٦ ، والتيسير ص١٩٦ .

(٢) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٣ ، وتفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٣ ، وتفسير الطبري ٢٠/ ٥٩٨ .

(٤) سيأتي قوله.

(٥) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص١٦٦ ، وسلف ١٦/ ٢٦ .

(٦) ذكر قوله بنحوه ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣١٦ .

(٧) في معاني القرآن ٣/ ٣٣ .

(٨) سلف عند تفسير الآية (٥٢) من سورة فصلت.

وأنشد أبو عبيدة لجرير:

ما كان يرضى رسولُ الله فعلَهُمُ والعُمَران[١] أبو بكر ولا عُمرُ

وأنشد سيبويه:

قَدْنِيَ مِن نَصْرِ الخُبَيْبَيْنِ قَدِي

يريد عبدَ الله ومصعباً ابنَي الزبير، وإنما أبو خبيب عبدُ الله[٢].

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ أي: فبئس الصاحبُ أنت؛ لأنه يورده إلى النار. قال أبو سعيد الخُدريّ: إذا بُعث الكافرُ، زُوِّج بقرينه من الشياطين، فلا يفارقُه حتى يصيِّرَه إلى النار[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ «إذْ» بَدَلٌ من اليوم؛ أي: يقول الله للكافرين[٤]: لن ينفعَكم اليوم إذ أشركتم في الدنيا هذا الكلامُ؛ وهو قولُ الكافر: «يا لَيْتَ بَيْني وَبيْنَكَ بُعْدَ المَشْرِقَيْنِ» أي: لا تنفع الندامة اليوم.

﴿إِنَّكُمْ﴾ بالكسر ﴿فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ وهي قراءة ابنِ عامر باختلاف عنه. الباقون بالفتح[٥]. وهي في موضعِ رفع، تقديره: ولن ينفعكم اليوم اشتراكُكم في العذاب[٦]؛ لأنَّ لكل واحدٍ نصيبَه الأَوفرَ منه. أَعْلَمَ اللهُ تعالى أنه مَنعَ أهلَ النار التأسِّيَ كما يتأسَّى أهلُ المصائب في الدنيا، وذلك أنَّ التأسِّيَ يستروِحه أهلُ الدنيا، فيقول أحدهم: لي

---

(١) في (د) و(ز) و(ظ): والطيبان، وسلف بهذا اللفظ عند تفسير الآية (٣٤) من سورة فصلت.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٦١ . وسلف الرجز عند تفسير الآية (١٣٠) من سورة الصافات.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٣٩ .

(٤) في النسخ عدا (ظ): للكافر.

(٥) السبعة ص٥٨٦ . وقراءة ابن عامر المذكورة هي من رواية التغلبي عنه، كما ذكر أبو عمرو الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١ .

(٦) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١١ .

في البلاء والمصيبة أُسوة؛ فيُسكن ذلك مِن حزنه؛ كما قالت الخنساء:

فلولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسِّي[1]

فإذا كان في الآخرة، لم ينفعهم التأسِّي شيئاً؛ لِشغلهم بالعذاب.

وقال مقاتل: لن ينفعَكم الاعتذارُ والندم اليوم؛ لأن قُرَناءكم وأنتم في العذابِ مشترِكون كما اشتركتم في الكفر[2].

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ يا محمد ﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي: ليس لك ذلك؛ فلا يضيقُ صدرُك إن كفروا؛ ففيه تسليةٌ للنبيِّ ﷺ. وفيه ردٌّ على القَدَرية وغيرِهم، وأنَّ الهدى والرُّشدَ والخِذلان في القلب خَلْقُ الله تعالى، يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ يريد: نخرجنَّك من مكةَ من أذى قريش[3]. ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ . أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ وهو الانتقامُ منهم في حياتك. ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قد أراه اللهُ ذلك يومَ بدر[4]؛ وهو قولُ أكثرِ المفسرين[5].

---

(١) ديوانها ص٨٤-٨٥.

(٢) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧.

(٤) زاد المسير ٧/ ٣١٧.

(٥) تفسير البغوي ٤/ ١٤٠.

وقال الحسن وقتادة: هي في أهل الإسلام؛ يريد ما كان بعد النبيِّ ﷺ مِن الفتن. و«نَذْهَبَنَّ بِكَ» على هذا: نتوفَّينَّك. وقد كان بعد النبيِّ ﷺ نِقمةٌ شديدةٌ، فأكرم الله نبيَّه ﷺ وذهب به، فلم يُرِه في أمته إلَّا الذي[1] تَقَرُّ به عينُه، وأبقى النِّقمةَ بعده، وليس مِن نبيٍّ إلَّا وقد أُرِي النقمةَ في أمته[2]. ورُوِيَ أن النبيَّ ﷺ أُرِي ما لَقِيت أُمَّتُه مِن بعده، فما زال منقبضاً، ما انبسط ضاحكاً حتى لقيَ اللهَ عزَّ وجلَّ[3]. وعن ابن مسعود: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا أراد اللهُ بأُمَّة خيراً، قَبض نبيَّها قبلها، فجعله لها فَرَطاً وسَلَفاً. وإذا أراد بأمة عذاباً، عذَّبها ونبيُّها حيٌّ؛ لتَقَرَّ عينُه لمَّا كذَّبوه وعصَوا أمرَه»[4].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ يريد: القرآن، وإنْ كذَّب به مَن كذَّب؛ فَـ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يوصلك إلى الله ورضاه وثوابه.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ يعني: القرآنُ شرفٌ لك ولقومك من قريش[5]؛ إذ نزل بلغتهم وعلى رجل منهم، نظيرُه: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠] أي: شَرَفُكم. فالقرآن نزل بلسان قريشٍ وإياهم خاطَب؛ فاحتاج أهلُ اللغات كلِّها إلى لسانهم، كلُّ مَن آمن بذلك، فصاروا عِيالاً عليهم؛ لأن أهل كلِّ لغةٍ احتاجوا إلى أنْ يأخذوه من لغتهم، حتى يقفوا على المعنى الذي عني به، من الأمر والنهيِ وجميعِ ما

---

(١) في النسخ عدا (ظ): التي.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٠ عن الحسن وقتادة بنحوه.

(٣) هو بعض أثر قتادة السالف.

(٤) لم نقف عليه من حديث ابن مسعود ﷺ. وأخرجه ابن حبان (٦٦٤٧) من حديث أبي موسى ﷺ. وأورده مسلم (٢٢٨٨) وقال فيه: حُدِّثت عن أبي أسامة.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وأخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣، والطبراني في الكبير (١٣٠٣٠).

فيه من الأنباء، فشَرُفُوا بذلك على سائر أهل اللغات؛ ولذلك سُمِّي عربيًّا.

وقيل: بيانٌ لك ولأُمتك فيما بكم إليه حاجة.

وقيل: تذكِرةٌ تذكُرون به أمرَ الدِّينِ وتعملون به[١].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني الخلافة؛ فإنها في قريش لا تكون في غيرهم؛ قال النبيُّ ﷺ: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مُسْلِمُهم تَبَعٌ لمسلمهم، وكافرُهم تبع لكافرهم»[٢].

وقال مالك: هو قول الرجل: حدَّثني أبي عن أبيه، حكاه ابن أبي سلمة عن أبيه، عن مالك بن أنس، فيما ذكر الماورديُّ[٣] والثعلبيُّ وغيرهما.

قال ابن العربي[٤]: ولم أجد في الإسلام هذه الرتبة[٥] لأحد إلا ببَغْداد، فإنَّ بني التميميِّ بها يقولون: حدَّثني أبي قال: حدَّثني أبي، إلى رسول الله ﷺ؛ وبذلك شَرُفت أَقدارُهم، وعظَّم الناسُ شأنهم، وتهمَّمت الخلافة بهم. ورأيتُ بمدينة السلامِ ابنَي أبي محمدٍ رِزقِ الله بنِ عبد الوهَّاب أبي الفرج بنِ عبد العزيز بن الحارث بن أسد بن الليث بن سليمان بن أسود بن سفيان بن يزيد بن أُكَيْنة بنِ عبد الله التميميِّ، وكانا يقولان: سمعنا أبانا رزقَ الله يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول: سمعت أبي يقول[٦]: سمعت عليَّ بن أبي طالب ﷺ يقول ـ وقد سئل عن الحنَّان المَنَّان ـ فقال: الحنَّان الذي يُقبل على مَن أعرض عنه،

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ عن ابن عيسى.

(٢) أخرجه أحمد (٧٣٠٦)، والبخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ .

(٤) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧١ .

(٥) في أحكام القرآن: المرتبة.

(٦) عبارة: سمعت أبي؛ وردت في (ز) و(ق) سبع مرات، وفي (ظ) ثماني مرات، وفي أحكام القرآن ثلاث مرات. وقد أخرجه الخطيب في تاريخه ١١/ ٣٢ عن عبد الوهاب بن عبد العزيز، بهذا الإسناد.

والمنَّان الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال[(١)]. والقائل سمعتُ عليًا: أُكَيْنة بنُ عبد الله جَدُّهم الأعلى. والأقوى أن يكون المرادُ بقوله: «وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ» يعني القرآن؛ فعليه انبنى الكلام، وإليه يرجع المصير، والله أعلم.

قال الماورديّ: «وَلِقَوْمِكَ» فيه[(٢)] قولان: أحدهما: مَن اتَّبعك مِن أمتك؛ قاله قتادة، وذكره الثعلبيُّ[(٣)] عن الحسن. الثاني: لقومك من قريش؛ فيقال: ممن هذا؟ فيقال: من العرب، فيقال: من أيِّ العرب؟ فيقال: من قريش؛ قاله مجاهد[(٤)].

قلت: والصحيح أنه شرفٌ لمن عَمِلَ به، كان من قريش أو من غيرهم. رويَ عن ابن عباس قال: أَقبَل نبيُّ الله ﷺ من سَرِيَّة أو غَزَاة، فدعا فاطمةَ فقال: «يا فاطمة، اشتري نفسَك من الله، فإني لا أُغْني عنكِ من الله شيئاً». وقال مثلَ ذلك لِنِسْوَته، وقال مثلَ ذلك لِعترته، ثم قال نبيُّ الله ﷺ: «ما بنو هاشمٍ بأَولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا قريشٌ بأولى الناس بأمتي، إنَّ أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الأنصارُ بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون، ولا الموالي بأولى الناس بأمتي، إن أولى الناس بأمتي المتقون. إنما أنتم من رجل وامرأة، وأنتم كجِمَام[(٥)] الصاع، ليس لأحد على أحد فضلٌ إلَّا بالتقوى»[(٦)].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينتهينَّ أقوامٌ يفتخرون بفحم من فحم جهنم أو يكونوا[(٧)] شرًّا عند الله من الجِعلان التي تدفع النَّتْن بأنفها، كلُّكم بنو آدم

---

(١) أورده الذهبي في الميزان ٢/ ٦٢٥ - ٦٢٦ في ترجمة عبد العزيز بن الحارث وقال: آذى نفسه ووضع حديثاً أو حديثين في مسند الإمام أحمد. وقال: وأكثر أجداده لا ذكر لهم لا في تاريخ ولا في أسماء رجال.

(٢) في النسخ: فيهم، والمثبت من النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ للماوردي.

(٣) وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

(٤) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٠٣ .

(٥) الجمام: الكيل إلى رأس المكيال. القاموس (جمم).

(٦) لم نقف عليه. وقد سلف بمعناه ١٦/ ٨٣ من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (م): يكونون، وفي مصادر التخريج: ليكونن.

وآدم من تراب، إن الله أذهب عنكم عُبِّيَّةَ[١] الجاهلية وفخرها بالآباء. مؤمن تقيٌّ وفاجر شقي»[٢]. خرَّجهما الطبري[٣]. وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الحجرات» إن شاء اللهُ تعالى[٤].

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: عن الشكر عليه؛ قاله مقاتلٌ والفرَّاء[٥]. وقال ابن جُريج: أي: تُسألون أنت ومَن معك على ما آتاك[٦]. وقيل: تسألون عما عملتم فيه[٧]؛ والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

قال ابن عباس وابنُ زيد: لمَّا أُسريَ برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ـ وهو مسجدُ بيتِ المقدس ـ بعث الله له آدمَ ومَن وُلد من المرسلين، وجبريلُ مع النبيِّ ﷺ؛ فأذَّن جبريل ﷺ ثم أقام الصلاة، ثم قال: يا محمد، تقدَّم فصلِّ بهم؛ فلما فرغ رسولُ الله ﷺ، قال له جبريل ﷺ: «سَلْ يا محمدُ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا: أَجعلنا مِن دون الرحمنِ آلهةً يُعبدون». فقال رسول الله ﷺ: «لا أسأل؛ قد اكتفيت»[٨]. قال ابن عباس: وكانوا سبعين نبيًّا، منهم إبراهيمُ وموسى وعيسى عليهم السلام؛ فلم يسألهم لأنه كان أعلمَ بالله منهم[٩].

---

(١) العبيَّة: الكِبْر. النهاية (عبب).

(٢) أخرجه أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٥) وقال: حديث حسن غريب.

(٣) لم نقف عليهما عنده.

(٤) عند تفسير الآية (١٣) منها.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٤ ، وقول مقاتل في النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٢٧ .

(٧) تفسير الرازي ٢٧/ ٢١٥ .

(٨) ذكره عنهما الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤١ ، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد.

(٩) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨ .

في غير رواية ابنِ عباس: فصلَّوا خلف رسول الله ﷺ سبعةَ صفوف، المرسلون ثلاثةُ صفوف، والنبيون أربعة؛ وكان يلي ظهرَ رسول الله ﷺ إبراهيمُ خليل الله، وعلى يمينه إسماعيل، وعلى يساره إسحاق، ثم موسى، ثم سائر المرسلين، فأَمَّهم ركعتين؛ فلمَّا انفتل قام فقال: «إنَّ ربي أوحى إليَّ أنْ أسألَكم: هل أُرسل أحدٌ منكم يدعو إلى عبادةِ غير الله تعالى؟» فقالوا: يا محمد، إنا نشهد أنَّا أُرسلنا أجمعين بدعوة واحدة: أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ ما يعبدون من دونه باطل، وأنك خاتمُ النبيين وسيد المرسلين، قد استبان ذلك لنا بإمامتك إيَّانا، وأنْ لا نبيَّ بعدك إلى يوم القيامة، إلا عيسى ابنَ مريم فإنه مأمورٌ أن يتَّبعَ أثرك».

وقال سعيد بن جبير في قوله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا» قال: لقيَ الرُّسلَ ليلةَ أُسري به[١].

وقال الوليد بن مسلم في قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ قال: سألتُ عن ذلك خُلَيد بنَ دَعْلَج[٢]، فحدَّثني عن قتادة قال: سألهم ليلةَ أُسري به، لقي الأنبياءَ، ولقي آدم ومالك خازنَ النار.

قلت: هذا هو الصحيح في تفسير هذه الآية. و«مِنْ» التي قبل «رُسُلِنَا» على هذا القولِ غيرُ زائدة.

وقال المبرِّد وجماعةٌ من العلماء: إنَّ المعنى: واسأل أممَ مَن قد أرسلنا من قبلك مِن رسلنا. وروي أنَّ في قراءة ابنِ مسعود: «وَاسْأَلْ الذين[٣] أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلنا»[٤]. وهذه قراءةٌ مفسِّرة؛ فـ «مِن» على هذا زائدة، وهو قول مجاهدٍ والسُّدِّيِّ

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٩ ، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر.

(٢) أبو حَلْبَس، ويقال: أبو عبيد، وأبو عمرو، وأبو عمر، السَّدوسي. محدث بصري ضعيف، نزل الموصل ثم سكن بيت المقدس. مات بحران سنة ١٦٦هـ. السير ٧/ ١٩٥ .

(٣) في النسخ عدا (ف): الذي، وهو خطأ.

(٤) أخرج القراءة الطبري ٢٠/ ٦٠٤ ، وذكرها البغوي في تفسيره ٤/ ١٤١ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧ .

والضحاك وقتادة وعطاء والحسن، وابنِ عباس أيضاً. أي: واسأل مؤمني أهلِ الكتابين: التوراة والإنجيل[١].

وقيل: المعنى: سلنا يا محمد عن الأنبياء الذين أرسلنا قبلك[٢]؛ فحذفت «عن»، والوقف على «رُسُلِنَا» على هذا تامّ، ثم ابتدأ بالاستفهام على طريق الإنكار. وقيل: المعنى: واسأل تُبَّاعَ مَن أرسلنا مِن قبلك مِن رسلنا، فحذف المضاف. والخطابُ للنبيِّ ﷺ، والمرادُ أمَّتُه[٣].

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أخبر عن الآلهة كما أخبر عمن يعقل فقال: «يُعْبَدُونَ» ولم يقل: تُعبد، ولا يُعبدن، لأنَّ الآلهة جرت عندهم مَجرى مَن يعقل، فأجرى الخبرَ عنهم مُجرى الخبرِ عمن يعقل[٤].

وسبب هذا الأمرِ بالسؤال أنَّ اليهود والمشركين قالوا للنبيِّ ﷺ: إنَّ ما جئت به مخالفٌ لمن كان قبلك؛ فأمره الله بسؤاله الأنبياءَ على جهة التوقيف والتقرير؛ لا لأنه كان في شكٍّ منه[٥].

واختلف أهل التأويل في سؤال النبيِّ ﷺ لهم على قولين: أحدهما: أنه سألهم، فقالت الرسل: بُعثنا بالتوحيد؛ قاله الواقدي. الثاني: أنه لم يسألهم؛ ليقينه بالله عزَّ وجلَّ؛ حتى حكى ابنُ زيد أنَّ ميكائيل قال لجبريل: «هل سألك محمدٌ عن ذلك؟ فقال جبريل: هو أشدُّ إيماناً وأعظم يقيناً من أن يسألَ عن ذلك»[٦]. وقد تقدَّم هذا المعنى في الروايتين حسبما ذكرناه.

---

(١) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤ - ٦٠٥ عن مجاهد والسدي والضحاك وقتادة. وينظر النكت والعيون ٥/ ٢٢٨، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٢) ذكر هذا المعنى ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٣) ينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٤، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٧.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَـٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ لمَّا أعلم النبيَّ ﷺ أنه منتقمٌ له مِن عدوِّه، وأقامَ الحجَّةَ باستشهاد الأنبياء واتفاقِ الكلِّ على التوحيد، أكَّد ذلك بقصة موسى وفرعون، وما كان مِن فرعون من التكذيب، وما نزل به وبقومه من الإغراق والتكذيب، أي: أرسلنا موسى بالمعجزات، وهي التسع الآيات، فَكُذِّب؛ فجُعلت العاقبةُ الجميلة له، فكذلك أنت. ومعنى: ﴿يَضْحَكُونَ﴾ استهزاء وسخرية؛ يوهمون أتباعهم أنَّ تلك الآياتِ سحرٌ وتخييل، وأنهم قادرون عليها.

وقوله: ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ﴾ أي: كانت آيات موسى من كبار الآيات، وكانت كلُّ واحدةٍ أعظمَ مما قبلها. وقيل: «إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا» لأن الأُولى تقتضي علماً، والثانيةَ تقتضي علماً، فتُضَمُّ الثانيةُ إلى الأولى فيزداد الوضوح، ومعنى الأُخوَّة: المشاكلة والمناسبة؛ كما يقال: هذه صاحبة هذه، أي: هما قريبتان في المعنى.

﴿وَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ أي: على تكذيبهم بتلك الآيات، وهو كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٣٠]؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع. وكانت هذه الآيات الأخيرة عذاباً لهم وآياتٍ لموسى. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من كفرهم.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ لمَّا عاينوا العذاب قالوا: يا أيها الساحر؛ نَادَوه بما كانوا

ينادونه به من قبل ذلك على حسب عادتهم[١]. وقيل: كانوا يسمُّون العلماءَ سَحَرة، فنادَوه بذلك على سبيل التعظيم. قال ابن عباس: «يا أيُّها السَّاحِر»: يا أيها العالم، وكان الساحر فيهم عظيماً[٢] يُوقِّرونه؛ ولم يكن السحر صفةَ ذمّ.وقيل: يا أيها الذي غَلَبنا بسحره[٣]؛ يقال: ساحرتُه فسحرته، أي: غلبته بالسحر؛ كقول العرب: خاصمته فخصمته، أي: غلبته بالخصومة، وفاضلته ففضلته، ونحوِها. ويحتمل أن يكون أرادوا به الساحرَ على الحقيقة على معنى الاستفهام، فلم يَلُمْهم على ذلك رجاءَ أن يؤمنوا.

وقرأ ابن عامر وأبو حَيْوَة ويحيى بنُ وَثّاب: «أيُّهُ الساحر» بغير ألفٍ، والهاءُ مضمومة[٤]، وعِلّتها أنَّ الهاء خُلطت بما قبلها، وأُلزمت ضمَّ الياء الذي أوجبه النداءُ المفرَد. وأنشد الفرَّاء:

يا أيُّهُ القلبُ اللَّجُوجُ النَّفْسِ أَفِقْ عن البِيض الحِسَانِ اللُّعْسِ[٥]

فضمَّ الهاءَ حملاً على ضم الياء؛ وقد مضى في «النور» معنى هذا[٦].

ووقف أبو عمرو وابنُ أبي إسحاق ويحيى والكسائي: «أيها» بالألف على الأصل. الباقون بغير ألف[٧]؛ لأنها كذلك وقعت في المصحف.

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بما أخبرنا عن عهده إليك إنْ آمنا كشف عنا؛ فسله يكشفْ عنا[٨] ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: فيما يستقبل. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ

---

(١) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٤، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٨.

(٢) ذكر قوله ابن الجوزي في زاد المسير ٧/ ٣٢٠، وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٠٩، والنكت والعيون ٥/ ٢٢٩، والوسيط للواحدي ٤/ ٧٦، وتفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

(٤) قراءة ابن عامر في السبعة ص٥٨٦، والتيسير ص١٦١ - ١٦٢.

(٥) سلف ١٥/ ٢٢٨.

(٦) ١٥/ ٢٢٨. وسلف الشعر والكلام عليه ثمة.

(٧) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص٦١ و ١٦٢.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤١.

﴿ٱلْعَذَابَ﴾أي: فدعا فكشفنا .﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ أي: يَنقضُون العهدَ الذي جعلوه على أنفسهم فلم يؤمنوا. وقيل: قولهم: «إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ» إخبارٌ منهم عن أنفسهم بالإيمان؛ فلما كشف عنهم العذابَ ارتدُّوا.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ قيل: لمَّا رأى تلك الآيات، خاف مَيلَ القوم إليه، فجمع قومه فقال. فنادى بمعنى: قال؛ قاله أبو مالك[1]. فيجوز أن يكون عنده عظماءُ القِبط، فرفع صوته بذلك فيما بينهم، ثم يُنشر عنه في جموع القبط؛ وكأنه نودي به بينهم. وقيل: إنه أَمر مَن ينادي في قومه؛ قاله ابن جريج[2]. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ أي: لا ينازعني فيه أحد. قيل: إنه مَلَكَ منها أربعين فرسخاً في مثلها؛ حكاه النقَّاش. وقيل: أراد بالمُلك هنا الإسكندرية[3].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ يعني: أنهار النيل، ومعظمُها أربعة: نهر الملِك، ونهر طولون، ونهر دِمياط، ونهر تِنِّيس[4]. قال قتادة: كانت جِنَاناً وأنهاراً تجري من تحت قصوره. وقيل: من تحت سريره[5]. وقيل: «مِنْ تَحْتِي» أي: تصرُّفي نافذٌ فيها من غير صانع[6]. وقيل: كان إذا أمسك عِنَانه، أمسك النيلُ عن الجَرْي. قال القشيريّ: ويجوز ظهورُ خوارقِ العادة على مدَّعي الرُّبُوبية؛ إذ لا حاجة في تمييز الإله من غير الإله إلى فعلٍ خارق للعادة. وقيل: معنى «وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي» أي: القوَّاد والرؤساء والجبابرة يسيرون تحت لوائي؛ قاله الضحاك. وقيل: أراد بالأنهار الأموال، وعبَّر عنها بالأنهار لكثرتها وظهورها. وقوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِي»

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ .

(٢) المصدر السابق، وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٢٩ ، والقول الثاني حكاه عن مجاهد.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٠ .

(٦) ذكره بمعناه الواحدي في الوسيط ٤/ ٧٦ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٢ ونسباه للحسن.

أي: أُفرِّقها على مَن يتبعني؛ لأن الترغيب والقدرة في الأموال دون الأنهار[١].

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ عظمتي وقوَّتي وضَعْفَ موسى.وقيل: قدرتي على نفقتكم[٢] وعجزَ موسى. والواو في «وَهَٰذِهِ» يجوز أن تكونَ عاطفةً للأنهار على «مُلْكُ مِصْرَ» و«تَجْرِي» نصب على الحال منها. ويجوز أن تكون واوَ الحال، واسمُ الإشارة مبتدأ، و«الْأَنْهَارُ» صفة لاسم الإشارة، و«تَجْرِي» خبر للمبتدأ[٣].

وفَتَحَ الياءَ مِن «تَحْتِيَ» أهلُ المدينة والبَزِّيُّ وأبو عمرو، وأسكن الباقون[٤].

وعن الرشيد أنه لمَّا قرأها قال: لأُوَلِّيَنَّها أخسَّ[٥] عبيدي، فولَّاها الخصيب، وكان على وضوئه.و عن عبد الله بنِ طاهر أنه وَلِيَها فخرج إليها، فلمَّا شارفها ووقع عليها بصره، قال: أهذه القريةُ التي افتخر بها فرعونُ حتى قال: «أَلَيْسَ لي مُلْك مِصْرَ»؟! واللهِ لَهِي عندي أَقلُّ مِن أنْ أَدخلَها! فثنى عِنانه[٦].

ثم صرَّح بحاله فقال: «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» قال أبو عبيدة والسُّدِّي: «أَمْ» بمعنى «بل»[٧]. وليست بحرف عطف؛ على قول أكثرِ المفسرين[٨]. والمعنى: قال فرعون لقومه: بل أنا خيرٌ «مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» أي: لا عِزَّ له؛ فهو يمتهن نفسَه في حاجاته لحقارته وضعفه ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعني ما كان في لسانه من العُقدة؛ على ما تقدَّم في «طه»[٩].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، وكلام الضحاك منه.

(٢) في النكت والعيون: نفعكم.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٢ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٣ .

(٤) السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

(٥) في (م): أحسن، وهو خطأ.

(٦) الكشاف ٣/ ٤٩٢ .

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ٢/ ٢٠٤ ، وأخرج الطبري ٢٠/ ٦٦١-٦٦٢ قول السدي.

(٨) تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ .

(٩) ١٤/ ٥١ . ونقلنا ثمة عن ابن كثير قوله: إن اتهام فرعون لموسى بأنه لا يكاد يبين، إنما هو افتراء من =

وقال الفراء[١]: في «أَمْ» وجهان: إن شئتَ جعلتَها من الاستفهام الذي جُعل بـ «أم» لاتصاله بكلامٍ قبله، وإن شئتَ جعلتَها نَسَقاً على قوله: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ».

وقيل: هي زائدة. وروى أبو زيد عن العرب أنهم يجعلون «أَمْ» زائدة؛ والمعنى: أنا خير من هذا الذي هو مهين[٢]. وقال الأخفش: في الكلام حذف، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ كما قال:

أيا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بينَ جُلاجِلٍ وبينَ النَّقا آأنتِ أمْ أمُّ سالِمِ[٣]

أي: أنتِ أحسن أَم أُمُّ سالم؟

ثم ابتدأ فقال: «أَنَا خَيْرٌ».

وقال الخليل وسيبويه: المعنى: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»، أم أنتم بُصَراء؟ فعطف بـ «أم» على «أَفَلَا تُبْصِرُونَ»؛ لأن معنى «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» أي: أم تُبصرون؛ وذلك أنهم إذا قالوا له: أنت خيرٌ منه، كانوا عنده بُصراء[٤].

وروي عن عيسى الثَّقفِيِّ ويعقوبَ الحضرميِّ أنهما وقفا على «أم» على أن يكون التقدير: أفلا تبصرون أم تبصرون؛ فحذف «تبصرون» الثاني. وقيل: مَن وقف على «أم» جعلها زائدة، وكأنه وقف على «تُبْصِرُونَ» مِن قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُون». ولا يَتمُّ الكلام على «تُبْصِرُونَ» عند الخليل وسيبويه؛ لأنَّ «أم» تقتضي الاتصالَ بما قبلها. وقال قوم: الوقف على قوله: «أَفَلَا تُبْصِرُونَ» ثم ابتدأ «أَمْ أَنَا خَيْرٌ» بمعنى: بل أنا؛

= فرعون، حمله على هذا الكفرُ والعِناد، وليس عدم الإفصاح من موسى بسبب لثغته بالجمرة؛ لأن موسى عليه السلام سأل الله عزَّ وجلَّ أن يَحُلَّ عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله تبارك وتعالى له في ذلك في قوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٢٦].

(١) في معاني القرآن ٣/ ٣٥.

(٢) قال ابن الأنباري في البيان ٢/ ٣٥٤: وزعم أبو زيد أن «أم» زائدة، وليس بشيء. اهـ. ونحوه في أمالي ابن الشجري ٣/ ١٠٩ - ١١٠.

(٣) البيت لذي الرُّمة، وسلف ١/ ٢٨٢.

(٤) كلام سيبويه في الكتاب ٣/ ١٧٣، وينظر معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٥، وأمالي ابن الشجري ٣/ ١١٠.

وأنشد الفرَّاء[١]:

بدت مِثْلَ قَرْن الشمسِ في رَوْنَقِ الضُّحى   وصورتِها أم أنتِ في العين أمْلَحُ

فمعناه: بل أنتِ أملح.

وذكر الفرَّاء[٢] أنَّ بعض القراء قرأ: «أَمَا أَنَا خَيْرٌ»؛ ومعنى هذا: ألستُ خيراً.

وروي عن مجاهدٍ أنه وقف على «أم»، ثم يبتدئ «أنا خَيْرٌ»[٣]. وقد ذُكر.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ إنما قال ذلك؛ لأنه كان عادةَ الوقت وزِيَّ أهلِ الشرف[٤].

وقرأ حفص: «أَسْوِرَةٌ»[٥] جمع سِوار، كخِمار وأخمرة.

وقرأ أُبَيّ: «أَساوِر» جمع إسوار. وابن مسعود: «أساوير»[٦]. الباقون: «أَسَاوِرَة» جمع الأَسْوِرة؛ فهو جمع الجمع. ويجوز أن يكون «أَسَاوِرة» جمعَ «إسْوَار»، وأُلحقت الهاءُ في الجمع عوضاً من الياء؛ فهو مِثل: زناديق وزنادقة، وبطاريق وبطارقة، وشِبهِه. وقال أبو عمرو بنُ العَلَاء: واحد الأَساورةِ والأساور والأساوير إسوار[٧]، وهي لغةٌ في سِوَار.

---

(١) في معاني القرآن ١/ ٧٢ . وسلف البيت ٢/ ٢٠٥ .

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٣٥ .

(٣) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٣٠ .

(٥) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٥٩ . وقراءة «أساور» نسبها في القراءات الشاذة ص١٣٥ للأعمش. وقراءة «أساوير» نسبها لأُبي أو عبد الله. وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦١٥ ، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٤ .

(٧) ذكره عنه بنحوه الطبري في تفسيره ٢٠/ ٦١٥ ، والجوهري في الصحاح (سور).

قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا[١] رجلاً، سوَّروه بسوارَين، وطوَّقوه بطوقِ ذهب؛ علامةً لسيادته، فقال فرعون: هلَّا أَلقى ربُّ موسى عليه أساورةً من ذهب إن كان صادقاً! ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ يعني: متتابعين؛ في قول قتادة. مجاهد: يمشون معًا[٢]. ابن عباس: يعاونونه على مَن خالفه؛ والمعنى: هلَّا ضمَّ إليه الملائكة التي يزعُم أنها عند ربه حتى يتكثَّر بهم ويَصرِفَهم على أمره ونهيه؛ فيكونَ أهْيَبَ في القلوب. فأَوهمَ قومَه أنَّ رسل الله ينبغي أن يكونوا كرسل الملوك في الشاهد، ولم يَعلم أنَّ رسلَ الله إنما أُيِّدوا بالجنود السماوية؛ وكلُّ عاقلٍ يعلم أنَّ حِفظ الله موسى، مع تفرُّده ووَحدته، من فرعون، مع كثرة أتباعه، وإمدادَ موسى بالعصا واليدِ البيضاء كان أبلغَ مِن أن يكون له أسورةٌ، أو ملائكة يكونون معه أعواناً؛ في قول مقاتلٍ، أو دليلاً على صدقه؛ في قول الكلبي. وليس يَلزم هذا؛ لأن الإعجاز كافٍ، وقد كان في الجائز أن يُكَذَّبَ مع مجيء الملائكة كما كُذِّب مع ظهور الآيات. وذَكَر فرعونُ الملائكة حكايةً عن لفظ موسى؛ لأنه لا يؤمن بالملائكة مَن لا يَعرف خالقهم[٣].

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ قال ابن الأعرابي: المعنى: فاستجهلَ قومَه[٤] ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ لِخِفَّة أحلامهم وقِلَّة عقولهم؛ يقال: استخفَّه الفرح، أي: أزعجه، واستخفَّه، أي: حمله على الجهل، ومنه: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]. وقيل: استفزَّهم بالقول فأطاعوه على التكذيب[٥]. وقيل: استخفَّ قومَه،

---

(١) في النسخ عدا (ف): سوروا. والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢، والكلام منه.

(٢) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦١٦.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣١، وفيه قول مقاتل والكلبي.

(٤) ياقوتة الصراط ص٤٦٠.

(٥) النكت والعيون ٥/ ٢٣١ عن ابن زياد.

أي: وجدهم خِفَافَ العقول. وهذا لا يدُلُّ على أنه يجب أن يطيعوه، فلا بدَّ من إضمارٍ بعيد، تقديره: وجدهم خفافَ العقول فدعاهم إلى الغَوَاية فأطاعوه. وقيل: استخفَّ قومه وقهرهم حتى اتَّبعوه؛ يقال[١]: استخفَّه خلافُ استثقله، واستخفَّ به: أهانه. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ روى الضحَّاك عن ابن عباس: أي: غاظونا وأغضبونا. وروى عنه عليُّ بن أبي طلحة: أي: أسخطونا. قال الماورديّ[٢]: ومعناهما مختلف، والفرق بينهما أنَّ السَّخط إظهارُ الكراهة، والغضبَ إرادة الانتقام. القشيريّ: والأسف ها هنا بمعنى الغضب؛ والغضب من الله إمَّا إرادةُ العقوبة، فيكونُ من صفات الذات، وإما عينُ العقوبة، فيكون من صفات الفعل؛ وهو معنى قولِ الماوردي[٣].

وقال عمر بنُ ذَرّ: يا أهل معاصي الله، لا تغترُّوا بطول حِلْم اللهِ عنكم، واحذَروا أسفه؛ فإنه قال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾. وقيل: «آسَفُونا» أي: أغضبوا رسُلَنا وأولياءنا المؤمنين[٤]؛ نحوُ السَّحرةِ وبني إسرائيل. وهو كقوله تعالى: ﴿يُؤْذُونَ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٥٧] و ﴿يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ٣٣] أي: أولياءه ورسلَه.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ أي: جعلنا قومَ فرعونَ سَلَفًا. قال أبو مِجْلَز: «سَلَفاً» لمن عَمِلَ عملَهم، «وَمَثَلًا» لمن [لم] يعملْ عملَهم[٥]. وقال مجاهد: «سَلَفًا»

---

(١) قاله الجوهري في الصحاح (خفف).

(٢) في النكت والعيون ٥/ ٢٣١، وما قبله منه. وقول ابن عباس رضي الله عنهما أخرجه الطبري ٢٠/ ٦١٧.

(٣) الصواب إثبات صفة الغضب لله عز وجل بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل، على ما يليق بجلال الله وعظمته.

(٤) الوسيط ٤/ ٧٧-٧٨، والنكت والعيون ٥/ ٢٣٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/ ٣٧٣، وما بين حاصرتين منه.

إخباراً لأمة محمدٍ ﷺ، «وَمَثَلًا» أي: عِبرةً لهم. وعنه أيضاً: «سَلَفًا» لكفار قومك يتقدَّمونهم إلى النار. قتادة: «سَلَفًا» إلى النار، «وَمَثَلًا»: عِظةً لمن يأتي بعدهم[١]. والسَّلَف: المتقدِّم؛ يقال سَلَفَ يَسْلُف سَلَفًا؛ مثل: طلب يطلُب[٢] طلباً، أي: تقدَّم ومضى. وسلف له عملٌ صالح، أي: تقدَّم. والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون. وسَلَفُ الرَّجُل: آباؤه المتقدِّمون؛ والجمع: أسلافٌ وسُلَّاف.

وقراءة العامة: «سَلَفًا» بفتح السين واللام: جمع سالف؛ كخادم وخَدَم، وراصد ورَصَد، وحارس وحَرَس. وقرأ حمزة والكِسائي: «سُلُفًا» بضم السين واللام[٣]. قال الفراء[٤]: هو جمع سَلِيف، نحو: سرير وسُرُر. وقال أبو حاتم: هو جمع سَلَف؛ نحو خَشَب وخُشُب، وثَمَر وثُمُر؛ ومعناهما واحد.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود وعلقمة وأبو وائلٍ والنَّخَعيُّ وحُميد بنُ قيس: «سُلَفاً» بضم السين وفتح اللام، جمع سُلْفة[٥]، أي: فِرقةٌ متقدِّمة. قال المؤرِّج والنَّضْر بنُ شُمَيل: «سُلَفًا» جمع سُلْفة، نحو غُرْفَة وغُرَف، وطُرْفة وطُرَف، وظُلْمة وظُلَم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

لمَّا قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ تعلَّق المشركون بأمر عيسى، وقالوا: ما يريد محمدٌ إلَّا أنْ نتخذَه إلهًا كما اتخذت النصارى عيسى ابنَ مريم إلهًا، قاله قتادة. ونحوُه عن مجاهد؛ قالت: إنَّ قريشًا قالت: إنَّ محمدًا يريد أن نعبُدَه كما عبد قومُ عيسى عيسى؛ فأنزل الله هذه الآية[٦].

---

(١) أخرج هذه الآثار الطبري ٢٠/ ٦٢٠-٦٢١ .

(٢) قوله: يطلب من (ظ)، وهو موافق لما في الصحاح (سلف)، والكلام منه.

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٤) كلامه في تفسير البغوي ٤/ ١٤٢ ، وينظر معاني القرآن له ٣/ ٣٦ .

(٥) قراءة علي ﷺ في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ ، وقراءة حميد في القراءات الشاذة ص١٣٥ .

(٦) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٢٢ .

وقال ابن عباس: أراد به مناظرةَ عبدِ الله بنِ الزِّبَعْرَى مع النبيِّ ﷺ في شأن عيسى، وأنَّ الضارب لهذا المثل هو عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى السَّهمِيُّ حالةَ كفره؛ لمَّا قالت له قريش: إنَّ محمداً يتلو: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨] الآية، فقال: لو حضرتُه لرددت عليه؛ قالوا: وما كنتَ تقول له؟ قال: كنت أقول له: هذا المسيحُ تعبده النصارى، واليهودُ تعبد عُزَيْراً، أفهما من حَصَب جهنم؟ فعَجِبت قريشٌ من مقالته ورأوا أنه قد خُصِم؛ وذلك معنى قوله: «يَصِدُّونَ»، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠١].

ولو تأمل ابنُ الزبعرى الآيةَ ما اعترض عليها؛ لأنه قال: «وَمَا تَعْبُدُونَ» ولم يقل: ومن تعبدون، وإنما أراد الأصنام ونحوَها مما لا يَعقِل، ولم يُرد المسيح ولا الملائكةَ وإنْ كانوا معبودين. وقد مضى هذا في آخر سورة الأنبياء(١).

وروى ابنُ عباس أنَّ رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، لا خير في أحدٍ يُعبد من دون الله». قالوا: أليس تزعُمُ أنَّ عيسى كان عبداً نبيًّا وعبداً صالحًا، فإن كان كما تزعم فقد كان يُعبد من دون الله!. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾(٢). أي: يَضِجُّون كضجيج الإبلِ عند حمل الأثقال.

وقرأ نافعٌ وابن عامر والكِسائي: «يَصُدُّون». بضم الصاد، ومعناه: يُعرِضون؛ قاله النَّخعيُّ، وكَسَرَ الباقون(٣). قال الكسائي(٤): هما لغتان؛ مثل: يَعْرِشون ويَعْرُشون ويَنِمُّون ويَنُمُّون، ومعناه: يَضِجُّون.

---

(١) ١٤/ ٢٩٠ ، ومضى فيه أثر ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٢٩١٨)، والواحدي في أسباب النزول ص٣٩٧ .

(٣) السبعة ص٥٨٧ ، والتيسير ص١٩٧ ، وقول النخعي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٤) ذكر قوله النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ ، والبغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

قال الجوهري[(١)]: وصَدَّ يَصُدُّ صديداً، أي: ضَجّ. وقيل: إنه بالضم من الصدود وهو الإعراض، وبالكسر من الضجيج؛ قاله قُطْرُب[(٢)]. قال أبو عبيد: لو كانت من الصدود عن الحقِّ لكانت: إذا قومُك عنه يصدون[(٣)]. الفرَّاء[(٤)]: هما سواء؛ منه وعنه. ابنُ المسيّب: يصدون: يَصيحون[(٥)]. الضحاك: يَعجُّون. ابن عباس: يضحكون[(٦)]. أبو عبيدة[(٧)]: مَن ضَمَّ فمعناه: يعدلون؛ فيكون المعنى: من أجل الميل يعدلون. ولا يُعَدَّى «يَصِدُّون» بمن، وَمن كَسَرَ فمعناه: يضِجُّون؛ فـ «من» متصلةٌ بـ «يَصِدُّون» والمعنى: يَضجون منه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: آلهتنا خيرٌ أم عيسى؟ قاله السُّدّيّ. وقال: خاصموه وقالوا: إنَّ كلَّ مَن عُبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكونَ آلهتُنا مع عيسى والملائكةِ وعُزير، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١][(٨)]. وقال قتادة: «أَمْ

---

(١) في الصحاح (صدد).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤ .

(٣) ذكره النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١١٥ - ١١٦ ، ثم قال: وفي هذا ردٌّ على الجماعة الذين قراءتهم حجة، وقد خالف بقوله هذا الكسائي والفراء، والذي ذكره من الحجة ليس بواجب؛ لأنه يقال: صددتُ من قوله، أي: لأجل قوله.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٧ .

(٥) في (ف) و(م): يضجون. وذكر هذا الأثر والذي بعده البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٣ .

(٦) المشهور عن ابن عباس: يضجون؛ كما أخرجه الفراء ٣/ ٣٦ وغيره. وهو في مسند أحمد (٢٩١٨) وقد سلف قريباً تخريجه. وقوله: يضحكون، نسبه في النكت والعيون ٥/ ٢٣٣ لقتادة، وفي تهذيب اللغة ١٢/ ١٠٤ لليث. وينظر المحرر الوجيز ٥/ ٦٠ .

(٧) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥ .

(٨) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٢٧ .

هُوَ» يعنون محمداً ﷺ(١).

وفي قراءة ابنِ مسعود: «آلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا»(٢). وهو يقوِّي قولَ قتادة، فهو استفهامُ تقريرٍ في أنَّ آلهتهم خير.

وقرأ الكوفيُّون ويعقوب: «أألهتُنا» بتحقيق الهمزتين، وليَّن الباقون(٣). وقد تقدَّم.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ حال، أي: جدلين. يعني: ما ضربوا لك هذا المَثَلَ إلَّا إرادةَ الجدل؛ لأنهم علموا أنَّ المراد بحصب جهنم ما اتخذوه من المَوَات(٤).

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾: مجادِلون بالباطل.

وفي صحيح الترمذِيّ عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضلَّ قومٌ بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل» ثم تلا رسولُ الله ﷺ هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٥).

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: ما عيسى إلَّا عبدٌ أنعم اللهُ عليه بالنبوَّة، وجَعَلَه مَثَلًا لبني إسرائيل، أي: آيةً وعبرةً يُستدلُّ بها على قدرة الله تعالى، فإنَّ عيسى كان من غير أب، ثم جعل إليه من إحياء الموتى وإبراءِ الأَكْمَه والأبرص والأسقامِ كلِّها ما لم يجعل لغيره في زمانه، مع أنَّ بني إسرائيل كانوا يومئذ خيرَ الخلق وأحبَّه إلى الله عزَّ وجلَّ، والناسُ دونهم، ليس أحدٌ عند الله عزَّ وجلَّ مثلَهم.

وقيل: المراد بالعبد المنعَمِ عليه محمدٌ ﷺ، والأوَّلُ أظهر.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٣، والمحرر الوجيز ٥/ ١٠٤.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٣) السبعة ص٥٨٧، والتيسير ص١٩٧، وقراءة يعقوب هي من رواية روح كما في النشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٧٩.

(٥) سنن الترمذي (٣٢٥٣) وقال: حديث حسن صحيح. وهو في مسند أحمد (٢٢١٦٤).

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ أي: بَدَلًا منكم ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ يكونون خَلَفًا عنكم؛ قاله السُّدِّيّ. ونحوُه عن مجاهد قال: ملائكةً يَعمُرون الأرضَ بدلاً منكم[١].

وقال الأزهريّ: إنَّ «مِن» قد تكون للبدل؛ بدليل هذه الآية[٢].

قلت: قد تقدَّم هذا المعنى في «براءة»[٣] وغيرِها.

وقيل: لو نشاء لجَعلنا من الإنس ملائكةً وإنْ لم تَجرِ العادةُ بذلك[٤]، والجواهرُ جِنسٌ واحدٌ والاختلافُ بالأوصاف؛ والمعنى: لو نشاء لأسكنا الأرضَ الملائكة، وليس في إسكاننا إيَّاهم السماءَ شرفٌ حتى يُعبدوا، أو يقال لهم: بناتُ الله.

ومعنى «يَخْلُفُونَ»: يخلفُ بعضُهم بعضاً؛ قاله ابن عباس[٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ قال الحسن وقتادة وسعيد بنُ جبير: يريد القرآن[٦]؛ لأنه يدلُّ على قُرب مجيء الساعة، أو به تُعلم الساعةُ وأهوالها وأحوالها. وقال ابن عباس ومجاهدٌ والضحاك والسديُّ وقتادة أيضاً: إنه خروجُ عيسى عليه السلام[٧]، وذلك من أعلام الساعة، لأن الله يُنزِله من السماء قُبيلَ قيامِ الساعة، كما أنَّ خروج الدجَّال من أعلام الساعة.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٠/ ٦٣٠ .

(٢) ذكر قوله الواحدي في الوسيط ٤/ ١٠٥ .

(٣) ١٠/ ٢٠٧ .

(٤) ينظر النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٠ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ عن الحسن وقتادة، وذكره عنهما ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ عن الحسن وسعيد بن جبير.

(٧) أخرج أقوالهم الطبري ٢٠/ ٦٣١ - ٦٣٣ . وقول ابن عباس قطعة من حديث عند أحمد (٢٩١٨)، وسلف بعضه عند الآية (٥٧).

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومالك بنُ دينار والضحاك: «وإنَّهُ لَعَلَمٌ لِلسَّاعَةِ» بفتح العين واللام[١]، أي: أمارة. وقد روي عن عِكرمة: «وإنه لَلْعَلَم» بلامين[٢]، وذلك خلافٌ للمصاحف.

وعن عبد الله بنِ مسعود قال: لما كان ليلةَ أُسْرِيَ برسول الله ﷺ، لقي إبراهيمَ وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، فتذاكروا الساعة، فبدؤوا بإبراهيم فسألوه عنها، فلم يكن عنده منها علم، ثم سألوا موسى، فلم يكن عنده منها علم؛ فرُدَّ الحديثُ إلى عيسى ابنِ مريم، فقال: قد عُهد إليَّ فيما دون وَجْبَتِها، فأما وجبتُها فلا يعلمُها إلّا اللهُ عزَّ وجلَّ؛ فذَكَرَ خروجَ الدجال، قال: فأَنزِلُ فأقتُلُه. وذكر الحديث، خرَّجه ابنُ ماجه في سننه[٣].

وفي صحيح مسلم[٤]: «فبينما هو ـ يعني المسيحَ الدجال ـ إذ بعث اللهُ المسيح ابنَ مريم، فيَنزل عند المنارة البيضاءِ شرقيّ دِمَشْق بين مَهْرُودَتَين واضعاً كفَّيه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسَه قَطَر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمَانٌ كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريحَ نَفَسِه إلّا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبُه حتى يدرِكَه بباب لُدٍّ، فيقتله...» الحديث.

وذكر الثعلبيُّ والزَّمَخْشريُّ وغيرهما من حديث أبي هريرة، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «يَنزل عيسى ابنُ مريم عليه السلام[٥] على ثَنِيَّةٍ من الأرض المقدَّسة، يقال لها: أفِيق، بين مُمَصَّرَتَيْن، وشعرُ رأسه دَهين، وبيده حَرْبةٌ يقتل بها الدَّجَّال، فيأتي بيت المقدس

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥ - ١٣٦ والمحرر الوجيز ٥/ ٦١ . وقراءة ابن عباس أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٣٢ .

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٦١ ، والقراءات الشاذة ص١٣٦ .

(٣) برقم (٤٠٨١). قال البوصيري في الزوائد ٢/ ٣١٢ : هذا إسناد صحيح رجاله ثقات. قوله: وجبتها، أي: قيامها. شرح السندي ٢/ ٥١٧ .

(٤) برقم (٢٩٣٧)، وسلف ٥/ ١٣٧ .

(٥) بعدها في (م): من السماء.

والناسُ في صلاة العصر والإمامُ يَؤمُّ بهم، فيتأخر الإمام، فيقدِّمه عيسى ويصلِّي خلفه على شريعة محمدٍ ﷺ، ثم يقتل الخنازير، ويَكسِر الصليب، ويخرب البِيَعَ والكنائس، ويقتل النصارى إلَّا مَن آمن به»(١).

وروى خالدٌ عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوةٌ لِعَلَّات، أُمهاتُهم شَتَّى ودينُهُم واحد، وأنا أوْلَى الناس بعيسى ابنِ مريم، إنه ليس بيني وبينه نبيّ، وإنه أوَّلُ نازلٍ، فيَكسِرُ الصليب، ويقتل الخِنزير، ويقاتلُ الناسَ على الإسلام»(٢).

قال الماورديّ: وحكى ابن عيسى عن قوم أنهم قالوا: إذا نزل عيسى رُفع التكليف؛ لئلَّا يكونَ رسولاً إلى ذلك الزمانِ يأمرُهم عن الله تعالى وينهاهم.

وهذا قول مردودٌ لثلاثة أمور؛ منها: الحديث، ولأنَّ بقاء الدنيا يقتضي [بقاء] التكليفِ فيها، ولأنه يَنزل آمرًا بمعروفٍ وناهياً عن منكر. وليس يُستنكر أنْ يكونَ أَمْرُ الله تعالى له مقصوراً على تأييد الإسلام والأمرِ به والدعاءِ إليه(٣).

قلت: ثبت في صحيح مسلمٍ وابنِ ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيَنْزِلَنَّ عيسى ابنُ مريم حَكَمًا عادلاً، فليَكْسِرَنَّ الصليب، ولَيَقتُلَنَّ الخِنزير، ولَيَضَعنَّ الجزية، ولَتُتْرَكَنَّ القِلَاصُ فلا يُسعَى عليها، ولَتَذهَبَنَّ الشحناءُ والتَّباغضُ والتحاسد، ولَيَدْعُوَنَّ إلى المال فلا يقبلُه أحد»(٤). وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٤. وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صفرة خفيفة. النهاية (مصر). وفي الكشاف: وعليه ممصَّرتان.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥. وأخرجه أحمد (٩٢٧٠) من حديث أبي هريرة ﷺ بنحوه مطولاً. وهو عند البخاري (٣٤٤٢)، ومسلم (٢٣٦٥) مختصر. قوله: إخوة لِعَلَّات؛ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٤٨٩: العَلَّات؛ بفتح المهملة: الضرائر... وأولاد العَلَّات: الإخوة من الأب وأمهاتهم شتَّى... ومعنى الحديث أن أصل دينهم واحد ـ وهو التوحيد ـ وإن اختلفت فروع الشرائع. وقيل: أزمنتهم مختلفة.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٣)، وهو في سنن ابن ماجه (٤٠٧٨) مختصر. وسلف ٥/ ١٥٥.

نزل ابنُ مريم فيكم وإمامُكم منكم» وفي رواية: «فأَمَّكم منكم». قال ابن أبي ذئب: تدري: ما «أمَّكم منكم؟» قلت: تُخْبِرني، قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم وسُنَّةِ نبيِّكم ﷺ[١].

قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: فهذا نصٌّ على أنه يَنزِل مجدِّدًا لِدِين النبيِّ ﷺ للذي دَرَس منه، لا بشرعٍ مبتَدأ، والتكليفُ باقٍ؛ على ما بيَّنَّاه هنا وفي كتاب «التذكرة»[٢].

وقيل: «وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ» أي: وإنَّ إحياءَ عيسى الموتى دليلٌ على الساعة وبعثِ الموتى؛ قاله ابنُ إسحاق[٣].

قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: «وَإِنَّهُ»: وإنَّ محمدًا ﷺ لَعِلْم للساعة؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعثت أنا والساعة كهاتين» وضَمَّ السَّبَّابةَ والوسطى؛ خرَّجه البخاريُّ ومسلم[٤]. وقال الحسن: أوَّلُ أشراطها محمدٌ ﷺ[٥].

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾: فلا تشكُّون فيها؛ يعني: في الساعة؛ قاله يحيى بنُ سلَّام. وقال السُّدِّي: فلا تكذِّبون بها[٦]، ولا تجادلون فيها فإنها كائنةٌ لا محالة. ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ أي: في التوحيد وفيما أُبلِّغكم عن الله. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريقٌ قويم إلى الله، أي: إلى جنته.

وأثبت الياءَ يعقوبُ في قوله: «وَاتَّبِعُونِ» في الحالين، وكذلك «وَأَطِيعُونِ». وأبو عمرٍو وإسماعيلُ عن نافع في الوصل دون الوقف[٧]، وحَذَفَ الباقون في الحالين.

---

(١) صحيح مسلم (١٥٥): (٢٤٤)، (٢٤٦). وسلف ٥/ ١٥٥ . وابن أبي ذئب أحد رجال السند.

(٢) ص٦٧٧ - ٦٧٨ .

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٣٥ .

(٤) صحيح البخاري (٦٥٠٤)، وصحيح مسلم (٢٩٥١) من حديث أنس ﷺ. وسلف ١٢/ ٢٦٨ .

(٥) أورده السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٥٠ بلفظ: محمد ﷺ من أشراطها. ونسبه لابن أبي حاتم.

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٤ بلفظ: فلا تشكون فيها.

(٧) يعني في قوله: ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾. وقراءة نافع المشهورة عنه كقراءة الباقين. السبعة ص٥٩٠ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ .

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لا تغترُّوا بوساوسه وشُبَهِ الكفار المجادِلين؛ فإنَّ شرائع الأنبياء لم تَختلف في التوحيد، ولا فيما أخبروا به مِن عِلم الساعة وغيرِها بما تضمنته من جنةٍ ونار. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تقدَّم في «البقرة»[(١)] وغيرِها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياءَ الموتى وإبراءَ الأسقام، وخَلْقَ الطير، والمائدةَ وغيرَها، والإخبارَ بكثيرٍ من الغيوب. وقال قتادة: البيِّنات هنا الإنجيل[(٢)]. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: النبوَّة؛ قاله السُّدِّيّ. ابن عباس: عِلمُ ما يؤدِّي إلى الجميل ويَكفُّ عن القبيح. وقيل: الإنجيل؛ ذكره القشيريُّ والماوردي[(٣)].

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال مجاهد: مِن تبديل التوراة[(٤)]. الزَّجاج[(٥)]: المعنى: لأبين لكم في الإنجيل بعضَ الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبيَّن لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بيَّن لهم بعضَ الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراةِ على قَدْر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياءَ غيرِ ذلك لم يَسألوه عنها. وقيل: إنَّ بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياءَ مِن أمر دينهم وأشياءَ مِن أمر دنياهم، فبيَّن لهم أمرَ دينهم.

---

(١) ٣/ ١٣.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦. وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٥.

(٣) في النكت والعيون ٥/ ٢٣٦، وقول ابن عباس نسبه لابن عيسى. وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦٣.

(٤) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٦.

(٥) معاني القرآن له ٤/ ٤١٨، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١١٨.

ومذهب أبي عبيدة[١] أنَّ البعض بمعنى الكلّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]. وأنشد الأخفش قولَ لبيد:

تَـرَّاكُ أمـكـنـةٍ إذا لـم أرضـهـا أو يعتلقْ بعضَ النفوس حِمامُها

والموت لا يعتلق بعضَ النفوس دون بعض[٢]. ويقال للمنيَّة: عَلُوق وعَلَّاقة. قال المفضَّل النُّكْري[٣]:

وسائلةٍ بثعلبةَ بنِ سَيْرٍ وقد عَلِقت بثعلبةَ العَلُوقُ[٤]

وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. يعني: ما أُحلَّ في الإنجيل مما كان محرَّماً في التوراة؛ كلحم الإبل والشحمِ مِن كل حَيَوان، وصيدِ السمك يومَ السبت.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: اتقوا الشِّركَ ولا تعبُدوا إلَّا اللهَ وحده؛ وإذا كان هذا قولَ عيسى، فكيف يجوز أن يكونَ إلهًا أو ابنَ إله؟! ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أدعوكم إليه من التوحيد وغيره. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: عبادةُ الله صراطٌ مستقيم، وما سواه معوجٌ لا يؤدِّي سالكَه إلى الحقّ.

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ قال قتادة: يعني ما بينهم، وفيهم قولان: أحدهما: أنهم أهلُ الكتاب من اليهود والنصارى، خالف بعضُهم بعضًا؛

(١) في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥.

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧. والبيت في شرح ديوان لبيد ص٣١٣، وسلف ٥/ ١٤٧.

(٣) في (ف) و (م): البكري، وفي (د): الكبرى. وكلاهما خطأ. وهو المفضل بن معشر بن أسحم بن عدي ابن شيبان بن سُود بن عُذرة بن منبِّه بن نُكرة. فضّلته قصيدته التي يقال لها: المُنصِفة. طبقات فحول الشعراء ١/ ٢٧٤ - ٢٧٥. والبيت من هذه القصيدة.

(٤) إصلاح المنطق ص٣٦٨، والصحاح (علق)، ورسالة الصاهل والشاحج ص٤٨٠، واللسان (علق).

قاله مجاهدٌ والسُّدِّيّ. الثاني: فِرَقُ النصارى من النُّسْطُورِية والمَلْكية واليعاقِبة، اختلفوا في عيسى؛ فقالت النُّسطورية: هو ابن الله. وقالت اليعاقبة: هو الله. وقالت المَلْكية: ثالثُ ثلاثةٍ أحدهم الله تعالى؛ قاله الكلبي ومقاتل(١)، وقد مضى هذا في سورة مريم(٢).

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي: كفروا وأشركوا؛ كما في سورة مريم. ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أليمٍ عذابُه؛ ومثلُه: ليلٌ نائم؛ أي: يُنام فيه.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ يريد: الأحزابُ لا ينتظرون(٣) ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ يريد القيامة ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ أي: فَجأةً ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: يَفطُنون. وقد مضى في غير موضع(٤). وقيل: المعنى: لا ينتظر مشركو العربِ إلَّا الساعة. ويكون «الأَحْزَابُ» على هذا الذين تحزَّبوا على النبيِّ ﷺ وكذَّبوه من المشركين. ويتَّصل هذا بقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا﴾ [الآية: ٥٨].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ﴾ يريد: يومَ القيامة. ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، يعادي بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضُهم بعضًا. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنهم أخِلَّاءُ في الدنيا والآخرة؛ قال معناه ابنُ عباس ومجاهدٌ وغيرهما.

وحكى النقَّاش أنَّ هذه الآيةَ نزلت في أميَّة بنِ خَلَف الجُمَحيِّ وعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط، كانا خليلين؛ وكان عقبةُ يجالس النبيَّ ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بنُ أبي مُعَيط؛ فقال له أميَّة: وجهي مِن وجهك حرام إنْ لَقِيتَ محمدًا ولم تَتْفُل في وجهه.

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٧ . وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٣٨ .

(٢) ١٣/ ٤٥١ - ٤٥٤ .

(٣) في النسخ الخطية عدا (ق): ينظرون.

(٤) ١/ ٢٩٩ .

ففعل عقبةُ ذلك؛ فنذر النبيُّ ﷺ قتلَه، فقتله يوم بدرٍ صَبْرًا، وقُتل أميةُ في المعركة؛ وفيهم نزلت هذه الآية(١).

وذكر الثعلبيُّ عن عليٍّ(٢) ﷺ في هذه الآية. قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحدُ المؤمنَين فقال: يا ربّ، إنّ فلانًا كان يأمرني بطاعتك وطاعةِ رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويُخبرني أني ملاقيك، يا ربِّ فلا تُضِلَّه بعدي، واهدِه كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني. فإذا مات خليلُه المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: لِيُثْنِ كلُّ واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا ربّ، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشرّ، ويخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: نِعْمَ الخليلُ ونعم الأخُ ونعم الصاحبُ كان. قال: ويموت أحد الكافرَين فيقول: يا رب، إنَّ فلانًا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويُخبرني أني غيرُ ملاقيك، فأسألك يا ربِّ ألَّا تَهْدِهِ بعدي، وأنْ تُضِلَّه كما أضللتني، وأن تُهينَه كما أهنتني. فإذا مات خليلُه الكافر قال الله تعالى لهما: لِيُثْنِ كلُّ واحد منكما على صاحبه، فيقول: ياربّ، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصيةِ رسولك، ويأمرني بالشرّ وينهاني عن الخير، ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أنْ تضاعِفَ عليه العذاب؛ فيقول الله تعالى: بِئسَ الصاحبُ والأخ والخليل كنتَ. فيلعنُ كلُّ واحدٍ منهما صاحبَه(٣).

قلت: والآية عامةٌ في كل مؤمن ومُتَّقٍ وكافرٍ ومُضِلّ.

قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

قال مقاتل ـ ورواه المعتمر بنُ سليمان عن أبيه ـ: ينادي منادٍ في العَرَصات: «يا

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقوله: «ففعل عقبة ذلك» منكر، ونقلنا ١٥/ ٤٠٢ عن عبد الرزاق والطبري أن الله لم يمكّن عقبة مما أراد فعله.

(٢) قوله: عن علي، ليس في (م).

(٣) أخرجه البغوي في تفسيره ٤/ ١٤٥ من طريق الثعلبي. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٠ .

عبادي، لا خوفٌ عليكم اليوم»، فيرفع أهلُ العَرَصات[١] رؤوسهم، فيقول المنادي: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مُسْلِمِين» فينكِّس أهلُ الأديان رؤوسَهم غيرَ المسلمين[٢].
وذكر المحاسبيُّ في «الرِّعاية»: وقد روي في هذا الحديثِ أنَّ المنادي ينادي يوم القيامة: «يا عِبادي لا خَوْفٌ عليكُمُ اليومَ ولا أَنتم تَحزنون» فيرفع الخلائقُ رؤوسهم، فيقولون: نحن عباد الله. ثم ينادي الثانية: «الَّذِين آمنوا بِآياتِنا وكانوا مسْلِمِين» فينكِّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحِّدون رافعي رؤوسِهم. ثم ينادي الثالثة: «الذين آمنوا وكانوا يتقون» فينكِّس أهل الكبائر رؤوسهم ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسِهم، قد أزال عنهم الخوفَ والحزن كما وعدهم؛ لأنه أكرم الأكرمين، لا يَخذُل وليَّه ولا يُسْلِمه عند الهَلَكة. وقرئ: «يَا عِبَادِ»[٣]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾

قال الزجَّاج[٤]: «الَّذِينَ» نصب على النعت لـ «عبادي»؛ لأن «عِبَادِي» منادَى مضاف. وقيل: «الَّذِينَ آمَنُوا» [خبر لمبتدإ محذوف، أو][٥] ابتداءٌ وخبره محذوف؛ تقديره: هم الذين آمنوا، أو: الذين آمنوا يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ».

وقرأ أبو بكر وزِرُّ بن حُبيش: «يَا عِبَادِيَ» بفتح الياء وإثباتها في الحالين؛ وكذلك أثبتها نافعٌ وابن عامر وأبو عمرو ورُوَيْس[٦] ساكنةً في الحالين. وحذفها الباقون في الحالين[٧]؛ لأنها وقعت مثبَتةً في مصاحف أهلِ الشام والمدينة لا غير[٨].

---

(١) في النسخ عدا (ظ): العرصة.
(٢) قول مقاتل في الوسيط للواحدي ٤/ ٨٠ - ٨١، ورواية المعتمر أخرجها الطبري ٢٠/ ٦٤١ بنحوها.
(٣) سترد قريباً.
(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤١٩.
(٥) ما بين حاصرتين زيادة لضرورة السياق.
(٦) بخلاف عنه كما في النشر ٢/ ٣٧٠.
(٧) السبعة ص٥٨٨، والتيسير ص١٩٧.
(٨) المقنع لأبي عمرو الداني ص٣٤، والنشر ٢/ ٣٧٠.

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ أي: يقال لهم: أُدخلُوا الجنة، أو: يا عبادي الذين آمنوا ادخلُوا الجنة. ﴿أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ المسلمات في الدنيا. وقيل: قرناؤكم من المؤمنين. وقيل: زوجاتُكم[١] من الحور العين. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾: تكرمون؛ قاله ابن عباس؛ والكرامة في المنزلة. الحسن: تفرحون، والفرح في القلب. قتادة: تُنعمون؛ النعيم في البدن. مجاهد: تُسرُّون؛ السرور في العين. ابن أبي نَجِيح: تعجبون؛ والعجب هاهنا دَرْكُ ما يُستطرَف. يحيى بن أبي كثير: هو التلذذ بالسَّماع[٢]. وقد مضى هذا في «الروم»[٣].

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١﴾

فيه أربعُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ أي: لهم في الجنة أطعمةٌ وأشربة يطاف بها عليهم في صِحافٍ مِن ذهب وأكواب. ولم يَذكر الأطعمةَ والأشربة؛ لأنه يُعلم أنه لا معنى للإطافة بالصِّحاف والأكوابِ عليهم مِن غيرِ أنْ يكونَ فيها شيء[٤]. وذَكَرَ الذهبَ في الصحاف واستغنى به عن الإعادة في الأكواب؛ كقوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وفي الصحيحين[٥] عن حُذيفة أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «لا تَلبَسوا الحريرَ ولا الدِّيباج، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها؛ فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة». وقد مضى في سورة الحجِّ[٦] أنَّ مَن أكل فيهما في الدنيا أو

---

(١) في النسخ الخطية: زوجاتهم، والمثبت من (م).

(٢) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨ . وقول قتادة أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٢ ، وعبد الرزاق ٢/ ٢٠٢ ، وقول يحيى أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٢٠١ .

(٣) ١٦/ ٤٠٥ .

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٠/ ٦٤٥ .

(٥) صحيح البخاري (٥٤٢٦)، ومسلم (٢٠٦٧). وهو عند أحمد (٢٣٣١٤).

(٦) ١٤/ ٣٤٧ - ٣٤٨ .

لبس الحرير في الدنيا، ولم يتب، حُرم ذلك في الآخرة تحريماً مؤبَّداً. والله أعلم.

وقال المفسرون: يطوف على أدناهم في الجنة منزلةً سبعون ألفَ غلامٍ بسبعين ألفَ صَحْفةٍ من ذهب، يُغْدَى عليه بها في كل واحدةٍ منها لونٌ ليس في صاحبتها، يأكل مِن آخرها كما يأكل من أوَّلها، ويجد طعمَ آخِرها كما يجد طعم أوَّلها، لا يُشبه بعضُه بعضاً، ويُراح عليه بمثلها. ويطوف على أرفعهم درجةً كلَّ يومٍ سبعُ مئةِ ألفِ غلام، مع كل غلامٍ صحفةٌ من ذهب، فيها لونٌ من الطعام ليس في صاحبتها، يأكل من آخرها كما يأكلُ من أولها، ويجد طعمَ آخرها كما يجد طعم أولها، لا يُشبه بعضُه بعضاً[١].

﴿وَأَكْوَابٍ﴾ أي: ويطاف عليهم بأكواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ [الإنسان: ١٥].

وذَكَرَ ابنُ المبارك[٢] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن رجل، عن أبي قِلَابة قال: يؤتَون بالطعام والشراب، فإذا كان في آخر ذلك، أُتوا بالشراب الطهور، فَتَضْمُرُ لذلك بطونُهم، ويَفيض عرقاً من جلودهم أطيبَ من ريح المسك؛ ثم قرأ ﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١].

وفي صحيح مسلمٍ عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يَتْفُلون ولا يبولون ولا يتغوّطون [ولا يمتخِطون]. قالوا: فما بالُ الطعام؟ قال: جُشَاءٌ ورَشْح كرشح المِسك، يُلْهَمون التَّسبيحَ والتحميد ـ والتكبيرَ في رواية ـ كما يلهمون النَّفَس»[٣].

الثانية: روى الأئمة من حديث أمِّ سلمة عن النبيِّ ﷺ قال: «الذي يشرب في آنية الذهب والفضة إنما يُجَرجِرُ في بطنه نارَ جهنم»[٤]. وقال: «لا تشربوا في آنية الذهب

(١) تفسير عبد الرزاق ٢/ ٢٠١، والطبري ٢٠/ ٦٤٣-٦٤٤، وابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٦ بنحوه.

(٢) في الزهد (٢٧٤ زوائد نعيم).

(٣) صحيح مسلم (٢٨٣٥)، وهو عند أحمد (١٤٤٠١). وما بين حاصرتين منهما.

(٤) مسند أحمد (٢٦٥٦٨)، وصحيح البخاري (٥٦٣٤)، وصحيح مسلم (٢٠٦٥).

والفضة، ولا تأكلوا في صِحَافها»[١] وهذا يقتضي التحريم، ولا خلاف في ذلك.

واختلف الناس في استعمالها في غير ذلك. قال ابن العربي[٢]: والصحيح أنه لا يجوز للرجال استعمالها في شيء؛ لقول النبيِّ ﷺ في الذهب والحرير: «هذان حرامٌ لذكور أُمتي حِلٌّ لإناثها»[٣]. والنهيُ عن الأكل والشرب فيها يدلُّ على تحريم استعمالها؛ لأنه نوعٌ من المتاع، فلم يَجز؛ أصله الأكل والشرب، ولأن العِلَّة في ذلك استعجالُ أَمرِ[٤] الآخرة، وذلك يستوي فيه الأكلُ والشرب وسائرُ أجزاءِ الانتفاع؛ ولأنه ﷺ قال: «هي لهم في الدنيا ولنا في الآخرة»[٥]، فلم يجعل لنا فيها حظًّا في الدنيا.

الثالثة: إذا كان الإناءُ مُضَبَّباً بهما أو فيه حَلْقةٌ منهما، فقال مالك: لا يُعجبني أنْ يُشربَ فيه، وكذلك المرآةُ تكون فيها الحلقةُ من الفضة، لا يعجبني أن ينظرَ فيها وجهَه. وقد كان عند أنسٍ إناءٌ مضبَّبٌ بفضة، وقال: لقد سَقيتُ فيه النبيَّ ﷺ. قال ابن سيرين: كانت فيه حلقةُ حديد، فأراد أنسٌ أنْ يجعلَ فيه حلقةَ فِضة؛ فقال أبو طلحة: لا أُغيِّر شيئاً مما صنعه رسولُ الله ﷺ؛ فتركه[٦].

الرابعة: إذا لم يَجز استعمالُها لم يجز اقتناؤها؛ لأنَّ ما لا يجوز استعمالُه لا

(١) سلف في المسألة السابقة، وهو من حديث حذيفة ﷺ.

(٢) في أحكام القرآن ٤/ ١٦٧٦ .

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣٥٩٥) من حديث علي ﷺ. وأخرجه أحمد (٧٥٠)، وأبو داود (٤٠٥٧)، والنسائي ٨/ ١٦٠-١٦١ دون قوله: حل لإناثها.

وله شواهد. منها حديث أبي موسى ﷺ عند أحمد (١٩٥١٥)، والترمذي (١٧٢٠)، والنسائي ٨/ ١٩٠ .

(٤) في أحكام القرآن: أجر.

(٥) سلف في المسألة الأولى.

(٦) هو عند البخاري (٥٦٣٨) عن عاصم الأحول قال: رأيت قدح النبي ﷺ عند أنس بن مالك، وكان قد انصدع، فسلسله بفضة. . . الخ وفيه قول أبي طلحة لأنس: لا تغيرنَّ شيئاً. . . الخ. وأبو طلحة: هو الأنصاري زوج أم سليم والدة أنس. وقد ساق المصنف لفظ الحديث من أحكام القرآن لابن العربي.

يجوز اقتناؤه، كالصنم والطُّنْبور[١]. وفي كتب علمائنا: أنه يلزم الغُرْمُ في قيمتها لمن كسرها، وهو معنًى فاسد، فإنَّ كَسْرَها واجب، فلا ثمن لقيمتها. ولا يجوز تقويمُها في الزكاة بحال. وغيرُ هذا لا يُلتفت إليه[٢].

قوله تعالى: ﴿بِصِحَافٍ﴾ قال الجوهري: الصَّحْفة كالقَصْعة، والجمع: صِحاف. قال الكِسائي: أعظم القصاع الجَفْنة، ثم القَصْعة تليها تُشبع العشرة، ثم الصحفة تُشبع الخمسة، ثم المِئْكَلة تُشبع الرجلين والثلاثة، ثم الصُّحَيفة تشبع الرجل. والصحيفة: الكتاب، والجمع: صُحُف وصحائف[٣].

قوله تعالى: ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ قال الجوهري[٤]: الكوب: كوزٌ لا عُروةَ له، والجمع: أكواب. قال الأعشى يصف الخمر:

صَريفِيَّةٌ[٥] طَيِّبٌ طَعْمُها ... لها زَبَدٌ بين كُوبٍ ودَنّ

وقال آخر[٦]:

مُتَّكِئاً تَصْفِقُ أبوابُه ... يسعى عليه العَبْدُ بالكوبِ

وقال قتادة: الكُوب: المدوَّرُ القصير العنقِ القصيرُ العروة، والإبريق: المستطيل العنق الطويلُ العروة. وقال الأخفش: الأكواب: الأباريق التي لا خراطيم لها. وقال قُطْرُب: هي الأباريق التي ليست لها عُرًى. وقال مجاهد: إنها الآنيةُ المدوَّرةُ الأفواه. السُّدِّي: هي التي لا آذان لها[٧]. ابن عُزيز: «أكواب»: أباريقُ لا عُرَى لها ولا

---

(١) آلة من آلات اللعب واللهو والطرب. المعجم الوسيط (طنب).

(٢) نهاية كلام ابن العربي.

(٣) الصحاح (صحف).

(٤) في الصحاح (كوب).

(٥) في الديوان ص٦٧: صليفية، وهي المعتَّقة كما قال شارحه. والصريفية: نسبة إلى صَريفون: بلدة بواسط منها الخمر الصريفية. أو قيل لها: صريفية؛ لأنها أخذت من الدن ساعتئذ، كاللبن الصريف. القاموس (صرف).

(٦) هو عدي بن زيد، والبيت في تهذيب اللغة ١٠/ ٤٠٠، والصحاح، واللسان (كوب).

(٧) النكت والعيون ٥/ ٢٣٨-٢٣٩، وقول السدي أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٤٤-٦٤٥.

خراطيم؛ واحدها كُوب[١].

قلت: وهو معنى قولِ مجاهدٍ والسُّدِّيّ، وهو مذهب أهلِ اللغة أنها التي لا آذان لها ولا عُرًى.

قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ روى الترمذيُّ عن سليمانَ بنِ بُريدة، عن أبيه: أنَّ رجلاً سأل النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن خيل؟ قال: «إنِ اللهُ أَدخلك الجنة، فلا تشاءُ أن تحمِلَ فيها على فرس مِن ياقوتة حمراءَ يطير بك [في الجنة] حيث شئتَ[٢]». قال: وسأله رجلٌ فقال: يا رسول الله، هل في الجنة مِن إبل؟ قال: فلم يقل له مِثلَ ما قال لصاحبه، قال: «إنْ يُدخلكَ اللهُ الجنة، يكن لك فيها ما اشتهت نفسُك ولَذَّت عينُك»[٣].

وقرأ أهل المدينة وابنُ عامر وأهلُ الشام[٤]: «وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ»، الباقون: «تَشْتَهي الأَنْفُسُ» أي: تشتهيه الأنفس[٥]؛ تقول: الذي ضربت زيد[٦]، أي: الذي ضربته زيد.

﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ تقول: لذَّ الشيءُ يَلَذُّ لَذاذاً، ولَذاذة. ولَذِذت بالشيء أَلَذّ - بالكسر في الماضي والفتح في المستقبل - لَذاذاً ولَذاذة، أي: وجدته لذيذاً.

---

(١) نزهة القلوب ص٩٨ .

(٢) في رواية أحمد زيادة: إلا ركبت.

(٣) سنن الترمذي (٢٥٤٣)، وما بين حاصرتين منه. وهو عند أحمد (٢٢٩٨٢) كلاهما من طريق المسعودي، عن علقمة بن مَرْثَد، عن ابن بريدة... وخالف المسعوديَّ سفيانُ الثوري - كما أخرجه الترمذي عقب الحديث - فرواه عن علقمة بن مرثد، عن عبد الرحمن بن سابط مرسلاً. قال الترمذي: وهذا أصح من حديث المسعودي .
وللحديث شواهد.

(٤) في (ز) و(ظ) و(ق): في أهل الشام .

(٥) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ ، والنشر ٢/ ٣٧٠ . وقرأ حفص أيضاً عن عاصم مثل قراءة أهل المدينة وابن عامر.

(٦) في النسخ الخطية: زيداً. والمثبت من (م).

والْتذذت به وتلذَّذت به بمعنًى[١]. أي: في الجنة ما تستلَذُّه العينُ، فكان حَسَنَ المَنْظَر. وقال سعيد بن جبير: «وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ»: النظر إلى الله عزَّ وجلَّ؛ كما في الخبر: «أسألك لَذَّةَ النظرِ إلى وجهك»[٢]. ﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾: باقون دائمون؛ لأنها لو انقطعت لتبغَّضت.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: يقال لهم: هذه تلك الجنةُ التي كانت توصف لكم في الدنيا. وقال ابن خالويه: أشار تعالى إلى الجنة بـ «تلك» وإلى جهنم بـ «هذه»؛ ليخوّفَ بجهنم ويؤكّدَ التحذيرَ منها. وجعلها بالإشارة القريبةِ كالحاضرة التي يُنظر إليها.

﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قال ابن عباس: خلق الله لكل نَفْسٍ جنةً وناراً؛ فالكافر يرث نارَ المسلم، والمسلمُ يرث جنةَ الكافر[٣]؛ وقد تقدَّم هذا مرفوعاً في ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] من حديث أبي هريرة[٤]، وفي «الأعراف» أيضاً[٥].

قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

الفاكهة معروفة، وأجناسُها الفواكه، والفاكِهانيُّ: الذي يبيعها. وقال ابن عباس: هي الثمارُ كلُّها، رَطْبُها ويابِسُها، أي: لهم في الجنة سوى الطعامِ والشراب فاكهةٌ كثيرة يأكلون منها.

---

(١) الصحاح (لذذ).

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣٢٥)، والنسائي ٣/ ٥٤-٥٥ من حديث عمار بن ياسر رضي الله عنهما مطولاً.

(٣) الوسيط للواحدي ٤/ ٨١.

(٤) ١٥/ ١٥-١٦.

(٥) ٩/ ٢٢٣.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ لمَّا ذكر أحوالَ أهل الجنة؛ ذَكَرَ أحوال أهلِ النار أيضاً؛ ليبيِّنَ فضلَ المطيع على العاصي. ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم ذلك العذاب. ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من الرحمة. وقيل: ساكتون سكوتَ يأس. وقد مضى في «الأنعام»[١]. ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بالعذاب ﴿وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أنفسَهم بالشِّرك. ويجوز: «وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ» بالرفع على الابتداء والخبر، والجملة خبرُ كان[٢].

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ﴾ وهو خازنُ جهنم، خَلَقَه لِغضبه؛ إذا زجر النارَ زجرةً أكل بعضُها بعضاً.

وقرأ عليٌّ وابن مسعود رضي الله عنهما: «وَنَادَوْا يَا مَالِ». وذلك خلافُ المصحف[٣]. وقال أبو الدرداء وابن مسعود: قرأ النبيُّ ﷺ: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» باللام خاصة[٤]؛ يعني رَخَّم الاسمَ وحذف الكاف. والترخيمُ الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يُحذفَ مِن آخره حرفٌ أو أكثر، فتقول في مالك: يا مالِ، وفي حارث: يا حارِ، وفي فاطمة: يا فاطمَ، وفي عائشة: يا عائشَ، وفي مروان: يا مروَ، وهكذا. قال[٥]:

---

(١) ٨/ ٣٨١.

(٢) الكلام بنحوه في القراءات الشاذة ص١٣٦. وهي قراءة ابن مسعود كما في معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٤. قال الزجاج في معاني القرآن ٤/ ٤٢٠: لا تقرأنَّ بها لأنها تخالف المصحف.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.

(٤) أخرجها الدوري في قراءات النبي ﷺ ص١٤٦-١٤٧ عن أبي الدرداء ﷺ.

(٥) هو زهير، والبيت في ديوانه ص١٨٠.

يا حارِ لا أُرْمَيَنْ منكم بداهية ... لم يَلْقَها سُوقةٌ قَبلي ولا مَلِكُ

وقال امرؤ القيس[١]:

أحارِ ترى بَرْقاً أُريك وميضَه ... كلمع اليدين في حَبِيٍّ مُكلَّلِ

وقال أيضاً[٢]:

أفاطِمَ مهلاً بعضَ هذا التدلُّلِ ... وإن كنتِ قد أزمعتِ صَرْمي فأجْمِلِ

وقال آخر[٣]:

يا مَروَ إنَّ مطيَّتي محبوسةٌ ... ترجو الحِباءَ وربُّها لم ييأسِ

وفي صحيح الحديث: «أي فُلُ، هلُمَّ»[٤].

ولكَ في آخر الاسم المرخَّمِ وجهان: أحدهما: أن تُبْقيَه على ما كان عليه قبل الحذف. والآخر: أن تَبنيَه على الضم؛ مثل: يا زيدُ؛ كأنك أنزلته منزلتَه ولم تراعِ المحذوف[٥].

وذكر أبو بكر الأنباريُّ قال: حدَّثنا محمد بن يحيى المَرْوَزيُّ قال: حدَّثنا محمد ـ وهو ابن سعدان ـ قال: حدَّثنا حجاجٌ، عن شعبة، عن الحكم بن عتيبة[٦]، عن مجاهد قال: كنا لا ندري ما الزُّخرف حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «بيتٌ من ذهب»، وكنا لا ندري: «وَنَادَوْا يَا مَالِكُ» أو: يا ملك ـ بفتح اللام وكسرها ـ حتى وجدناه في قراءة عبدِ الله: «وَنَادَوْا يَا مَالِ» على الترخيم[٧]. قال أبو بكر: لا يُعمل

(١) ديوانه ص٢٤ . وسلف ٣/ ٤٢٥ .

(٢) ديوانه ص١٢ .

(٣) هو الفرزدق، والبيت في ديوانه ١/ ٣٨٤ .

(٤) صحيح البخاري (٢٨٤١)، وصحيح مسلم (١٠٢٧): (٨٦) من حديث أبي هريرة مطولاً. وسلف ٨/ ٣٤١ بنحوه. وقوله: فلُ، أي: فلان.

(٥) بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١ .

(٦) تحرفت في النسخ إلى: عيينة.

(٧) ذكر قول مجاهد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٦ . وذكر القطعة الثانية منه النحاس في إعراب القرآن ٤/ ١٢١ .

على هذا الحديث؛ لأنه مقطوعٌ لا يُقبل مِثلُه في الرواية عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ وكتابُ الله أحقُّ بأن يُحتاطَ له ويُنفَى عنه الباطل.

قلت: وفي صحيح البخاريِّ عن صَفْوان بنِ يَعْلَى، عن أبيه قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[1] بإثبات الكاف.

وقال محمد بن كعب القُرَظيُّ: بلغني - أو ذُكر لي - أنَّ أهل النار استغاثوا بالخزَنَة، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فسألوا يومًا واحداً يُخفَّف عنهم فيه العذاب؛ فرَدَّت عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر: ٤٩-٥٠] قال: فلما يَئسوا مما عند الخزنة نَادَوْا مالكًا؛ وهو مُشرِفٌ[2] عليهم وله مجلسٌ في وسطها، وجسورٌ تمرُّ عليها ملائكةُ العذاب؛ فهو يرى أقصاها كما يرى أدناها، فقالوا: «يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ». قال[3]: سألوا الموت، قال: فسكت عنهم لا يجيبهم ثمانينَ سَنة، قال: والسَّنة سِتُّونَ وثلاثُ مِئةِ يوم، والشهر ثلاثون يوماً، واليومُ كألف سَنةٍ مما تَعدُّون، ثم لحظ إليهم بعد الثمانين فقال: «إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ» وذكر الحديث؛ ذكره ابن المبارك.

وفي حديث أبي الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «فيقولون: ادعوا مالكاً، فيقولون: يا مالك لِيقضِ علينا ربُّك، قال: إنكم[4] ماكثون». قال الأعمش: نُبِّئتُ أنَّ بين دعائهم وبين إجابةِ مالكٍ إياهم ألفَ عام. خرَّجه الترمذي[5].

وقال ابن عباس: يقولون ذلك فلا يجيبهم ألفَ سنة، ثم يقول: إنكم ماكثون.

---

(١) صحيح البخاري (٣٢٣٠). وهو عند أحمد (١٧٩٦١)، ومسلم (٨٧١).

(٢) قوله: مشرف، من (ظ).

(٣) لفظة: قال ليست في (م).

(٤) قبلها في سنن الترمذي: فيجيبهم.

(٥) في سننه (٢٥٨٦)، ورجح وقفه. والأعمش أحد رجال السند.

وقال مجاهد ونَوْفٌ البِكَاليّ: بين ندائهم وإجابته إياهم مئةُ سنة[١]. وقال عبد الله بن عمرو: أربعون سنة؛ ذكره ابن المبارك[٢].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾

يحتمل أنْ يكونَ هذا من قول مالكٍ لهم، أي: إنكم ماكثون في النار؛ لأننا جئناكم في الدنيا بالحقِّ فلم تقبلوا. ويحتمل أن يكونَ من كلام الله لهم اليوم، أي: بيَّنَّا لكم الأدلةَ وأرسلنا إليكم الرسل[٣].

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قال ابن عباس: «وَلَكِنّ أَكْثَرَكُمْ» أي: ولكنَّ كلَّكم[٤]. وقيل: أراد بالكثرة الرؤساءَ والقادةَ منهم، وأما الأَتباعُ فما كان لهم أثر. ﴿لِلْحَقِّ﴾ أي: للإسلام ودينِ الله ﴿كَارِهُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾

قال مقاتل: نزلت في تدبيرهم بالمكر بالنبيِّ ﷺ في دار الندوة، حتى استقرَّ أمرُهم على ما أشار به أبو جهل عليهم أنْ يبرُزَ من كل قبيلةٍ رجلٌ ليشتركوا في قتله، فتَضعُفَ المطالبةُ بدمه؛ فنزلت هذه الآية، وقتل اللهُ جميعَهم ببدر[٥].

«أَبْرَمُوا»: أحكموا. والإبرام: الإحكام. أبرمت الشيءَ: أحكمته. وأبرم الفِتَال: إذا أحكم الفتل، وهو الفتل الثاني، والأول سَحِيل؛ كما قال:

.... مِـــن سَـــحِـــيـــلٍ ومُـــبْـــرَمِ[٦]

---

(١) قولا ابن عباس ونوف البكالي أخرجهما الطبري ٢٠/ ٦٤٩ ، ٦٥٠ .

(٢) في الزهد (٣١٩ زوائد نعيم) مطولاً. وأخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٤٩ - ٦٥٠ .

(٣) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/ ٦٥ . وينظر الكشاف ٣/ ٤٩٦ .

(٤) الوسيط للواحدي ٤/ ٨٢ .

(٥) ذكره مختصراً الرازي في تفسيره ٢٧/ ٢٢٨ ، وذكره بطوله الماوردي في النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ غير أنه لم ينسبه لأحد.

(٦) قائله زهير، وهو في ديوانه ص١٤ ، والبيت بتمامه:

يميناً لَنِعم السيدان وجدتما ... على كل حال من سحيل ومبرم

فالمعنى: أم أحكموا كيدًا؛ فإنَّا مُحكِمون لهم كَيْدًا؛ قاله ابن زيد ومجاهد. قتادة: أم أجمعوا على التكذيب؛ فإنا مُجمعون على الجزاء بالبعث. الكلبي: أم قَضَوْا أمرًا؛ فإنَّا قاضون عليهم بالعذاب[١]. وأم بمعنى: بل. وقيل: «أَمْ أَبْرَمُوا» عطفٌ على قوله: ﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الآية: ٤٥]. وقيل: أي: ولقد جئناكم بالحقّ فلم تسمعوا، أم سمعوا فأعرضوا؛ لأنهم في أنفسهم أبرموا أمرًا أمِنُوا به العقاب.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ﴾ أي: ما يُسِرُّونه في أنفسهم ويتناجَون به بينهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمع ونعلم. ﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: الحفظةُ عندهم يكتبون عليهم. ورُويَ أنَّ هذا نزل في ثلاثة نفر كانوا بين الكعبة وأستارها؛ فقال أحدهم: أترون أنَّ الله يسمع كلامنا؟ وقال الثاني: إذا جهرتم سَمِع، وإذا أسررتم لم يسمع. وقال الثالث: إن كان يسمع إذا أعلنتم فهو يسمع إذا أسررتم؛ قاله محمد بنُ كعب القُرَظي[٢]. وقد مضى هذا المعنى عن ابن مسعود في سورة فصلت[٣].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ اختُلف في معناه؛ فقال ابن عباس والحسن والسُّدِّي: المعنى: ما كان للرحمن ولد، فـ «إن» بمعنى «ما»، ويكون الكلام على هذا تامًّا، ثم تبتدئ: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ» أي: الموحِّدين من أهل مكة

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٤٠ . وأخرج هذه الآثار ـ عدا قول الكلبي ـ الطبري ٢٠/ ٦٥٢ .

(٢) أخرجه عنه الطبري ٢٠/ ٦٥٣ .

(٣) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة فصلت.

على أنه لا ولدَ له. والوقف على «العابِدِين» تام[١].

وقيل: قل يا محمد: إنْ ثبت لله ولد، فأنا أوّلُ مَن يَعبد ولدَه، ولكن يستحيل أن يكونَ له ولد؛ وهو كما تقول لمن تناظره: إن ثبت ما قلتَ بالدليل، فأنا أوّلُ مَن يعتقده؛ وهذا مبالغةٌ في الاستبعاد، أي: لا سبيل إلى اعتقاده. وهذا ترقيقٌ في الكلام؛ كقوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤]. والمعنى على هذا: فأنا أوَّل العابدين لذلك الولد، لأنَّ تعظيم الولد تعظيمٌ للوالد.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان للرحمن ولد، فأنا أوَّل مَن عبده وحده. على أنه لا ولد له.

وقال السُّدِّيُّ أيضاً: المعنى: لو كان له ولد، كنت أوَّلَ مَن عبده على أنَّ له ولداً؛ ولكن لا ينبغي ذلك.

قال المَهدويّ: فـ «إن» على هذه الأقوالِ للشرط، وهو الأجود، وهو اختيارُ الطبري[٢]؛ لأن كونها بمعنى «ما» يتوهم معه أن المعنى لم يكن له فيما مضى.

وقيل: إنَّ معنى «الْعَابِدِينَ»: الآنِفين. وقال بعض العلماء: لو كان كذلك لكان: العَبِدِين. وكذلك قرأ أبو عبد الرحمن واليماني[٣]: «فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِدِينَ» بغير ألف، يقال: عَبِدَ يَعْبَدَ عَبَدًا ـ بالتحريك ـ إذا أَنِف وغضِب، فهو عَبِد، والاسم العَبَدة، مثلُ الأَنفة، عن أبي زيد[٤]. قال الفرزدق:

---

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٤ - ٦٥٥ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٢ ، والنكت والعيون ٥/ ٢٤١ . وينظر الوقف والابتداء لابن الأنباري ٢/ ٨٨٦ .

(٢) في تفسيره ٢٠/ ٦٥٧ -٦٥٨ ، وفيه أثر مجاهد والسدي ص٦٥٤ ، ٦٥٦ .

(٣) في النسخ الخطية: أبو عبد الرحمن اليماني، والمثبت من (م)، والقراءة في المحتسب ٢/ ٢٥٧ ، ومجمع البيان ٥٢/ ٩٩ . ونسبها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦ لأبي عبد الرحمن. ووقع في القراءات الشاذة ص١٣٧ : أبو عبد الله واليماني، وينظر البحر المحيط ٨/ ٢٨ .

(٤) الصحاح (عبد).

أولـئك أحـلاسي فـجئني بـمثـلهـم وأَعْـبَـدُ أن أهـجُـو كُـلَـيْـبًـا بـدارِمِ[١]

ويُنشد أيضاً:

أولـئـك نـاس إن هَـجَـونـي هـجـوتُـهـم وأَعْـبَـدُ أن يُـهـجـى كُـلَـيْـبٌ بـدارم[٢]

قال الجوهري[٣]: وقال أبو عمرو: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ من الأَنَف والغضب، وقاله الكِسائيُّ والقُتَبي، حكاه الماورديُّ عنهما[٤]. وقال الهَرَوِي: وقوله تعالى: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ﴾ قيل: هو من عَبِد يَعْبَد، أي: من الآنفين. وقال ابن عرفة: إنما يقال: عَبِد يَعبَدُ فهو عَبِد؛ وقلَّما يقال: عابد، والقرآن لا يأتي بالقليل من اللغة ولا الشاذِّ، ولكنَّ المعنى: فأنا أوَّلُ مَن يعبدُ الله عزَّ وجلَّ على أنه واحدٌ لا ولد له.

ورُوي أنَّ امرأة دخلت على زوجها فوَلدت منه لستة أشهر، فذُكر ذلك لعثمانَ ﷺ فأمر برجمها؛ فقال له عليٌّ ﷺ: قال الله تعالى: ﴿وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ﴾ [الأحقاف: ١٥]. وقال في آية أخرى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤] فواللهِ ما عَبِدَ عثمانُ أنْ بعث إليها تُرَدّ. قال عبد الله بن وهب: يعني: ما استنكف ولا أَنِف[٥].

وقال ابن الأعرابي: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: الغِضابِ الآنفين. وقيل: «فَأَنَا أَوَّلُ العابِدِينَ» أي: أنا أوَّلُ مَن يعبده على الوحدانية مخالفاً لكم[٦]. أبو عبيدة[٧]: معناه الجاحدين؛ وحُكي: عَبَدَني حَقِّي، أي: جحدني[٨].

---

(١) إصلاح المنطق ص٥٩، والصحاح (عبد)، وفصل المقال لأبي عبيد البكري ص٣٨١. قوله: الأحلاس جمع حِلْس: وهو الكبير من الناس. القاموس (حلس).

(٢) مجاز القرآن ٢/ ٢٠٦، وجمهرة الأمثال ١/ ٥١٢، واللسان (عبد) باختلاف يسير.

(٣) في الصحاح (عبد).

(٤) في النكت والعيون ٥/ ٢٤١. وكلام ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن له ص٤٠١.

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٥٧.

(٦) ياقوتة الصراط ص٤٦١ - ٤٦٢.

(٧) في مجاز القرآن ٦/ ٢٠٧.

(٨) المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

وقرأ أهل الكوفة إلَّا عاصمًا: «وُلْدٌ» بضم الواو وإسكان اللام. الباقون وعاصم: «وَلَدٌ». وقد تقدَّم[١].

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: تنزيهاً له وتقديساً، نَزَّه نفسه عن كلِّ ما يقتضي الحدوث. وأمرَ النبيَّ ﷺ بالتنزيه .﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: عما يقولون من الكذب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟﴾ يعني كفارَ مكةَ حين كذَّبوا بعذاب الآخرة. أي: اتركهم يخوضوا في باطلهم ويلعبوا في دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ إمَّا العذاب في الدنيا أو في الآخرة. وقيل: إنَّ هذا منسوخٌ بآية السيف. وقيل: هو مُحْكَم، وإنما أُخرج مُخرجَ التهديد[٢].

وقرأ ابن مُحيصِن ومجاهدٌ وحُميدٌ وابن القَعقاع وابن السَّمَيْفَع: «حَتَّى يَلْقَوا» بفتح الياء وإسكانِ اللام مِن غير ألف وفتحِ القاف، هنا وفي «الطور» و«المعارج». الباقون: «يُلاقُوا»[٣].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾

هذا تكذيبٌ لهم في أنَّ لله شريكًا وولدًا، أي: هو المستحِقُّ للعبادة في السماء والأرض. وقال عمر ﷺ وغيرُه: المعنى: وهو الذي في السماء إلهٌ في[٤] الأرض[٥]؛ وكذلك قرأ[٦]. والمعنى[٧]: أنه يُعبد فيهما. وروي أنه قرأ هو وابنُ مسعود وغيرُهما:

---

(١) السبعة ص٤١٢، والتيسير ص١٤٩ - ١٥٠، وتقدم ١٣/ ٥١٩.

(٢) الكلام بنحوه في المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ لابن الجوزي ص٤٨.

(٣) قراءة ابن القعقاع في هذه المواضع في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي من العشرة، وقراءة ابن محيصن في القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٤) في (د) و(ظ): وفي ...

(٥) بعدها في (ظ): إله.

(٦) في (د) و(ظ): قرئ، ولم نقف عليها.

(٧) قبلها في (ظ): ويقرى بغير واو وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله يعني إله السماء والأرض واحد.. (وقع بعدها سواد).

«وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ»[١] وهذا خلاف المصحف. و«إلهٌ» رفع على أنه خبرُ مبتدأ محذوف؛ أي: وهو الذي في السماء هو إله؛ قاله أبو علي[٢]. وحَسُن حذفُه لطول الكلام[٣]. وقيل: «في» بمعنى «على»؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: على جذوع النخل؛ أي: هو القادر على السماء والأرض. ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ تقدَّم[٤].

قوله تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾

﴿تَبَارَكَ﴾: تفاعل، من البركة. وقد تقدَّم[٥]. ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أي: وقتُ قيامها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ قرأ ابن كثير وحمزة والكِسائي: «وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» بالياء. الباقون بالتاء[٦]. وكان ابن مُحَيْصِن وحُميدٌ ويعقوب وابن أبي إسحاق يفتحون أوَّله على أصولهم. وضَمَّ الباقون[٧].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ﴾ «مَنْ» في موضع الخفض. وأراد بـ «الذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونه» عيسى وعُزَيراً والملائكة. والمعنى: ولا يملك هؤلاء الشفاعة

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/ ٢٣٢.

(٣) أمالي ابن الشجري ١/ ١١٣ و ٣٣١ بنحوه.

(٤) ١/ ٤٢٩.

(٥) ٩/ ٢٤٤.

(٦) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٧) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٧٠، وهي بالتاء من رواية روح، وبالياء من رواية رويس.

إلَّا لمن شهد بالحقِّ وآمن على علمٍ وبصيرة؛ قاله سعيد بن جبير وغيره[١]. قال: وشهادةُ الحقِّ: لا إله إلا الله.

وقيل: «مَنْ» في محلِّ رفع؛ أي: ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعةَ ـ يعني الآلهة؛ في قول قتادة[٢]، أي: لا يشفعون لعابديها ـ إلَّا مَن شهد بالحق، يعني عُزيراً وعيسى والملائكة؛ فإنهم يشهدون بالحقِّ والوَحدانيةِ لله[٣]. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة ما شهدوا به.

وقيل: إنها نزلت بسبب أنَّ النَّضْر بنَ الحارث ونَفَراً من قريش قالوا: إنْ كان ما يقول محمدٌ حقًّا فنحن نتولَّى الملائكة، وهم أحقُّ بالشفاعة لنا منه؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾[٤] أي: اعتقدوا أنَّ الملائكة أو الأصنام أو الجِنَّ أو الشياطين تشفع لهم، ولا شفاعةَ لأحد يومَ القيامة.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني المؤمنين إذا أُذِن لهم. قال ابن عباس: «إلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ» أي: شَهِد أنْ لا إله إلا اللهُ وأنَّ محمدًا رسولُ الله[٥].

وقيل: أي: لا يملك هؤلاء العابدون من دون الله أن يَشفعَ لهم أحدٌ إلَّا مَن شَهِد بالحق؛ فإنَّ مَن شهد بالحق يَشفع له ولا يَشفع لمشرك. و«إلَّا» بمعنى: لكن، أي: لا ينال المشركون[٦] الشفاعةَ، لكن ينال الشفاعةَ مَن شهد بالحق؛ فهو استثناءٌ منقطع.

---

(١) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ . وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٦١ عن مجاهد، والاستثناء على هذا التأويل منفصل، كما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٢) أخرج قوله الطبري ٢٠/ ٦٦٢ .

(٣) تفسير البغوي ٤/ ١٤٧ ، والاستثناء على هذا التأويل متصل، وهو ما رجحه البغوي وابن عطية، وتكون «مَنْ» في محل رفع على البدلية من «الذين»، ويجوز أيضاً النصب على الاستثناء. ينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٢ .

(٤) النكت والعيون ٥/ ٢٤٢ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٣ .

(٥) أخرجه البيهقي في البعث والنشور (٣) دون قوله: وأن محمداً رسول الله.

(٦) في النسخ الخطية: المشركين.

ويجوز أن يكون متصلاً؛ لأن في جملةِ «الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ» الملائكةَ[١]. ويقال: شَفَعْته وشَفَعْت له؛ مثل: كِلْته وكِلْت له. وقد مضى في «البقرة» معنى الشفاعة واشتقاقها[٢]، فلا معنى لإعادتها.

وقيل: «إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالحَقِّ»: إلّا مَن تشهد له الملائكةُ بأنه كان على الحق في الدنيا، مع علمهم بذلك منه بأنْ يكونَ اللهُ أخبرهم به، أو بأنْ شاهدوه على الإيمان.

الثانية: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يدلُّ على معنيين: أحدهما: أنَّ الشهادة[٣] بالحقِّ غيرُ نافعةٍ إلّا مع العلم، وأنَّ[٤] التقليد لا يُغني مع عدم العلمِ بصحة المقالة. والثاني: أنَّ شرط سائرِ الشهادات في الحقوق وغيرِها أن يكونَ الشاهدُ عالماً بها. ونحوُه ما رُوي عن النبيِّ ﷺ «إذا رأيتَ مِثلَ الشمس فاشهد، وإلَّا فَدَعْ». وقد مضى في «البقرة»[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: لأَقرُّوا بأنَّ الله خلقهم بعد أن لم يكونوا شيئًا. ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف ينقلبون عن عبادته وينصرفون عنها حتى أشركوا به غيرَه رجاءَ شفاعتِهم له. يقال: أَفَكَه يأْفِكُه أَفْكًا؛ أي: قَلَبه وصَرَفه عن الشيء. ومنه قولُه تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾[٦] [الأحقاف: ٢٢]. وقيل: أي: ولئن سألتَ الملائكةَ وعيسى «مَنْ خَلَقَهُمْ» لَقالوا: الله. «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ» أي: فأنَّى يُؤفك هؤلاء في ادِّعائهم إياهم آلهةً!

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٨.
(٢) ٢/ ٧٦.
(٣) في (م): الشفاعة.
(٤) في أحكام القرآن للكيا ٤/ ٣٦٩ ـ والكلام منه ـ: فإن.
(٥) ٤/ ٤٤١.
(٦) الصحاح (أفك).

قوله تعالى: ﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

في «قِيلِهِ» ثلاثُ قراءات: النصب، والجرّ، والرفع. فأمَّا الجرُّ، فهي قراءةُ عاصم وحمزة. وبقية السبعة بالنصب(١). وأما الرفع؛ فهي قراءة الأعرجِ وقتادةَ وابنِ هُرْمُزٍ(٢) ومسلم بن جُنْدب(٣).

فمن جَرَّ حمله على معنى: وعنده عِلْمُ الساعة وعلمُ قِيلِه.

ومَن نصب فعلى معنى: وعنده عِلم الساعة ويعلم قِيلَه؛ وهذا اختيار الزَّجاج(٤).

وقال الفرَّاء والأخفش(٥): يجوز أن يكون ﴿قِيلَهُۥ﴾ عطفًا على قوله: ﴿أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ [الآية: ٨٠].

قال ابن الأنباري(٦): سألتُ أبا العباس محمد بنَ يزيدَ المبرِّد: بأيِّ شيءٍ تَنْصِبُ القيل؟ فقال: أنصبه على «وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيعْلَم قِيلَه». فمن هذا الوجهِ لا يَحسُن الوقفُ على «تُرْجَعُونَ»، ولا على «يَعْلَمُونَ». ويحسُن الوقفُ على «يَكْتُبُونَ». وأجاز الفراءُ والأخفش(٧) أن يُنصبَ القيلُ على معنى: [أَنَّا] لا نسمع سِرَّهم ونجواهم وقِيلَه؛ كما ذكرنا عنهما. فمن هذا الوجهِ لا يحسُن الوقف على «يَكْتُبُونَ»(٨).

وأجاز الفراء والأخفش أيضًا(٩) أن يُنصب على المصدر؛ كأنه قال: وقال قِيلَه، وشكا شكواه إلى الله عزَّ وجلَّ، كما قال كعب بن زهير:

---

(١) السبعة ص٥٨٩، والتيسير ص١٩٧.

(٢) هو نفسه الأعرج المذكور، واسمه عبد الرحمن، روى له الجماعة.

(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٨، والقراءات الشاذة ص١٣٦، والبحر ٨/ ٣٠.

(٤) في معاني القرآن ٤/ ٤٢١.

(٥) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.

(٦) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٦.

(٧) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

(٨) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧.

(٩) كلام الفراء في معاني القرآن له ٣/ ٣٨، وكلام الأخفش في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٣.

يـمـشـي الـوُشـاةُ جَـنـابَـيـهـا وقِـيـلَـهُـمُ   إنَّـك يـا ابـنَ أبـي سُـلْـمَـى لَـمـقـتـولُ

أراد: ويقولون قيلَهم[١].

ومَن رفع «قيله»، فالتقدير: وعنده قِيلُه، أو: قِيلُه مسموع[٢]، أو: قِيلُه هذا القولُ.

الزمخشريّ: والذي قالوه ليس بقويٍّ في المعنى، مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسُن اعتراضًا، ومع تنافر النَّظْم. وأقوى من ذلك وأوجهُ أن يكونَ الجرُّ والنصب على إضمار حرفِ القَسَم وحذفِه. والرفع على قولهم: أَيمُنُ الله، وأمانة الله، ويمين الله، ولَعْمرُك، ويكون قولُه: «إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ» جوابَ القسم؛ كأنه قال: وأقسم بقيله: ياربِّ، أو: قيلِهِ: يا ربِّ قَسَمي، إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون[٣].

وقال ابن الأنباري[٤]: ويجوز في العربية: «وقيلُه» بالرفع، على أنْ تَرفعَه بـ «إنَّ هؤلاءِ قومٌ لا يؤمنون». المهدوي: أو يكون على تقدير: وقِيلُه قِيلُه يا ربّ؛ فحذف قيله الثاني[٥] الذي هو خبر. وموضع «يا ربّ» نصبٌ بالخبر المضمَر، ولا يمتنع ذلك من حيث امتنع حذفُ بعضِ الموصول وبقي بعضه؛ لأن حذف القول قد كَثُر حتى صار بمنزلة المذكور.

والهاء في «قِيله» لعيسى[٦]، وقيل: لمحمد ﷺ، وقد جرى ذِكْرُه إذ قال: «قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ»[٧].

---

(١) الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ . وبيت كعب في ديوانه ص٨٩ ، وروايته: يسعى الوشاة بجنبيها وقولهم.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

(٣) الكشاف ٣/ ٤٩٨ .

(٤) في الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٧ .

(٥) في النسخ الخطية: الأول.

(٦) ضعَّف هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٦٧ .

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٤ . وينظر تفسير الطبري ٢٠/ ٦٦٤ ، ومشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ .

وقرأ أبو قِلابة: «يَاربَّ» بفتح الباء[١]. والقيل مصدر كالقول؛ ومنه الخبر: «نهى عن قِيْلٍ وقال»[٢]. ويقال: قلت قَوْلًا وقِيلًا وقالًا. وفي النساء: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [الآية: ١٢٢].

قوله تعالى: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾

قال قتادة: أمرَه بالصَّفح عنهم، ثم أمره بقتالهم، فصار الصفحُ منسوخاً بالسيف. ونحوُه عن ابن عباس قال: «فَاصْفَحْ عَنْهُمْ»: أَعرِض عنهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: معروفًا؛ أي: قل لمشركي أهل مكة «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم نُسخ هذا في سورة براءةٌ بقوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [الآية: ٥][٣]. وقيل: هي مُحْكَمة لم تُنسخ.

وقراءة العامة: «فَسَوْفَ يعلمون» بالياء؛ على أنه خبرٌ من الله تعالى لنبيِّه بالتهديد. وقرأ نافعٌ وابن عامر: «تَعْلَمُونَ» بالتاء[٤]؛ على أنه من خطاب النبيِّ ﷺ للمشركين بالتهديد. و«سلامٌ» رفع بإضمار: عليكم؛ قاله الفرَّاء[٥]. ومعناه: الأمر بتوديعهم بالسلام، ولم يجعله تحيَّةً لهم؛ حكاه النقَّاش. وروى شعيب بن الحَبْحاب أنه عرَّفه بذلك كيف السلامُ عليهم[٦]؛ والله أعلم.

---

(١) مشكل إعراب القرآن ٢/ ٦٥٢ ، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٧ ، وهي قراءة شاذة.

(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥) من حديث أبي هريرة، وسلف ٥/ ٢٥١ .

(٣) أخرج قولهما النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/ ٦٢٤ ، وقول قتادة أخرجه أيضاً الطبري ٢٠/ ٦٦٥ .

(٤) السبعة ص٥٨٩ ، والتيسير ص١٩٧ .

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٣٨ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣ .

تفسير سورة الزُّخرف

وهى مكية .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿حمٓ (١) وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (٤) أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ (٥) وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الأَوَّلِينَ (٨)﴾ .

يقول تعالى: ﴿حمٓ . وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ أى: البين [١] الواضح الجلى المعانى والألفاظ؛ لأنه نزل[٢] بلغة العرب التى هى أفصح اللغات للتخاطب [٣] بين الناس؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ أى: أنزلناه ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أى: بلغة العرب فصيحا واضحا، ﴿لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أى: تفهمونه وتتدبرونه، كما قال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾: بين شرفه فى الملأ الأعلى، ليشرفه ويعظمه ويطيعه أهل الأرض، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ﴾ أى: القرآن ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ أى: اللوح المحفوظ، قاله ابن عباس، ومجاهد، ﴿لَدَيْنَا﴾ أى: عندنا، قاله قتادة وغيره، ﴿لَعَلِيٌّ﴾ أى: ذو مكانة عظيمة وشرف وفضل، قاله قتادة، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى: محكم برىء من اللبس والزيغ.

وهذا كله تنبيه على شرفه وفضله، كما قال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ . لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ . تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٧ـ ٨٠] وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ . فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ . فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ . مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ . بِأَيْدِي سَفَرَةٍ . كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١١ ـ ١٦]؛ ولهذا استنبط العلماء، رحمهم الله، من هاتين الآيتين: أن المُحدثَ لا يمس المصحف، كما ورد به الحديث إن صح؛ لأن[٤] الملائكة يعظمون المصاحف المشتملة على القرآن فى الملأ الأعلى، فأهل الأرض بذلك أولى وأحرى، لأنه نزل عليهم، وخطابه متوجه إليهم، فهم أحق أن يقابلوه بالإكرام والتعظيم، والانقياد له بالقبول والتسليم، لقوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ :اختلف المفسرون فى معناها، فقيل: معناها: أتحسبون أن نصفح عنكم فلا نعذبكم ولم تفعلوا ما أمرتم به؟ قاله ابن عباس، ومجاهد وأبو صالح، والسدى، واختاره ابن جرير[٥].

وقال قتادة فى قوله: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا﴾: والله لو أن هذا القرآن رفع حين ردته

(١) فى أ: «النير». (٢) فى ت، م: «منزل». (٣) فى ت، م: «المتخاطب».
(٤) فى ت، أ: «إن صح ، وقوله: «لا تمس المصحف إلا وأنت طاهر «لأن». (٥) فى ت: «ومجاهد وغيرهما».

أوائل [١] هذه الأمة لهلكوا، ولكن الله عاد بعائدته ورحمته، وكرره عليهم ودعاهم إليه عشرين سنة، أو ما شاء الله من ذلك.

وقول قتادة لطيف المعنى جدا، وحاصله أنه يقول فى معناه: أنه تعالى من لطفه ورحمته بخلقه لا يترك دعاءهم إلى الخير والذكر [٢] الحكيم ـ وهو القرآن ـ وإن كانوا مسرفين معرضين عنه، بل أمر [٣] به ليتهدى من قدّر هدايته، وتقوم الحجة على من كتب شقاوته.

ثم قال تعالى ـ مسليا لنبيه فى تكذيب من كذبه من قومه، وآمرا له بالصبر عليهم ـ: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ﴾ أى: فى شيع الأولين، ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون به.

وقوله: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا ﴾ أى: فأهلكنا المكذبين بالرسل، وقد كانوا أشد بطشا من هؤلاء المكذبين لك يامحمد. كقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً﴾ [غافر: ٨٢] والآيات فى ذلك كثيرة.

وقوله: ﴿ وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴾: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم، أى: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله فى آخر هذه السورة: ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[الزخرف: ٥٦]. وكقوله: ﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾ [غافر: ٨٥] وقال: ﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١١) وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾.

يقول تعالى: ولئن سألت ـ يا محمد ـ هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره: ﴿ مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ أى: ليعترفن بأن الخالق لذلك هو الله [تعالى] [٤] وحده لا شريك له، وهم مع هذا يعبدون معه غيره من الأصنام والأنداد.

ثم قال: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ أى: فراشاً قراراً ثابتة، يسيرون عليها ويقومون وينامون وينصرفون، مع أنها مخلوقة على تيار الماء، لكنه أرساها بالجبال لئلا تميد هكذا ولا هكذا، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أى: طرقا بين الجبال والأودية ﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أى: فى سيركم من بلد إلى بلد،

---

(١) فى ت: «أول».
(٢) فى ت، م، أ: «إلى الخير وإلى الذكر».
(٣) فى ت، م: «يأمر».
(٤) زيادة من أ.

وقطر إلى قطر، وإقليم إلى إقليم.

﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ أى: بحسب الكفاية لزروعكم [١] وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

وقوله: ﴿ فَأَنشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أى: أرضا ميتة، فلما جاءها الماء اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج.

ثم نبه بإحياء الأرض على إحياء الأجساد يوم المعاد بعد موتها، فقال: ﴿كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ﴾.

ثم قال: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا ﴾ أى: مما تنبت الأرض من سائر الأصناف، من نبات وزروع وثمار وأزاهير، وغير ذلك [أى] [٢] من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأصنافها، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ﴾ أى: السفن﴿وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أى: ذللها لكم وسخرها ويسرها لأكلكم لحومها، وشربكم ألبانها وركوبكم ظهورها؛ ولهذا قال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ [٣] ﴾أى: لتستووا [٤] متمكنين مرتفقين ﴿عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ أى: على ظهور هذا الجنس، ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ﴾ أى: فيما سخر لكم ﴿إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ أى: مقاومين. ولولا تسخير [٥] الله لنا هذا ما قدرنا عليه.

قال ابن عباس [٦]، وقتادة، والسدى، وابن زيد: ﴿مُقْرِنِينَ﴾ أى: مطيقين [٧]. ﴿وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ أى: لصائرون إليه بعد مماتنا، وإليه سيرنا الأكبر. وهذا من باب التنبيه بسير الدنيا على سير الآخرة، كما نبه بالزاد الدنيوى على [الزاد] [٨] الأخروى فى قوله: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧]، وباللباس الدنيوى على الأخروى فى قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ [ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ] [٩]﴾ [الأعراف:٢٦].

ذكر الأحاديث الواردة عند ركوب الدابة:

حديث أمير المؤمنين على بن أبى طالب، رضى الله عنه:

قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا شَرِيك بن عبد الله، عن أبى إسحاق، عن على بن ربيعة قال: رأيت عليا، رضى الله عنه، أتى [١٠] بدابة، فلما وضع رجله فى الرّكاب قال: باسم الله. فلما استوى عليها قال: الحمد لله، ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾، ثم حمد الله ثلاثا، وكبر ثلاثا، ثم قال: سبحانك، لا إله إلا أنت، قد ظلمت نفسى فاغفر لى. ثم ضحك، فقلت له: من أى شيء ضحكت [١١] يا أمير المؤمنين؟ فقال: رأيتُ رسول الله ﷺ صنع كما صنعت [١٢]، ثم ضحك. فقلت: مم ضحكت يارسول الله؟ فقال: «يعجب الرب [١٣] من عبده إذا قال: رب، اغفر لى. ويقول: علم عبدى أنه لا يغفر الذنوب غيرى».

(١) فى ت،م: «لزرعكم». (٢) زيادة من ت. (٣) فى ت: «ظهره».
(٤) فى أ: «لتستقروا». (٥) فى م: «ولولا ما يسخر». (٦) فى أ: «عياض».
(٧) فى أ: «مطيعين». (٨) زيادة من ت، م، أ. (٩) زيادة من أ. (١٠) فى ت: «أنه أتى».
(١١) فى ت، م: «مم ضحكت». (١٢) فى ت، م، أ: «فعل مثل ما فعلت». (١٣) فى ت، م: «الرب عز وجل».

وهكذا رواه أبو داود، والترمذى، والنسائى، من حديث أبى الأحوص ـ زاد النسائى: ومنصور ـ عن أبى إسحاق السَّبِيعى، عن على بن ربيعة الأسدى الوالبى، به [١] [٢]. وقال الترمذى: حسن صحيح.

وقد قال عبد الرحمن بن مَهْدِىّ، عن شعبة: قلت لأبى إسحاق السَّبِيعى: ممن سمعت هذا الحديث؟ قال: من يونس بن خباب. فلقيت يونس بن خباب فقلت: ممن سمعته؟ فقال: من رجل سمعه من على بن ربيعة. ورواه بعضهم عن يونس بن خباب، عن شقيق بن عقبة الأسدى، عن على ابن ربيعة الوالبى، به[٣].

حديث عبد الله بن عباس، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو المغيرة، حدثنا أبو بكر بن عبد الله، عن على بن أبى طلحة، عن عبد الله بن عباس؛ أن رسول الله ﷺ أردفه على دابته، فلما استوى عليها كبر رسول الله ﷺ ثلاثا، وحمد[٤] ثلاثا، وهلل الله واحدة. ثم استلقى عليه فضحك، ثم أقبل عليه فقال: «ما من امرئ مسلم يركب دابة فيصنع كما صنعت، إلا أقبل الله، عز وجل، عليه، فضحك إليه كما ضحكت إليك». تفرد به أحمد[٥].

حديث عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما:

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو كامل، حدثنا حماد بن سلمة، عن أبى الزبير، عن على بن عبد الله البارقى، عن عبد الله بن عمر، رضى الله عنهما؛ أن النبى ﷺ كان إذا ركب راحلته كبر ثلاثا ثم قال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ . وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾. ثم يقول: «اللهم إنى أسألك فى سفرى هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى. اللهم، هون علينا السفر واطو لنا البعيد. اللهم، أنت الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل. اللهم، اصحبنا فى سفرنا، واخلفنا فى أهلنا». وكان إذا رجع إلى أهله قال: «آيبون تائبون إن شاء الله، عابدون، لربنا حامدون».

وهكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائى، من حديث ابن جريج، والترمذى من حديث حماد بن سلمة، كلاهما عن أبى الزبير، به[٦].

حديث آخر:

قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا محمد بن إسحاق، عن محمد بن إبراهيم، عن

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى».

(٢) المسند (١/ ٩٧) وسنن أبى داود برقم (٢٦٠٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٦) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (٨٨٠٠).

(٣) تحفة الأشراف للمزى (٧/ ٤٣٦).

(٤) فى ت، أ: «وحمد الله ثلاثا».

(٥) المسند (١/ ٣٣٠) قال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «فيه أبو بكر بن أبى مريم وهو ضعيف».

(٦) المسند (٢/ ١٤٤) وصحيح مسلم برقم (١٣٤٢) وسنن أبى داود برقم (٢٥٩٩) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٣٨٢) وسنن الترمذى برقم (٣٤٤٧).

عمرو بن الحكم بن ثوبان[١]، عن أبى لاس الخزاعى قال: حملنا رسول الله ﷺ على إبل من إبل الصدقة إلى الحج. فقلنا: يا رسول الله، ما نرى[٢] أن تحملنا هذه! فقال: «ما من بعير إلا فى ذروته شيطان، فاذكروا اسم الله عليها إذا ركبتموها كما آمركم[٣]، ثم امتهنوها لأنفسكم، فإنما يحمل الله عز وجل»[٤].

أبو لاس اسمه: محمد بن الأسود بن خَلَف.

حديث آخر فى معناه:

قال أحمد: حدثنا عَتَّاب، أخبرنا عبد الله (ح) وعلى بن إسحاق، أخبرنا عبد الله ـ يعنى ابن المبارك ـ أخبرنا أسامة بن زيد، أخبرنى محمد بن حمزة؛ أنه سمع أباه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «على ظهر كل بعير شيطان، فإن ركبتموها فسموا الله، عز وجل، ثم لا تقصروا عن حاجاتكم»[٥].

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ (١٥) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ (١٦) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (١٧) أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ (١٨) وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (٢٠)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن المشركين فيما افتروه وكذبوه فى جعلهم بعض الأنعام لطواغيتهم وبعضها لله، كما ذكر الله عنهم فى سورة «الأنعام»، فى قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦] .وكذلك جعلوا له من قسمى[٦] البنات والبنين أخسَّهما وأردأهما وهو البنات، كما قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ [النجم: ٢١، ٢٢]. وقال هاهنا: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾.

ثم قال: ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ﴾؟، وهذا إنكار عليهم غاية الإنكار. ثم ذكر تمام الإنكار فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أى: إذا بشر أحد هؤلاء بما جعلوه لله من البنات يأنف من ذلك غاية الأنفة، وتعلوه كآبة من سوء ما بشر به،

---

(١) فى ت: «رواه الإمام أحمد بسنده». (٢) فى م: «ما ترى». (٣) فى ت: «أمرتم».

(٤) المسند (٤/ ٢٢١) ورجاله ثقات.

(٥) المسند (٣/ ٤٩٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣١): «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن حمزة وهو ثقة».

(٦) فى ت: «من كل قسم».

ويتوارى من القوم من خجله من ذلك، يقول تعالى: فكيف تأنفون أنتم من ذلك، وتنسبونه إلى الله عز وجل؟

ثم قال: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ أى: المرأة ناقصة يكمل نقصها بلبس الحلى منذ تكون طفلة، وإذا خاصمت فلا عبارة لها، بل هى عاجزة عَيِيَّة، أَوَ مَنْ يكون هكذا ينسب إلى جناب الله عز وجل[(١)]؟!، فالأنثى ناقصة الظاهر والباطن، فى الصورة والمعنى، فيكمل نقص ظاهرها وصورتها بلبس الحلى وما فى معناه، ليجبر ما فيها من نقص، كما قال بعض شعراء العرب:

وَمَا الحَلْى إلا زينَةٌ من نقيصـــةٍ ... يتمّمُ مـن حُسْن إذا الحسْنُ قَصَّرا

وأمَّا إذَا كان الجـــمـــالُ موفَّرا ... كحُسْنك، لم يَحْتَجْ إلى أن يزوَّرا

وأما نقص معناها، فإنها ضعيفة عاجزة عن الانتصار عند الانتصار، لا عبارة لها ولا همة، كما قال بعض العرب وقد بشر ببنت: «ما هى بنعم الولد: نصرها بالبكاء، وبرها سرقة».

وقوله: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ أى: اعتقدوا فيهم ذلك، فأنكر عليهم تعالى قولهم ذلك، فقال: ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أى: شاهدوه وقد خلقهم الله إناثا، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ أى: بذلك، ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ عن ذلك يوم القيامة. وهذا تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ أى: لو أراد الله لحال بيننا وبين عبادة هذه الأصنام، التى هى على صور[(٢)] الملائكة التى هى بنات الله، فإنه عالم بذلك وهو يقررنا عليه، فجمعوا بين أنواع كثيرة من الخطأ:

أحدها: جَعْلُهم لله ولدا، تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا.

الثانى: دعواهم أنه اصطفى البنات على البنين، فجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا.

الثالث: عبادتهم لهم مع ذلك كله، بلا دليل ولا برهان، ولا إذن من الله عز وجل، بل بمجرد الآراء والأهواء، والتقليد للأسلاف والكبراء والآباء، والخبط فى الجاهلية الجهلاء.

الرابع: احتجاجهم بتقريرهم على ذلك قَدَرا [والحجة إنما تكون بالشرع][(٣)]، وقد جهلوا فى هذا الاحتجاج جهلاً كبيرًا، فإنه تعالى قد أنكر ذلك عليهم أشد الإنكار، فإنه منذ بعث الرسل وأنزل الكتب يأمر بعبادته وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه، قال [تعالى][(٤)]: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

---

(١) فى ت: «الله تعالى»، وفى م، أ: «الله العظيم».

(٢) فى أ: «صورة».

(٣) زيادة من أ.

(٤) زيادة من أ.

وقال في هذه الآية ـ بعد أن ذكر حجتهم هذه ـ: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بصحة ما قالوه واحتجوا به ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾، أي: يكذبون ويتقولون.

وقال مجاهد في قوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ﴾ أي(١): ما يعلمون قدرة الله على ذلك.

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥)﴾.

يقول تعالى منكرا على المشركين في عبادتهم غير الله بلا برهان ولا دليل ولا حجة: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ﴾؟ أي: من قبل شركهم، ﴿فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ أي: فيما هم فيه، أي: ليس الأمر كذلك، كقوله: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٥] أي: لم يكن ذلك.

ثم قال: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: ليس لهم مستند(٢) فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد، بأنهم كانوا على أمة، والمراد بها الدين هاهنا، وفي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ أي: وراءهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾، دعوى منهم بلا دليل.

ثم بين تعالى أن مقالة هؤلاء قد سبقهم إليها أشباههم ونظراؤهم من الأمم السالفة المكذبة للرسل، تشابهت قلوبهم، فقالوا مثل مقالتهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ . أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣]، وهكذا قال هاهنا: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: يا محمد لهؤلاء المشركين: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾؟ أي: ولو علموا وتيقنوا صحة ما جئتهم به، لما انقادوا لذلك بسوء قصدهم ومكابرتهم للحق وأهله.

قال الله تعالى: ﴿فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: من الأمم المكذبة بأنواع من العذاب، كما فصله تعالى في قصصهم، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾؟ أي: كيف بادوا وهلكوا، وكيف نجى الله المؤمنين؟

---

(١) في ت، م: «يعني». (٢) في أ: «سند».

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٢٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٨) بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢) وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ (٣٥)﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بعث بعده من الأنبياء، الذى تنتسب إليه قريش فى نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه فى عبادتهم الأوثان، فقال: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ .وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ أى: هذه الكلمة، وهى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهى «لا إله إلا الله»، أى: جعلها دائمة فى ذريته يقتدى به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم، عليه السلام، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أى: إليها.

وقال عكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والسدى، وغيرهم[(١)] فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ يعنى: لا إله إلا الله، لا يزال فى ذريته من يقولها. ورُوى نحوه عن ابن عباس.

وقال ابن زيد: كلمة الإسلام. وهو يرجع إلى ما قاله الجماعة.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ﴾ يعنى: المشركين، ﴿وَآبَاءَهُمْ﴾ أى: فتطاول عليهم العمر فى ضلالهم[(٢)]، ﴿حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ أى: بين الرسالة والنذارة.

﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ أى: كابروه وعاندوه ودفعوا[(٣)] بالصدور والراح كفرا وحسدا وبغيا، ﴿وَقَالُوا﴾ [أى][(٤)]: كالمعترضين على الذى أنزله تعالى وتقدس: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ أى: هلا كان إنزال هذا القرآن على رجل عظيم كبير فى أعينهم من القريتين؟ يعنون مكة والطائف. قاله ابن عباس، وعكرمة، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وابن زيد.

---

(١) فى ت: «وغيرهما».

(٢) فى م: «ضلالتهم».

(٣) في أ: «ودفعوه».

(٤) زيادة من ت، م.

وقد ذكر غير واحد منهم [(١)]: أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة، وعروة بن مسعود الثقفى.

وقال مالك عن زيد بن أسلم، والضحاك، والسدى: يعنون الوليد بن المغيرة، ومسعود بن عمرو الثقفى.

وعن مجاهد: عمير بن عمرو بن مسعود الثقفى. وعنه أيضا: أنهم يعنون الوليد بن المغيرة، وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفى.

وعن مجاهد: يعنون عتبة بن ربيعة بمكة، وابن عبد ياليل بالطائف.

وقال السدى: عنوا [بذلك][(٢)] الوليد بن المغيرة، وكنانة بن عبد عمرو بن عمير الثقفى.

والظاهر: أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان.

قال الله تعالى رادا عليهم فى هذا الاعتراض: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ ؟ أى: ليس الأمر مردودا إليهم، بل إلى الله، عز وجل، والله أعلم حيث يجعل رسالاته، فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبا ونفسا، وأشرفهم بيتا، وأطهرهم أصلا.

ثم قال تعالى مبينا أنه قد فاوت بين خلقه فيما أعطاهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم، وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فقال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، قيل: معناه ليسخر[(٣)] بعضهم بعضا فى الأعمال، لاحتياج هذا إلى هذا، وهذا إلى هذا، قاله السدى وغيره.

وقال قتادة، والضحاك: ليملك بعضهم بعضا. وهو[(٤)] راجع إلى الأول.

ثم قال: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ أى: رحمة الله بخلقه خير لهم مما بأيديهم من الأموال ومتاع الحياة الدنيا.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أى: لولا أن يعتقد كثير من الناس الجهلة أن إعطاءنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال ـ هذا معنى قول ابن عباس، والحسن، وقتادة، والسدى، وغيرهم ـ ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ [عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ][(٥)]﴾ أى: سلالم ودرجا من فضة ـ قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى: وابن زيد، وغيرهم ـ ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾، أى: يصعدون، ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا[(٦)]﴾ أى: أغلاقا على أبوابهم ﴿وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ﴾، أى: جميع ذلك يكون فضة، ﴿وَزُخْرُفًا﴾، أى: وذهبا. قاله ابن عباس، وقتادة، والسدى، وابن زيد[(٧)].

---

(١) فى م، أ: «منهم وقتادة». (٢) زيادة من أ. (٣) فى أ: «لتسخير».
(٤) فى ت، أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت. (٦) فى ت: ﴿أبوابا وسررا﴾.
(٧) فى ت: «ابن عباس وغيرهم».

ثم قال: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أى: إنما ذلك من الدنيا الفانية الزائلة الحقيرة عند الله [تعالى][(١)] أى: يعجل[(٢)] لهم بحسناتهم التى يعملونها فى الدنيا مآكل ومشارب، ليوافوا الآخرة وليس لهم عند الله حسنة يجزيهم بها، كما ورد به الحديث الصحيح[(٣)]. [وقد][(٤)] ورد فى حديث آخر: «لو أن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء»، أسنده البغوى من رواية زكريا بن منظور، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ، فذكره[(٥)]. ورواه الطبرانى من طريق زمعة بن صالح، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد، عن النبى ﷺ: «لو عدلت الدنيا جناح بعوضة، ما أعطى كافرا منها شيئا»[(٦)].

ثم قال: ﴿وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أى: هى لهم خاصة لا يشاركهم: فيها [أحد][(٧)] غيرهم؛ ولهذا لما قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ حين صعد إليه فى تلك المشربه لما آلى من نسائه، فرآه [عمر][(٨)] على رمال حصير قد أثر بجنبه[(٩)] فابتدرت عيناه بالبكاء، وقال: يا رسول الله، هذا كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت صفوة الله من خلقه. وكان رسول الله ﷺ متكئا فجلس وقال: «أوَ فى[(١٠)] شك أنت يا ابن الخطاب؟» ثم قال: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم فى حياتهم الدنيا». وفى رواية: «أما ترضى أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟»[(١١)].

وفى الصحيحين أيضا وغيرهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا فى آنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا فى صحافها، فإنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة». وإنما خولهم الله تعالى فى الدنيا لحقارتها، كما روى الترمذى وابن ماجه، من طريق أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة، ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا»، قال الترمذى: حسن صحيح[(١٢)].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ

(١) زيادة من أ. (٢) فى ت: «يجعل».
(٣) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٨٠٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.
(٤) زيادة من م.
(٥) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٣).
(٦) المعجم الكبير (٦/ ١٧٨) وفى إسناده زمعة بن صالح وهو ضعيف.
(٧، ٨) زيادة من أ. (٩) فى ت، م، أ: «بجلده».
(١٠) فى ت: «أفى».
(١١) انظر تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية: ١٣١ من سورة طه.
(١٢) سنن الترمذى برقم (٢٣٢٠) وسنن ابن ماجه برقم (٤١١٠).

صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (٤٥)﴾ .

يقول تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أى: يتعامى ويتغافل ويعرض، ﴿عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ﴾ والعشا فى العين: ضعف بصرها. والمراد هاهنا: عشا البصيرة، ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ كقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، وكقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وكقوله: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ﴾ [فصلت: ٢٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ . حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا﴾ أى: هذا الذى تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضله، ويهديه إلى صراط الجحيم. فإذا وافى الله يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذى وكل به، ﴿قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [أى: فبئس القرين كنت لى فى الدنيا][(١)]. وقرأ بعضهم: «حتى إذا جاءانا» يعنى: القرين والمقارن.

قال عبد الرزاق: أخبرنا معمر، عن سعيد الجُرَيرى قال: بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سَفَعَ بيده شيطان فلم يفارقه، حتى يصيرهما الله تعالى إلى النار، فذلك حين يقول: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾[(٢)].

والمراد بالمشرقين هنا[(٣)] هو ما بين المشرق والمغرب. وإنما استعمل هاهنا تغليبا، كما يقال[(٤)]: القمران، والعمران، والأبوان، [والعسران][(٥)]. قاله ابن جرير وغيره.

[ولما كان الاشتراك فى المصيبة فى الدنيا يحصل به تسلية لمن شاركه فى مصيبته، كما قالت الخنساء تبكى أخاها:

وَلَوْلا كثرةُ الباكين حَـــوْلى عَلَى قَتْلاهم لقتلتُ نَفْســـى
وما يَبْكُون مثلَ أخـى ولكن أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّـــى

قطع الله بذلك بين أهل النار، فلا يحصل لهم بذلك تأسى وتسلية ولا تخفيف][(٦)]

ثم قال[(٧)] تعالى: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ أى: لا يغنى عنكم اجتماعكم فى النار واشتراككم فى العذاب الأليم.

وقوله: ﴿ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أى: ليس ذلك إليك، إنما عليك البلاغ، وليس عليك هداهم، ولكن الله يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الحكم العدل [(٨)] فى ذلك.

---

(١) زيادة من ت.
(٢) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦١).
(٣) فى ت، م، أ: «ههنا». (٤) فى ت، م: «قيل». (٥) زيادة من أ.
(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت: «فقال». (٨) فى ت، م، أ: «الحاكم العادل».

ثم قال: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ أى: لابد أن ننتقم منهم ونعاقبهم، ولو ذهبت أنت، ﴿أَوْ[(١)] نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ أى: نحن قادرون على هذا وعلى هذا. ولم يقبض الله رسوله حتى أقر عينه من أعدائه، وحكمه فى نواصيهم، وملكه ما تضمنته صياصيهم. هذا معنى قول السدى، واختاره ابن جرير.

وقال ابن جرير[(٢)]: حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا ابن[(٣)] ثور، عن معمر قال: تلا قتادة: ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ فقال: ذهب النبى ﷺ وبقيت النقمة، ولم يُرِ الله [(٤)] نبيه ﷺ فى أمته شيئا يكرهه، حتى مضى[(٥)]، ولم يكن نبى قط إلا ورأى[(٦)] العقوبة فى أمته، إلا نبيكم ﷺ. قال: وذُكر لنا أن رسول الله ﷺ أُرِىَ ما يصيب أمته من بعده، فما رُئِى ضاحكا منبسطا حتى قبضه الله عز وجل[(٧)].

وذكر من رواية سعيد بن أبى عروبة، عن قتادة نحوه. ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا.

وفى الحديث: «النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما تُوعَدُ، وأنا أَمَنَة لأصحابى، فإذا ذهبت أتى أصحابى ما يوعدون»[(٨)].

ثم قال تعالى: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أى: خذ بالقرآن المنزل على قلبك، فإنه هو الحق، وما يهدى إليه هو الحق المفضى إلى صراط الله المستقيم، الموصل إلى جنات النعيم، والخير الدائم المقيم.

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ قيل: معناه: لشرف[(٩)] لك ولقومك، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدى، وابن زيد. واختاره ابن جرير، ولم يحك سواه.

وأورد البغوى هاهنا حديث الزهرى، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن معاوية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن هذا الأمر فى قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبَّه الله على وجهه ما أقاموا الدين». رواه البخارى[(١٠)].

و[قيل][(١١)]: معناه: أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم، فهم أفهم الناس له، فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه، وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخُلَّص من المهاجرين السابقين الأولين، ومن شابههم وتابعهم.

وقيل: معناه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ أى: لتذكير لك ولقومك، وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم، كقوله: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠]، وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ

(١) فى ت، أ: «وإما»وهو خطأ. (٢) فى ت: «وروى هو قال». (٣) فى ت: «أبو».
(٤) فى أ: «الله تعالى». (٥) فى ت، م: «قبض». (٦) فى ت، م، أ: «إلا وقد رأى».
(٧) تفسير الطبرى (٢٥/ ٤٥).
(٨) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٥٣١) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه.
(٩) فى م: «الشرف».
(١٠) معالم التنزيل للبغوى (٧/ ٢١٥) وصحيح البخارى برقم (٣٥٠٠).
(١١) زيادة من ت، م.

عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وسوف تسألون﴾ أي: عن هذا القرآن وكيف كنتم فى العمل به والاستجابة له.

وقوله: ﴿واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون﴾ ؟ أي: جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد، كقوله: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾ [النحل: ٣٦]. قال مجاهد: فى قراءة عبد الله بن مسعود: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك رسلنا». وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدى، عن ابن مسعود. وهذا كأنه تفسير لا تلاوة، والله أعلم.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: واسألهم ليلة الإسراء، فإن الأنبياء جمعوا له. واختار ابن جرير الأول، [والله أعلم][1].

﴿ولقد أرسلنا موسىٰ بآياتنا إلىٰ فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين (٤٦) فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون (٤٧) وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٨) وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون (٤٩) فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون (٥٠)﴾.

يقول تعالى مخبرا عن عبده ورسوله موسى، عليه السلام، أنه ابتعثه إلى فرعون وملئه من الأمراء والوزراء والقادة، والأتباع والرعايا، من القبط وبنى إسرائيل، يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهاهم عن عبادة ما سواه، وأنه بعث معه آيات عظاما، كيده وعصاه، وما أرسل معه من الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ومن نقص الزروع والأنفس والثمرات، ومع هذا كله استكبروا عن اتباعها والانقياد لها، وكذبوها وسخروا منها، وضحكوا ممن جاءهم بها. ﴿وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها﴾، ومع هذا ما رجعوا عن غيهم وضلالهم، وجهلهم وخبالهم. وكلما جاءتهم آية من هذه الآيات يضرعون إلى موسى، عليه السلام، ويتلطفون له فى العبارة بقولهم: ﴿يا أيها الساحر﴾ أى: العالم، قاله ابن جرير. وكان علماء زمانهم هم السحرة. ولم يكن السحر عندهم فى زمانهم مذموما، فليس هذا منهم على سبيل الانتقاص منهم؛ لأن الحال حال ضرورة منهم إليه لا تناسب ذلك، وإنما هو تعظيم فى زعمهم، ففى كل مرة يعدون موسى [عليه السلام][2] إن كشف عنهم هذا أن يؤمنوا ويرسلوا معه بنى إسرائيل. وفى كل مرة ينكثون ما عاهدوا عليه، وهذا كقوله [تعالى][3]: ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى[4] ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجز إلىٰ أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون﴾ [الأعراف: ١٣٣ ـ ١٣٥].

---

(١) زيادة من أ. (٢، ٣) زيادة من ت. (٤) فى ت، م: «يأيها الساحر» وهو خطأ.

﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٥١) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٤) فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥) فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ (٥٦) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن فرعون وتمرده وعتوه وكفره وعناده: أنه جمع قومه، فنادى فيهم متبجحا مفتخرا بملك مصر وتصرفه فيها: **﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾**، قال قتادة: قد كانت لهم جنان وأنهار ماء، **﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾**؟ أى: أفلا ترون ما أنا فيه من العظمة والملك، يعنى: وموسى وأتباعه[1] فقراء ضعفاء. وهذا كقوله تعالى: **﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ . فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ. فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾** [النازعات: ٢٣ ـ ٢٥].

وقوله: **﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾** قال السدى: يقول: بل أنا خير من هذا الذى هو مهين. وهكذا قال بعض نحاة البصرة: إن «أم» هاهنا بمعنى «بل». ويؤيد هذا ما حكاه الفراء عن بعض القراء أنه قرأها: «أما أنا خير من هذا الذى هو مهين». قال ابن جرير: ولو صحت هذه القراءة لكان معناها صحيحا واضحا، ولكنها خلاف قراءة الأمصار، فإنهم قرؤوا: **﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾** ؟ على الاستفهام.

قلت: وعلى كل تقدير فإنما يعنى فرعون ـ عليه اللعنة[2] ـ أنه خير من موسى، عليه السلام، وقد كذب فى قوله هذا كذبا بينا واضحا، فعليه لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

ويعنى بقوله: **﴿مَهِينٌ﴾** كما قال سفيان: حقير. وقال قتادة، والسدى: يعنى: ضعيف. وقال ابن جرير: يعنى: لا ملك له ولا سلطان ولا مال.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يعنى: لا يكاد يفصح عن كلامه[3]، فهو عيى حصر[4].

قال السدى: **﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾** أى: لا يكاد يفهم. وقال قتادة، والسدى، وابن جرير: يعنى عيى اللسان. وقال سفيان: يعنى فى لسانه شىء من الجمرة حين[5] وضعها فى فيه وهو صغير.

وهذا الذى قاله فرعون ـ لعنه الله ـ كذب واختلاق، وإنما حمله على هذا الكفر والعناد، وهو ينظر إلى موسى، عليه السلام، بعين كافرة شقية، وقد كان موسى[6]، عليه السلام، من الجلالة والعظمة والبهاء فى صورة يبهر[7] أبصار ذوى [الأبصار و][8] الألباب. وقوله: **﴿مَهِينٌ﴾** كذب، بل هو المهين الحقير خِلْقَة وخلقا ودينا. وموسى [عليه السلام][9] هو الشريف الرئيس الصادق البار

---

(١) فى أ: «ومن معه».　(٢) فى ت، م، أ: «لعنة الله».　(٣) فى ت: «بكلامه».
(٤) فى ت، أ: «حصير».　(٥) فى ت: «التى».　(٦) فى ت: «لموسى».
(٧) فى ت، م: «تبهر».　(٨) زيادة من ت.　(٩) زيادة من ت، م.

الراشد[١]. وقوله: ﴿وَلا يَكَادُ يُبِينُ﴾ افتراء أيضا، فإنه وإن كان قد أصاب لسانه فى حال صغره شىء من جهة تلك الجمرة، فقد سأل الله، عز وجل، أن يحل عقدة من لسانه ليفقهوا قوله، وقد استجاب الله [٢]له فى [ذلك فى][٣] قوله: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٣٦]، وبتقدير أن يكون قد بقى شىء لم يسأل إزالته، كما قاله الحسن البصرى، وإنما سأل زوال ما يحصل معه الإبلاغ والإفهام، فالأشياء الخلقية[٤] التى ليست من فعل العبد لا يعاب بها ولا يذم عليها، وفرعون وإن كان يفهم وله عقل فهو يدرى هذا، وإنما أراد الترويج على رعيته، فإنهم كانوا جهلة أغبياء، وهكذا قوله: ﴿فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ[٥] مِّن ذَهَبٍ﴾ أى: وهى ما يجعل فى الأيدى من الحلى، قاله ابن عباس وقتادة وغير واحد، ﴿أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ أى: يكتنفونه خدمة له ويشهدون بتصديقه، نظر[٦] إلى الشكل الظاهر، ولم يفهم السر المعنوى الذى هو أظهر مما نظر إليه، لو كان يعلم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ أى: استخف عقولهم، فدعاهم إلى الضلالة فاستجابوا له، ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾، قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا.

وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظى، وقتادة، والسدى، وغيرهم[٧] من المفسرين.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو عبيد الله[٨] ابن أخى ابن وهب، حدثنا عمى، حدثنا ابن لهيعة، عن عقبة بن مسلم التجيبى[٩] عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد ما شاء، وهو مقيم على معاصيه، فإنما ذلك استدراج منه له»، ثم تلا: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٠].

وحدثنا أبى، حدثنا يحيى بن عبد الحميد الحمّانى، حدثنا قيس بن الربيع، عن قيس بن مسلم[١١]، عن طارق بن شهاب قال: كنت عند عبد الله فذكر عنده موت الفجأة، فقال: تخفيف على المؤمن، وحسرة على الكافر. ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز، رضى الله عنه: وجدت النقمة مع الغفلة، يعنى قوله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ﴾: قال أبو مجلز: ﴿سَلَفًا﴾ لمثل من عمل بعملهم.

---

(١) فى ت: «الرشيد». (٢) فى ت: «استجاب الله دعاءه له». (٣) زيادة من ت، م.
(٤) فى ت: «الخليقة»، وفى م: «الخلقة». (٥) فى أ: «أسورة». (٦) فى ت، أ: «نظرا».
(٧) فى ت: «وغير واحد». (٨) فى أ: «عبد الله». (٩) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم بإسناده».
(١٠) ورواه الطبرانى فى المعجم الأوسط برقم (٤٩٢٦) «مجمع البحرين»، والبيهقى فى شعب الإيمان برقم (٤٥٤٠) من طريق عبد الله ابن صالح عن حرملة بن عمران به، ورواه أحمد فى مسنده (٤/ ١٤٥) عن رشدين بن سعد، والدولابى فى الكنى (١/ ١١١) عن حجاج بن سليمان كلاهما عن حرملة بن عمران به، وقد حسنه الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء.
(١١) فى ت: «وروى أيضا».

وقال هو ومجاهد: ﴿ومَثَلاً﴾ أى : عبرة لمن بعدهم.

﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (٥٧) وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦١) وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٢) وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٦٤) فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (٦٥) ﴾ .

يقول تعالى مخبرا عن تعنت قريش فى كفرهم وتعمدهم العناد والجدل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال غير واحد، عن ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة والضحاك، والسدى: يضحكون[1]، أى: أعجبوا بذلك.

وقال قتادة: يجزعون ويضحكون. وقال إبراهيم النخعى: يعرضون.

وكان السبب فى ذلك ما ذكره محمد بن إسحاق فى السيرة حيث قال: وجلس رسول الله ﷺ ـ فيما بلغنى ـ يوما مع الوليد بن المغيرة فى المسجد، فجاء النضر بن الحارث حتى جلس معهم، وفى المجلس غير واحد من رجال قريش، فتكلم رسول الله ﷺ، فعرض له النضر بن الحارث، فكلمه رسول الله ﷺ حتى أفحمه، ثم تلا عليه وعليهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴾ الآيات [الأنبياء: ٩٨]. ثم قام رسول الله ﷺ، وأقبل عبد الله بن الزِّبَعْرى التميمى[2]، حتى جلس، فقال الوليد بن المغيرة له: والله ما قام النضر بن الحارث لابن عبد المطلب وما قعد، وقد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا هذه حصب جهنم، فقال عبد الله بن الزبعرى: أما والله لو وجدته لَخَصَمْتُه، سلوا[3] محمدا: أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبده، فنحن نعبد الملائكة، واليهود تعبد عزيرا، والنصارى تعبد المسيح [عيسى][4] ابن مريم؟ فعجب الوليد ومن كان معه فى المجلس من قول عبد الله بن الزبعرى، ورأوا أنه قد احتج وخاصم، فذُكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «كل من أحب أن يعبد من دون الله، فهو مع من عبده، فإنهم إنما يعبدون الشيطان ومن أمرهم بعبادته»، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] أى: عيسى وعزير ومن عبد[5] معهما من الأحبار والرهبان الذين مضوا على طاعة الله، عز وجل، فاتخذهم من يعبدهم من أهل الضلالة أربابا من دون الله. ونزل فيما يذكرون أنهم يعبدون الملائكة وأنهم بنات الله: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ الآيات [الأنبياء: ٢٦]، ونزل

---

(١) فى ت، أ: «وعكرمة وغيرهم يعنى يعجبون». (٢) فى ت، م، أ: «السهمى». (٣) فى ت، م: «فسلوا».
(٤) زيادة من ت، م، أ. (٥) فى ت، م: «عبدوا».

فيما يذكر من أمر عيسى وأنه يعبد من دون الله. وعجب[١] الوليد ومن حضره من حجته وخصومته: ﴿ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أى: يصدون عن أمرك بذلك من قوله. ثم ذكر عيسى فقال: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ. وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ . وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أى: ما وضعت على يديه من الآيات من إحياء الموتى وإبراء الأسقام، فكفى به دليلا على علم الساعة، يقول: ﴿فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[٢].

وذكر ابن جرير من رواية العَوفى، عن ابن عباس قوله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يعنى قريشا، لما قيل لهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] إلى آخر الآيات، فقالت له قريش: فما ابن مريم؟ قال: «ذاك عبد الله ورسوله». فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه ربا، كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم ربا، فقال الله تعالى[٣]: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

وقال[٤] الإمام أحمد: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا شيبان، عن عاصم بن أبى النَّجُود، عن أبى رَزِين، عن أبي يحيى ـ مولى ابن عقيل الأنصارى ـ قال: قال ابن عباس: لقد علمت آية من القرآن ما سألنى عنها رجل قط، فما أدرى أعلمها الناس فلم يسألوا عنها، أم لم يفطنوا لها فيسألوا عنها. قال: ثم طفق يحدثنا، فلما قام تلاومنا ألا نكون سألناه عنها. فقلت: أنا لها إذا راح غدا. فلما راح الغد قلت: يا ابن عباس، ذكرت أمس أن آية من القرآن لم يسألك عنها رجل قط، فلا تدرى أعلمها الناس[٥] أم لم يفطنوا لها؟ فقلت: أخبرنى عنها وعن اللاتى قرأت قبلها. قال: نعم، إن رسول الله ﷺ قال لقريش: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير»، وقد علمت قريش أن النصارى تعبد عيسى ابن مريم، وما تقول فى محمد، فقالوا: يا محمد، ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فإن كنت صادقا كان[٦] آلهتهم كما تقولون؟ قال: فأنزل الله: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾. قلت: ما يَصِدون؟ قال: يضحكون، ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ قال: هو خروج عيسى ابن مريم قبل القيامة[٧].

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن يعقوب الدمشقى، حدثنا آدم، حدثنا شيبان، عن عاصم ابن أبى النجود، عن أبى أحمد مولى الأنصار[٨]، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «يا معشر قريش، إنه ليس أحد يعبد من دون الله فيه خير». فقالوا له: ألست تزعم أن عيسى كان نبيا وعبدا من عباد الله صالحا، فقد كان يعبد من دون الله؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ

(١) فى أ: «وتعجب».
(٢) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/٣٥٨).
(٣) فى ت، م: «عز وجل». (٤) فى ت: «وروى». (٥) فى أ: «أعلمها الناس فلم يسألوا عنها».
(٦) فى م، أ: «فإن».
(٧) المسند (١/٣١٨).
(٨) فى أ: «الأنصاريين».

مثلاً إذا قومك منه يصدون﴾[١].

وقال مجاهد في قوله: ﴿**ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون**﴾: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبد قوم عيسى عيسى. ونحو هذا قال قتادة.

وقوله: ﴿**وقالوا أآلهتنا خير أم هو**﴾ : قال قتادة: يقولون: آلهتنا خير منه. وقال قتادة: قرأ ابن مسعود: «وقالوا أآلهتنا خير أم هذا» ، يعنون محمدا ﷺ.

وقوله: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلا**﴾ أي: مراء، وهم يعلمون أنه ليس بوارد على الآية؛ لأنها لما لا يعقل، وهي قوله: ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ [الأنبياء: ٩٨]. ثم هي خطاب لقريش، وهم إنما كانوا يعبدون الأصنام والأنداد، ولم يكونوا يعبدون المسيح حتى يوردوه، فتعين أن مقالتهم إنما كانت جدلا منهم ،ليسوا يعتقدون صحتها.

وقد قال[٢] الإمام أحمد، رحمه الله تعالى: حدثنا ابن نمير، حدثنا حجاج بن دينار، عن أبي غالب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه، إلا أورثوا الجدل»، ثم تلا هذه الآية: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون**﴾.

وقد رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن جرير، من حديث حجاج بن دينار، به[٣]. ثم قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من حديثه كذا قال.

وقد روى من وجه آخر عن أبي أمامة بزيادة، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا حميد بن عياش الرملي، حدثنا مؤمّل، حدثنا حماد، أخبرنا ابن مخزوم، عن القاسم أبي عبد الرحمن الشامي، عن أبي أمامة ـ قال حماد: لا أدري رفعه[٤] أم لا؟ ـ قال: ما ضلت أمة بعد نبيها إلا كان أول ضلالها التكذيب بالقدر، وما ضلت أمة بعد نبيها إلا أعطوا الجدل، ثم قرأ: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم خصمون**﴾[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا أبو كريب، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، عن عباد بن عباد، عن جعفر، عن القاسم[٦]، عن أبي أمامة قال: إن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضبا شديدا حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا[٧] الجدل»، ثم تلا: ﴿**ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم**

(١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١٥٤) .

(٢) في ت: «روى».

(٣) المسند (٥/ ٢٥٦) وسنن الترمذي برقم (٣٢٥٣) وسنن ابن ماجه برقم (٤٨) وتفسير الطبري (٢٥/ ٥٣).

(٤) في أ: «أرفعه».

(٥) وفي إسناده القاسم بن عبد الرحمن الشامي، ضعفه ابن حبان، وقال: «كان يروى عن أصحاب رسول الله ﷺ المعضلات».

(٦) في أ: «جعفر بن القاسم». (٧) في ت: «أورثوا».

خَصِمُونَ﴾[١].

وقوله: ﴿**إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ**﴾ يعنى: عيسى، عليه السلام، ما هو إلا عبد [من عباد الله][٢] أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة، ﴿**وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ أى: دلالة وحجة وبرهانا على قدرتنا على ما نشاء.

وقوله: ﴿ **وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم** ﴾ أى: بدلكم [٣] ﴿**مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ**﴾، قال السدى: يخلفونكم فيها. وقال ابن عباس، وقتادة: يخلف بعضهم بعضا، كما يخلف بعضكم بعضا. وهذا القول يستلزم الأول. وقال مجاهد: يعمرون الأرض بدلكم.

وقوله: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾: تقدم تفسير ابن إسحاق: أن المراد من ذلك: ما بُعث به عيسى، عليه السلام، من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك من الأسقام. وفى هذا نظر. وأبعد منه ما حكاه قتادة، عن الحسن البصرى وسعيد بن جبير: أى الضمير فى ﴿**وَإِنَّهُ**﴾، عائد على القرآن، بل الصحيح أنه عائد على عيسى [عليه السلام][٤]، فإن السياق فى ذكره، ثم المراد بذلك نزوله قبل يوم القيامة، كما قال تبارك وتعالى: ﴿**وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ**﴾ أى: قبل موت، عيسى، عليه الصلاة والسلام، ثم ﴿**وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا**﴾ [النساء:١٥٩]، ويؤيد هذا المعنى القراءة الأخرى: «وإنه لعَلَم للساعة» أى: أمارة ودليل على وقوع الساعة، قال مجاهد: ﴿**وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾ أى: آية للساعة خروج عيسى ابن مريم قبل يوم القيامة. وهكذا روى عن أبى هريرة [رضى الله عنه][٥]، وابن عباس، وأبى العالية، وأبى مالك، وعكرمة، والحسن، وقتادة، والضحاك، وغيرهم.

وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ، أنه أخبر بنزول عيسى [ابن مريم][٦]، عليه السلام، قبل يوم القيامة إمامًا عادلا ، وحكما مقسطا.

وقوله: ﴿**فَلا تَمْتَرُنَّ بِهَا**﴾ أى: لا تشكوا [٧] فيها، إنها واقعة وكائنة لا محالة، ﴿**وَاتَّبِعُونِ**﴾ أى: فيما أخبركم به ﴿**هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ . وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**﴾أى: عن اتباع الحق ﴿**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ . وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ**﴾ أى: بالنبوة ﴿**وَلأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ**﴾.

قال ابن جرير: يعنى من الأمور الدينية لا الدنيوية[٨] . وهذا الذى قاله حسن جيد، ثم رد قول من زعم أن «بعض» هاهنا بمعنى «كل»، واستشهد بقول لبيد الشاعر:

---

(١) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٣) .

(٢) زيادة من ت، م.

(٣) فى ت: «بدلا منكم».

(٤، ٥) زيادة من ت.

(٦) زيادة من ت، م.

(٧) فى ت، م، أ: «تشكون».

(٨) تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥).

تَرَّاك أمْكنَة إذَا لم أرْضَها [(١)] أو يَعْتَلق[(٢)] بَعْضَ النفوس حمَامُها[(٣)]

وأولوه على أنه أراد جميع النفوس. قال ابن جرير: وإنما أراد نفسه فقط، وعبر بالبعض عنها. وهذا الذى قاله محتمل.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى: [فيما] [(٤)] أمركم به، ﴿وَأَطِيعُونِ﴾، فيما جئتكم به، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون فى عبادته وحده لا شريك له، ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أى: هذا الذى جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده.

وقوله: ﴿فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أى اختلفت الفرق وصاروا شيعا فيه، منهم من يقر بأنه عبد الله ورسوله ـ وهو الحق ـ ومنهم من يدعى أنه ولد الله، ومنهم من يقول: إنه الله ـ تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا ـ ولهذا قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٦٦) الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٣)﴾.

يقول تعالى: هل ينتظر هؤلاء المشركون المكذبون للرسل ﴿إِلاَّ السَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾؟ أى: فإنها كائنة لا محالة وواقعة، وهؤلاء غافلون عنها غير مستعدين [لها] [(٥)] فإذا جاءت إنما تجىء وهم لا يشعرون بها، فحينئذ يندمون كل الندم، حيث لا ينفعهم ولا يدفع عنهم.

وقوله: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ أى: كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلا ما كان لله، عز وجل، فإنه دائم بدوامه. وهذا كما قال إبراهيم، عليه السلام، لقومه: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

وقال عبد الرزاق: أخبرنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن الحارث[(٦)]، عن على، رضى الله

---

(١) فى أ: «أرمنها». (٢) فى أ: «يقتلوا».

(٣) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٥٥) وديوان لبيد العامرى (ص٣١٣).

(٤) زيادة من ت، م، أ.

(٥) زيادة من أ.

(٦) فى ت: «وروى ابن أبى حاتم عن على».

عنه: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: خليلان مؤمنان، وخليلان كافران، فتوفى أحد المؤمنين وبشر بالجنة فذكر خليله، فقال: اللهم، إن فلانا خليلى كان يأمرنى بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرنى بالخير وينهانى عن الشر، وينبئنى أنى ملاقيك، اللهم فلا تضله بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وترضى عنه كما رضيت عنى. فيقال له: اذهب فلو تعلم ما له عندى لضحكت كثيرا وبكيت قليلا. قال: ثم يموت الآخر، فتجتمع أرواحهما، فيقال: ليثن أحدكما [1] على صاحبه، فيقول كل واحد منهما لصاحبه: نعم الأخ، ونعم الصاحب، ونعم الخليل. وإذا مات أحد الكافرين وبشر بالنار ذكر خليله فيقول: اللهم، إن خليلى فلانا كان يأمرنى بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرنى بالشر وينهانى عن الخير، ويخبرنى أنى غير ملاقيك، اللهم فلا تهده بعدى حتى تريه مثل ما أريتنى، وتسخط عليه كما [2] سخطت على. قال: فيموت الكافر الآخر، فيجمع بين أرواحهما فيقال: ليثن كل واحد منكما على صاحبه. فيقول كل واحد منهما لصاحبه: بئس الأخ، وبئس الصاحب، وبئس الخليل. رواه ابن أبى حاتم[3].

وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: صارت كل خلة عداوة يوم القيامة إلا المتقين.

وروى الحافظ ابن عساكر ـ فى ترجمة هشام بن أحمد ـ عن هشام بن عبد الله بن كثير: حدثنا أبو جعفر محمد بن الخضر بالرقة، عن معافى: حدثنا حكيم بن نافع، عن الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لو أن رجلين تحابا فى الله، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، لجمع الله بينهما يوم القيامة، يقول: هذا الذى أحببته فى»[4].

وقوله: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ ثم بشرهم فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أى: آمنت قلوبهم وبواطنهم، وانقادت لشرع الله جوارحهم وظواهرهم.

قال المعتمر بن سليمان، عن أبيه: إذا كان يوم القيامة فإن الناس حين يبعثون لا يبقى أحد منهم إلا فزع، فينادى مناد: ﴿يَا عِبَادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ فيرجوها الناس كلهم، قال: فيتبعها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فييأس الناس منها غير المؤمنين. ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ أى: يقال لهم: ادخلوا الجنة ﴿أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ أى: نظراؤكم ﴿تُحْبَرُونَ﴾ أى تنعمون وتسعدون، وقد تقدم تفسيرها فى سورة الروم.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ﴾ أى: زبادى آنية الطعام، ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ وهى: آنية الشراب، أى: من ذهب لا خراطيم لها ولا عُرَى، ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِي الأَنفُسُ﴾ ـ وقرأ بعضهم: «تشتهيه

---

(١) فى أ: «أحدهما».

(٢) فى ت: «مثل ما».

(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٤).

(٤) مختصر تاريخ دمشق لابن منظور (٢٧/ ٧٩).

الأنفس» ـ ﴿وَتَلَذُّ الأَعْيُن﴾ أى: طيب الطعم والريح وحسن المنظر.

قال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، أخبرنى إسماعيل بن أبى سعيد[(١)]، عن [(٢)] عكرمة ـ مولى ابن عباس ـ أخبره أن رسول الله ﷺ قال: «إن أدنى أهل الجنة منزلة وأسفلهم درجة لرجل لا يدخل الجنة بعده أحد، يفسح له فى بصره مسيرة مائة عام فى قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ، ليس فيها موضع شبر إلا معمور يغدى عليه ويراح بسبعين ألف صحفة من ذهب، ليس فيها صحفة إلا فيها لون ليس فى الأخرى، مثله شهوته فى آخرها كشهوته فى أولها، لو نزل به جميع أهل الأرض لوسع عليهم مما أعطى، لا ينقص ذلك مما أوتى شيئا»[(٣)].

وقال [(٤)] ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين بن الجنيد، حدثنا عمرو بن سواد السرحى، حدثنا عبد الله بن وهب، عن ابن لهيعة، عن عقيل بن خالد، عن الحسن، عن أبى هريرة: أن أبا أمامة، رضى الله عنه، حدث أن رسول الله ﷺ حدثهم ـ وذكر الجنة ـ فقال: «والذى نفس محمد بيده، ليأخذن أحدكم اللقمة فيجعلها فى فيه، ثم يخطر على باله طعام آخر، فيتحول الطعام الذى فى فيه على الذى اشتهى» ثم قرأ: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيه[(٥)] الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[(٦)].

وقال [(٧)] الإمام أحمد: حدثنا حسن ـ هو ابن موسى ـ حدثنا سُكَيْن بن عبد العزيز، حدثنا الأشعث الضرير، عن شهر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة [(٨)] قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أدنى أهل الجنة منزلة إن له لسبع درجات، وهو على السادسة وفوقه السابعة، وإن له ثلثمائة خادم، ويغدى عليه ويراح كل يوم بثلاثمائة صحفة ـ ولا أعلمه إلا قال: من ذهب ـ فى كل صحفة لون ليس فى الأخرى، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، ومن الأشربة ثلاثمائة إناء، فى كل إناء لون ليس فى الآخر، وإنه ليلذ أوله كما يلذ آخره، وإنه يقول: يارب، لو أذنت لى لأطعمت أهل الجنة وسقيتهم، لم ينقص مما عندى شىء، وإن له من الحور العين لاثنين وسبعين زوجة، سوى أزواجه من الدنيا، وإن الواحدة منهن ليأخذ مقعدها قدر ميل من الأرض»[(٩)].

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أى: فى الجنة ﴿خَالِدُونَ﴾ أى: لا تخرجون منها ولا تبغون عنها حولا. ثم قيل لهم على وجه التفضل والامتنان: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى: أعمالكم الصالحة كانت سببا لشمول رحمة الله إياكم، فإنه لا يدخل أحداً عمله الجنة، ولكن بفضل من الله ورحمته.

---

(١) فى م: «سعد».
(٢) فى أ: «أن».
(٣) تفسير عبد الرزاق (٢/ ١٦٥).
(٤) فى ت: «وروى».
(٥) فى ت: «ما تشتهى» وهو خطأ.
(٦) وفى إسناده الحسن البصرى لم يسمع من أبى هريرة.
(٧) فى ت: «وروى».
(٨) فى ت: «أبى هريرة رضى الله عنه».
(٩) المسند (٢/ ٥٣٧).

وإنما الدرجات تفاوتها [١] بحسب عمل الصالحات.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا الفضل بن شاذان المقرئ، حدثنا يوسف بن يعقوب - يعني الصفار - حدثنا أبو بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح[٢]، عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى منزله من الجنة حسرة، فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[الزمر: ٥٧] وكل أهل الجنة يرى منزله من النار فيقول: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾[الأعراف: ٤٣]، ليكون [٣] له شكرا». قال: وقال رسول الله ﷺ: «ما من أحد إلا وله منزل في الجنة ومنزل في النار، فالكافر يرث المؤمن منزله من النار، والمؤمن يرث الكافر منزله من الجنة» وذلك [٤] قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: من جميع الأنواع، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: مهما اخترتم وأردتم. ولما ذكر [الله تعالى] [٦] الطعام والشراب، ذكر بعده الفاكهة لتتم [هذه] [٧] النعمة والغبطة.

﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (٧٦) وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ (٧٧) لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٨) أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (٧٩) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (٨٠)﴾.

لما ذكر [تعالى] [٨] حال السعداء، ثنى بذكر الأشقياء، فقال: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: ساعة واحدة ﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من كل خير، ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: بأعمالهم السيئة بعد قيام الحجج عليهم وإرسال الرسل إليهم، فكذبوا وعصوا، فجوزوا بذلك جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد.

﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ وهو: خازن النار.

قال البخاري: حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا سفيان بن عيينة، عن عمرو بن عطاء[٩]، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا

(١) في أ: «وإنما الدرجات ينال تفاوتها».
(٢) في ت: «وروى ابن أبي حاتم بسنده». (٣) في ت، م: «فيكون».
(٤) في ت، م: «فيكون».
(٥) ورواه أحمد في مسنده (٢/ ٥١٢) من طريق أبي بكر بن عياش به مختصرًا.
(٦، ٧) زيادة من ت.
(٨) زيادة من أ.
(٩) في ت: «روى البخاري بإسناده».

ربك﴾[(١)] أي: ليقبض أرواحنا فيريحنا مما نحن فيه، فإنهم كما قال تعالى: ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر: ٣٦]. وقال: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا [(٢)] الأَشْقَى . الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَىٰ . ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَىٰ﴾ [الأعلى: ١١ ـ ١٣]، فلما سألوا أن يموتوا أجابهم مالك، ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾: قال ابن عباس: مكث ألف سنة، ثم قال: إنكم ماكثون. رواه ابن أبى حاتم.

أى: لا خروج لكم منها ولا محيد لكم عنها.

ثم ذكر سبب شقوتهم وهو مخالفتهم للحق ومعاندتهم له فقال: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ﴾ أى: بيناه لكم ووضحناه وفسرناه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ أى: ولكن كانت سجاياكم لا تقبله ولا تقبل عليه، وإنما تنقاد للباطل وتعظمه، وتصد عن الحق وتأباه، وتبغض أهله، فعودوا على أنفسكم بالملامة، واندموا حيث لا تنفعكم [(٣)] الندامة.

ثم قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ قال مجاهد: أرادوا كيد شر فكدناهم.

وهذا الذى قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[النمل: ٥٠]، وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون فى رد الحق بالباطل بحيل ومكر يسلكونه، فكادهم الله، ورد وبال ذلك عليهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ أى: سرهم وعلانيتهم، ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أى: نحن نعلم ما هم عليه. والملائكة أيضا يكتبون أعمالهم، صغيرها وكبيرها.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١) سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٨٢) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٨٣) وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤) وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٥) وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٨٦) وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٨٧) وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ (٨٨) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٨٩)﴾ .

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾أى: لو فرض هذا لعبدته

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٨١٩).

(٢) فى م: «وسيجنبها».

(٣) فى ت، م: «لا تنفع».

على ذلك؛ لأنى عبد من عبيده، مطيع لجميع ما يأمرنى به، ليس عندى استكبار ولا إباء عن عبادته، فلو فرض كان هذا، ولكن هذا ممتنع فى حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضا، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤].

[و][١] قال بعض المفسرين فى قوله: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: الآنفين. ومنهم سفيان الثورى، والبخارى حكاه فقال: ويقال: ﴿أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ : الجاحدين، من عبد يعبد.

وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب: حدثنى ابن أبى ذئب عن أبى قُسَيْط[٢]، عن بَعَجة بن زيد الجهنى؛ أن امرأة منهم دخلت على زوجها ـ وهو رجل منهم أيضا ـ فولدت له فى ستة أشهر، فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان، رضى الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه على بن أبى طالب، رضى الله عنه، فقال: إن الله يقول فى كتابه: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا﴾[الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾[لقمان: ١٤]، قال: فوالله ما عبد عثمان، رضى الله عنه، أن بعث إليها: ترد ـ قال يونس: قال ابن وهب: عبد: اشتنكف[٣].

[و] [٤] قال الشاعر:

متَىَ مَا يَشَأ ذُو الودِّ يصرِمْ خليله ... ويَعْبدُ عليه لا محالَة ظَالماً[٥]

وهذا القول فيه نظر؛ لأنه كيف يلتئم مع الشرط فيكون تقديره: إن كان هذا فأنا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر، فلْيتأمل. اللهم إلا أن يقال:«إن» ليست شرطا، وإنما هى نافية كما قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس فى قوله:﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾، يقول : لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين.

وقال قتادة: هى كلمة من كلام العرب: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: إن ذلك لم يكن فلا ينبغى.

وقال أبو صخر:﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: فأنا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده. وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وقال مجاهد:﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أى: أول من عبده ووحده وكذبكم.

---

(١) زيادة من ت،م.

(٢) فى ت: «ما رواه بإسناده».

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦١).

(٤) زيادة من ت،م.

(٥) البيت فى تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٠).

وقال البخارى: ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾: الآنفين. وهما لغتان، رجل عابد وعبد[١].

والأول أقرب على أنه شرط وجزاء، ولكن هو ممتنع.

وقال السدى [فى قوله][٢]: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ يقول: لو كان له ولد كنت أول من عبده، بأن له ولدا، لكن لا ولد له. وهو اختيار ابن جرير، ورد قول من زعم أن «إن» نافية.

ولهذا قال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أى: تعالى وتقدس وتنزه خالق الأشياء عن أن يكون له ولد، فإنه فرد أحد صمد، لا نظير له ولا كفء له، فلا[٣] ولد له.

وقوله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا﴾ أى: فى جهلهم وضلالهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ فى دنياهم ﴿حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾، وهو يوم القيامة، أى: فسوف يعلمون كيف يكون مصيرهم، ومآلهم، وحالهم فى ذلك اليوم.

وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أى: هو إله من فى السماء، وإله من فى الأرض، يعبده أهلهما، وكلهم خاضعون له، أذلاء بين يديه، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] أى: هو المدعو الله فى السموات والأرض.

﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أى: هو خالقهما ومالكهما والمتصرف فيهما، بلا مدافعة ولا ممانعة، فسبحانه وتعالى عن الولد، وتبارك: أى استقر له السلامة من العيوب والنقائص؛ لأنه الرب العلى العظيم، المالك للأشياء، الذى بيده أزمة الأمور نقضا وإبراما، ﴿وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ أى: لا يجليها لوقتها إلا هو، ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أى: فيجازى كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أى: من الأصنام والأوثان ﴿الشَّفَاعَةَ﴾ أى: لا يقدرون على الشفاعة لهم، ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، هذا استثناء منقطع، أى: لكن من شهد بالحق على بصيرة وعلم، فإنه تنفع شفاعته عنده بإذنه له.

ثم قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أى: ولئن سألت هؤلاء المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ أى: هم يعترفون[٤] أنه الخالق للأشياء جميعها، وحده لا شريك له فى ذلك، ومع هذا يعبدون معه غيره، ممن لا يملك شيئا ولا يقدر على شىء، فهم فى

---

(١) صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».

(٢) زيادة من أ.

(٣) فى ت: «ولا».

(٤) فى ت: «يعرفون».

ذلك فى غاية الجهل والسفاهة وسخافة العقل؛ ولهذا قال: ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾.

وقوله: ﴿ وَقِيلِه[١] يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ أى: وقال محمد: قيله، أى: شكا إلى ربه شكواه من قومه الذين كذبوه، فقال: يارب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون، كما أخبر تعالى فى الآية الآخرى: ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [الفرقان: ٣٠] وهذا الذى قلناه هو [معنى] [٢] قول ابن مسعود، ومجاهد، وقتادة، وعليه فسر ابن جرير[٣].

قال البخارى: وقرأ عبد الله ـ يعنى ابن مسعود ـ: « وقال الرسول يارب»[٤].

وقال مجاهد فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾، قال: فأبر الله قول محمد.

وقال قتادة: هو قول نبيكم ﷺ، يشكو قومه إلى ربه عز وجل.

ثم حكى ابن جرير فى قوله: ﴿ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ ﴾ قراءتين، إحداهما النصب، ولها توجيهان: أحدهما أنه معطوف على قوله: ﴿نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾ [الزخرف: ٨٠] والثانى: أن يقدر فعل، وقال: قيلَه. والثانية: الخفض، وقيلِهِ، عطفا على قوله: ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، تقديره: وعلم قيله.

وقوله: ﴿فَاصْفَحْ عَنْهُمْ ﴾ أى: المشركين، ﴿ وَقُلْ سَلامٌ ﴾ أى: لا تجاوبهم بمثل ما يخاطبونك به من الكلام السيئ، ولكن تألفهم واصفح عنهم فعلا وقولا، ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ[٥]﴾، هذا تهديد منه تعالى لهم، ولهذا أحل بهم بأسه الذى لا يرد، وأعلى دينه وكلمته، وشرع بعد ذلك الجهاد والجلاد، حتى دخل الناس فى دين الله أفواجا، وانتشر الإسلام فى المشارق والمغارب.

آخر تفسير سورة الزخرف

---

(١) فى ت: «وقيل هو». (٢) زيادة من ت، أ.

(٣) تفسير الطبرى (٢٥/ ٦٢).

(٤) صحيح البخارى (٨/ ٥٦٨) «فتح البارى».

(٥) فى م: «تعلمون» .

سورة الزخرف

مكيّة، وقال مقاتل: "إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]"،[١] فهي[٢] تسع وثمانون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢﴾

﴿حمٓ﴾ الكلام فيه كالذي مرّ في فاتحة سورة ﴿يسٓ﴾، خلا أنّ الظاهر على تقدير اسميّته كونه اسمًا للقرآن، لا للسورة كما قيل،[٣] فإنّ ذلك مُخِلّ بجزالة النظم الكريم.[٤]

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ بالجرّ على أنّه مُقسَم به إمّا ابتداءً أو عطفًا على ﴿حمٓ﴾ على تقدير كونه مجرورًا بإضمار باء القسَم، على أنّ مدار العطف المغايرةُ في العنوان، ومَناطُ تكرير القسَم المبالغة في تأكيد مضمون الجملة القسميّة.

﴿ٱلْمُبِينِ﴾ أي: البيّن لمَن أنزلَ عليهم؛ لكونه بلُغتهم وعلى أساليبهم، أو المبيّن لطريق / الهدى مِن طرق الضلالة المُوضح لكلّ ما يُحتاج إليه في [٦١و] أبواب الديانة.

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٣﴾

﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ جواب للقسم، لكن لا على أنّ مرجع التأكيد جعلَه كذلك كما قيل؛[٥] بل ما هو غايته التي يُعرِب عنها قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾،

---

[١] س ي - وقال مقاتل: «إلّا قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ [الزخرف، ٤٣/٤٥]». | الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٣٥؛ تفسير القرطبي، ١٦/٦١.

[٢] س ي: وهي.

[٣] انظر: اللباب لابن عادل، ١٧/٢٢٧.

[٤] وفي هامش م: مِن جهة المعنى. «منه».

[٥] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٥/٨٦.

فإنّها المحتاجة إلى التّحقيق والتأكيد لكونها مُنبئةً عن الاعتناء بأمرهم وإتمامِ النعمة عليهم وإزاحةِ أعذارهم، أي: جعلنا ذلك الكتاب قرآنًا عربيًا لكي تفهموه وتحيطوا بما فيه مِن النظم الرّائق والمعنى الفائق، وتَقِفوا على ما يتضمّنه مِن الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حقّ النعمة في ذلك، وتنقطع أعذاركم بالكلّيّة.

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾

﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، فإنّه أصل الكتب السماويّة. وقرئ: "إِمِّ الكِتَابِ" بالكسر.[1] ﴿لَدَيۡنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيع القدر بين الكتب شريف. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حِكمة بالغة، أو محكَم. وهما خبران لـ﴿إِنَّ﴾، وما بينهما بيان لمحلّ الحِكَم، كأنّه قيل بعد بيان اتّصافه بما ذكر مِن الوصفَين الجليلَين: هذا في أمّ الكتاب ولدينا.

والجملة إمّا عطف على الجملة المقسَم عليها، داخلة في حُكمها، ففي الإقسام بالقرآن على علوّ قدره عنده تعالى براعةٌ بديعة، وإيذانٌ بأنّه مِن علوّ الشأن بحيث لا يحتاج في بيانه إلى الاستشهاد عليه بالإقسام بغيره؛ بل هو بذاته كافٍ في الشهادة على ذلك مِن حيث الإقسامُ به، كَما أنّه كافٍ فيها مِن حيث إعجازُه، ورمزٌ إلى أنّه لا يخطر بالبال عند ذكره شيء آخر أولى منه بالإقسام به. وإمّا مستأنَفة مقرّرة لعلوّ شأنه الّذي أنبأ عنه الإقسامُ به على منهاجِ الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة، ٥٦/٧٦].

وبعد ما بُيِّن علوّ شأن القرآن العظيم، وحُقِّق أنّ إنزالَه على لغتهم ليعقلوه ويؤمنوا به ويعملوا بموجَبه عُقِّب ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه فقيل:

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾

﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: ننحّيه ونبعّده عنكم. مجاز مِن قولهم:

[1] قرأ بكسر الهمزة في حالة الوصل حمزة والكسائي، ويبدآن بها بهمزة مضمومة. انظر: النشر لابن الجزري، ٢/٢٤٨.

"ضَرَب الغرائبَ عن الحوض"،[١] وفيه إشعار باقتضاء الحِكمة تَوجُّهَ الذِّكر إليهم وملازمتَه لهم، كأنّه يتهافَت عليهم. و"الفاء" للعطف على محذوف يقتضيه المقام، أي: أَنُهمِلكم فنُنَحِّي الذِّكر عنكم ﴿صَفْحًا﴾ أي: إعراضًا عنكم، على أنّه مفعول له للمذكور، أو مصدر مؤكِّد لِما دلّ هو عليه، فإنّ / التنحية مُنبئة عن [٦١ظ] الصفح والإعراض قطعًا، كأنّه قيل: أفنصفَح عنكم صفحًا؟ أو بمعنى الجانب، فينتصب على الظرفيّة، أي: أفنُنحّيه عنكم جانبًا؟

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي: لِأن كنتم مُنهمِكين في الإسراف مُصرِّين عليه، على معنى: إنّ حالكم وإن اقتضى تخليتَكم وشأنكم حتّى تموتوا على الكفر والضلالة وتَبقَوا في العذاب الخالد، لكنّا لِسَعة رحمتنا لا نفعل ذلك؛ بل نهديكم إلى الحقّ بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين. وقُرئ: ﴿إن﴾ بالكسر[٢] على أنّ الجملة شرطيّة مُخرِجة للمُحقَّق مُخرج المشكوك لاستجهالهم، والجزاءُ محذوف ثقةً بدلالة ما قبلَه عليه.

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۞ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تقرير لِما قبله ببيان أنّ إسراف الأمم السالفة لم يمنعه تعالى مِن إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله عليه السلام[٣] عن استهزاء قومه به.[٤]

﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ۝٨﴾

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: مِن هؤلاء القوم المسرفين. عِدَة له عليه السلام، ووعيد لهم بمثل ما جرى على الأوّلين، ووَصْفُهم بأشدّيّة البطش لإثبات حكمهم لهؤلاء بطريق الأولويّة.

---

[١] وفي مجمع الأمثال للميداني، ٤١٩/١: «ضَرْبه ضربَ غرائب الإبل. وذلك أنّ الغريبة تزدحم على الحياض عند الورد، وصاحب الحَوض يطردها ويضربها بسبب إبله».

[٢] قرأ بها نافع وأبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.

[٣] م: عليه وسلّم.

[٤] س – به.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: سلَف في القرآن غيرَ مرّة ذِكر قصّتهم التي حقُّها أن تسير مسير المَثَل.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٠﴾

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: لَيُسنِدُنّ خلقَها إلى مَن هذا شأنه في الحقيقة وفي نفس الأمر، لا أنّهم يعبّرون عنه بهذا العنوان. وسلوك هذه الطريقة للإشعار بأنّ اتّصافه تعالى بما سُرِدَ مِن جلائل الصفات والأفعال وبما يستلزمه ذلك مِن البعث والجزاء أمرٌ بيّن لا ريب فيه، وأنّ الحجّة قائمة عليهم شاءوا أو أبَوا. وقد جُوّز أن يكون ذلك عينَ عبارتهم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ استئناف مِن جهته تعالى، أي: بسطها لكم تستقرّون فيها. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونها في أسفاركم ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكّر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصد الأصلي.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ۝١١﴾

[٦٢و] ﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ بمقدار يقتضيه[١] مشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح. ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خاليًا عن النَّماء والنبات بالكلّيّة. وقُرئ: "مَيِّتًا" بالتشديد.[٢] وتذكيره لأنّ البلدة في معنى البلد والمكان. والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعارِ بعظم خطره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الإحياء الذي هو في الحقيقة إخراج النبات مِن الأرض ﴿تُخْرَجُونَ﴾ أي: تُبعَثون مِن قبوركم أحياءً. وفي التعبير عن إخراج النّبات بالإنشار الذي هو إحياء الموتى وعن إحيائهم بالإخراج تفخيمٌ لشأن الإنبات، وتهوينٌ لأمر البعث، لتقويم سَنن الاستدلال، وتوضيح منهاج القياس.

---

١ س: تقتضيه.

٢ قرأ بها أبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٢٤.

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢﴾

﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي: أصناف المخلوقات. وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «﴿ٱلْأَزْوَٰجَ﴾: الضروب والأنواع، كالحُلو والحامِض، والأبيض والأسود، والذكر والأنثى».[١] وقيل: كلّ ما سوى الله تعالى فهو زوج، كالفوق والتحت، واليمين واليسار، إلى غير ذلك.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ أي: ما تركبونه تغليبًا للأنعام على الفُلك، فإنّ الركوب متعدٍّ بنفسه، واستعمالُه في الفُلك ونحوها بكلمة "في" للرّمز إلى مكانيّتها وكون حركتها غير إراديّة، كما مرّ في سورة هود عند قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا﴾ [هود، ٤١/١١].

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾

﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ أي: لتستعلوا على ظهور ما تركبونه مِن الفُلك والأنعام. والجمع باعتبار المعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكروها بقلوبكم معترفين بها مستعظِمين لها، ثمّ تحمدوا عليها بألسنتكم، ﴿وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ متعجّبين مِن ذلك، كما يُروَى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنه كان إذا وضع رجله في الرِّكاب قال: «بسم الله»، فإذا استوى على الدابّة / قال: «الحمد لله على كلّ حال، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾... إلى قوله تعالى: ﴿لَمُنقَلِبُونَ﴾»،[٢] وكبّر ثلاثًا، وهلّل ثلاثًا.[٣] [٦٢ظ]

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ أي: مُطيقين، مِن "أقرَن الشيءَ" إذا أطاقه. وأصله وجدَه قرينته؛ لأنّ الصعب لا يكون قرينةً للضعيف. وقُرئ بالتشديد،[٤] والمعنى واحد. وهذا مِن تمام ذِكر نعمته تعالى؛ إذ بدون اعتراف المُنعَم عليه بالعجز عن تحصيل النعمة لا يعرف قدرها ولا حقَّ المُنعِم بها.

---

١ تفسير الرازي، ٦٢٠/٢٧؛ اللباب لابن عادل، ٢٣٥/١٧.
٢ في الآية التالية.
٣ سنن أبي داود، ٢٤٣/٤ (٢٦٠٢)؛ سنن الترمذي، ٥٠٨/٥ (٣٤٤٦).
٤ أي: "مُقَرِّنِينَ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ أي: راجعون. وفيه إيذان بأنّ حقّ الرّاكب أن يتأمّل فيما يلابسه مِن المسير، ويتذكّرَ منه المسافرةَ العظمى التي هو الانقلاب إلى الله تعالى، فيبنِيَ أمورَه في مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يُخطِرَ بباله في شيء ممّا يأتي ويذَرُ أمرًا ينافيها، ومِن ضرورته أن يكون ركوبه لأمرٍ مشروع.

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ متصل بقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾...[1] إلخ، أي: وقد جعلوا له سبحانه بألسنتهم واعتقادهم بعد ذلك الاعتراف مِن عباده ولدًا. وإنّما عُبّر عنه بالجزء لمزيد استحالته في حقّ الواحد الحقِّ مِن جميع الجهات. وقرئ: "جُزُءًا" بضمّتين.[2]

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر الكُفران مبالغ فيه؛ ولذلك يقولون ما يقولون، سبحان الله عمّا يصفون.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة. وما فيها مِن معنى "بَل" للانتقال مِن بيان بطلان جَعلهم له تعالى ولَدًا على الإطلاق إلى بيان بطلان جعلهم ذلك الولدَ مِن أخسّ صِنفَيه. والهمزة للإنكار والتوبيخ والتعجيبِ مِن شأنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ إمّا عطفٌ على ﴿ٱتَّخَذَ﴾، داخل في حكم الإنكار والتعجيب، أو حال مِن فاعله بإضمار "قد" أو بدونه على الخلاف المشهور. والالتفات إلى خطابهم لتأكيد الإلزام وتشديد التوبيخ، أي: بل اتّخذ مِن خلقه أخسّ الصنفَين، واختار لكم أفضلهما؟[3] على معنى: هَبُوا أنكم اجترأتم على إضافة اتّخاذ جنس الولد إليه سبحانه مع ظهور استحالته وامتناعه، / أمَا [٦٣و]
كان لكم شيء مِن العقل ونَبْذ مِن الحياء حتّى اجترأتم على التّفوّه بالعظيمة الخارقة للعقول مِن ادّعاء أنّه تعالى آثركم على نفسه بخير الصنفَين وأعلاهما

---

[1] الزخرف، ٩/٤٣.
[2] قرأ بها شعبة عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٢١٦/٢.
[3] س ي: أفضلها.

وترَك له شرّهما وأدناهما؟ وتنكير ﴿بَنَاتٍ﴾ وتعريف ﴿ٱلْبَنِينَ﴾ لتربية ما اعتُبِر فيهما مِن الحقارة والفخامة.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾... إلخ استئناف مقرِّر لِما قبلَه، وقيل: حال، على معنى أنّهم نسبوا إليه ما ذُكر، ومِن حالهم أنّ أحدهم إذا بُشِّر به اغتمّ. والالتفات للإيذان باقتضاء ذِكر قبائحهم أن يُعرَض عنهم وتُحكى لغيرهم تعجيبًا منها، أي: إذا أُخبِر أحدهم بوِلادة ما جعله مَثَلًا له سبحانه؛ إذ الولد لا بدّ أن يجانس الوالد ويماثله.

﴿ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ أي: صار أسودَ في الغاية مِن سوء ما بُشِّر به، ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوء مِن الكرب والكآبة. والجملة حال. وقرئ: "مُسْوَدٌّ"[١] و"مُسْوَادٌّ"،[٢] على أنّ في ﴿ظَلَّ﴾ ضمير المبشَّر، و"وَجْهُهُ مُسْوَدٌّ" جملة وقعت خبرًا له.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ۝١٨﴾

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تكرير للإنكار، وتثنية للتوبيخ. و﴿مَن﴾ منصوبة بمضمَر معطوفٍ على ﴿وَجَعَلُواْ﴾،[٣] أي: أَوَجعلوا مَن شأنه أن يُرَبَّى في الزِّينة وهو عاجز عن أن يتولّى لأمره بنفسه؟ فالهمزة لإنكار الواقع واستقباحه، وقد جُوِّز انتصابها بمضمَر معطوف على ﴿ٱتَّخَذَ﴾،[٤] فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعاده، وإقحامُها بين المعطوفين لتذكير ما في ﴿أَمِ﴾[٥] المنقطعة مِن الإنكار وتأكيده. والعطف للتغاير العنواني، أي: أَوَاتّخذ مَن هذه الصفة الذميمة صفتُه؟

﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذُكر مِن القُصور ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي: الجدال الذي لا يكاد يخلو عنه الإنسان في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ غير قادر على تقرير دعواه وإقامةِ حجّته

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن اليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.

٣ الزخرف، ١٥/٤٣.

٤ الزخرف، ١٦/٤٣.

٥ الزخرف، ١٦/٤٣.

لنقصانِ عقله وضعفِ رأيه. وإضافة ﴿غَيْرُ﴾ لا يمنع عمل ما بعده في الجارّ المتقدّم؛ لأنّه بمعنى النفي. وقُرئ: "يُنْشَأُ"،[1] و"يُناشَأُ"[2] / مِن الإفعال والمفاعلة، [٦٣ظ] والكلّ بمعنًى، ونظيره: غلّاه وأغلاه وغالاه.

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا﴾ بيان لتضمّن كفرهم المذكور لكفر آخر، وتقريعٌ لهم بذلك، وهو جعلهم أكملَ العباد وأكرمهم على الله عزّ وجلّ أنقصَهم رأيًا وأخسَّهم صنفًا. وقرئ: "عُبَيْدُ الرَّحْمَنِ"،[3] وقُرئ: "عِنْدَ الرَّحْمَنِ"[4] على تمثيل زُلفاهم. وقرئ: "أُنُثًا"،[5] وهو جمع الجمع.

﴿أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أحضروا خلقَ الله تعالى إيّاهم فشاهدوهم إناثًا حتّى يحكموا بأُنوثتهم، فإنّ ذلك ممّا يُعلم بالمشاهدة؟ وهو تجهيل لهم وتهكّم بهم. وقُرئ: "أَأُشْهِدُوا" بهمزتين مفتوحة ومضمومة،[6] و"آأُشْهِدُوا"[7] بألف[8] بينهما.[9] ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ﴾ هذه في ديوان أعمالهم ﴿وَيُسْـَٔلُونَ﴾ عنها يوم القيامة. وقُرئ: "سَيُكْتَبُ"[10] و"سَنَكْتُبُ"[11] بالياء والنون. وقُرئ: "شَهَادَاتِهِمْ".[12] وهي قولهم: إنّ لله جزءًا، وإنّ له بناتٍ، وأنّها الملائكة. وقُرئ: "يُسَاءَلُونَ"[13] مِن المُساءلة للمبالغة.

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والجحدري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.
٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٤.
٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٥.
٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.
٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٥.
٦ قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية ورش عن نافع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢. وأمّا القراءة بهمزتين محقّقتين فقراءة شاذّة مرويّة عن عليّ والمفضّل عن عاصم. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٥/٩.
٧ س: آآاشهدوا.
٨ س ي: بالألف.
٩ قرأ بذلك لكن بتسهيل الهمزة الثانية أبو جعفر وقالون عن نافع. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٨/٢.
١٠ قراءة شاذّة، مرويّة عن الزهري. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٥.
١١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وأبي البرَهْسَم وزيد بن عليّ وأبي حيوة وعميرة عن حفص. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٥.
١٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٥. وهي بكسر التاء على قراءة "سَنَكْتُبُ" بالنون والبناء للفاعل.
١٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ بيان لفنّ آخر مِن كفرهم، أي: لو شاء عدم عبادتنا للملائكة مشيئةَ ارتضاءٍ ما عبدناهم. أرادوا بذلك بيانَ أنّ ما فعلوه حقّ مرضيّ عنده تعالى، وأنّهم إنّما يفعلونه بمشيئته تعالى، لا الاعتذارَ مِن ارتكاب ما ارتكبوه بأنّه بمشيئته تعالى إيّاه منهم مع اعترافهم بقُبحه حتّى ينتهض ذمُّهم به دليلًا للمعتزلة.

ومبنى كلامهم الباطل على مقدّمتَين: إحداهما: أنّ عبادتهم لهم بمشيئته تعالى. والثانية: أنّ ذلكَ مستلزم لكونها مرضيّةً عنده تعالى.

ولقد أخطئوا في الثانية حيث جهلوا أنّ المشيئة عبارة عن ترجيح بعض الممكنات على بعضٍ كائنًا ما كان مِن غير اعتبار الرّضا أو السخط في شيء مِن الطرفين. ولذلك جُهِّلوا بقوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ أي: بما أرادوا بقولهم ذلك مِن كون ما فعلوه بمشيئة الارتضاء لا بمطلق المشيئة، فإنّ ذلك محقَّق ينطق به ما لا يُحصَى / مِن الآيات الكريمة. ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما. [٦٤و]

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحّلون تمحّلًا[1] باطلًا. وقد جُوّز أن يُشارَ بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى أصل الدعوى، كأنّه لمّا أُظهِر وجوه فسادها وحُكِي شُبَههم المزيّفة نُفِي أن يكون لهم بها علم مِن طريق العقل.

ثمّ أُضرب عنه إلى إبطال أن يكون لهم سند مِن جهة النقل، فقيل: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ مِن قَبل القرآن أو مِن قَبل ادّعائهم، ينطق بصحّة ما يدّعونه، ﴿فَهُم بِهِۦ﴾ بذلك الكتاب ﴿مُسْتَمْسِكُونَ﴾ وعليه معوّلون.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: لم يأتوا بحجّة عقليّة أو نقليّة؛ بل اعترفوا بأن لا سندَ لهم سوى تقليد آبائهم الجهَلة مثلهم.

---

[1] التّمحّل: الطلب بحِيلة وتكلُّف. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، ١٦٦/٥.

والأمّة: الدين والطريقة التي تُؤَمّ، أي: تُقصَد، كالرُّحْلة لما يُرحَل إليه. وقُرئ: "إِمّةٍ" بالكسر،[١] وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ، أي: القاصد. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ خبَرَانِ،[٢] أو الظرفُ صلة لـ﴿مُهْتَدُونَ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ أي: والأمر كما ذُكر مِن عجزهم عن الحجّة وتشبّثهم بذيل التقليد. وقوله تعالى: ﴿مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ[٣] مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ استئناف مبيّن لذلك دالّ على أنّ التقليد فيما بينهم ضلال قديم ليس لأسلافهم أيضًا سند غيره. وتخصيص المُترَفين بتلك المقالة للإيذان بأنّ التنعّم وحبّ البطالة هو الذي صرفهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٢٤ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٢٥﴾

﴿قَٰلَ﴾ حكاية لِما جرى بين المنذِرين وبين أممهم عند تعلّلهم بتقليد آبائهم، أي: قال كلّ نذير مِن أولئك المنذِرين لأممهم: ﴿أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم﴾ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهۡدَىٰ﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡ﴾ مِن الضلالة التي ليست مِن الهداية في شيء، وإنما عبّر عنها بذلك مُجاراةً معهم على مسلك الإنصاف.

[٦٤ظ] وقُرئ: "قُلْ"[٤] على أنّه حكايةُ أمرٍ ماضٍ أُوحِيَ حينئذ / إلى كلّ نذير، لا على أنّه خطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم كما قيل،[٥] لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فإنّه حكاية عن الأمم قطعًا، أي: قال كلّ أمّة لنذيرها:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر بن عبد العزيز ومجاهد والجحدري. مختصر شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٣٦.

٢ س: خبر إنّ.

٣ م س ي - فِي قَرۡيَةٖ.

٤ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم. انظر: النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

٥ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٨٩/٥.

إنّا بما أُرسِلْتَ به... إلخ، وقد أُجمِل عند الحكاية للإيجاز كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون، ٥١/٢٣].

وجعلُه حكايةً عن قومه عليه السلام بحملِ صيغة الجمع على تغليبه على سائر المنذِرين عليهم السلام وتوجيهُ كفرهم إلى ما أُرسل به الكلّ مِن التوحيد لإجماعهم عليه كما في نظائر قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء، ١٢٣/٢٦] تمحُّلٌ بعيد يردّه بالكلّيّة قولُه تعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ أي: بالاستئصال ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ مِن الأمم المذكورين، فلا تكترِث بتكذيب قومك.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذكر لهم وقتَ قوله عليه السلام ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ المُكبِّين على التقليد، كيف تبرّأ ممّا هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ وتمسّك بالبرهان ليسلكوا مَسلكه في الاستدلال، أو ليقلّدوه إن لم يكن لهم بدٌّ مِن التقليد، فإنّه أشرفُ آبائهم. و﴿بَرَآءٌ﴾ مصدر نُعِت به مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحد والمتعدّد، والمذكّر والمؤنّث. وقُرئ: "بَرِيءٌ"،[1] و"بُرَاءٌ" بضمّ الباء،[2] ككَريم وكُرام. و﴿مَا﴾ إمّا مصدريّة أو موصولة حُذف عائدها، أي: إنّني بريء مِن عبادتكم أو معبودكم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطع، أو متّصل على أنّ ﴿مَا﴾[3] تَعمّ أُولي العلم وغيرَهم، وأنّهم كانوا يعبدون الله والأصنامَ، أو صفةٌ على أنّ ﴿مَا﴾ موصوفة، أي: إنّني براء مِن آلهةٍ تعبدونها غيرِ الذي فطرني، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي: سيُثبّتني على الهداية، أو سيهدينِ إلى ما وراءَ الذي هداني إليه إلى الآن. والأوجَه أنّ "السين" للتأكيد دون التسويف، وصيغة المضارع للدلالة على الاستمرار.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أهل المدينة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

[3] في الآية السابقة.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ۝٢٨﴾

﴿وَجَعَلَهَا﴾ أي: جعل إبراهيم كلمة التوحيد التي ما تكلّم به عبارة عنها ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي: في ذرّيّته حيث وصّاهم بها، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ﴾ الآيةَ [البقرة، ١٣٢/٢]، فلا يزالُ فيهم مَن يوحِّد الله تعالى / ويدعو إلى توحيده. وقُرئ: "كِلْمَةً"[١] و"في عَقْبِهِ"[٢] على التخفيف. [٦٥و]

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ علّة للجَعل، أي: جعلها باقية في عقبه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد.

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَـٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمۡ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلۡحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩﴾

﴿بَلۡ مَتَّعۡتُ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام، كأنّه قيل: جعلها كلمة باقية في عقبه بأن وصّى بها بنيه رجاءَ أن يرجع إليها مَن أشرك منهم بدعاء الموحِّد، فلم يحصل ما رجاه؛ بل متّعتُ منهم هؤلاء المعاصرين للرسول عليه السلام مِن أهل مكّة ﴿وَءَابَآءَهُمۡ﴾ بالمدّ في العمر والنعمة، فاغترّوا بالمُهلة وانهمكوا في الشهوات وشُغِلوا بها عن كلمة التوحيد ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ﴾ أي: هؤلاء ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: القرآن ﴿وَرَسُولٌ﴾ أيّ رسول ﴿مُّبِينٌ﴾ ظاهر الرسالة واضحُها بالمعجزات الباهرة، أو مبينٌ للتوحيد بالآيات البيّنات والحجج.

وقُرئ: "مَتَّعْنَا"[٣] و"مَتَّعْتَ" بالخطاب[٤] على أنّه تعالى اعترض به على ذاتِه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾... إلخ[٥] مبالغةً في تعييرهم، فإنّ التمتيع بزيادة النِّعم يوجب عليهم أن يجعلوه سببًا لزيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان، فجعله سببًا لزيادة الكفران أقصى مراتب الكفر والضلال.

---

١ م: كَلْمَة. | لم أجد مَن قرأها بفتح الكاف، إنّما هي بكسر الكاف وسكون اللام قراءة شاذّة، مرويّة عن حُميد بن قيس. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن إسحاق الأزرق. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود والأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن قتادة والزهري ويعقوب عن نافع. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٦.

٥ في الآية السابقة.

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ٣٠﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبهّهم عمّا هم فيه مِن الغفلة ويرشدهم إلى التوحيد ازدادوا كفرًا وعُتوًّا، وضمّوا إلى كفرهم السابق معاندةَ الحقّ والاستهانةَ به حيث ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ فسمّوا القرآن سِحرًا، وكفروا به، واستحقروا رسولَ الله عليه السلام.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ٣١﴾

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: مِن إحدى القريتين؛ مكّة والطائف، على نهج قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن، ٢٢/٥٥]. ﴿عَظِيمٍ﴾ أي: بالجاه والمال، كالوليد بن المغيرة المخزومي، وعروة بن مسعود الثقفي.[١] وقيل: حبيب بن عمر بن عمير الثقفي.[٢] وعن مجاهد: عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبدِ يَالِيلَ.[٣]

ولم يتفوّهوا بهذه العظيمة حسدًا على نزوله إلى الرسول صلّى الله عليه وسلّم دون مَن ذُكِرَ مِن عظمائهم مع اعترافهم بقرآنيته؛ بل استدلالًا على عدمها، بمعنى أنّه لو كان قرآنًا لنزل إلى أحدِ هؤلاء بناءً على ما زعموا مِن أنّ الرسالة

---

[١] هو عروة بن مسعود بن معتّب بن مالك الثقفي (ت. ٩هـ/٦٣٠م). كان أحد الأكابر مِن قومه. وثبت ذكر عروة بن مسعود في قصّة الحديبية، وكانت له اليد البيضاء في تقرير الصلح. رَوى ابن إسحاق أنّه اتّبع أثَر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لمّا انصرف مِن الطائف، فأسلَم، واستأذنه أن يرجع إلى قومه، فقال: «إنّي أخاف أن يقتلوك». قال: «لو وجدوني نائمًا ما أيقظوني»، فأذِن له فدعاهم إلى الإسلام، ونصح لهم فعصَوه، وأسمعوه مِن الأذى، فلمّا كان مِن السَّحَر قام على غرفة له فأذّن، فرماه رجل مِن ثقيف بسهم فقتله، فلمّا بلغ ذلك النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: «مَثَل عُروة مَثَل صاحب ياسين، دعا قومه إلى الله فقتلوه». انظر: الإصابة لابن حجر، ٤٠٦/٤؛ والأعلام للزركلي، ٢٢٧/٤.

[٢] انظر: جامع البيان للطبري، ٥٨٠/٢٠؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٢/٨.

[٣] جامع البيان للطبري، ٥٨٠/٢٠؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٢/٨. | هو كِنانة بن عبد ياليل الثقفي (ت. نحو ١٥هـ/٦٣٦م). كان رئيس ثقيف، واختلف في إسلامه، قال ابن عبد البرّ: «كان مِن أشراف ثقيف الذين قدموا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بعد حصار الطائف، فأسلموا». وذكر المدائني أنّ وفد ثقيف أسلموا إلّا كِنانة، فإنّه قال: «لا يرثني رجل مِن قريش»، وخرج إلى نجران، ثمّ توجّه إلى الروم فمات بها كافرًا. انظر: الإصابة لابن حجر، ٤٩٦/٥؛ والأعلام للزركلي، ٢٣٤/٥.

مَنصب جليل لا يليق به إلّا مَن له جلالة مِن حيث المالُ والجاهُ، ولم يَدْرُوا أنّها رتبة روحانيّة لا يترقّى إليها إلّا هِمم الخواصّ المختصّين بالنفوس الزكيّة، المؤيَّدين بالقوّة القدسيّة، المُتحلِّين بالفضائل / الأُنسيّة. وأمّا المتزخرفون بالزخارف الدنيويّة المتمتّعون بالحظوظ الدنيّة فهم مِن استحقاق تلك الرتبة بألف منزل. [٦٥ظ]

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكار فيه تجهيل لهم وتعجيب مِن تحكّمهم. والمراد بـ"الرحمة" النبوّة.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أي: أسباب معيشتهم ﴿فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ قسمةً يقتضيها مشيئتنا المَبنيّةُ على الحِكَم والمصالح، ولم نفوِّض أمرها إليهم علمًا منّا بعجزهم عن تدبيرها بالكلّيّة.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادي المعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوتةً بحسب القُرب والبُعد حسبما يقتضيه الحِكمة، فمِن ضعيفٍ وقويّ، وفقير وغنيّ، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم.

﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليصرِف بعضهم بعضًا في مصالحهم، ويستخدموهم في مِهَنِهم، ويتسخّروهم في أشغالهم، حتّى يتعايَشُوا ويترافَدوا ويَصلوا إلى مرافقهم، لا لكمالٍ في الموسِع ولا لنقصٍ في المُقتِر. ولو فوّضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيْصّةِ[1] أمرهم وما يُصلِحهم مِن متاع الدنيا الدنيّة، وهو في طرف الثُّمام[2] على هذه الحالة فما ظنّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدّين، وهو أبعد مِن مناط العيّوق.[3] ومِن أين لهم البحث عن أمر النبوّة والتّخيُّر لها مَن يصلح لها ويقوم بأمرها؟

---

١ خُوَيْصّة: تصغير خاصّة. لسان العرب لابن منظور، «خصص».

٢ الثُّمام: نبت معروف في البادية. والعرب تقول للشيء الذي لا يعسر تناوله: هو على طرف الثُّمام، وذلك أن الثُّمام لا يطول فيشقّ تناوله. لسان العرب لابن منظور، «ثمم».

٣ العيّوق: نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن، يتلو الثريّا لا يتقدّمه. الصِّحاح للجوهري، «عوق».

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة وما يتبعها مِن سعادة الدارين ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ مِن حطام الدنيا الدنيّة الفانية.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ استئناف مبيّن لحقارة متاع الدنيا، ودناءة قدره عند الله عزّ وجلّ. والمعنى: أنّ حقارة شأنه بحيث لولا أن يرغب الناس لحبّهم الدنيا في الكفر إذا رأوا أهلَه في سَعةٍ وتنعّمٍ فيجتمعوا عليه لأعطيناه بحذافيره مَن هو شرُّ الخلائق وأدناهم منزلةً، وذلك قوله تعالى: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ أي: متّخذةً منها.

و﴿لِبُيُوتِهِمْ﴾ بدل اشتمالٍ مِن ﴿لِمَن﴾. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ إفراد المستكنّ في ﴿يَكْفُرُ﴾ باعتبار لفظها.

و"السَّقُف" جمع سَقْف، كـ"رُهُن" جمع "رَهْن"، وعن الفرّاء أنّه جمع "سَقيفة"،[1] كـ"سُفُن" و"سفينة". وقرئ: "سُقْفًا" بسكون القاف[2] تخفيفًا، و"سَقْفًا"[3] اكتفاءً / بجمع "البيوت"، و"سَقَفًا"،[4] كأنّه لغة في سَقْف، و"سُقُوفًا".[5] [٦٦و]

﴿وَمَعَارِجَ﴾ أي: جعلنا لهم معارج مِن فضّة، أي: مصاعد، جمع "مِعْرَج". وقُرئ: "مَعَارِيجَ"[6] جمع "مِعراج". ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ أي: يعلُون السطوح والعلاليّ.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: وجعلنا لبيوتهم ﴿أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا﴾ مِن فضة ﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على السُّرُر ﴿يَتَّكِـُٔونَ﴾. ولعلّ تكريرَ ذِكر "بيوتهم" لزيادة التقرير.

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٣/٣٢.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن مجاهد وأبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٣ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٤ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٤٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وطلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

﴿وَزُخْرُفًاۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾

﴿وَزُخْرُفًا﴾ أي: زينةً عطفًا على ﴿سُقُفًا﴾،[1] أو ذهبًا عطفًا على محلّ ﴿مِن فِضَّةٍ﴾.[2] ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وما كلّ ما ذُكر مِن البيوت الموصوفة بالصفات المفصّلة إلّا شيء يُتمتّع به في الحياة الدنيا. وفي معناه ما قُرئ: "وَمَا كُلُّ ذَلِكَ إلّا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيا".[3]

وقُرئ بتخفيف "مَا"[4] على أنّ ﴿إن﴾ هي المخفّفة، واللام هي الفارقة. وقُرئ بكسر اللام[5] على أنّها لام العلّة و"مَا" موصولة قد حُذف عائدها، أي: لَلذي هو متاع... إلخ، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام، ٦/١٥٤].

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ بما فيها مِن فنون النعيم التي يقصُر عنها البيان. ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي، وبهذا تبيّن أنّ العظيم هو العظيم في الآخرة لا في الدنيا.

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يَتَعامَ ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن. وإضافته إلى اسم ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ للإيذان بنزوله رحمةً للعالمين. وقُرئ: "يَعْشَ" بالفتح،[6] أي: يَعْمَ، يقال: عَشِيَ يَعْشَى إذا كان في بصره آفة، وعَشا يَعشُو إذا تَعَشّى بلا آفةٍ، كعَرِجَ وعَرَجَ. وقُرئ: "يَعْشُو"[7] على أنّ ﴿مَن﴾ موصولة غير مضمّنة معنى الشرط.

والمعنى: ومَن يُعرِضْ عنه لفَرط اشتغاله بزهرة الحياة الدنيا وانهماكه في حظوظها الفانية والشهوات ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ لا يفارقه،

---

١ الزخرف، ٤٣/٣٣.

٢ الزخرف، ٤٣/٣٣.

٣ قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري بغير نسبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٤٩.

٤ قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وخلف وابن عامر بخُلف عن هشام وابن وَردان عن أبي جعفر. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي رجاء. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٦ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

٧ قراءة شاذّة، مرويّة عن زيد بن عليّ. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٧.

ولا يزال يوسوسه ويُغويه. وقُرئ: "يُقَيِّضْ" بالياء[١] على إسناده إلى ضمير ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾. ومَن رفَع "يَعْشو" فحقُّه أن يَرفع "يُقَيِّضُ".

﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾

﴿وَإِنَّهُمۡ﴾ أي: الشّياطين الذين / قُيِّضَ كلّ واحد منهم لكلّ واحدٍ ممَّن يَعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمۡ﴾ أي: قرناءَهم. فمدار جمع الضميرين اعتبارُ معنى ﴿مَن﴾،[٢] كما أنّ مدار إفراد الضمائر السابقة اعتبارُ لفظها. ﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ المستبين الذي يدعو إليه القرآن ﴿وَيَحۡسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم﴾ أي: الشياطين ﴿مُّهۡتَدُونَ﴾ أي: إلى السبيل المستقيم، وإلّا لَما اتّبعوهم. أو يحسَبون أنّ أنفسهم مهتدون؛ لأنّ اعتقاد كونِ الشياطين مهتدين مستلزم لاعتقاد كونهم كذلك لاتّحاد مَسلكهما. والجملة حال مِن مفعول ﴿يَصُدُّونَ﴾ بتقدير المبتدأ، أو مِن فاعله، أو منهما لاشتمالها على ضميريهما، أي: وإنّهم لَيصدّونهم عن الطريق الحقّ وهم يحسبون أنّهم مهتدون إليه. [٦٦ظ]

وصيغة المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجدّدي لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾، فإنّ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وإن كانت ابتدائيةً داخلةً على الجملة الشرطية لكنّها تقتضي حتمًا أن تكون غايةً لأمر ممتدّ كما مرّ مرارًا. وإفراد الضمير في ﴿جَآءَ﴾[٣] وما بعده لِما أنّ المراد حكاية مقالةِ كلِّ واحدٍ[٤] واحدٍ مِن العاشِين لقرينه لتهويل الأمر وتفظيع الحال. والمعنى: يستمرّ العاشون على ما ذُكر مِن مقارنة الشياطين والصدِّ والحسبانِ الباطل، حتّى إذا جاءنا كلّ واحد منهم مع قرينه يوم القيامة ﴿قَالَ﴾ مخاطِبًا له: ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ﴾ في الدنيا ﴿بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ أي: بُعدَ المشرق والمغرب، أي: تباعد كلّ منهما عن الآخر. فغلِّب "المَشرقُ" وثُنِّي، وأضيف "البُعد" إليهما. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ أي: أنت.

---

[١] قرأ بها يعقوب وشعبة بخُلف عنه. النشر لابن الجزري، ٢/٣٦٩.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] س: جاءه.

[٤] س: وحد.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ۝٣٩﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾... إلخ حكاية لِما سيقال لهم حينئذ مِن جهة الله عزّ وجلّ توبيخًا وتقريعًا، أي: لن ينفعكم ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ -أي: يوم القيامة- تمنّيكم لمباعدتهم ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ أي: لأجل ظلمكم أنفُسَكم في الدنيا باتّباعكم إيّاهم في الكفر والمعاصي.

وقيل: ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ بدل مِن ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾، أي: إذ تبيّن عندكم وعند الناس جميعًا أنّكم ظلمتم أنفسَكم في الدنيا، وعليه قول مَن قال:

إذا ما انتسبنا لم تلِدني لئيمةٌ[١]

أي: تبيّن أنّي لم تلدني لئيمة؛ بل كريمة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ تعليل لنفي النفع، أي: لأنّ [٦٧و] حقّكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب / كما كنتم مشتركين في سببه في الدنيا. ويجوز أن يُسنَد الفعل إليه، لكن لا بمعنى: لن ينفعكم اشتراككم في العذاب كما ينفع الواقعين في شدائد الدنيا اشتراكُهم فيها لتعاونهم في تحمّل أعبائها وتقسُّمِهم لعَنائها، لأنّ لكلٍّ منهم ما لا يبلغه طاقتُه كما قيل؛[٢] لأنّ الانتفاع بذلك الوجه ليس ممّا يخطر ببالهم حتّى يُرَدّ عليهم بنَفْيِه؛ بل بمعنى: لن يحصل لكم التّشفِّي بكون قرنائكم معذَّبين مثلكم حيث كنتم تدْعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ[٣] ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب، ٦٨/٣٣]، وقولِكم: ﴿فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف، ٣٨/٧]، ونظائرِهما؛ لِتَتَشفَّوا بذلك.

﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٤٠﴾

كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبالغ في المجاهدة في دعاء قومه،

---

١ تمامه:

ولم تَجدي مِن أن تَقرّي بها بدّا

وهو لزائد بن صعصعة الفقعسي، يقول: إذا انتسبنا معًا تبيّن لكِ أنّي كريم مِن نسل كريم. أطلق الفعل، وأريدَ به ظهوره والعلم به اللازم له، فإنّ "لم تلدني" جواب إذا، أي: إذا انتسبنا علمتِ يا فلانة وتبيّنتِ أنّي لست بابن لئيمة. والبدّ: الفراق والخلاص، ومِن متعلّقة به، أي: لم تجِدِي خلاصًا مِن إقرارك بما قلته. انظر: شرح أبيات المغني للبغدادي، ١٢٦/١.

٢ قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ٩١/٥.

٣ م س ي: وآتِهم.

وهم لا يزيدون إلّا غيًا وتعاميًا عمّا يشاهدونه مِن شواهد النبوّة وتَصامًا عمّا يسمعونه مِن بيّنات القرآن، فنزل: ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِى ٱلۡعُمۡىَ﴾. وهو إنكارُ تعجيبٍ مِن أن يكون هو الذي يَقدر على هدايتهم وهم قد تمرّنوا في الكفر واستغرقوا في الضلال، بحيث صار ما بهم مِن العَشا عَمًى مقرونًا بالصَّمَم.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلۡعُمۡىَ﴾ باعتبار تغاير الوصفين. ومدار الإنكار هو التمكّن والاستقرار في الضلال المُفرط بحيث لا ازعِواء له منه، لا توهُّمُ القصور مِن قِبَل الهادي، ففيه رمز إلى أنّه لا يقدر على ذلك إلّا الله تعالى وحدَه بالقَسر والإلجاء.

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾

﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي: فإن قبضناك قبل أن نُبصِّرَكَ عذابَهم ونشفِيَ بذلك صدرَك وصدورَ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ لا محالةَ في الدنيا والآخرة. فـ﴿مَا﴾ مزيدة للتأكيد بمنزلة لام القسَم في أنّها لا تفارق النون المؤكّدة.

﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أي: أو أردنا أن نُريك العذاب الذي وعدناهم، ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ بحيث لا مناصَ لهم مِن تحت ملَكتنا وقهرنا، ولقد أراه عليه السلام ذلك يوم بدر.

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٌ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيۡكَ﴾ مِن الآيات والشرائع، سواء عجّلنا لك الموعود أو أخّرناه إلى اليوم الآخر. وقُرئ: "أَوْحَى" على البناء للفاعل،[1] وهو الله عزّ وعلا.[2] ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ تعليل للاستمساك، أو للأمرِ به.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

[2] س: عزّ وجلّ.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ﴾ لشرفٌ عظيم ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ يوم القيامة عنه / وعن قيامكم بحقوقه. [٦٧ظ]

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا﴾ أي: واسألْ أمَمَهم وعلماءَ دينهم كقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس، ١٠/٩٤]. وفائدة هذا المجاز التنبيهُ على أنّ المسئول عنه عين مَا نطقت به ألسنة الرسل، لا ما يقوله أممُهم وعلماءهم مِن تلقاء أنفسهم. قال الفرّاء: «هم إنّما يخبرونه عن كتب الرسل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء عليهم السلام».[١]

﴿أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ أي: هل حكَمنا بعبادة الأوثان؟ وهل جاءت في ملّة مِن مِلَلِهم؟ والمراد به الاستشهاد بإجماع الأنبياء على التوحيد، والتنبيه على أنّه ليس ببِدعٍ ابتدعه حتّى يُكذَّب ويُعادَى.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ملتبِسًا بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أريدَ باقتصاصه تسليةُ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد، إثرَ ما أشيرَ[٢] إلى إجماع جميع الرسل عليهم السلام عليه.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾﴾

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ أي: فاجَئُوا وقت ضحكهم منها، أي: استهزءوا بها أوّلَ ما رَأَوها، ولم يتأمّلوا فيها.

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ أي: آيةً[٣] مِن الآيات ﴿إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ أي:

---

١ معاني القرآن للفرّاء، ٣/٣٤.
٢ س: يشير.
٣ س ي – أي: آيةً.

إلّا وهي بالغة أقصى مراتب الإعجاز بحيث يحسَب كلّ مَن ينظر إليها أنّها أكبر مِن كلّ ما يُقاس بها مِن الآيات. والمراد وصف الكلّ بغاية الكبَر مِن غير ملاحظة قُصور في شيء منها، أو إلّا وهي مختصّة بضرب مِن الإعجاز مفضّلة بذلك الاعتبار على غيرها.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسِّنين والطوفان والجراد وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عمّا هم عليه مِن الكفر.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوه بذلك في مثل تلك الحالة لغاية عتوّهم ونهاية حماقتهم. وقيل: كانوا يقولون للعالِم الماهر: ساحر؛ لاستعظامهم علم السِّحر. وقُرئ: "أَيُّهُ السَّاحِرُ" بضمّ الهاء.[١]

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ليكشف عنّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك مِن النبوّة، / أو مِن استجابة دعوتك، أو مِن كشف العذاب عمَّن اهتدى، أو بما عهِد عندك [٦٨و] فوفّيت به مِن الإيمان والطّاعة. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ أي: لَمؤمنون، على تقدير كشف العذاب عنّا بدعوتك، كقولهم: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الأعراف، ١٣٤/٧].

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ بدعوته ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجئوا وقت نكْث عهدهم بالاهتداء، وقد مرّ تفصيله في الأعراف.[٢]

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَـٰذِهِ ٱلْأَنْهَـٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مَجمعهم وفيما بينهم بعد أن كُشف العذاب عنهم مخافةَ أن يؤمنوا، ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ

---

[١] قرأ بها ابن عامر. النشر لابن الجزري، ١٤٢/٢.

[٢] عند قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ [الأعراف، ١٣٥/٧].

﴿وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهار النيل، ومعظمها أربعة: نهر الملك، ونهر طولون، ونهر دمياط، ونهر تِنِّيس. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: مِن تحت قَصري، أو أمري. وقيل: مِن تحت سريري لارتفاعه. وقيل: بين يديّ في جِناني وبَساتيني. و"الواو" إمّا عاطفة لـ﴿هَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على ﴿مُلْكُ مِصْرَ﴾ فتجري حال منها، أو للحال فـ﴿هَٰذِهِ﴾ مبتدأ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفتها و﴿تَجْرِى﴾ خبر للمبتدأ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك، يريد به استعظام مُلكه.

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكة والبسطة ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيف حقير، مِن المَهانة، وهي القِلّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: الكلامَ. قاله افتراءً عليه عليه السلام وتنقيصًا له عليه السلام في أعين الناس باعتبار ما كان في لسانه عليه السلام مِن نوع رُتّة،[١] وقد كانت ذهبت عنه لقوله تعالى: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه، ٢٠/٣٦].

و﴿أَمْ﴾ إمّا منقطعة والهمزة للتقرير، كأنّه قال إثرَ ما عدّد أسباب فضله ومباديَ خيريّته: أَثَبَتَ عندكم واستقرّ لديكم أنّي أنا خير وهذه حالي مِن هذا... إلخ؟

وإمّا متّصلة، فالمعنى: أفلا تُبصرون أَم تبصرون؟ خلا أنّه وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مَوضع / "تبصرون"؛ لأنّهم إذا قالوا له: أنت خير، فهم عنده بُصراءُ، [٦٨ظ]
وهذا مِن باب تنزيل السبب منزلة المسبَّب، ويجوز أن يُجعل مِن تنزيل المسبَّب منزلة السبب، فإنّ إبصارهم لِما ذُكر مِن أسباب فضله سببٌ على زعمه لحُكمهم بخيريّته.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي: فهلّا أُلقي إليه مقاليد المُلك إن كان صادقًا، لِما أنّهم كانوا إذا سَوَّروا رجلًا سَوّروه وطوّقوه بطَوق مِن ذهب.

---

[١] الرُتّةُ، بالضم: العُجمة في الكلام والحُكْلَة فيه. رجلٌ أَرَتُّ بيِّن الرَتَت. وفي لسانه رُتّة. الصّحاح للجوهري، «رتت».

و﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع "سِوار". وقُرئ: "أَسَاوِرُ"[١] جمع "أَسْوِرة"، وقُرئ: "أَسَاوِرَةٌ"[٢] جمع "إسْوار" بمعنى السِّوار، على تعويض التاء مِن ياء "أساوِير"، وقد قُرئ كذلك،[٣] وقُرئ: "وَأَلْقَى عَلَيهِ أَسْوِرَةً"[٤] و"أَسَاوِرَ"،[٥] على البناء للفاعل وهو الله تعالى.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يُعينونه أو يصدّقونه، مِن "قَرنتُه به فاقترَن"، أو متقارِنين، مِن "اقترَن" بمعنى تَقارن.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فاستفزّهم وطلب منهم الخِفّة في مطاوَعته، أو فاستخفّ أحلامهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعة ذلك الفاسق الغَويّ.

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾

﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا أشدَّ الغضب. منقول مِن "أَسِفَ" إذا اشتدّ غضبه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمّ.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوة لمَن بعدَهم مِن الكفّار يسلكون مَسلكهم في استيجاب مثلِ ما حلّ بهم مِن العذاب. وهو إمّا مصدر نُعِت به، أو جمع "سالف"، كخدَم جمع خادم. وقُرئ بضمّ السين واللام،[٦] على أنّه جمع "سَليف"،

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى أبيّ بن كعب رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[٢] قرأ بها جميع القرّاء العشرة غير يعقوب وحفص عن عاصم. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى ابن مسعود رضي الله عنه. انظر: الكشف والبيان للثعلبي، ٣٣٩/٨.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨. وأسندها بعض المفسّرين إلى الضحّاك. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٥٩/٥.

[٥] قراءة شاذّة، ذكرها البيضاوي بغير نسبة. انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٣/٥.

[٦] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

أي: فريق قد سلَف، كرُغُف، أو "سالِف" كصُبُر، أو "سَلَف" كأُسُد. وقُرئ: "سُلَفًا"[١] بإبدال ضمّة اللام فتحةً، أو على أنّه جمع "سُلْفة"، أي: ثُلّة قد سلَفت.

﴿وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾ أي: عِظةً لهم، أو قصّةً عجيبة تسير مسيرَ الأمثال لهم فيقال: مَثَلكم مَثَل قوم فرعون.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ۝٥٧﴾

[٦٩و] ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ/ مَثَلًا﴾ أي: ضرَبه ابن الزِّبَعْرَى حين جادل رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء، ٩٨/٢١]، حيث قال: «أهذا لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟» فقال عليه السلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم». فقال اللعين: «خصَمتُك وربِّ الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عُزيرًا، وبنو مُليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم.» ففرح به قومه وضحكوا وارتفعت أصواتهم.[٢] وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي: مِن ذلك المَثل ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي: يرتفع لهم جلَبة وضجيج فرَحًا وجدلًا.

وقُرئ: "يَصُدُّونَ"،[٣] أي: مِن أجل ذلك المَثل يُعرِضون عن الحقّ، أي: يَثبتون على ما كانوا عليه مِن الإعراض أو يزدادون فيه. وقيل: هو أيضًا مِن الصديد، وهما لغتان فيه، نحو: يعكِف ويعكُف، وهو الأنسب بمعنى المفاجأة.

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾

﴿وَقَالُوٓا۟ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ حكاية لطرفٍ مِن المَثَل المضروب، قالوه تمهيدًا لِما بنَوا عليه مِن الباطل المُمَوَّهِ بما يغترّ به السفهاء، أي: ظاهر أنّ عيسى خير مِن آلهتنا، فحيث كان هو في النار، فلا بأس بكوننا مع آلهتنا فيها.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٨.

٢ انظر: جامع البيان للطبري، ٤١٧/١٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٣١٠/٦ (الأنبياء، ٩٨/٢١).

٣ قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٦٩/٢.

واعلم أنّ ما نُقِل عنهم مِن الفرح ورفع الأصوات لم يكن لِما قيل: مِن أنّه عليه السّلام سكَت عند ذلك إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. فإنّ ذلك -مع إيهامه لِما يجب تنزيهُ ساحته عليه السلام عنه مِن شائبة الإفحام مِن أوّل الأمر- خلاف الواقع. كيف لا، وقد رُوي أنّ قول ابنِ الزِّبَعْرَى: «خصمتُك وربِّ الكعبة»، صدر عنه مِن أوّل الأمر عند سماع الآية الكريمة، فردّ عليه النبيّ بقوله عليه السلام: «ما أجهَلَكَ بلغة قومك، أما فهمتَ أنّ "مَا" لِمَا لا يعقل»؟[1] وإنّما لم يخصّ عليه السلام هذا الحكم بآلِهتهم حين سأل الفاجرُ عن الخصوص والعموم عملًا بما ذُكر مِن اختصاص كلمة "مَا" بغير / العقلاء؛ لأنّ إخراج بعض المَعبودين عنه عند [٦٩ظ] المُحاجّة موهِم للرخصة في عبادته في الجملة، فعمّمه عليه السلام[2] للكلّ، لكن لا بطريق عبارة النصّ؛ بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبوديّة مِن دون الله تعالى، ثمّ بيّن عليه السلام بقوله: «بل هم عبدوا الشياطين التي أمَرَتهم بذلك»[3] أنّ الملائكة والمسيح بمَعزِل مِن أن يكونوا معبوديهم، كما نطق به قوله تعالى:[4] ﴿سُبۡحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلۡ كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٱلۡجِنَّۖ﴾ الآيةَ [سبأ، ٤١/٣٤]. وقد مرّ تحقيق المقام عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. بل[5] إنّما كان ما أظهروه مِن الأحوال المنكرة لمَحض وَقاحتهم وتَهالكهم على المكابرة والعناد كما ينطق به قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢا﴾ أي: ما ضربوا لك ذلك المَثل إلّا لأجل الجِدال والخِصام، لا لطلب الحقّ حتّى يُذعِنوا له عند ظهوره ببَيانك.

﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ أي: لُدٌّ شِداذُ الخصومة، مَجبولون على المَحْكِ واللَّجاج.

---

[1] قال الحافظ ابن حجر: «وقع في كلام كثير مِن فضلاء العجم ما نصّه: نُقل أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال لابن الزِّبَعْرَى: ما أجهلك بلغة قومك، إن "مَا" لِما لا يعقل. انتهى. وهذا لا أصل له مِن طريق ثابتة ولا واهية، وكأنّ المُوقع في ذلك قول ابن الحاجب: وأجيب بأن "ما" لِما لا يعقل، فظنّوا أنّه مِن جواب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم». موافقة الخبر لابن حجر، ١٧٥/٢.

[2] س - عليه السلام.

[3] مِن حديث ابن الزِّبَعرَى السابق.

[4] س - تعالى.

[5] وفي هامش م: عطف على قوله: "لم يكن". «منه».

وقيل: لمّا سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران، ٥٩/٣] قالوا: «نحن أهدى مِن النصارى؛ لأنّهم عبدوا آدميًا، ونحن نعبد الملائكة»، فنزلَت.[1] فقولهم: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَ﴾ حينئذ تفضيل لآلهتهم على عيسى عليه السلام؛ لأنّ المراد بهم الملائكة. ومعنى ﴿مَا ضَرَبُوهُ﴾... إلخ: ما قالوا هذا القول إلّا للجَدل.

وقيل: لمّا نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآيةَ [آل عمران، ٥٩/٣]، قالوا: «ما يريد محمّد بهذا إلّا أن نعبده، وأنّه يستأهل أن يُعبَد وإن كان بشَرًا كما عبَدت النصارى المسيح وهو بشَر».[2]

ومعنى ﴿يَصِدُّونَ﴾: يضجّون ويَضجَرون. والضمير في ﴿أَمۡ هُوَ﴾ لمحمّد عليه السلام.

وغرضهم بالموازنة بينه عليه السلام وبين آلهتهم الاستهزاء به. وقد جُوّز أن يكون مرادهم التنصّلَ عمّا أُنكِرَ عليهم مِن قولهم: "الملائكة بنات الله تعالى"، ومِن عبادتهم لهم، كأنّهم قالوا: "ما قلنا بِدعًا مِن القول، ولا فَعلنا مُنكرًا مِن الفعل، فإنّ النصارى جعلوا المسيحَ ابنَ الله وعبدوه، فنحن أشفّ[3] منهم قولًا وفعلًا حيث نسَبنا إليه الملائكة، / وهم نسبوا إليه الأناسيّ". [٧٠و]

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾

فقوله تعالى: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي: بالنبوّة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أي: أمرًا عجيبًا حقيقًا بأن يُسيَّرَ ذِكره كالأمثال السائرة؛ على الوجه الأوّل استئناف مَسوق لتنزيهه عليه السلام عن أن يُنسَب إليه ما نُسِب إلى الأصنام بطريق الرمز، كما نطق به صريحًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ الآيةَ [الأنبياء، ١٠١/٢١]. وفيه تنبيه على بطلان رأي مَن رفعه عن رتبة العبوديّة، وتعريضٌ بفساد رأي مَن يرى رأيهم في شأن الملائكة.

---

١ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.

٢ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤٠/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦٠/٤.

٣ الشفّ: الربح والزيادة، وفلان أشَفّ مِن فلان، أي: أكبر منه قليلًا، وأشفّ عليه: فضَلَه في الحسن وَفاقه. لسان العرب لابن منظور، «شفف».

وعلى الثاني والرابع لبيان أنّه قياس باطلٍ بباطلٍ، أو بأبطلَ على زعمهم، وما عيسى إلّا عبد كسائر العبيد، قُصارى أمره أنّه ممّن أنعمنا عليهم بالنبوّة، وخصَصناه ببعض الخواصّ البديعة؛ بأن خلقناه بوجه بديع، وقد خلقنا آدمَ بوجه أبدَعَ منه، فأين هو مِن رتبة الربوبيّة؟ ومِن أين يُتوهّم صحّة مذهب عَبَدته حتى يَفتخر عَبَدةُ الملائكة بكونهم أهدى منهم، أو يعتذروا بأنّ حالَهم أَشَفُّ أو أخفُّ مِن حالهم؟

وأمّا على الوجه الثالث فهو لِرَدّهم وتكذيبهم في افترائهم على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببيان أنّ عيسى في الحقيقة وفيما أُوحِي إلى الرسول عليهما السلام ليس إلّا أنّه عبد مُنعَم عليهِ كما ذُكر، فكيف يرضى عليه السلام بمَعبوديّته؟ أو كيف يُتوهّم الرضى بمعبوديّة نفسه؟

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ۝٦٠﴾

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ﴾... إلخ لتحقيق أنّ مَثل عيسى عليه السلام ليس ببِدْعٍ مِن قدرة الله تعالى، وأنّه تعالى قادر على أبدَعَ مِن ذلك وأبدَعَ، مع التنبيه على سقوط الملائكة أيضًا مِن درجة المَعبوديّة، أي: قدرتنا بحيث لو نشاء ﴿لَجَعَلْنَا﴾ أي: لَخلقنا بطريق التوالد ﴿مِنكُم﴾ وأنتم رجال ليس مِن شأنكم الولادة ﴿مَّلَٰٓئِكَةً﴾ كما خلقناهم بطريق الإبداع ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مستقرّين فيها كما جعلناهم مستقرّين في السماء ﴿يَخْلُفُونَ﴾ أي: يخلفونكم مِثلَ أولادكم فيما تأتون وما تذَرون، ويباشرون الأفاعيل المَنوطةَ بمباشرتكم / مع أنّ شأنهم التسبيح [٧٠ظ]
والتقديس في السماء، فمَن شأنهم بهذه المَثابة بالنسبة إلى القدرة الربّانيّة كيف يتوهّم استحقاقهم للمعبوديّة، أو انتسابهم إليه تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا.

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٦١ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٢﴾

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنّ عيسى ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنّه بنزوله شَرط مِن أشراطها. وتسميته "عِلْمًا" لحصوله به، أو بحدوثه بغير أبٍ، أو بإحيائه الموتَى دليل على صحّة البعث الذي هو مُعظم ما يُنكره الكفرة مِن الأمور الواقعة في الساعة.

وقُرئ: "لَعَلَمٌ"،[١] أي: علامة. وقُرئ: "لَلْعَلَمُ".[٢] وقُرئ: "لَذِكْرٌ"[٣] على تسمية ما يُذكَر به ذِكرًا، كتسمية ما يُعلم به عِلمًا.

وفي الحديث: «إنّ عيسى عليه السلام ينزل على ثنيّة بالأرض المقدّسة، يقال لها: أَفِيقُ، وعليه مُمَصَّرتان،[٤] وبيده حَرْبة، وبها يقتل الدجّال، فيأتي بيتَ المقدس، والناسُ في صلاة الصبح، فيتأخّر الإمام، فيقدّمه عيسى عليه السلام ويصلّي خلفَه على شريعة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، ثم يقتل الخنازير، ويكسر الصليب، ويخرّب البِيَع والكنائس، ويقتل النصارى إلّا مَن آمن به».[٥]

وقيل: الضمير للقرآن، لِما أنّ فيه الإعلام بالساعة.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تَشكُّنّ في وقوعها، ﴿وَٱتَّبِعُونِ﴾ أي: واتّبعوا هُدايَ، أو شرعي، أو رسولي. وقيل: هو قولُ الرسول مأمورًا مِن جهته تعالى. ﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي أدعوكم إليه، أو القرآنُ على أنّ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ له، ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ مُوصل إلى الحقّ.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن اتّباعي. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بيّنُ العداوة، حيث أخرج أباكم مِن الجنّة، وعرّضكم للبَليّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالمعجزات، أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحات ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الإنجيلِ، أو الشريعةِ، ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ عطفٌ على مقدّر يُنبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنّه قيل:

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عبّاس وأبي هريرة رضي الله عنهم وعكرمة والضحّاك وقتادة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عكرمة وأبي نصر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

٤ المُمَصَّرة مِن الثياب: التي فيها صُفرة خفيفة. النهاية لابن الأثير، «مصر».

٥ الكشف والبيان للثعلبي، ٣٤١/٨؛ الكشّاف للزمخشري، ٢٦١/٤. قال الزيلعي: «غريب بهذا اللفظ، وهو مفرّق في غُضون الأحاديث». تخريج أحاديث الكشّاف للزيلعي، ٢٥٤/٣.

قد جئتكم بالحكمة لأعلِّمكم إيّاها، ولأُبيّن لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يتعلّق بأمور الدين، وأمّا ما يتعلّق بأمور الدنيا فليس بيانه مِن وظائف الأنبياء عليهم السلام، كما قال عليه السلام: «أنتم أعلَمُ بأمور دنياكم».[1] ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في مُخالفتِي ﴿وَأَطِيعُونِ﴾ فيما / أبلّغه عنه تعالى. [٧١و]

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيان لِما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبّدُ بالشرائع. ﴿هَٰذَا﴾ أي: التوحيد والتعبّد بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضِلّ سالكه، وهو إمّا مِن تتمّة كلامه عليه السلام، أو استئناف مِن جهته تعالى مقرِّر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفِرقُ المتحزّبة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ أي: مِن بين مَن بُعِث إليهم مِن اليهود والنصارى. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ مِن المختلِفين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو يوم القيامة.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ﴾ أي: ما ينتظر الناس ﴿إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم﴾ أي: إلّا إتيانَ الساعة ﴿بَغْتَةً﴾ أي: فُجاءةً، لكن لا عند كونهم مترقّبين لها؛ بل غافلين عنها مشتغلين بأمور الدنيا منكرين لها، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ المتحابّون في الدنيا على الإطلاق، أو في الأمور الدنيويّة ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يومَ إذ تأتيهم الساعة ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ لانقطاع ما بينهم مِن علائق الخُلّة والتحابّ، لظهور كونها أسبابًا للعذاب، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنّ خُلّتهم

---

[1] أنوار التنزيل للبيضاوي، ٩٥/٥. وهو بعض حديث أخرجه مسلم في صحيحه، ١٨٣٦/٤ (٢٣٦٣).

في الدنيا لمّا كانت في الله تبقى على حالها؛ بل تزداد بمشاهدة كلٍّ منهم آثارَ خُلّتهم مِن الثواب ورفعِ الدرجات. والاستثناء على الأوّل متّصل، وعلى الثاني منقطع.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ حكاية لِما ينادَى به المتّقون المتحابّون في الله يومئذ تشريفًا لهم، وتطييبًا لِقلوبهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ۝٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝٧٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفة للمنادى، أو نصب على المدح، ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ أي: مخلِصين وجوههم لنا،[1] جاعلين أنفسهم سالمةً لطاعتنا. وهو حال مِن "واو" ﴿ءَامَنُواْ﴾.

عن مقاتل: «إذا بعث الله الناس فزِع كلّ أحد، فينادي منادٍ: "يا عبادي"، فيرفع الخلائق رءوسهم / على الرجاء، ثمّ يتبعها: "الذين آمنوا"... الآيةَ، فينكِّس أهل الأديان الباطلة رءوسهم».[2] [٧١ظ]

﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ نساؤكم المؤمنات ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُسرّون سرورًا يظهر حُبارُه -أي: أثره- على وجوهكم، أو تُزيَّنون، مِن "الحَبْرة" وهو حُسن الهيئة، أو تُكرَمون إكرامًا بليغًا، و"الحَبْرة" المبالغة فيما وُصِف بجميل.

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٧١﴾

﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم﴾ بعد دخولهم الجنّة حسبما أُمِروا به ﴿بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖ﴾ كذلك. و"الصِحاف" جمع "صَحْفة". قيل: هي كالقَصعة. وقيل: أعظم القِصاع الجَفنة ثمّ القَصعة ثمّ الصَّحفة ثمّ المَكيلة. و"الأكواب" جمع "كُوب"، وهو كُوز لا عُروةَ له.

---

١ س - لنا.

٢ التفسير الوسيط للواحدي، ٨١/٤؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٩/١٧.

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ مِن فنون المَلاذ. وقُرئ: "مَا تَشْتَهِي".[١] ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: تستَلِذُّه وتَقَرّ بمشاهدته. وقُرئ: "وَتَلَذُّهُ".[٢]

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ إتمام للنعمة، وإكمال للسرور، فإنّ كلّ نعيم له زوال بالآخرة مقارِن لخَوفه لا محالةَ. والالتفات للتشريف.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ وقُرئ: "وُرِّثْتُمُوهَا"[٣] ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا مِن الأعمال الصالحة، شُبّه جزاء العمل بالميراث لأنّه يَخلُفه العامل عليه. وقيل: ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وصفة، والموصول مع صِلته خبرُه. وقيل: هو صفة ﴿ٱلْجَنَّةُ﴾ كالوجه الأوّل، والخبر ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، فتتعلّق "الباء" بمحذوف، لا بـ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ كما في الأوّلَين.

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف، لا بحسب الأفراد فقط، ﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: بعضَها تأكلون في كلّ نَوبة، وأمّا الباقي فعلى الأشجار على الدوام، لا ترى فيها شجرةً خلَتْ عن ثَمرها لحظةً، فهي مزيّنة بالثمار أبدًا، مُوقَرة بها.[٤] وعن النبيّ عليه السلام:[٥] «لا ينزع رجل في الجنّة مِن ثمرها إلّا نبتَ مِثلاها مكانها».[٦]

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، وهم الكفّار جسبما يُنبئ عنه

---

١ قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٣٧٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٩/٣٨٨.

٣ قراءة شاذّة، غير منسوبة. انظر: الكشّاف للزمخشري، ٤/٢٦٣.

٤ أَوقَرت النخلةُ، أي: كثُر حَملها. الصحاح للجوهري، «وقر».

٥ س: صلّى الله عليه وسلّم.

٦ مسند البزّار، ١٠/١٢٣ (٤١٨٧)؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٨/٣٤٤.

[٧٢و] إيرادُهم في مقابلة المؤمنين / بالآيات. ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾، أو ﴿خَٰلِدُونَ﴾ هو الخبَر، و﴿فِي﴾ متعلّقة به.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف العذاب عنهم، مِن قولهم: "فَتَرَت عنه الحمّى" إذا سكنَت قليلًا، والتركيب للضَّعف. ﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب. وقُرئ: "فِيهَا"،[١] أي: في النار ﴿مُبْلِسُونَ﴾ آيِسون مِن النجاة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ﴾ بذلك، ﴿وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لتعريضهم أنفسَهم للعذاب الخالد.

﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾

﴿وَنَادَوْاْ﴾ خازنَ النار: ﴿يَٰمَٰلِكُ﴾ وقُرئ: "يَا مَالُ" على الترخيم بالضمّ[٢] والكسر،[٣] ولعلّه رمز إلى ضَعفهم وعجزهم عن تأدية اللفظ بتمامه. ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمِتْنا حتى نستريح، مِن "قَضَى عليه" إذا أماته. والمعنى: سَلْ ربَّك أن يقضي علينا، وهذا لا ينافي ما ذُكر مِن إبلاسهم؛ لأنّه جُؤارٌ وتمنٍّ للموت لفَرط الشدّة.

﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ أي: في العذاب أبدًا، لا خلاصَ لكم منه بموت ولا بغيره. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: أنّه لا يُجيبهم إلّا بعد ألف سنةٍ.[٤] وقيل: بعد مائة. وقيل: بعد أربعين سنةً.

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ في الدنيا بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وهو خطابُ توبيخٍ وتقريعٍ مِن جهة الله تعالى مقرِّرٌ لجواب مالِك، ومبيِّنٌ لسبب مكثهم. وقيل: في ﴿قَالَ﴾ ضمير الله تعالى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٨/٩.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي السرار الغنوي. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود وعليّ رضي الله عنهما وابن وثّاب والأعمش. البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٩/٩.

٤ جامع البيان للطبري، ٦٤٩/٢٠؛ تفسير ابن أبي حاتم، ٣٢٨٦/١٠.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ﴾ أيَّ حقٍّ كان ﴿كَٰرِهُونَ﴾ لا يقبلونه وينفِرون منه، وأمّا الحقّ المعهود الذي هو التوحيد أو القرآن فكلُّهم كارهون له مشمَئزّون منه.

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ ٧٩﴾

﴿أَمۡ أَبۡرَمُوٓاْ أَمۡرٗا﴾ كلام مبتدأ ناعٍ على المشركين ما فعلوا مِن الكيد برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. و﴿أَمۡ﴾ منقطعة، وما فيها مِن معنى "بل" للانتقال مِن توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، و"الهمزةِ" للإنكار، فإن أريدَ بالإبرام الإحكامُ حقيقةً فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أريدَ الإحكامُ صورةً فهي لإنكار الواقع / واستقباحِه، أي: أَأَبرَم مشركو[1] مكّة أمرًا مِن كيدهم ومَكرهم برسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ [٧٢ظ]

﴿فَإِنَّا مُبۡرِمُونَ﴾ كَيدَنا حقيقةً، لا هُم، أو فإنّا مبرِمون كيدَنا بهم حقيقةً كما أبرَموا كيدَهم صورةً، كقوله تعالى: ﴿أَمۡ يُرِيدُونَ كَيۡدٗاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلۡمَكِيدُونَ﴾ [الطور، ٤٢/٥٢]، وكانوا يتناجَون في أنديتهم، ويتشاورون في أموره عليه الصلاة والسلام.[2]

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ٨٠﴾

﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ﴾ أي: بل أيَحسبون ﴿أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ﴾ وهو ما حدّثوا به أنفسَهم أو غيرَهم في مكان خالٍ ﴿وَنَجۡوَىٰهُم﴾ أي: ما تكلّموا به فيما بينهم بطريق التناجي.

﴿بَلَىٰ﴾ نحن نسمعهما ونطّلع عليهما، ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم، ويلازمونهم أينما كانوا ﴿لَدَيۡهِمۡ﴾ عندهم ﴿يَكۡتُبُونَ﴾ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كلَّ ما صدَرَ عنهم مِن الأفعال والأقوال التي مِن جملتها ما ذُكر مِن سرّهم ونجواهم. والجملة إمّا عطفٌ على ما يُترجِم عنه ﴿بَلَىٰ﴾، أو حال، أي: نسمَعُهما، والحال أنّ رسلنا يكتبونه.

---

[1] م س ي: مشركوا.

[2] س: عليه السلام.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾

﴿قُلْ﴾ أي: للكفرة تحقيقًا للحقّ، وتنبيهًا لهم على أنّ مخالفتك لهم بعدم عبادتك لِما يعبدونه مِن الملائكة عليهم السلام ليست لبُغضك وعداوتك لهم، أو لمعبوديهم؛ بل إنّما هو لجَزْمك باستحالة ما نسبوا إليهم وبنَوا عليه عبادتهم مِن كونهم بنات الله سبحانه: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ أي: له، وذلك لأنّه عليه السلام أعلَم الناس بشئونه تعالى، وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأولاهم بمراعاة حقوقه، ومِن مَواجِب تعظيم الوالد تعظيم ولده.

وفيه مِن الدلالة على انتفاء كونهم كذلك على أبلغ الوجوه وأقواها، وعلى كون رسول الله عليه السلام[1] على قوّة يقين وثباتِ قدَم في باب التوحيد ما لا يخفى، مع ما فيه مِن استنزال الكفرة عن رتبة المكابَرة حسبما يُعرِب عنه إيراد ﴿إن﴾ مكان "لو" المنبئةِ عن امتناع مقدَّم الشرطيّة.

وقيل: ﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ﴾ في زعمكم ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾ الموحِّدين لله تعالى. وقيل: فأنا أوّل الآنفين، أي: المستنكِفين منه أو مِن أن يكون له ولد، مِن "عَبِدَ يَعبَد" إذا اشتدّ أَنَفُه.

[٧٣و] وقيل: ﴿إن﴾ نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أوّلُ / مَن قال بذلك. وقُرئ: "وُلْدٌ".[2]

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ أي: يصفونه به مِن أن يكون له ولد. وفي إضافة اسم "الرَّبّ" إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيه على أنّها وما فيها مِن المخلوقات حيث كانت تحت ملكوته وربوبيّته، كيف يُتوهّم أن يكون شيء منها جزءًا منه سبحانه؟ وفي تكرير اسم "الرَّبّ" تفخيم لشأن العرش.

---

[1] س: صلّى الله عليه وسلّم.

[2] قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣١٩/٢.

﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ حيث لم يُذعنوا للحقّ بعد ما سمعوا هذا البرهان الجليّ ﴿يَخُوضُواْ﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلۡعَبُواْ﴾ في دنياهم، فإنّ ما هم فيه مِن الأفعال والأقوال ليست إلّا مِن باب الجهل واللعِب. والجزم في الفعل لجواب الأمر. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾ مِن يوم القيامة، فإنّهم يومئذ يعلمون ما فعلوا وما يُفعَلُ بهم.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ ٨٤﴾

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٞ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَٰهٞ﴾ الظرفان متعلّقان بالمعنى الوصفي الذي ينبئ عنه الاسم الجليل مِن معنى المَعبوديّة بالحقّ بناءً على اختصاصه بالمعبود بالحقّ، كما مرّ في تفسير البسملة، كأنّه قيل: وهو الذي مستحِقّ لأن يُعبَد فيهما، وقد مرّ تحقيقه في سورة الأنعام.[1]

وقُرئ: "وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ اللهُ وَفِي الْأَرْضِ اللهُ".[2]

والراجع إلى الموصول مبتدأ قد حُذِف لطول الصِّلة بمتعلَّق الخبر والعطفِ عليه، ولا مساغَ لكون الجارّ خبرًا مقدَّمًا، و﴿إِلَٰهٞ﴾ مبتدأً مؤخَّرًا؛ لِلزوم عَراء الجملة حينئذ عن العائد، نعم يجوز أن يكون صِلةً للموصول، و﴿إِلَٰهٞ﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف، على أنّ الجملة بيان للصِّلة، وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهيّة لا على سبيل الاستقرار. وفيه نفي للآلهة السماويّة والأرضيّة، وتخصيصٌ لاستحقاق الإلهيّة به تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ كالدليل على ما قبله.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ إمّا على الدوام كالهواء، أو في بعض الأوقات كالطير. ﴿وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: العلمُ بالساعة التي فيها

---

١ الأنعام، ٦/٣.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن عمر وابن مسعود وأبيّ رضي الله عنهم وابن يَعمر ونصر بن عاصم واليماني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٢٩.

[٧٣ظ] تقوم القيامة، ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للجزاء. والالتفات للتهديد. / وقُرئ على الغيبة.[١] وقُرئ: "تُحْشَرُونَ" بـ"التاء".[٢]

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾

﴿وَلَا يَمۡلِكُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: يدعونه، وقُرئ بـ"التاء" مخفّفًا[٣] ومشدّدًا[٤] ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما يزعمون ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الّذي هو التوحيد، ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ بما يشهدون به عن بصيرة وإيقان وإخلاص. وجمع الضمير باعتبار معنى ﴿مَن﴾، كما أنّ الإفراد أوّلًا باعتبار لفظها. والاستثناء إِمّا متّصل والموصولُ عامّ لكلّ ما يُعبَدُ مِن دون الله، أو منفصل على أنّه خاصّ بالأصنام.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ۝٨٧﴾

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ﴾ أي: سألتَ العابدين والمعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِتعذُّر الإنكار لغاية بطلانه، ﴿فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ فكيف يُصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكَون الكلّ مخلوقًا له تعالى؟

﴿وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٨٨﴾

﴿وَقِيلِهِۦ﴾ بالجرّ، إِمّا على أنّه عطف على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[٥] أي: عنده علمُ الساعة وعلمُ قولِه عليه السلام: ﴿يَٰرَبِّ﴾... إلخ، فإنّ "القَول" و"القِيل" و"القال" كلّها مصادر، أو على أنّ "الواو" للقسَم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ جوابُه. وفي الإقسام به مِن رَفعِ شأنه عليه السلام وتفخيمِ دعائه والتجائه إليه تعالى ما لا يخفى.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرهسم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٢ قراءة شاذّة، مرويّة عن طلحة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٣ قراءة شاذّة، مرويّة عن السلمي وابن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأسود بن يزيد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠؛ اللباب لابن عادل، ٣٠١/١٧.

٥ الزخرف، ٨٥/٤٣.

وقُرئ بالنصب[١] بالعطف على ﴿سِرَّهُمْ﴾،[٢] أو على محلّ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾،[٣] أو بإضمار فعله، أو بتقدير فعل القسَم. وقُرئ بالرفع[٤] على الابتداء، والخبرُ ما بعده. وقد جُوّز عطفه على ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.[٥]

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۝٨٩﴾

﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرِض عن دَعوتهم وَاقْنَطْ عن إيمانهم، ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ أي: أمري تَسَلّمٌ منكم ومُتارَكة. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ حالَهم البتّةَ وإن تأخّر ذلك. وهو وعيد مِن الله تعالى لهم، وتسليةٌ لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وقُرئ: "تَعْلَمُونَ"[٦] على أنّه داخل في حيّز ﴿قُلْ﴾.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له يوم القيامة: "يا عبادِ، لا خوف عليكم اليوم[٧] ولا أنتم تحزنون، ادخلوا الجنّة بغير حساب"».[٨]

---

[١] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢.

[٢] الزخرف، ٨٠/٤٣.

[٣] الزخرف، ٨٥/٤٣.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج وقتادة ومجاهد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٣٠.

[٥] الزخرف، ٨٥/٤٣.

[٦] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٣٧٠/٢.

[٧] س - اليوم.

[٨] الكشف والبيان للثعلبي، ٣٢٧/٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦٣/٤. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سورة الزخرف

مكية كما رُوي عن ابن عباس، وحكى ابنُ عطية[1] إجماعَ أهل العلم على ذلك ولم يَنقل استثناءً، وقال مقاتل: إلا قوله تعالى: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ [الآية: ٤٥] فإنها نزلت ببيت المقدس. كذا في «مجمع البيان»[2]، وفي «الإتقان»[3]: قيل: نزلت بالسماء، وقيل: بالمدينة.

وعدد آيها ثمان وثمانون في الشامي، وتسع وثمانون في غيره. ووجه مناسبة مُفتتحها لمختتم ما قبلها ظاهرٌ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١﴾ الكلامُ فيه على نحو ما مرَّ في مُفتتح (يسٓ).

﴿وَٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن، والمرادُ به جميعُه، وجوّز إرادة جنسه الصادقِ ببعضه وكلِّه، وقيل: يجوز أن يُراد به جنسُ الكتب المُنزلة، أو المكتوبُ في اللوح، أو المعنى المصدريُّ، وهو الكتابة والخَطّ؛ وأَقسم سبحانه بها لِمَا فيها من عظيم المنافع، ولا يخفى ما في ذلك.

والأولى على تقدير اسمية «حم» كونُه اسماً للقرآن، وأن يُراد ذلك أيضاً بالكتاب، وهو مُقسم به، إما ابتداءً أو عطفاً على «حم» على تقدير كونه مجروراً بإضمار باء القَسَم على أن مدارَ العطف المُغايرة في العنوان، لكن يلزم على هذا

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٤٥.

(٢) ٢٥/ ٦٨.

(٣) ١/ ٥٠ و٢١٥.

حذفُ حرف الجرِّ وإبقاء عمله كما في:

أشـارَتْ كـلـيـبٍ بـالأكُـفِّ الأصـابـعُ[(١)]

ومَنْعُ أن يُقسَم بشيئين بحرف واحد لا يُلتفت إليه، ومناط تكرير القسم المبالغةُ في تأكيدِ الجملة القسمية.

﴿الْمُبِينِ ۝﴾ أي: المبين لمن أُنزل عليهم لكونه بِلُغتهم وعلى أساليب كلامهم، على أنه من أبان اللازم، أو المُبين لِطريق الهُدى من طريق الضلالة المُوضح لأصول ما يحتاج إليه في أبواب الدِّيانة على أنه من أبان المُتعدِّي.

﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ جوابٌ للقَسَم، والجَعْل بمعنى التصيير المُعدَّى لمفعولين، لا بمعنى الخَلْق المُعدَّى لواحد، لا لأنه يُنافي تعظيم القرآن،بل لأنه يأباه ذوقُ المقام المُتكلَّم فيه؛ لأن الكلام لم يُسق[(٢)] لتأكيد كونه مخلوقاً، وما كان إنكارهم متوجهاً عليه، بل هو مسوقٌ لإثباتِ كونه قرآناً عربياً مُفصَّلاً وارداً على أساليبهم، لا يَعْسُر عليهم فهمُ ما فيه، ودَرْكُ كونه مُعجزاً كما يُؤذن به قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ أي: لكي تفهموه وتُحيطوا بما فيه من النظر الرائق، والمعنى الفائق، وتَقِفوا على ما يتضمَّنه من الشواهد الناطقة بخروجه عن طوق البشر، وتعرفوا حقَّ النعمة في ذلك، وتنقطع أعذارُكم بالكُلية، والقَسَمُ بالقرآن على ذلك من الأيمان الحسنة البديعة لِمَا فيه من رعاية المناسبة والتنبيه على أنه لا شيء أعلى منه فيُقسَم به، ولا أهمّ من وَصْفه فيُقسَم عليه كما قال أبو تمام:

وثـنـايـاكِ إنـهـا إغـريـضُ ولآلٍ تـومٌ[(٣)] وبـرقٌ ومـيـضُ[(٤)]

بناء على أنَّ جوابَ القَسَم قولُه: إنها إغريض.

واسْتُدِلَّ بالآيةِ على أن القرآنَ مخلوقٌ، وأطالوا الكلامَ في ذلك، وأُجيب بأنه إن

---

(١) قائله الفرزدق، وهو في ديوانه ١/ ٤٢٠، وصدره: إذا قيل أيّ الناس شرٌّ قبيلة. وسلف ٧/ ٤٦١.

(٢) في (م): يسبق.

(٣) في (م): قوم.

(٤) ديوان أبي تمام (بشرح التبريزي) ٢/ ٢٨٧. قال شارحه: الإغريض: الطَّلع، وقيل: إن البَرَدَ يُسمَّى إغريضاً. ويقال للؤلؤة العظيمة: تؤمة، والجمع تُؤَم.

دلَّ على المخلوقية فلا يدلُّ على أكثر من مخلوقية الكلام اللفظي، ولا نزاع فيها.

وأنت تعلم أنَّ الحنابلةَ يُنازعون في ذلك، ولهم عن الاستدلال أجوبةٌ مذكورة في كُتبهم. وأخرج ابنُ مردويه عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى ابن عباس مِن حضرموت فقال له: يا ابنَ عباس، أخبرني عن القرآن أكلامٌ من كلام الله تعالى أم خلقٌ من خَلْق الله سبحانه؟ قال: بل كلامٌ من كلام الله تعالى، أوَ ما سمعتَ الله سبحانه يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فقال له الرجل: أفرأيتَ قولَه تعالى: (إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا) قال: كتبه الله تعالى في اللوح المحفوظ بالعربية، أما سمعتَ الله تعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢١-٢٢][1]. فتأمل فيه.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ، على ما ذهب إليه جمعٌ، فإنه أمُّ الكتب السماوية، أي: أصلُها، لأنها كلَّها منقولةٌ منه، وقيل: «أم الكتاب»: العلم الأزليُّ. وقيل: الآيات المُحكمات، والضمير لـ «حم» أو للكتاب بمعنى السورة، أي: إنها واقعةٌ في الآيات المُحكمات التي هي الأُمّ. وهو كما ترى.

وقرأ الأَخَوان: «إِمِّ» بكسر الهمزة لإتباع الميم، أو «الكتاب» فلا تكسر في عدم الوصل[2].

﴿لَدَيْنَا﴾ أي: عندنا ﴿لَعَلِىٌّ﴾ رفيع الشأن بين الكُتب، لإعجازه واشتماله على عظيم الأسرار ﴿حَكِيمٌ ﴿٤﴾﴾ ذو حِكمة بالغة، أو مُحْكَم لا ينسخه غيرُه، أو حاكم على غيره من الكتب، وهما خبران لـ «إنَّ». و«في أم الكتاب» قيل: متعلق بـ «عَلِيّ» واللام لمَّا فارقَتْ محلَّها وتغيَّرت عن أصلها بطلَتْ صدارتها فجاز تقديمُ ما في حَيِّزها عليها، أو حالٌ منه لأنه صفةُ نكرةٍ تقدَّمَتْها، أو من ضميره المُستتر و«لدينا» بدل من «أم الكتاب» وهما وإن كانا مُتغايرين بالنظر إلى المعنى متوافقان بالنظر إلى الحاصل، أو حالٌ منه، أو من «الكتاب»، فإن المضافَ في حكم الجزء لصحة سُقوطه. ولعلَّ المختارَ كونُ الظرفين في موضع الخبر لمبتدأ محذوف، والجملة

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور ٦/ ١٣.
(٢) التيسير ص٩٤، والنشر ٢/ ٢٤٨.

مستأنفةٌ لبيان محلِّ الحُكم، كأنه قيل بعد بيان اتِّصافه بما ذكر من الوصفين الجليلين: هذا في أُمِّ الكتاب ولدينا، ولم يُجوِّزوا كونهما في موضع الخبر لـ «إنَّ»؛ لدخول اللام في غيرهما.

وأيَّاما كان فالجملة المؤكَّدة إما عطفٌ على الجملة المُقْسَم عليها داخلةٌ في حُكمها، وإما مستأنفةٌ مُقرِّرة لِعلوِّ شأن القرآن الذي أنبأ [عنه][1] الإقسامُ به على منهاج الاعتراض في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ [الواقعة: ٧٦].

وبعد ما بيَّن سبحانه عُلوَّ شأن القرآن العظيم وحقَّق جل وعلا أنَّ إنزاله على لغتهم لِيعقلوه ويُؤمنوا به ويعملوا بموجبه، عقَّبَ سبحانه ذلك بإنكار أن يكون الأمر بخلافه، فقال جل شأنه: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ﴾ أي: أَفنُنحِّيه ونُبعِدُه عنكم، على سبيل الاستعارة التمثيلية، من قولهم: ضرب الغرائب عن الحوض. شبّه حال الذِّكر وتَنْحيتهِ بحال غرائب الإبل وذَوْدِها عن الحوض إذا دخلَتْ مع غيرها عند الورد، ثم استعمل ما كان في تلك القصة هاهنا، وفيه إشعارٌ باقتضاء الحِكمة توجُّهَ الذِّكر إليهم وملازمته لهم كأنه يتهافَتُ عليهم، ولو جعل استعارةً في المفرد بجعل التنحية ضرباً جاز، ومن ذلك قول طَرَفة:

اِضْرِبَ عنك الهمومَ طارقَها ضَرْبَك بالسيف قَوْنسَ الفرس[2]

وقول الحجَّاج في خطبته يُهدِّد أهلَ العراق: لأَضْرِبَنَّكم ضربَ غرائب الإبل.

و«الذِّكر» قيل: المراد به القرآن، ورُوي ذلك عن الضحاك وأبي صالح، والكلام على تقدير مضاف، أي: إنزال الذِّكر، وفيه إقامة الظاهر مُقامَ المُضمَر تفخيماً. وقيل: بل هو ذكر العِباد بما فيه صلاحُهم، فهو بمعنى المصدر حقيقة، وعن ابن عباس ومجاهد ما يقتضيه.

والهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف يقتضيه على أحد الرأيين في مثل هذا التركيب، أي: أَنُهملكم فَننحّي الذِّكر عنكم.

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٣٩، والكلام منه.
(٢) ليس في ديوان طرفة، وهو في الخصائص ١/ ١٢٦، والخزانة ١١/ ٤٥٠.

وقال ابنُ الحاجب[1]: الفاء لبيان أن ما قبلَها ـ وهو جعلُ القرآن عربيّاً ـ سببٌ لِمَا بعدها، وهو إنكارُ أن يَضْرِبَ سبحانه الذِّكر عنهم.

﴿صَفْحًا﴾ أي: إعراضاً، وهو مصدر لِنَضْرِب من غير لفظه، فإنَّ تنحيةَ الذِّكر إعراضٌ، فنصبه على أنه مفعول مطلق على نهج: قعدتُ جلوساً، كأنه قيل: أفنصفح عنكم صفحاً. أو هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ له، أو حال مُؤَوَّل بصافحين بمعنى مُعرضين، وأصلُ الصَّفح أن تُولِّي الشيءَ صفحَةَ عنقك. وقيل: إنه بمعنى الجانب، فينتصب على الظرفية، أي: أفننحّيه عنكم جانباً، ويُؤيِّده قراءةُ حسان بن عبد الرحمن الضُّبَعي والسُّميط بن عُمير وشُبيل بن عَزْرة: «صُفْحاً» بضمِّ الصاد[2]، وحينئذ يحتمل أن يكون تخفيفَ صُفُح ـ كـ: رُسُل ـ جمع صَفوح بمعنى صافحين، وأبو حيان اختار أن يكون مفرداً بمعنى المفتوح كالسُّد والسَّد، وحكى عن ابن عطية أن انتصابَ «صفحاً» على أنه مصدر مؤكِّد لمضمون الجملة السابقة، فيكون العامل فيه محذوفاً. ولا يخفى أنه لا يظهر ذلك[3]. وأيًّا ما كان فالمرادُ إنكار أن يكون الأمرُ خلافَ ما ذُكر من إنزال كتاب على لُغتهم لِيفهموه.

﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾ أي: لأَنْ كنتم منهمكين في الإسراف مُصرِّين عليه، على معنى أنَّ الحِكمةَ تقتضي ذكركم وإنزال القرآن عليكم، فلا نترك ذلك لأجل أنكم مُسرفون لا تلتفتون إليه، بل نفعل، الْتَفَتُّم أَمْ لا.

وقيل: هو على معنى: إنَّ حالكم وإن اقتضى تَخْليتكم وشأنكم حتى تموتوا على الكُفر والضلالة وتبقوا في العذاب الخالد لكنَّنا لِسَعَة رحمتنا لا نفعل ذلك، بل نَهديكم إلى الحقِّ بإرسال الرسول الأمين وإنزال الكتاب المبين.

---

(١) كما في حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٣.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٤، والبحر المحيط ٨/ ٦. وحسان بن عبد الرحمن الضُّبَعي تابعي، قدم أصبهان مع أبي موسى ﷺ، قال البخاري: حديثه مرسل. طبقات المحدثين بأصبهان ١/ ٣٢٠، والإصابة ٣/ ٣٨، والسُّميط بن عُمير، ويقال: ابن سُمير، السدوسي، البصري، أبو عبد الله من الطبقة الثالثة. صدوق. وشُبيل بن عَزْرة الضبعي، أبو عمرو البصري النحوي، صدوق يهم. من الطبقة الخامسة. قاله ابن حجر في تقريب التهذيب.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٦، وكلام ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٤٦.

وقرأ نافع والأخوان: «إن كنتم» بكسر الهمزة[١] على أن الجملة شرطية، و«إنْ» وإن كانت تُستعمل للمشكوك وإسرافُهم أمرٌ مُحقَّق لكن جيء بها هنا بناءً على جعل المُخاطب كأنه مُتردِّد في ثُبوت الشرط شاكٌّ فيه قصداً إلى نسبته إلى الجهل بارتكابه الإسراف لتصويره بصورة ما يُفرض لوجوب انتفائه وعدم صدوره ممن يعقِلُ.

وقيل: لا حاجةَ إلى هذا؛ لأن الشرط الإسراف في المستقبل، وهو ليس بمتحقِّق.

ورُدَّ بأنَّ «إنْ» الداخلة على «كان» لا تقلبه للاستقبال عند الأكثر، ولذا قيل: «إن» هنا بمعنى «إذْ»، وأيِّد بأنَّ عليَّ بن زيد قرأ به[٢]، وأنه يدلُّ على التعليل فتوافقُ قراءةَ الفتح معنى، ولو سُلِّم فالظاهر من حال المُسرف المُصِرِّ على إسرافه بقاؤه على ما هو عليه، فيكون محقَّقاً في المستقبل أيضاً على القول بأنها تقلبُ «كان» كغيرها من الأفعال.

وجواب الشرط محذوف ثقةً بدلالة ما قبلُ عليه. وجوّز أن يكون الشرط في موقع الحال، أي: مفروضاً إسرافكم، على أنه من الكلام المُنصف، فلا يحتاج إلى تقدير جواب. وتعقِّب بأنه إنما يتأتّى على القول بأنَّ «إنْ» الوصلية تَرِدُ في كلامهم بدون الواو، والمعروفُ في العربية خلافُه.

وقوله عز وجل: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾ تقريرٌ لما قبلَه ببيان أنَّ إسرافَ الأُمم السالفة لم يمنعه تعالى من إرسال الأنبياء إليهم، وتسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومه به عليه الصلاة والسلام، فقد قيل: البَلِيَّةُ إذا عَمَّت طابَتْ.

و«كم» مفعولُ «أرسلنا»، و«في الأولين» مُتعلِّق به، أو صفة «نبي»، و«ما يأتيهم» إلخ للاستمرار، وضميره لـ «الأولين».

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ نوعُ آخرُ من التسلية له ﷺ، وضمير «منهم» يرجِعُ إلى المسرفين المُخاطَبين لا إلى ما يرجِعُ إليه ضمير «ما يأتيهم»؛

(١) التيسير ص١٩٥، والنشر ٢/٣٦٨، وقرأ بها من العشرة أبو جعفر وخلف.
(٢) البحر ٨/٦.

لقوله تعالى: ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝٨﴾ أي: سلف في القرآن غيرَ مرَّة ذِكْرُ قصتهم التي حقُّها أنْ تسيرَ مسيرَ المَثَل، ونصب «بطشاً» على التمييز، وجُوِّز كونه على الحال من فاعل «أهلكنا» أي: باطشين، والأول أحسنُ، ووصف أولئك بالأشدِّيَّة لإثبات حُكمهم لهؤلاء بطريق الأولويَّة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ۝٩﴾ عطفٌ على الخطاب السابق، والآيتان ـ أعني قوله تعالى: «وكم أرسلنا» ـ اعتراضٌ لإفادة التقرير والتسلية كما سمعت. والمرادُ: ولئن سألتهم مَنْ خلقَ العالمَ لَيُسْنِدُنَّ خَلْقَه إلى من هو مُتَّصفٌ بهذه الصفات في نفس الأمر، لا أنهم يقولون هذه الألفاظَ ويصفونه تعالى بما ذكر من الصفات، ذكره الزمخشري[1] فيما نُسب إليه، وهذا حسن، وله نظيرٌ عرفاً، وهو أنَّ واحداً لو أخبرك أن الشيخ قال كذا، وعنى بالشيخ شمسَ الأئمة، ثم لقيت شمسَ الأئمة فقلت: إنَّ فلاناً أخبرني أنَّ شمسَ الأئمة قال كذا، مع أنَّ فلاناً لم يَجرِ على لسانه إلا الشيخ، ولكنك تذكُر ألقابه وأوصافه، فكذا هاهنا الكفار يقولون: خلقهنَّ الله، لا يُنكرون، ثم إن الله عز وجل ذكر صفاته أي: إن الله تعالى الذي يُحيلون عليه خَلْقَ السماوات والأرض من صفته سبحانه كيتَ وكيتَ.

وقال ابن المُنَيِّر: إن «العزيز العليم» من كلام المسؤولين، وما بعدُ من كلامه سبحانه[2].

وفي «الكشف»: لا فرق بين ذلك الوجه وهذا في الحاصل، فإنه حكايةُ كلامٍ عنهم متصلٍ به كلامه تعالى على أنه من تتمته وإن لم يكن قد تفوَّهوا به، وهذا كما يقول مُخاطبك: أكرمني زيدٌ، فتقول: الذي أكرمك وحيَّاك، أو لجماعة آخرين حاضرين: الذي أكرمكم وحيَّاكم، فإنك تصلُ كلامَك بكلامه على أنه من تتمته، ولكن لا تجعله من مَقُوله، والأظهر من حيث اللفظُ ما ذكره ابنُ المُنَيِّر، وحينئذ يقع الالتفات في «فأنشرنا» بعدُ موقعه، ونظير ذلك قولُه تعالى حكايةً عن موسى عليه

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٩.
(٢) الانتصاف (حاشية الكشاف) ٣/ ٤٧٩.

السلام: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾ [طه: ٥٢-٥٣].

وفي إعادة الفعل في الجواب اعتناءٌ بشأنه ومطابقته للسؤال من حيث المعنى ـ على ما زعم أبو حيان ـ لا من حيث اللفظ، قال: لأن «مَنْ» مبتدأ، فلو طابق في اللفظ لكان بالاسم مبتدأ دون الفعل، بأن يقال: العزيز العليم خلقهنَّ(١).

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مِهَادًا﴾ مكاناً مُمهَّداً، أي: مُوَطَّأً، ومآله: بَسَطها لكم تستقِرُّون فيها، ولا يُنافي ذلك كُرِيَّتها لمكان العِظَم.

وعن عاصم أنه قرأ: «مَهْداً» بدون ألف(٢).

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ طُرقاً تسلُكونها في أسفاركم ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ أي: لكي تهتدوا بسلوكها إلى مقاصدكم، أو بالتفكُّر فيها إلى التوحيد الذي هو المقصدُ الأصلي.

﴿وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدار تقتضيه المشيئةُ المَبْنيَّة على الحِكَم والمصالح، ولا يعلم مِقدار ما ينزلُ من ذلك في كلِّ سنة على التحقيق إلا الله عز وجل، والآلة التي صنعها الفلاسفةُ في هذه الأعصار المسماة بالأودوميتر يزعُمون أنه يُعرَفُ بها مِقدارُ المطر النازل في كلِّ بلد من البلاد في جميع السنة لا تُفيد تحقيقاً في البقعة الواحدة الصغيرة فضلاً عن غيرها كما لا يخفى على المُنصِف.

وفي «البحر» «بقدر»: أي: بقضاءٍ وحَتْم في الأزل(٣). والأولُ أَولى.

﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ﴾ أي: أحيينا بذلك الماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ خاليةً عن النَّماء والنبات بالكُلِّية. وقرأ أبو جعفر وعيسى: «ميِّتاً» بالتشديد(٤). وتذكيرُه لأنَّ البلدةَ في معنى البلد والمكان. قال الجلبي: لا يبعد ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكونَ تأنيثُ البلد وتذكيرُ «ميتاً»

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٧.
(٢) وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف. التيسير ص١٥١، والنشر ٢/ ٣٢٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٧.
(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٢٢٤، وقراءة عيسى في البحر المحيط ٨/ ٧.

إشارةً إلى بلوغ ضَعْفِ حاله الغايةَ، وفي الكلام استعارةٌ مَكنية أو تصريحية. والالتفات في «أنشرنا» إلى نون العظمة لإظهار كمالِ العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثلَ ذلك الإنشار الذي هو في الحقيقة إخراجُ النبات من الأرض، وهو صفةُ مصدر محذوف، أي: إنشاراً كذلك ﴿تُخْرَجُونَ ⑪﴾ أي: تُبعثون من قبوركم أَحياء. وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشار الذي هو إحياءُ الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج، تفخيمٌ لشأن الإنبات وتهوينٌ لأمر البعث، وفي ذلك من الردِّ على مُنكريه ما فيه.

وقرأ ابنُ وثاب وعبد الله بن جُبير وعيسى وابنُ عامر والأخوان: «تَخرُجون» مبنياً للفاعل[1].

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أي: أصناف المخلوقات، فالزوج هنا بمعنى الصِّنف لا بمعناه المشهور، وعن ابن عباس: الأزواج: الضروبُ والأنواعُ كالحلو والحامض، والأبيض والأسود، والذكر والأُنثى.

وقيل: كلُّ ما سوى الله سبحانه زوجٌ؛ لأنه لا يخلو من المُقابل كـ: فوق وتحت، ويمين وشمال، وماضٍ ومستقبل، إلى غير ذلك، والفردُ المُنزَّه عن المُقابل هو الله عز وجل. وتُعقِّب بأنَّ دعوى اطِّراده في الموجودات بأسرها لا تخلو عن النظر.

ولعلَّ من قال: كلُّ ما سوى الله سبحانه زوجٌ لم يَبْنِ الأمر على ما ذكر، وإنما بناه على أن الواجبَ جل شأنه واحدٌ من جميع الجِهات لا تركيب فيه سبحانه بوجه من الوجوه لا عقلاً ولا خارجاً، ولا كذلك شيء من المُمكنات ماديةً كانت أو مجردةً.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ⑫﴾ أي: ما تركبونه، فـ «ما» موصولة والعائد محذوف، والركوبُ بالنظر إلى الفلك يتعدَّى بواسطة الحرف، وهو «في» كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: ٦٥] بخلافه لا بالنظر إليه، فإنه يتعدَّى بنفسه كما قال سبحانه: ﴿لِتَرْكَبُوهَا﴾ [النحل: ٨] إلا أنهُ غلَّب المتعدِّي بغير

(١) قراءة ابن عامر (في رواية ابن ذكوان) والأخوين (حمزة والكسائي) في التيسير ص١٠٩، والنشر ٢/ ٢٦٧، وقراءة ابن وثاب وابن جبير وعيسى في البحر ٨/ ٧.

واسطة لِقُوَّته على المُتعدِّي بواسطة، فالتجوُّز الذي يقتضيه التغليبُ بالنسبة إلى المتعلق. أو غُلِّب المخلوق للركوب على المصنوع له لكونه مصنوعَ الخالق القدير، أو الغالب على النادر، فالتجوُّز في «ما» وضميرِه الذي تعدَّى الركوبُ إليه بنفسه دون النسبة إلى المفعول، ولتغليب ما رُكِبَ من الحيوان على الفُلك.

﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ حيث عبّر عن القرار على الجميع بالاستواء على الظُّهور المخصوصِ بالدوابّ، والضمير لـ «ما تركبون» وأُفرد رعايةً للفظ، وجمع ظُهور مع إضافته إليه رعايةً لمعناه. والظاهر أن لام «لتستووا» لام كي. وقال الحوفي[1]: مَنْ أثبتَ لامَ الصيرورة جاز له أن يقول به هنا.

وقال ابن عطية: هي لامُ الأمر[2]. وفيه بُعدٌ من حيث استعماله أمر المخاطب بتاء الخطاب، وقد اختُلف في أمره فقيل: إنه لغةٌ رديئةٌ قليلة لا تكادُ تُحفظ إلا في قراءة شاذَّة نحو: «فبذلك فلتفرحوا»[3] [يونس: ٥٨] أو شعرٍ نحو قوله:

لِتَقُمْ أنتَ يا ابنَ خيرِ قُريشٍ[4]

وما ذكره المُحدِّثون من قوله عليه الصلاة والسلام: «لتَأْخذوا مَصَافَّكم»[5] يحتمل أنه من المَرويّ بالمعنى. وقال الزجاج: إنها لغةٌ جيِّدة[6]. وأبو حيان على الأول، وحكاه عن جمهور النحويين[7].

---

(١) كما في البحر المحيط ٨/ ٧.

(٢) المحرر الوجيز ٥/ ٤٧.

(٣) القراءات الشاذة ص٥٧.

(٤) البيت لا يعرف قائله، وهو في الإنصاف ٢/ ٥٢٥، والخزانة ٩/ ١٤، وعجزه: فلْتُقَضِّي حوائج المسلمينا. والياء في «فلتقضي» لإشباع الكسرة كما ذكر البغدادي.

(٥) أورده بهذا اللفظ الفراء في معاني القرآن ١/ ٤٧٠، وهو قطعة من حديث معاذ ﷺ أخرجه أحمد (٢٢١٠٩)، والترمذي (٣٢٣٥) لكن بلفظ: «على مَصَافِّكم» وعليه لا شاهد فيه.

(٦) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٧، ولم نقف عليه للزجاج، ولعل الصواب: الزجاجي، فقد ذكره السمين في الدر المصون ٩/ ٥٧٦ عن أبي القاسم الزجاجي، وفي كتاب اللامات للزجاجي ص٨٨: وربما أُدخلت اللام في هذا الفعل أيضاً توكيداً فقيل: لتذهب يا زيد. اهـ. وليس فيه أنها لغة جيدة.

(٧) البحر المحيط ٨/ ٧.

﴿ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ أي: تذكروها بقلوبكم مُعترفين بها مُستعظِمين لها، ثم تَحمَدوا عليها بألسنتكم، وهذا هو معنى ذِكْر نعمة الله تعالى عليهم على ما قال الزمخشري[1]، وحاصلُه أن الذِّكر يتضمَّن شعورَ القلب والمرور على اللسان، فنزل على أكمل أحواله، وهو أن يكونَ ذكراً باللسان مع شعور من القلب، وأما الاعترافُ والاستعظامُ فمِن نعمة ربِّكم لاقتضائه الإحضار في القلب لذلك، وهذا عَيْنُ الحمد الذي هو شُكرٌ في هذا المقام، لا أنه يُوجبه وإنْ كان ذلك التقرير سديداً أيضاً. ومنه يظهر إيثارهُ على: ثم تَحمدوا إذا استويتم، ومَن جوَّز استعمالَ المشترَك في معنييه جوَّز هنا أن يُراد بالذِّكر الذِّكرَ القلبي والذِّكر اللساني، وهو كما ترى.

ولمَّا كانت تلك النعمةُ مُتضمِّنةً لأمرٍ عجيب قال سبحانه: ﴿وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾ أي: وتقولوا: سبحان الذي ذلَّله وجعله مُنقاداً لنا، متعجِّبين من ذلك، وليس الإشارة للتحقير بل لتصوير الحال، وفيها مَزيدُ تقريرٍ لمعنى التعجُّب، والكلامُ وإن كان إخباراً على ما سمعت أولاً يُشعر بالطلب.

أخرج عبد بن حُميد وابن جرير وابن المنذر عن أبي مِجلز قال: رأى الحسينُ بن علي رضي الله عنهما وكرم وجههما رجلاً رَكِبَ دابَّةً فقال: سبحان الذي سخَّر لنا هذا، فقال: أَوَبذلك أُمِرْتَ؟ فقال: فكيف أقول؟ قال: الحمدُ لله الذي هدانا للإسلام، الحمدُ لله الذي مَنَّ علينا بمحمد ﷺ، الحمدُ لله الذي جعلني في خير أُمَّة أُخرِجت للناس، ثم تقول: «سبحان الذي سخَّر لنا هذا» إلى «مُقرِنين»[2]، وهذا يومئ إلى أنْ ليس المرادُ من النعمة نعمةَ التسخير.

وأخرج ابن المنذر عن شهر بن حوشب أنه فسرها بنعمة الإسلام[3].

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذيُّ ـ وصحَّحه ـ والنسائيُّ وجماعةٌ عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه أنه أُتي بدابَّة، فلما وَضَع رِجْلَه في الرِّكاب قال: بسم الله،

(١) الكشاف ٣/ ٤٧٩.
(٢) الدر المنثور ٦/ ١٤، وهو عند الطبري ٢٠/ ٥٥٨، وفيه: الحسن بن علي، بدل: الحسين.
(٣) الدر المنثور ٦/ ١٤.

فلما استوى على ظَهْرِها قال: الحمدُ للهِ ـ ثلاثاً ـ والله أكبر ـ ثلاثاً ـ (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا) إلى (لَمُنقَلِبُونَ)، سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمتُ نفسي فاغفِرْ لي ذنوبي، إنّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت. ثم ضَحِكَ، فقيل له: مِمَّ ضَحِكْتَ يا أمير المؤمنين؟ قال: رأيتُ رسولَ الله ﷺ فعلَ كما فعلتُ، ثم ضَحِكَ، فقلت: يا رسولَ الله، مم ضَحِكْتَ؟ فقال: «يتعجَّب الربُّ من عبده إذا قال: ربِّ اغفِرْ لي، ويقول: عَلِمَ عبدي أنه لا يغفرُ الذنوبَ غيري»[(١)].

وفي حديثٍ أخرجه مسلم والترمذي وأبو داود والدارميُّ عن ابن عمر أن رسول ﷺ كان إذا استوى على بعيره خارجاً إلى سفر حَمِدَ الله تعالى، وسبَّح وكبَّر ثلاثاً، ثم قال: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا) إلى (لَمُنقَلِبُونَ)[(٢)].

وفي حديث أخرجه أحمد وغيره عن رسول الله ﷺ قال: «ما من بعيرٍ إلا في ذروته شيطان، فاذكروا اسمَ الله تعالى إذا رَكِبتموه كما أمركم»[(٣)].

وظاهر النظم الجليل أنَّ تذكُّر النعمة والقولَ المذكورَ لا يخصَّان ركوب الأنعام، بل يَعُمَّانها والفُلكَ. وذكر بعضُهم أنه يقال إذا رُكِبت السفينة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرِىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ إلى ﴿رَّحِيمٌ﴾ [هود:٤١] ويقال عند النُّزول منها: اللهم أَنْزِلْنا منْزلاً مُباركاً، وأنت خيرُ المُنزلين.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ أي: مُطِيقين، وأنشد قُطْرب لعمرو بن مَعْدِي كرب:

لقد عَلِمَ القبائلُ ما عُقَيلٌ ... لنا في النائباتِ بِمُقْرِنينا[(٤)]

وهو من أَقْرَنَ الشيء: إذا أَطاقه، قال ابن هَرْمَة:

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٤، ومسند أحمد (٧٥٣) و(٩٣٠) و(١٠٥٦)، وسنن أبي داود (٢٦٠٢)، وسنن الترمذي (٣٤٤٦)، وسنن النسائي الكبرى (٨٧٤٨).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤٢)، وسنن الترمذي (٣٤٤٧)، وسنن أبي داود (٢٥٩٩)، وسنن الدارمي(٢٧١٥) وفيها أنه ﷺ يُكبِّر ثلاثاً ثم يقول: «سبحان الذي سخَّر لنا...» وليس فيها أنه يحمد الله ويسبِّحه.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٤، ومسند أحمد (١٧٩٣٩)، وهو من حديث أبي لاسٍ الخزاعي ﷺ.

(٤) البيت في تفسير القرطبي ١٩/ ١٣، والبحر المحيط ٨/ ٧.

وأقرنتُ ما حمّلتِني ولقلّما يُطاقُ احتمالُ الصَّدِّ يا دعدُ والهَجْرِ[1]

وحقيقةُ أَقرنه: وَجَدَه قَرِينَتَهُ وما يُقرن به؛ لأن الصَّعب لا يكون قرينةً للضعيف، ألا ترى إلى قولهم في الضعيف: لا تُقْرَنُ به الصَّعْبةُ[2]. والقَرَن الحَبْل الذي يُقْرَنُ به، قال الشاعر:

وابنُ اللَّبون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطع صولةَ البُزْل القناعيس[3]

وحاصلُ المعنى: أنه ليس لنا من القوة ما يضبطُ به الدابَّة والفلك، وإنما الله تعالى هو الذي سخَّر ذلك وضبطه لنا.

أخرج عبد بن حُميد وابن المنذر عن سليمان بن يسار أن قوماً كانوا في سفر، فكانوا إذا رَكِبوا قالوا: (سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ)، وكان فيهم رجلٌ له ناقةٌ رازم[4]، فقال: أمَّا أنا فَلِهذه مُقْرِن، فقمصَتْ[5] به فصرعَتْه، فاندقَّت عُنقه.

وقرئ: «مُقرِّنين» بتشديد الراء مع فتحها وكَسْرها[6]، وهما بمعنى المُخفَّف.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ أي: راجعون، وفيه إيذانٌ بأنَّ حقَّ الراكب أن يتأمَّل فيما يُلابسه من السير، ويتذكَّر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلابُ إلى الله تعالى، فيبني أُمورَه في مسيره ذلك على تلك الملاحظة، ولا يأتي بما يُنافيها. ومن ضرورة ذلك أن يكون ركوبُه لأمرٍ مشروع. وفيه إشارةٌ إلى أن الركوبَ مَخْطرةٌ، فلا ينبغي أن يُغْفَلَ فيه عن تذكُّر الآخرة.

---

(١) البيت في الكشاف ٣/ ٤٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٧.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٨٠. ويقال لمن تُراض به صعاب الأمور وتذل بتدبيره: بفلان تُقرن الصعبة. والصعبة: هي الناقة التي لم تركب ولم يطمثها حبل. ينظر المستقصى ٢/ ٣٢٠، وفصل المقال للبكري ص١٣٢-١٣٣.

(٣) البيت لجرير، وهو في ديوانه بشرح محمد بن حبيب ١/ ١٢٨، وسلف ١/ ٢١٤. قال شارح الديوان: ابن اللبون: لثلاث سنين. والقناعيس: الشداد.

(٤) في الأصل و(م): رزام، والمثبت من الدر المنثور ٦/ ١٤، واللسان (رزم) والخبر فيهما، والرازم من الإبل: الثابت على الأرض الذي لا يقوم من الهُزال. كما في اللسان.

(٥) قمص البعير: رفع يديه وطرحهما معاً. القاموس (قمص).

(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٠، وأبو السعود في تفسيره ٨/ ٤١.

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ مُتَّصِلٌ بقوله تعالى: «ولئن سألتهم» إلى آخره، فهو حال من فاعل «ليقولنَّ» بتقدير «قد» أو بدونه. والمرادُ بيانُ أنهم مُناقِضون مُكابِرون حيث اعترفوا بأنه عز وجل خالقُ السماوات والأرض، ثم وصفوه سبحانه بصفات المخلوقين وما يُناقض كونه تعالى خالقاً لهما، فجعلوا له سبحانه جُزءاً، وقالوا: الملائكة بناتُ الله، سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوًّا كبيراً.

وعبّر عن الولد بالجُزء لأنه بضعةٌ ممن هو وَلَدٌ له، كما قيل: أولادنا أكبادنا، وفيه دلالةٌ على مَزيد استحالته على الحقِّ الواحد الذي لا يُضاف إليه انقسامٌ حقيقةً ولا فرضاً، ولا خارجاً ولا ذِهناً، جل شأنه وعلا. ولتأكيدِ أمرِ المُناقضة لم يكتفِ بقوله تعالى: «جزءاً» وقيل: «من عباده» لأنه يلزمهم على مُوجب اعترافهم أن يكونَ ما فيهما مخلوقَه تعالى وعبدَه سبحانه إذ هو حادث بَعدهما مُحتاجٌ إليهما ضرورةً.

وقيل: الجُزء اسمٌ للإناث يقال: أَجْزأَتِ المرأة، إذا ولَدَت أُنثى، وأنشد قول الشاعر:

إنْ أَجزأَتْ حُرَّة يوماً فلا عَجَبٌ ... قد تُجزِئ الحُرَّةُ المِذْكارُ أحياناً[1]

وقوله:

زوجتها من بنات الأوس مجزئة ... للعوسج اللَّدْنِ في أنيابها زَجَلُ[2]

وجعلَ ذلك الزمخشري من بِدع التفاسير، وذكر أنَّ ادِّعاءَ أنَّ الجُزء في لغة العرب اسمٌ للإناث كَذِبٌ عليهم، وَوَضْعٌ مستحدثٌ منحولٌ، وأن البيتين مصنوعان[3]. وقال الزجاج في البيت الأول: لا أدري قديمٌ أم مصنوع[4]. ووجَّه بعضُهم ذلك بأنَّ حواء خُلقت من جُزء آدم عليه السلام فاستُعير لكلِّ الإناث.

---

(١) البيت في معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٠٧، والمحرر الوجيز ٥/ ٤٨، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٦.

(٢) البيت في مجالس ثعلب ص١٤٥، قال ثعلب: يقول: نكحتها مخافةَ أن تلد البنات، فولدت بنات كثيرة ملأت منهن بيته، والعوسج اللَّدْن، كانت العرب يعملون منه المغازل يغزل النساء بها، فيكون لمغازلهنَّ زَجَلٌ.

(٣) الكشاف ٣/ ٤٨١.

(٤) معاني القرآن ٤/ ٤٠٧.

وقرأ أبو بكر عن عاصم: «جُزُؤاً» بضمَّتين[1].

ثم الكلام وإنْ سِيق للفَرْض المذكور يُفهم منه كُفرهم؛ لتجسيم الخالق تعالى والاستخفاف به جل وعلا، حيث جعلوا له سبحانه أخسَّ النوعين، بل إثباتُ ذلك يستدعي الإمكان المُؤذن بحدوثه تعالى فلا يكون إلهاً ولا بارئاً ولا خالقاً، تعالى عمَّا يقولون، وسبحانه عمَّا يَصِفون.

وليس الكلامُ مُساقاً لِتعديد الكُفران كما قيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ لا يقتضيه، فإن المُرادَ المبالغةُ في كُفران النعمة، وهي في إنكار الصانع أشدُّ من المبالغة في كُفرهم به كما أُشير إليه. و«مبين» مِن أَبان اللازم، أي: ظاهرُ الكُفران، وجوّز أن يكون من المتعدّي، أي: مُظهرٌ كُفرانه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ «أَمْ» منقطعة، وما فيها من معنى «بل» للانتقال، والهمزةُ للإنكار والتعجيب من شأنهم، وقوله تعالى: ﴿وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾﴾ إما عطفٌ على «اتَّخذ» داخلٌ في حكم الإنكار والتعجيب، أو حال من فاعله بإضمار «قد» أو بدونه. والالتفاتُ إلى خِطابهم لتشديد الإنكار، أي: بل أتَّخذ سبحانه مِن خَلْقِه أخسَّ الصِّنفين، واختار لكم أفضلَهما، على معنى: هَبُوا أنَّ إضافةَ اتِّخاذ الولد إليه سبحانه جائزةٌ فَرْضاً، أما تفطَّنتم لِمَا ارتكبتم من الشَّطَط في القِسمة وقُبح ما ادَّعيتم من أنه سبحانه آثركم على نَفْسِهِ بخير الجُزأين وأعلاهما، وترك له جل شأنه شرَّهما وأدناهما، فما أنتم إلا في غايةِ الجهل والحَماقة. وتنكيرُ بنات وتعريفُ البنين لِقرينة ما اعتبر فيهما من الحقارة والفخامة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ قيل: حال، وارتضاه العلَّامةُ الثاني، على معنى أنهم نَسبوا إليه تعالى ما ذكروا من حالهم أنَّ أحدَهم إذا بُشِّر به اغتمَّ. وقيل: استئنافٌ مقرِّر لما قبلَه. وجوِّز عطفُه على ما قبلَه، وليس بذاك. والالتفاتُ للإيذان باقتضاء ذِكْر قبائحهم أن يُعرَضَ عنهم وتُحكى لغيرهم تعجيباً.

والجملة الاسمية في موضع الحال، أي: إذا أُخبر أحدُهم بجنس ما جعله مَثَلاً

---

(١) التيسير ص٨٢، والنشر ٢/ ٢١٦.

للرحمن جل شأنه ـ وهو جنسُ الإناث، لأنَّ الولدَ لا بد أن يُجانس الوالد[١] ويُماثله ـ صار وجهه أسودَ في الغايةِ لسوء ما بُشِّرَ به عنده، والحال هو مملوءٌ من الكرب والكآبة.

وعن بعض العرب أنَّ امرأتَه وضعتْ أُنثى، فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزةَ لا يأتينا
يَظَلُّ في البيت الذي يلينا
غضبانَ أنْ لا نَلِدَ البنينا
وليس لنا من أمْرنا ما شينا
وإنما نأخذُ ما أُعطينا[٢]

وقرئ: «مُسْوَدٌّ» بالرفع. و: «مِسْوادٌّ» بصيغة المبالغة ـ من اسوادَّ، كـ: احمارَّ ـ مع الرفع أيضاً[٣] على أنَّ في «ظلَّ» ضميرَ المُبَشَّر، و«وجهه مسودٌّ» أو «مسْوادٌّ» جملة واقعةٌ موقعَ الخبر، والمعنى: صار المُبَشَّر مُسَودَّ الوجه. وقيل: الضمير المستتر في «ظل» ضمير الشأن، والجملة خبرها. وقيل: الفعل تامٌّ، والجملة حالية. والوجه ما تقدَّم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِى ٱلْحِلْيَةِ﴾ تكريرٌ للإنكار، و«مَنْ» منصوبةُ المَحَلِّ بمضمر معطوف على «جعلوا»، وهناك مفعولٌ محذوف أيضاً، أي: أَوَجعلوا له تعالى مَنْ شأنُه أن يَتربَّى في الزِّينة ـ وهنَّ البنات، كما قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي ـ ولداً، فالهمزةُ لإنكار الواقع واستقباحه.

وجُوِّز انتصابُ «مَنْ» بمضمر معطوف على «اتَّخذ»، فالهمزة حينئذ لإنكار الوقوع واستبعادِه، وإقحامُها بين المعطوفين لِتذكير ما في «أَمْ» المُنقطعة من الإنكار، والعطفُ للتغاير العنواني، أي: أَواتَّخذ سبحانه مَنْ هذه الصِّفة الذميمة [صفته][٤] ولداً.

---

(١) تحرفت في (م) إلى: الولد.
(٢) الرجز في البيان والتبيين ١/ ١٨٦ و٤/ ٤٧، والكشاف ٣/ ٤٨٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٨.
(٣) الكشاف ٣/ ٤٨٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ١٨.
(٤) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٤٢، وعنه نقل المصنف.

﴿وَهُوَ﴾ مع ما ذُكر من القُصور ﴿فِى ٱلْخِصَامِ﴾ أي: الجِدال الذي لا يكاد يخلو عنه إنسانٌ في العادة ﴿غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾﴾ غيرُ قادر على تقرير دعواه وإقامةِ[1] حُجَّته لِنُقصان عَقْله وضَعْفِ رأيه. والجارُّ متعلِّق بـ «مبين». وإضافةُ «غير» لا تمنع عملَ ما بعدَها فيه؛ لأنه بمعنى النفي فلا حاجةَ لجعله متعلِّقاً بمقدَّر.

وجُوِّز كون «مَنْ» مبتدأ محذوف الخبر، أي: أَوَمَنْ حالُه كيتَ وكيتَ ولدُه عز وجل؟! وجعل بعضُهم خبرَه: جعلوه ولداً لله سبحانه وتعالى، أو: اتَّخذه جل وعلا ولداً.

وعن ابن زيد أن المرادَ بـ «مَنْ يُنَشَّأ في الحِلية» الأصنامُ، قال: وكانوا يتَّخذون كثيراً منها من الذهب والفضة، ويجعلون الحلي على كثير منها.

وتُعقِّب بأنه يُبعِدُ هذا القولَ قولُه تعالى: (وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) إلا إنْ أُريد بنفي الإبانة نفي الخِصام، أي: لا يكون منها خِصامٌ فإبانة، كقوله:

على لاحبٍ لا يُهتدَى بمنارِه[2]

وعندي أنَّ هذا القول بعيدٌ في نفسه، وأنَّ الكلامَ أعني قولَه سبحانه: «أم اتَّخذ» إلى هنا واردٌ لمزيد الإنكار في أنهم قومٌ مِن عادتهم المناقضةُ ورميُ القول من غير علم.

وفي المَجيء بـ «أَمْ» المنقطعة وما في ضِمنها من الإضراب دليلٌ على أن مُعتمد الكلام إثباتُ جهلهم ومناقضتهم لا إثبات كُفرهم، لكنه يُفهم منه كما سمعتَ وتسمع إن شاء الله تعالى.

وقرأ الجحدري في روايةٍ: «يُنْشَأ» مبنياً للمفعول مُخفَّفاً، وقرأ الحسن في رواية أيضاً: «يُناشَأ» على وزن يُفاعل مبنيّاً للمفعول[3]، والمناشاة بمعنى الإنشاء،

---

(١) في (م): وإقامته.

(٢) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٦٦، وعجزه: إذا سافه العَوْد النباطي جرجرا. قال شارحه: اللاحب: الطريق البين، لا يُهتدى بمناره: ليس فيه عَلَمٌ ولا منار فيهتدى به، إذا سافه العود: أي: إذا شمَّه المسن من الإبل صوَّت ورغا لبعده وما يلقى من مشقته.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٤.

كالمغالاة بمعنى الإغلاء. وقرأ الجمهور: «يَنْشَأُ» مبنياً للفاعل[١].

والآية ظاهرةٌ في أنَّ النشوءَ في الزِّينة والنُّعومة من المعايب والمَذامِّ، وأنه من صفات ربَّات الحِجال، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك، ويأنفَ منه، ويربأ بنفسه عنه، ويعيش كما قال عمر رضي الله عنه: اخشوشنوا في اللِّباس، واخشوشبوا في الطعام، وتمعدَدوا[٢]. وإنْ أراد أنْ يُزيِّن نفسَه زيَّنها من باطن بلباس التقوى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ - أي: سَمَّوا وقالوا: إنهم إناث. قال الزجاج: الجَعْل في مِثْله بمعنى القول والحُكم على الشيء؛ تقول: جعلتُ زيداً أعلمَ الناس، أي: وَصَفتُه بذلك وحكمتُ به[٣]. واختار أبو حيان أن المعنى: صيَّروهم في اعتقادهم إناثاً[٤] - اعتراضٌ واردٌ لإثبات مُناقضتهم أيضاً وادِّعاء ما لا علمَ لهم به المؤيِّد لجعله معتمدَ الكلام على ما سبق آنفاً، فإنهم أنَّثوهم في هذا المعتقد من غير استنادٍ إلى علم، فأرشد إلى أنَّ ما هم عليه من إثباتِ الولد مثلُ ما هم عليه من تأنيث الملائكة عليهم السلام في أنهما سُخفٌ وجهلٌ كانا كُفرين أوْ لا، نعم هما في نفس الأمر كفران، أما الأول فظاهر، وأما الثاني فللاستخفاف برسُلِهِ سبحانه - أعني الملائكة - وجعلهم أنقصَ العباد رأياً وأخسَّهم صنفاً وهم العِباد المُكرمون المبرَّؤون من الذُّكورة والأُنوثة، فإنهما من عوارض الحيوان المتغذِّي المُحتاج إلى بقاءِ نوعه لعدم جَريان حِكمة الله تعالى ببقاء شخصه. وليس ذلك عطفاً على قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ لما عَلِمتَ من أنَّ الجملة في موضع الحال من فاعل «لَيقولن» ولا يحسنُ بحسب الظاهر أن يقال: لَيقولنَّ خلقهنَّ العزيز العليم وقد جعلوا الملائكة إناثاً.

---

(١) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٨. وقرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص: «يُنَشَّأُ».

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار ٥/ ٣٣٩ بلفظ: اخشوشنوا واخشوشبوا واخلولقوا وتمعددوا كأنكم معدٌّ...، وقد ورد الخبر بروايات مختلفة كما في مصنف عبد الرزاق (١٩٩٩٤)، ومسند أحمد (٣٠١)، وصحيح ابن حبان (٥٤٥٤). ومعنى اخشوشنوا: البسوا الخشن. واخشوشبوا: كلو الغليظ من الطعام. ينظر غريب الحديث للحربي ٢/ ٥٤٥-٥٤٦.

(٣) معاني القرآن ٤/ ٤٠٧.

(٤) البحر ٨/ ١٠.

وقُرِئ: «عَبيدُ» جمع عبد[1]، وكذا «عِبادُ»، وقيل: عِبادُ جمع عابد، كصائم وصِيام، وقائم وقيام.

وقرأ عمر بن الخطاب والحسن وأبو رجاء وقتادة وأبو جعفر وشيبة والأعرج والابنان ونافع: «عندَ الرحمن» ظرفاً[2]، وهو أدلُّ على رفع المنزلة وقُربِ المكانة. والكلامُ على الاستعارةِ في المشهور، لاستحالة العِنديَّةِ المكانية في حقِّه سبحانه. وقرأ أبو عبد الرحمن بالباء، مُفرد عِباد[3]، والمعنى على الجمع بإرادة الجنس.

وقرأ الأعمش: «عبادَ» بالجمع والنصب، حكاها ابن خالويه، وقال: هي في مصحف ابن مسعود كذلك[4]. وخرَّج أبو حيان النصبَ على إضمار فعل، أي: الذين هم خلقوا عبادَ الرحمن[5].

وقرأ زيدُ بن علي: «أُنُثاً» بضمتين[6] ـ كَكُتب ـ جمع إناثاً، فهو جمعُ الجمع.

وعلى جميع القراءات الحصرُ إذا سُلِّم إضافيٌّ، فلا يتمُّ الاستدلالُ به على أفضلية المَلَكِ على البَشَر.

﴿أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْ﴾ أي: أَحَضَروا خَلْقَ الله تعالى إيَّاهم فشاهدوهم إناثاً حتى يحكُموا بأنوثتهم، فإنَّ ذلك مما يُعلَم بالمشاهدة. وهذا كقوله تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠] وفيه تجهيلٌ لهم وتهكُّمٌ بهم.

---

(١) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٣.

(٢) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٨ عن الابنين (ابن كثير وابن عامر)، ونافع وأبي جعفر ويعقوب، والكلام من البحر ٨/ ١٠، وقرأ: «عباد» عاصم وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٥) البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٦) المصدر السابق.

وإنما لم يتعرَّض لنفي الدلائل النقلية لأنها في مثل هذا المَطْلب مُفرَّعة على القول بالنبوَّة، وهم الكَفرة الذين لا يقولون بها، ولنفي الدلائل العقلية لظهور انتفائها، والنفي المذكور أظهرُ في التهكّم. فافهم.

وقرأ نافع: «أَأُشهدوا» بهمزة داخلة على أشْهدَ الرباعيِّ المبنيِّ للمفعول[١]، وفي رواية أنه سهَّل هذه الهمزة فجعلها بين الهمزة والواو[٢]، وهي روايةٌ عن أبي عمرو[٣]، وروي ذلك عن علي كرم الله وجهه وابن عباس ومجاهد. وفي أُخرى أنه سهَّلها، وأدخل بينها وبين الأولى ألفاً كراهةَ اجتماع همزتين، ونُسبت إلى جماعة[٤]، والاكتفاءُ بالتسهيل أوجه.

وقرأ الزهري وناسٌ: «أُشْهِدوا» بغير استفهام مبنيّاً للمفعول رباعيّاً[٥]، فقيل: المعنى على الاستفهام نحو قوله:

قالوا تُحبها قلتُ بهراً[٦]

وهو الظاهر، وقيل: على الإخبار، والجملةُ صفة «إناثاً» وهم وإن لم يشهدوا خَلْقَهم لكن نُزِّلوا لجراءتهم على ذلك منزلةَ مَنْ أُشْهِدَ، أو المراد أنهم أَطْلَقوا عليهم الإناث المعروفات لهم اللاتي أُشهدوا خلقهنَّ لا صنفاً آخرَ من الإناث. ولا يخفى ما في كلا التأويلين من التكلُّف.

﴿سَتُكْتَبُ﴾ في ديوان أعمالهم ﴿شَهَدَتُهُمْ﴾ التي شَهِدوا بها على الملائكة

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢، والبحر ٨/ ١٠ وهي غير المشهورة عنه.

(٢) وهي قراءة نافع في رواية ورش.

(٣) وهي غير المشهورة عنه، والمشهور عنه كقراءة الجمهور: «أَشَهِدوا».

(٤) وهي رواية قالون عن نافع بخلف عنه. وقرأ بها أبو جعفر أيضاً. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٨-٣٦٩. والكلام السالف في البحر المحيط ٨/ ١٠.

(٥) تفسير القرطبي ١٩/ ٢٢، والبحر المحيط ٨/ ١٠.

(٦) البيت لعمر بن أبي ربيعة وهو في ديوانه ص٤٣١، والبيت بتمامه:

ثم قالوا تُحِبُّها قلتُ بَهْرا عدد النجم والحصى والتراب

عليهم السلام. وقيل: سألهم الرسول ﷺ: «ما يُدريكم أنهم إناثٌ»؟ فقالوا: سَمِعنا ذلك من آبائنا، ونحن نشهد أنهم لم يَكْذِبوا. فقال الله تعالى: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ﴾[١].

﴿وَيُسْـَٔلُونَ ۝١٩﴾ عنها يوم القيامة. والكلامُ وعيدٌ لهم بالعقاب والمُجازاة على ذلك والسين للتأكيد، وقيل: يجوز أن تُحمل على ظاهرها من الاستقبال، ويكون ذلك إشارةً إلى تأخير كتابة السيئات لرجاء التوبة والرجوع، كما ورد في الحديث: «إنَّ كاتبَ الحسناتِ أمينٌ على كاتب السيئات، فإذا أرادَ أن يَكْتُبها قال له: توقَّفْ، فيتوقَّف سبعَ ساعات، فإن استغفرَ وتاب لم يَكْتُب»[٢]، فلما كان ذلك من شأن الكتابة قُرنت بالسين، وكونهم كُفَّاراً مُصِرِّين على الكُفر لا يأباه.

وقرأ الزهري: «سيُكتَبُ» بالياء التحتية مبنيّاً للمفعول، وقرأ الحسن كالجمهور إلا أنه قرأ: «شهاداتهم» بالجمع[٣]، وهي قولهم: إنَّ لله سبحانه جُزءاً، وإنَّ له بناتٍ وإنها الملائكة. وقيل: المرادُ ما أُريد بالمفرد، والجمعُ باعتبار التكرار.

وقرأ ابنُ عباس وزيدُ بن علي وأبو جعفر وأبو حيوة وابن أبي عَبْلة والجَحْدري والأعرج: «سَنكتُب» بالنون مبنيّاً للفاعل «شهادتَهم» بالنصب والإفراد[٤].

وقرأتْ فرقةٌ: «سيَكْتُب» بالياء التحتية مبنيّاً للفاعل وبإفراد «شهادتهم» ونصبها[٥]، أي: سيكتب الله تعالى شهادتَهم.

وقرئ: «يُساءلون» من المفاعلة للمبالغة[٦].

---

(١) ذكره البغوي في تفسيره عند هذه الآية ونسبه للكلبي.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٧٩٧١) من حديث أبي أُمامة رضي الله عنه، قال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ٢٠٨: فيه جعفر بن الزبير، وهو كذاب.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٤) البحر المحيط ٨/ ١٠، وهي خلاف المشهور عن أبي جعفر، ونسبها للأعرج ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٠.
(٦) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٨٣.

﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم﴾ عطفٌ على قوله سبحانه: «وجعلوا الملائكة» إلخ إشارةً إلى أنه من جنس ادِّعائهم أُنوثةَ الملائكة في أنهم قالوه من غير عِلْم، ومرادُهم بهذا القول ـ على ما قاله بعضُ الأجِلَّة ـ الاستدلالُ بنفي مشيئة الله تعالى تركَ عبادة الملائكة عليهم السلام على امتناع النهي عنها، أو على حُسنها، فكأنهم قالوا: إنَّ الله تعالى لم يَشأْ تركَ عبادتنا الملائكةَ، ولو شاء سبحانه ذلك لتحقَّق، بل شاء جلَّ شأنه العبادةَ لأنها المُتحقِّقةُ، فتكون مأموراً بها أو حسنةً، ويمتنع كونها مَنهيّاً عنها أو قبيحةً، وهو استدلالٌ باطلٌ؛ لأن المشيئة لا تستلزم الأمرَ أو الحُسن؛ لأنها ترجيحُ بعض المُمكنات على بعض حسناً كان أو قبيحاً، فلذلك جُهِّلوا بقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ﴾ القولِ على الوجه الذي قصدوه منه، وحاصلُه يرجع إلى الإشارة إلى زعمهم أن المشيئة تقتضي طباقَ الأمر لها أو حُسنَ ما تعلَّقت به. ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ يستند إلى سندٍ ما.

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠﴾ أي: يكذبون، كما فسَّره به غير واحد، ويُطلق الخَرْص على الحَزْر، وهو شائع، بل قيل: إنه الأصل، وعلى كلٍّ هو قولٌ عن ظنٍّ وتخمين.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١﴾ إضرابٌ عن نفي أن يكونَ لهم بذلك علمٌ من طريق العقل إلى إبطال أن يكون لهم سندٌ من جهة النَّقل؛ فـ «أم» منقطعة، لا متَّصلةٌ معادِلةٌ لقوله تعالى: «أشَهدوا» ـ كما قيل ـ لبُعده. وضمير «قَبله» للقرآن لِعلمه من السِّياق، أو الرسول عليه الصلاة والسلام، وسين «مُستمسكون» للتأكيد لا للطلب، أي: بل آتيناهم كتاباً مِن قَبلِ القرآن، أو من قَبلِ الرسول ﷺ يَنْطِقُ بصحة ما يدَّعونه، فهم بذلك الكتاب مُتمسِّكون، وعليه مُعوِّلون.

وقوله جل وعلا: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ۝٢٢﴾ إبطالٌ لأن يكون لهم حُجَّةٌ أصلاً، أي: لا حُجَّةَ لهم على ذلك عقليةً ولا نقليةً، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجَهلة مِثلهم.

والأُمَّة: الدِّين والطريقة التي تُؤَمّ، أي: [تُقْصَد](1)، كالرُّحْلة: للرجل العظيم الذي يُقصَد في المُهِمَّات، يقال: فلان لا أُمَّة له، أي: لا دينَ ولا نحْلةَ، قال الشاعر:

وهــل يــســتــوي ذو أُمَّــة وكــفــور(2)

وقال قيس بن الخطيم:

كُــنَّــا عــلــى أمّــةِ آبــائــنــا ويــقــتــدي بــالأولِ الآخِــرُ(3)

وقال الجُبَّائي: الأُمَّة: الجماعة، والمرادُ: وجدنا آباءنا متوافقين على ذلك. والجمهور على الأول وعليه المُعوَّل.

ويقال فيها: إمَّة ـ بكسر الهمزة أيضاً ـ وبها قرأ عمر بن عبد العزيز ومجاهد وقتادة والجحدري. وقرأ ابنُ عباس(4): «أَمَّة» بفتح الهمزة، قال في «البحر»(5): أي: على قَصْد وحال.

و«على آثارهم مهتدون» قيل: خبران لـ «إنَّ»، وقيل: «على آثارهم» صلة «مهتدون»، و«مهتدون» هو الخبر.

هذا، وجعل الزمخشري(6) الآية دليلاً على أنه تعالى لم يشأ الكفر من الكافر، وإنما شاء سبحانه الإيمان، وكفَّر أهلَ السنة القائلين بأنَّ المقدوراتِ كلَّها بمشيئة الله تعالى، ووجّه ذلك بأنَّ الكُفَّار لمَّا ادَّعَوا أنه تعالى شاء منهم الكُفر حيث قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ إلخ ـ أي: لو شاء جل جلاله مِنَّا أن نتركَ عبادةَ الأصنام تركناها ـ ردَّ الله تعالى ذلك عليهم، وأبطل اعتقادَهم بقوله سبحانه: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلخ،

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٨/ ٤٣، وحاشية الشهاب ٧/ ٤٣٩.
(٢) لم نقف على تتمته، وهو هكذا في الصحاح واللسان (أمم)، وتفسير القرطبي ١٩/ ٢٥.
(٣) ذكره أبو حيان في البحر ٨/ ١١، والسمين في الدر ٩/ ٥٨١.
(٤) في الأصل و(م): ابن عياش، والمثبت من المصادر، وهذه القراءة والتي قبلها ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٢٤، وأبو حيان في البحر ٨/ ١١.
(٥) ٨/ ١١.
(٦) في الكشاف ٣/ ٤٨٣-٤٨٤، وينظر حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٨.

فلزم حقيَّةُ[1] خلافِهِ، وهو عينُ ما ذَهَبَ إليه، والجملة عطف على قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ أو على «جعلوا الملائكة» إلخ، فيكون ما تضمَّنته كفراً آخرَ، ويلزمه كفر القائلين بأنَّ الكُلَّ بمشيئته عز وجل. ومما سمعتَ يُعلَم ردُّه.

وقيل في رَدِّه أيضاً: يجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى أصل الدعوى، وهو جعلُ الملائكة عليهم السلام بناتِ الله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك عُلوّاً كبيراً ـ دون ما قصدوه من قولهم: «لو شاء» إلخ، وما ذكر بعد أصل الدعوى من تتمَّتها، فإنه حكايةُ شُبهتهم المُزيَّفة؛ لأن العبادةَ للملائكة وإن كانت بمشيئته تعالى لكنَّ ذلك لا يُنافي كونَها من أقبحِ القبائح المَنهيّ عنها، وهذا خلافُ الظاهر.

وقال بعضُ الأَجِلَّة: إنَّ كُفرهم بذلك لأنهم قالوه على جهة الاستهزاء.

وردَّه الزمخشري بأن السِّياق لا يدلُّ على أنهم قالوه مُستهزئين؛ على أن[2] الله تعالى قد حكى عنهم على سبيل الذمِّ والشهادة بالكُفر أنهم جعلوا له سبحانه جُزءاً، وأنه جل وعلا اتَّخذ بناتٍ واصطفاهم بالبنين، وأنهم جعلوا الملائكةَ المُكرمين إناثاً، وأنهم عبدوهم وقالوا: «لو شاء الرحمن ما عبدناهم»، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهُزء لكان النُّطق بالمَحْكِيَّات قبلَ هذا المَحْكي الذي هو إيمانٌ عنده لو جدُّوا بالنُّطق به مدحاً لهم من قِبَلِ أنها كلماتُ كُفر نطقوا بها على طريق الهُزء، فبقي أن يكونوا جادِّين، وتشترك كلها في أنها كلماتُ كُفر، فإنْ جعلوا الأخير وحدَه مقولاً على وجه الهُزء دون ما قبله فما بهم إلا تعويجُ كتاب الله تعالى، ولو كانت هذه كلمةَ حقٍّ نطقوا بها هُزءاً لم يكن لقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ إلخ معنى؛ لأنَّ الواجبَ فيمن تكلَّم بالحق استهزاءً أن يُنكَر عليه استهزاؤه ولا يُكذَّب[3].

ولا يخفى أن ردَّه بأنه لا يدلُّ عليه السِّياق صحيحٌ. وأما ما ذكر من حكايةِ الله سبحانه والتعويج فلا؛ لأنه تعالى ما حكى عنهم قولاً أولاً، بل أثبت لهم اعتقاداً يتضمَّن قولاً أو فعلاً، وقد بيَّن أنهم مُستخِفُّون في ذلك العَقْد كما أنهم مُستخِفُّون

(١) في (م): حقيقة.
(٢) قوله: أن، ليس في (م).
(٣) الكشاف ٣/ ٤٨٣.

في هذا القول، فقوله: لو نطقوا.. إلخ لا مَدْخلَ له في السابق، وليس فيه تعويجٌ ألبتة من هذا الوجه، وكذلك قوله: لم يكن لقوله تعالى: «ما لهم» إلخ معنًى، مردودٌ؛ لأن الاستهزاءَ بابٌ من الجهل كما يدلُّ عليه قولُ موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وقد تقدم في البقرة [الآية:٦٧]. وأما الكذب فراجعٌ إلى مضمونه والمراد منه كما سمعتَ، فمن قال: لا إله إلا الله استهزاءً، مكذّب فيما يلزم من أنه إخبار عن إثبات التعدُّد؛ لأنه إخبارٌ عن التوحيد. فافهم. كذا في «الكشف».

وفيه أيضاً: إن قولهم: «لو شاء الرحمن» إلخ، فُهم كونُه كفراً من أوجه:

أحدها: أنه اعتذارٌ عن عبادتهم الملائكةَ عليهم السلام التي هي كُفر، وإلزام أنه إذا كان بمشيئته تعالى لم يكن مُنكراً.

والثاني: أن الكُفر والإيمان بتصديق ما هو مُضطر إلى العلم بثبوته بديهةً أو استدلالاً متعلقاً بالمبدأ والمَعاد وتكذيبه لا بإيقاع الفعل على وَفْق المشيئة وعَدَمه.

والثالث: أنهم دفعوا قولَ الرُّسل بدعوتهم إلى عبادته تعالى ونَهْيهم عن عبادة غيره سبحانه بهذه المَقالة، ثم إنهم مُلزمون على مساق هذا القول؛ لأنه إذا استند الكلُّ إلى مشيئته تعالى شأنه فقد شاء إرسالَ الرُّسل، وشاء دعوتهم للعباد، وشاء سبحانه جُحودَهم، وشاء جل وعلا دُخولَهم النار، فالإنكار والدَّفعُ بعد هذا القول دليلٌ على أنهم قالوه لا عن اعتقاد، بل مجازفةً، وإليه الإشارة بقوله تعالى في مثله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام:١٤٩].

وفيه أنهم يُعجِّزون الخالق بإثبات التمانع بين المشيئة وضدِّ المأمور به فيلزم أن لا يُريد إلا ما أمر سبحانه به، ولا ينهى جل شأنه إلا وهو سبحانه لا يُريده، وهذا تعجيزٌ من وجهين؛ إخراج بعض المَقدورات عن أن يصيرَ محلَّها، وتضييق محلّ أَمره ونَهْيه؛ وهذا بعينه مذهب إخوانهم من القَدَريّة؛ ولهذه النكتة جعل قولهم: «وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم» معتمدَ الكلام، ولم يقل: وعبدوا الملائكةَ وقالوا: لو شاء، ونظيرُ قولهم في أنه إنما أتى به لِدَفْع ما عُلم ضرورةً قولُه تعالى

عنهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون:٢٤] فالدَّفع كفرٌ والتعجيزُ كفرٌ في كُفر.

وقوله تعالى: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) يحتمل أن يرجع إلى جميع ما سبق من قوله تعالى: (وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ) إلى هذا المقام، ويحتمل أن يرجعَ إلى الأخير، فقد ثبت أنهم قالوه من غير علم، وهو الأظهر، للقُرب وتعقيبِ كلٍّ بإنكارٍ مستقل، وطِباقِه لِمَا في «الأنعام»[1].

وقوله سبحانه: (إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ) على هذا التكذيب المفهوم منه راجعٌ إلى استنتاج المقصود من هذه اللُّزومية، فقد سبق أنها عليهم لا لهم، ولوَّح إلى طرفٍ منه في سورة «الأنعام» أو إلى الحُكم بامتناع الانفكاك مع تجويز الحاكم الانفكاكَ حالَ حُكمه، فإنَّ ذلك يدلُّ على كَذِبِه وإن كان ذلك الحُكم في نفسه حقّاً صحيحاً يحقُّ أن يعلم، كما تقول: زيد قائمٌ قطعاً، أو: ألبتة، وعندك احتمالُ نقيضه. وليس هذا رجوعاً إلى مذهب من جعل الصِّدق بطباقه للمعتقَد، فافهم. على أنه لما كان اعتذاراً على ما مرَّ صحَّ أن يرجع التكذيب إلى أنه لا يصلحُ اعتذاراً، أي: إنهم كاذبون في أن المشيئةَ تقتضي طباقَ الأمر لها، وهذا ما آثره الإمام[2] والعلامة والقاضي[3]. والظاهرُ ما قدَّمناه.

وتعقيبُ الخرص على وجه البيان أو الاستئناف عن قوله تعالى: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ) وقوله تعالى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ في سورة «الأنعام» [الآية:١٤٨] دليلٌ على ما أشرنا، فقد لاح لِلمُسترشد أنَّ الآيَةَ تصلحُ حُجَّةً لأهل السنة لا للمعتزلة.

وقال في آية سورة «الأنعام»[4]: إنَّ قولَهم هذا إما لدعوى المشروعية ردّاً للرسل، أو لتسليم أنهم على الباطل اعتذاراً بأنهم مجبورون، والأولُ باطلٌ؛ لأنَّ المشيئةَ تتعلَّق بفعلهم المشروع وغيره، فما شاء الله تعالى أن يقعَ منهم مشروعاً وقع

(١) الآية (١٤٨).
(٢) ينظر تفسير الرازي ٢٧/ ٢٠٤ وما بعدها.
(٣) ينظر تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٧/ ٤٣٨.
(٤) وقد ذكره المصنف عنه (أي: عن صاحب الكشف) ١٤/ ١٠٣ عند تفسير الآية (٣٥) من سورة النحل.

كذلك، وما شاء الله تعالى أن يقعَ لا كذلك وقع لا كذلك، ولا شك أنَّ من توهَّم أن كون الفعل بمشيئته تعالى يُنافي مجيء الرُّسل عليهم السلام بخلاف ما عليه المُباشِر من الكُفر والضلال فقد كذَّب التكذيبَ كلَّه، وهو كاذب في استنتاج المقصود من هذه اللُّزومية، وظاهرُ الآية مَسوقٌ لهذا المعنى. والثاني على ما فيه من حصول المقصود ـ وهو الاعتراف بالبطلان ـ باطلٌ أيضاً، إذ لا جبرَ؛ لأن المشيئةَ تعلَّقت بأن يُشركوا اختياراً منهم، والعلمُ تعلَّق كذلك فهو يؤكِّد دفعَ العُذْر[1] لا أنه يُحقِّقه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام:١٤٩]. ثم إنهم كاذبون في هذا القول لجزمهم حيث لا ظنّ مطلقاً فضلاً عن العلم، وذلك لأنَّ من المعلوم أن العلمَ بصفات الله سبحانه فرعُ العلم بذاته جل وعلا، والإيمانُ بها كذلك، والمُحتجُّون به كَفَرةٌ مُشركون مُجَسِّمون. ونقل العلامة الطيبي نحواً من الكلام الأخير عن إمام الحرمين عليه الرحمة في «الإرشاد»[2]. اهـ.

وقد أطال العلماءُ الأعلامُ الكلامَ في هذا المقام، وأرى الرجل ـ سقى الله تعالى مَرْقَده صَيِّبَ الرِّضوان ـ قد مَخَضَ كلَّ ذلك، وأتى بزبْده، بل لم يتركْ من التحقيق شيئاً لمن أتى مِن بعدِه. فتأمل. والله عز وجل هو الموفق.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: والأمرُ كما ذُكر من عَجْزهم عن الحُجَّة مطلقاً وتَشَبُّثهم بذيل التقليد، وقوله سبحانه: ﴿مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ استئنافٌ مُبيِّن لذلك دالٌّ على أن التقليدَ فيما بينهم ضلالٌ قديمٌ لأسلافهم، وأنَّ متقدميهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظورٌ إليه، وتخصيصُ المُتْرَفين بتلك المَقالة للإيذان بأنَّ التنعمّ وحبَّ البطالة صَرَفَهم عن النظر إلى التقليد.

﴿قَالَ﴾ حكاية لِمَا جرى بين المُنذِرين وبين أُمَمهم عند تعلُّلهم بتقليد آبائهم، أي: قال كلُّ نذير من أولئك المُنذرين لأُمَّته: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكُم﴾ أي: أتقتدون بآبائكم ولو جئتكم ﴿بِأَهْدَى﴾ بدينٍ أهدى ﴿مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ من الضلالة التي ليست من الهداية في شيء. وإنما عبَّر عنها بذلك مُجاراة معهم على مَسْلك الإنصاف.

---

(١) في الأصل و(م): القدر، والمثبت مما سلف ١٤/١٠٣.
(٢) الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد ص٢٢٠.

وقرأ الأكثرون: «قل»[١] على أنه حكايةُ أمر ماضٍ أُوحي إلى كلِّ نذير، أي: فقيل ـ أو: قلنا ـ للنذير: قل.. إلخ، واستظهر في «البحر»[٢] كونَه خطاباً لنبينا ﷺ. والظاهرُ هو ما تقدَّم لقوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ فإنه ظاهرٌ جدّاً في أنه حكايةٌ عن الأمم السالفة، أي: قال كلُّ أُمة لنذيرها: «إنَّا بما أُرسلتُم به» إلخ. وقد أجمل عند الحكاية للإيجاز كما قرِّر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ [المؤمنون: ٥١].

وجعلُه حكايةً عن قومه عليه الصلاة والسلام بحمل صيغة الجمع على تغليبه ﷺ على سائر المُنذِرين، وتوجيه كُفرهم إلى ما أُرسل به الكُلُّ من التوحيد لإجماعهم عليه عليهم السلام كما في نحو قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] = تمحُّلٌ بعيد، وأيضاً يأباه ظاهرُ قوله سبحانه ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ فإنَّ ظاهرَه كونُ الانتقام بعذاب الاستئصال، وصاحب «البحر» يحمله على الانتقام بالقحط والقتل والسبي والجَلاء[٣].

وقرأ أُبيّ وأبو جعفر وشيبة وابن مِقْسم والزعفراني وغيرهم: «أو لو جئناكم» بنون المُتكلِّمين[٤]، وهي تؤيد ما ذهبنا إليه.

والأمرُ بالنظر فيما انتهى إليه حالُ المكذِّبين تسليةٌ له ﷺ وإرشادٌ إلى عَدَمِ الاكتراثِ بتكذيب قومه إياه عليه الصلاة والسلام.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ أي: واذْكُر لهم وقتَ قوله عليه الصلاة والسلام ﴿لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾ المُكبِّين على التقليد كيف تبرَّأ مما هم فيه بقوله: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وتمسَّك بالبُرهان. والكلامُ تمهيدٌ لِمَا أهلُ مكة فيه من العِناد والحسد والإباء عن تدبّر الآيات، وأنهم لو قلَّدوا آباءهم لكان الأولى أن يُقلِّدوا أباهم

---

(١) التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩. وقرأ ابن عامر وحفص «قال».
(٢) ٨/ ١١.
(٣) البحر ٨/ ١١.
(٤) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٦٩، وقراءة الباقين في البحر المحيط ٨/ ١١.

الأفضلَ الأعلمَ الذي هم يفتخرون بالانتماء إليه، وهو إبراهيمُ عليه السلام، فكأنه بعد تعييرهم على التقليد يُعيِّرهم على أنهم مسيئون في ترك اختياره أيضاً.

و«براءٌ» مصدرٌ، كالطلاق نعت به مبالغةً، ولذلك يستوي فيه الواحدُ والمُتعدِّد، والمذكَّر والمؤنَّث.

وقرأ الزعفراني والقورصي عن أبي جعفر وابن المناذري[١] عن نافع[٢] «بُراء» بضمِّ الباء، وهو اسمٌ مفردٌ، كطُوال وكُرام بضمِّ الكاف. وقرأ الأعمش: «بريء» وهو وصفٌ، كطويل وكريم، وقراءةُ العامة لغةُ العالية، وهذه لغة نَجد. وقرأ الأعمش أيضاً: «إنِّي» بنون مُشدَّدة دون نون الوقاية[٣].

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناءٌ متصلٌ إنْ قلنا: إنَّ «ما» عامةٌ لِذوي العلم وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون الله تعالى والأصنامَ، وليس هذا من الجمع بين الله تعالى وغيره سبحانه الذي يجب اجتنابُه لما فيه من إيهام التسوية بينه سبحانه وبين غيره جل وعلا؛ لظُهور ما يدلُّ على خلاف ذلك في الكلام.

أو منقطعٌ بناءً على أن «ما» مختصَّة بغير ذوي العلم، وأنه لا يُناسب التغليبَ أصلاً، وأنهم لم يكونوا يعبدونه تعالى، أو أنهم كانوا يعبدونه عز وجل إلا أن عبادَته سبحانه مع الشِّرك في حُكم العَدَم، وعلى الوجهين محلُّ الموصول النصب.

وأجاز الزمخشري[٤] أن يكون في محلِّ جرّ على أنه بدلٌ من «ما» المجرور بـ «من». وفيه بحثٌ؛ لأنه يصيرُ استثناءً من المُوجب، ولم يُجوِّزوا فيه البدل، ووَجْهُه أنه في معنى النفي؛ لأنَّ معنى «إنني بَراءٌ مما تعبدون»: لا أعبدُ ما تعبدون، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ [التوبة: ٣٢] إلا أنَّ ذلك في

---

(١) كذا في الأصل و(م)، والبحر المحيط ٨/ ١١ وعنه نقل المصنف، ولم نعرفه، ولعله: ابن المنادي كما في الدر المصون ٩/ ٥٨٢، وابن المنادي: هو أحمد بن جعفر بن محمد بن عبيد الله، أبو الحسين البغدادي الحنبلي، الإمام المشهور، حافظ متقن ضابط. توفي سنة (٣٣٦هـ). طبقات القراء ١/ ٤٤.

(٢) وهي غير المشهورة عنه.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦.

(٤) الكشاف ٣/ ٤٨٤.

المُفرّغ، وهذا فيما ذكر فيه المُستثنى منه، وهم لا يخصُّونه بالمُفرَّغ ولا بألفاظٍ مخصوصة أيضاً كـ: أبى وقلَّما، نعم إنَّ أبا حيان[1] يأبى إلا أنه مُوجب، ولا يعتبر النفي معنى.

وأجاز أيضاً أن تكون «إلا» صفة بمعنى «غير» على أن «ما» في «ما تعبدون» نكرة موصوفة، والتقدير: إنني براءٌ من آلهة تعبدونها غيرَ الذي فطرني، فهو نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢][2]. واعتبار «ما» نكرة موصوفة بناءً على أن «إلا» لا تكون صفةً إلا لنكرة، وكذا اعتبارها بمعنى الجمع بناءً على اشتراط كون النكرة الموصوفة بها كذلك، والمسألة خلافية، فمن النحويِّين من قال: إنّ «إلا» يُوصَف بها المعرفة والنكرة مطلقاً، وعليه لا يحتاج إلى اعتبار كون «ما» نكرة بمعنى آلهة.

وفي جعل الصلة «فطرني» تنبيهٌ على أنه لا يستحقُّ العبادةَ إلا الخالقُ للعابد.

﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧﴾ يُثبِّتني على الهداية، فالسين للتأكيد لا للاستقبال، لأنه جاء في «الشعراء» [الآية:٦٢] يهدين بدونها والقصةُ واحدة. والمضارع في الموضعين للاستمرار. وقيل: المراد: «سيهدين» إلى وراء ما هداني إليه أولاً، فالسين على ظاهرها، والتغايرُ في الحكاية والمَحكي بناءً على تكرُّر القصة.

﴿وَجَعَلَهَا﴾ الضمير المرفوع المُستتر لـ «إبراهيم» عليه السلام، أو لله عز وجل. والضمير المنصوب لكلمة التوحيد، أعني: لا إله إلا الله؛ كما رُوي عن قتادة ومجاهد والسدي. ويُشعر بها قوله: «إنني براء مما تعبدون» إلخ، وجوّز أن يعودَ على هذا القول نفسه، وهو أيضاً كلمةٌ لغةً.

﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذُرِّيَّته عليه السلام، فلا يزالُ فيهم مَن يُوحِّد الله تعالى ويدعو إلى توحيده عز وجل.

وقرأ حُميد بن قيس: «كِلْمة» بكسر الكاف وسكون اللام، وهي لغةٌ فيها،

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٨٤.

وقُرئ «في عَقْبه» بسكون القاف تخفيفاً، و«في عاقبه»[١] أي: مَن عَقِبه، أي: خَلَفه، ومنه تسميةُ النبيِّ ﷺ بالعاقب[٢]؛ لأنه آخرُ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ تعليلٌ للجَعْل، أي: جعلها باقيةً في عَقِبه كي يرجعَ من أشركَ منهم بدعاء من وحَّد، أو بسبب بقائها فيهم، والضميران للعَقِب، وهو بمعنى الجمع. والأكثرون على أنَّ الكلامَ بتقدير مضاف، أي: لعلَّ مُشركيهم. أو الإسناد من إسناد ما للبعض إلى الكلِّ.

وأوَّلوا «لعل» بناءً على أن الترجِّي من الله سبحانه، وهو لا يصح في حقِّه تعالى، أو منه عليه السلام لكنه من الأنبياء في حكم المُتحقِّق، ويجوز تركُ التأويل كما لا يخفى، بل هو الأظهرُ إذا كان ذاك من إبراهيم عليه السلام.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ أي: أهل مكة المعاصرين للرسول ﷺ ﴿وَءَابَآءَهُمْ﴾ بالمَدِّ في العُمر والنعمة ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوةُ التوحيد أو القرآن ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝٢٩﴾ ظاهرُ الرسالة بما لَه من المعجزات الباهرات، أو مُبينٌ للتوحيد بالآيات البيِّنات والحُجَجِ القاطعات. والمراد بالتمتيع ما هو سببٌ له من استمتاعهم بما مُتعوا واشتغالهم بذلك عن شُكر المنعم وطاعته والغاية لذلك، فكأنه قيل: اشتَغلوا حتى جاء الحقُّ، وهي غايةٌ له في نفس الأمر؛ لأن مجيء الرسول مما يُنبِّه عن سِنَةِ الغفلة، ويزجر عن الاشتغال بالملاذِّ، لكنهم عكسوا، فجعلوا ما هو سببٌ للتنصُّل سبباً للتوغُّل، فهو على أسلوب قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١-٤]. و«بل مَتَّعت» إضرابٌ عن قوله جل شأنه (لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) كأنه قيل: بل مَتَّعْتُ مشركي مكة وأشغلتهم بالملاهي والمَلاذِّ فاشتغلوا فلم يرجعوا، أو فلم يحصل ما رجاه من رجوعهم عن الشِّرك، وهو في الحقيقة إضرابٌ عن التمهيد الذي سمعت وشروعٌ في المقصود، لكن رُوعي فيه المناسبةُ بما قَرُبَ من جملة الإضراب أعني «لعلهم يرجعون».

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٢.

(٢) أخرجه أحمد (١٦٧٣٤)، والبخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه بلفظ: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي... وأنا العاقب».

وفي «الحواشي الشهابية»[1] أنه إضرابٌ عن قوله تعالى: «وجعلها» إلخ، أي: لم يرجعوا فلم أعاجلهم بالعقوبة، بل أعطيتُهم نِعماً أُخَرَ غيرَ الكلمةِ الباقيةِ لأجل أن يشكروا مُنْعِمَها ويُوحِّدوه فلم يفعلوا، بل زاد طُغيانهم لاغترارهم، أو التقدير: ما اكتفيتُ في هدايتهم بجعل الكلمة باقيةً فيهم بل متَّعتهم وأرسلتُ رسولاً.

وقرأ قتادة والأعمش: «بل مَتَّعتَ» بتاء الخطاب، ورواها يعقوبُ عن نافع[2]، وهو من كلامهِ تعالى على سبيل التجريد لا الالتفاتِ ـ وإنْ قيل به في مثله أيضاً ـ كأنه تعالى اعترضَ بذلك على نفسه جل شأنه في قوله سبحانه: «وجعلها» إلخ، لا لتقبيح فعله سبحانه بل لِقَصْد زيادة توبيخ المشركين، كما إذا قال المُحسن على مَن أساء مخاطباً لنفسه: أنتَ الداعي لإساءته بالإحسان إليه ورعايته، فيبرز كلامُه في صورة من يعترضُ على نفسه ويُوبِّخها حتى كأنه مُستحِقٌّ لذلك، وفي ذلك من توبيخ المُسيء ما فيه.

وقال صاحب «اللوامح»: هو من كلام إبراهيم عليه السلام ومناجاته ربَّه عز وجل. وقال في «البحر»: الظاهرُ أنه من مناجاة الرسول ﷺ على معنى: قل: يا ربِّ مَتَّعتَ[3]. والأولُ أولى، وهو الموافقُ للأصل المشهور.

وقرأ الأعمش: «متَّعنا» بنون العظمة[4].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لِيُنبِّههم عمَّا هم فيه من الغَفْلة ويُرشِدَهم إلى التوحيد ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ زادوا شرارةً فَضمُّوا إلى شِركهم معاندةَ الحقِّ والاستخفاف به، فَسمَّوا القرآنَ سِحْراً، وكفروا به، واستحقروا رسول الله ﷺ.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ أي: من إحدى القريتين: مكة والطائف، أو مِن رجالهما، ف «من» ابتدائية أو تبعيضية. وقرىء: «رَجْل» بسكون

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤٠.
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٢.
(٣) البحر المحيط ٨/ ١٢، وعنه نقل المصنف كلام صاحب اللوامح.
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢، وتفسير القرطبي ١٩/ ٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٢.

الجيم[1] ﴿عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ بالجاه والمال؛ قال ابن عباس: الذي من مكة الوليد بن المغيرة المخزومي، والذي من الطائف حبيبُ بن عمرو بن عُمير الثقفي. وقال مجاهد: عُتبةُ بن ربيعة وكِنانةُ بن عبد ياليل. وقال قتادة: الوليدُ بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي. وكان الوليدُ بن المغيرة يُسمَّى ريحانةَ قريش، وكان يقول: لو كان ما يقول محمدٌ ﷺ حقًّا لنزل عليَّ أو على أبي مسعود. يعني عروة بن مسعود، وكان يُكنَى بذلك.

وهذا بابٌ آخرُ من إنكارهم للنبوَّة، وذلك أنهم أنكروا أولاً أنْ يكون النبي بشراً، ثم لمَّا بكِّتوا بتكرير الحُجج ولم يبقَ عندهم تصوُّر رواج لذلك جاؤوا بالإنكار من وجهٍ آخرَ، فتحكَّموا على الله سبحانه أن يكونَ الرسول أحدَ هذين، وقولهم: هذا القرآن ذِكْرٌ له، على وجه الاستهانة، لأنهم لم يقولوا هذه المَقالةَ تسليماً، بل إنكاراً، كأنه قيل: هذا الكذبُ الذي يدَّعيه لو كان حقًّا لكان الحقيقَ به رجلٌ من القريتين عظيم، وهذا منهم لجهلهم بأنَّ رتبة الرسالة إنما تستدعي عظيمَ النفس بالتخلِّي عن الرذائل الدَّنية والتحلِّي بالكمالات والفضائل القُدسية دون التزخرف بالزخارف الدنيوية.

وقوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ﴾ إنكارٌ فيه تجهيلٌ وتعجيبٌ من تحكُّمهم بنزول القرآن العظيم على مَن أرادوا. والرحمةُ يجوز أن يكون المرادُ بها ظاهرَها، وهو ظاهر كلام «البحر»[2]، ونزّل تعيينهم لمن ينزِلُ عليه الوحي منزلةَ التقسيم لها، وتدخل النبوَّة فيها. ويجوز أن يكونَ المرادُ بها النبوَّة، وهو الأنسب لما قبلُ، وعليه أكثرُ المفسِّرين.

وفي إضافة الربِّ إلى ضميره ﷺ من تشريفه عليه الصلاة والسلام ما فيه، وفي إضافة الرحمة إلى الربِّ إشارةٌ على أنها من صفاتِ الرُّبوبية.

﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ أسبابَ معيشتهم. وقرأ عبد الله وابن عباس والأعمش وسفيان: «معايشهم» على الجمع[3].

---

(١) تفسير القرطبي ١٩/ ٣٦، والبحر المحيط ٨/ ١٣ دون نسبة.
(٢) ٨/ ١٣.
(٣) البحر ٨/ ١٣، وذكرها عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن خالويه في القراءات الشاذة ص١٣٥.

﴿فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ﴾ قسمةً تقتضيها مشيئتُنا المَبْنية على الحِكَم والمصالح، ولم نُفوِّض أمرَها إليهم عِلْماً منّا بِعَجْزهم عن تدبيرها بالكُلِّية، وإطلاق المعيشة يقتضي أن يكونَ حلالها وحرامها من الله تعالى.

﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادي المَعاش ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ متفاوتةً بحسب القُرب والبُعد حَسْبَما تقتضيه الحِكمة، فمن ضعيف وقوي، وغني وفقير، وخادم ومخدوم، وحاكم ومحكوم ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ﴾ ليستعمل بعضُهم بعضاً في مصالحهم ويستخدموهم في مهنهم ويُسخِّروهم في أشغالهم حتى يتعايشوا ويترافدوا ويصلوا إلى مرافقهم، لا لِكمالٍ في المُوَسَّع عليه، ولا لِنقصٍ في المُقَتَّر عليه، ولو فوَّضنا ذلك إلى تدبيرهم لضاعوا وهلكوا، فإذا كانوا في تدبير خُوَيِّصة أمرهم وما يُصلحهم من متاع الدنيا الدَّنية ـ وهو على طَرَف الثُّمام[1] ـ بهذه الحالة، فما ظنُّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدِّين، وهو أبعدُ من مَناط العَيُّوق[2]؟ ومن أين لهم البحثُ عن أمر النبوَّة والتخيُّر لها مَنْ يصلح لها ويقوم بأمرها؟

والسُّخرِيّ على ما سمعت نسبةً إلى السُّخرة، وهي التذليل والتكليف، وقال الراغب: السُّخري هو الذي يقهر أن يتسخَّر بإرادته[3]. وزعم بعضُهم أنه هنا من السُّخر بمعنى الهُزء، أي: ليهزأ الغنيُّ بالفقير، واستبعده أبو حيان[4]، وقال السمين: إنه غيرُ مناسبٍ للمقام[5].

وقرأ عمرو بن ميمون وابن مُحيصن وابن أبي ليلى وأبو رجاء والوليد بن مسلم: «سِخريّاً» بكسر السين[6]، والمُراد به ما ذكرنا أيضاً.

---

(١) الثُّمام: نبت ضعيف سهل التناول، قالوا: إنه ينبت على قدر قامة المرء، يضرب به المثل في تسهيل الحاجة وقرب النجاح. مجمع الأمثال ٢/ ٣٩٨.
(٢) العَيُّوق: كوكب يطلع مع الثريا، ضربت العرب به المثل في تأكيد بُعد الشيء وما لا يُنال. مجمع الأمثال ١/ ١١٥.
(٣) المفردات في غريب ألفاظ القرآن (سخر)، وعبارته: هو الذي يُقهر فيتسخَّر بإرادته.
(٤) في البحر المحيط ٨/ ١٣.
(٥) الدر المصون ٩/ ٥٨٤، وعبارته: ويَبْعُدُ قولُ بعضهم: إنه استهزاء الغني بالفقير.
(٦) القراءات الشاذة ص١٣٥، والبحر المحيط ٨/ ١٣.

وفي قوله تعالى: «نحن قسمنا» إلخ ما يُزَهِّد في الانكباب على طلب الدنيا، ويُعين على التوكّل على الله عز وجل والانقطاعِ إليه جل جلاله:

فاعتبِرْ نحن قَسمنا بينهم تَلْقَه حقّاً وبالحقِّ نزلْ[1]

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ أي: النبوّة وما يَتْبعها من سعادة الدارين. وقيل: الهدايةُ والإيمان. وقال قتادة والسدي: الجنة ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ من حُطام الدنيا الدَّنيَّة، فالعظيم مَن رُزِقَ تلك الرحمة دون ذلك الحُطام الدنيء الفاني.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ استئنافٌ مُبيِّن لحقارة مَتاعِ الدنيا ودَناءة قَدْره عند الله عز وجل، والمعنى: إنَّ حقارةَ شأنه بحيث لولا كراهةُ أن يجتمع الناسُ على الكُفر ويُطبقوا عليه لأعطيناه على أتمِّ وجه مَن هو شرُّ الخلائق وأدناهم منزلةً، فكراهة الاجتماع على الكُفر هي المانعةُ من تمتيع كلِّ كافر والبَسط عليه، لا أنَّ المانعَ كونُ مَتاع الدنيا له قَدْرٌ عندنا. والكراهةُ المذكورة هي وجه الحِكمة في ترك تنعيم كلِّ كافر وبسط الرزق عليه، فلا محذور في تقديرها، وليس ذلك مَبْنيّاً على وجوب رِعاية المصلحة وإرادة الإيمان من الخَلْق ليكون اعتزالاً كما ظُنَّ.

وكأنَّ وجهَ كون البسط على الكُفار سبباً للاجتماع على الكُفر مَزيدُ حُبِّ الناس للدنيا، فإذا رَأَوْا ذلك كفروا لِينالوها، وهذا على معنى أن الله تعالى شأنه عَلِمَ أنه لو فعل ذلك لدعا الناسَ إذْ ذاك حُبُّهم للدنيا إلى الكُفر، فلا يقال: إنَّ كثيراً من الناس اليومَ يتحقَّق الغنى التامّ لو كفر ولا يكفر ولو أكره عليه بالقتل. وكونُ المرادِ بالأمر الواحد الذي يقتضيه كونُهم أمَّةً واحدة ـ فإنه بمعنى اجتماعهم على أمرٍ واحد ـ الكفرَ بقرينة الجواب.

و«لبيوتهم» بدل اشتمال من قوله تعالى: «لمن يكفر» واللام فيهما للاختصاص، أو هما مُتعلِّقان بالفعل لا على البَدليَّة، ولام «لمن» صلة الفعل لِتعدِّيه باللام، فهو

(١) البيت لابن الوردي وهو أحد أبيات لاميته الشهيرة. فتح الرحيم الرحمن شرح لامية ابن الوردي ص٩٦.

بمنزلة المفعول به، ولام «لبيوتهم» للتعليل فهو بمنزلةِ المفعول له، ويجوز أن تكونَ الأُولى للمِلك والثانية للاختصاص، كما في قولك: وهبتُ الحبلَ لزيد لِدابَّته، وإليه ذهب ابنُ عطية[١]، ولا يجوز على تقدير اختلاف اللامين معنى البدلية، إذْ مقتضى إعادة العامل في البدل الاتّحاد في المعنى، وإلى هذا ذهب أبو حيان[٢].

وقال الخفاجي: لا مانع من أن يُبدل المجموع من المجموع بدون اعتبارِ إعادةٍ[٣].

والسُّقُف جمع سَقْف كَرُهُن جمع رَهْن، وعن الفراء[٤] أنه جمع سَقيفة كَسُفن جمع سَفينة، والمعارج جمع مَعْرج، وهو عطفٌ على «سُقفاً» أي: ولَجعلنا لهم مصاعدَ عليها يعلُون السُّطوحَ والعلالي، وكأن المرادَ: معارج من فضة، بناءً على أن العطفَ ظاهرٌ في التشريك في القيد وإن تقدَّم. وقال أبو حيان: لا يتعيَّن ذلك[٥].

وقرأ أبو رجاء: «سُقْفاً» بضم السين وسكون القاف تخفيفاً. وفي «البحر»: هي لغةُ تميم[٦].

وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بفتح السين والسكون[٧] على الإفراد؛ لأنه اسمُ جنس يُطلق على الواحد وما فوقه، وهو المرادُ بقرينةِ البيوت.

وقُرئ بفتح السين والقاف[٨]، وهي لغةٌ في سَقْف، وليس ذلك تحريكَ ساكن، لأنه لا وجهَ له. وقرئ: «سُقوفاً»[٩] وهو جمع سَقْف، كَفُلوس جمع فَلْس.

---

(١) في المحرر الوجيز ٥/ ٥٤.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٣) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤١.
(٤) في معاني القرآن ٣/ ٣٢.
(٥) البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٦) المصدر السابق.
(٧) وقرأ بها أيضاً أبو جعفر. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٨) البحر المحيط ٨/ ١٥.
(٩) المصدر السابق.

وقرأ طلحة: «معاريج»(١) جمع مِعْراج.

﴿وَلِبُيُوتِهِمْ﴾ أي: ولجعلنا لِبيوتهم. وتكريرُ ذِكْر بيوتهم لزيادة التقرير، ولأنه ابتداءُ آية ﴿أَبْوَابًا وَسُرُرًا﴾ أي: من فضة على ما سمعت. وقرئ: «سَرَراً» بفتح السين والراء(٢)، وهي لغةٌ لبني تميم وبعض كلب، وذلك في جمع فَعيل المُضَعَّف إذا كان اسماً باتّفاق، وصفةً ـ نحو: ثوبٌ جديد وثيابٌ جُدد ـ باختلاف بين النحاة.

﴿عَلَيْهَا﴾ أي: على السُّرر ﴿يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾﴾ كما هو شأنُ الملوك، لا يهمُّهم شيء.

﴿وَزُخْرُفًا﴾ قال الحسن: أي: نُقوشاً وتزاويقَ. وقال ابن زيد: الزُّخرف: أثاثُ البيت وتجملاته، وهو عليهما عطفٌ على «سقفا»، وقال ابن عباس وقتادة والشعبي والسدي والحسن أيضاً ـ في رواية ـ: الزخرف: الذَّهب. وأكثر اللّغويين ذكروا له مَعْنيين: هذا والزينة، فقيل: الظاهرُ أنه حقيقةٌ فيهما، وقيل: إنه حقيقةٌ في الزِّينة، ولكون كمالها بالذهب استُعمل فيه أيضاً، ويُشير إليه كلامُ الراغب(٣)، قال: الزخرف الزينة المُزوَّقة، ومنه قيل للذهب: زُخرف.

وفي «البحر»: جاء في الحديث: «إيَّاكم والحُمرةَ، فإنها من أحبِّ الزينة إلى الشيطان»(٤). وقال ابن عطية(٥): الحُسْنُ أحمر والشَّهوات تَتْبعه؛ ولبعض شعراء المغرب:

وصَبغتَ دِرْعَكَ من دماء كُماتهم ... لما رأيتَ الحسنَ يلبسُ أحمرا(٦)

وهو على هذا عطفٌ على محلِّ «من فضة» كأنَّ الأصلَ سقفاً من فضة

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٢) كذا قال المصنف، والصواب: بضم السين وفتح الراء. ينظر الدر المصون ٩/ ٥٨٥.

(٣) المفردات (زخرف).

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٥، والحديث أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (٢٧٨٩) من حديث عبد الرحمن بن يزيد بن راشد ﷺ. وهو حديث ضعيف، في إسناده الحسن البصري، وهو مدلس وقد عنعنه، وسعيد بن بشير، وهو ضعيف، كما في الإصابة ٤/ ٣٢٧.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٥٤.

(٦) البيت لابن عمار من قصيدة طويلة يمدح بها المعتضد عبّاد والد المعتمد. ذكرها صاحب نفح الطيب ١/ ٦٥٥.

وزخرفٍ، يعني: بعضُها من فضة وبعضُها من ذهب، فَنُصب عطفاً على المحلِّ، وجُوِّز عطفُه على «سقفاً» أيضاً.

﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: وما كلُّ ما ذُكر من البيوت الموصوفة بالصِّفات المُفصَّلة إلا شيء يتمتَّع به في الحياة الدنيا، وفي معناه ما قُرِئ: «وما كل ذلك إلاامتاعُ الدنيا»[١].

وقرأ الجمهور «لَمَا» بفتح اللام والتخفيف[٢] على أنَّ «إنْ» هي المُخفَّفة من الثقيلة واللام هي الفارقة بين المُخفَّفة وغيرها، و«ما» زائدة أو موصولة، بتقدير: لما هو متاع، كما في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] في قراءة من رفع النون[٣].

وقرأ أبو رجاء[٤] - وفي «التحرير»: أبو حيوة -: «لِمَا» بكسر اللام والتخفيف على أنَّ «إنْ» هي المُخَفَّفة واللام حرف جرّ و«ما» موصولة في محلِّ جرٍّ بها، والجارُّ والمجرور في موضع الخبر لـ «كلّ»، وصدر الصلة محذوفٌ كما سمعت آنفاً. وحقُّ التركيب في مثله الإتيان باللام الفارقة، فيقال: لَلِما متاعُ، لكنها حُذفت لِظُهور إرادة الإثبات كما في قوله:

أنا ابنُ أُباة الضَّيم من آل مالكٍ وإنْ مالكٌ كانت كرامَ المعادن[٥]

بل لا يجوز في البيت إدخالُ اللام كما لا يخفى على النحوي.

﴿وَٱلْءَاخِرَةُ﴾ أي: بما فيها من فُنون النعيم التي لا يُحيط بها نِطاقُ البيان ﴿عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ خاصة لهم، والمرادُ بهم مَن اتَّقى الشِّرك. وقال غير واحد: من اتَّقى ذلك والمعاصي.

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٨٧.

(٢) قرأ عاصم وحمزة وهشام بخلف عنه وابن جمّاز بتشديد الميم، والباقون بتخفيفها، وهو الوجه الثاني لهشام.

(٣) قرأ بها يحيى بن يعمر وابن أبي إسحاق. الدر المصون ٥/ ٢٢٨.

(٤) في الأصل و(م): وقرأ رجاء، والمثبت من تفسير القرطبي ١٩/ ٤٣، والبحر المحيط ٨/ ١٥.

(٥) قائله الطرمّاح، وهو في ديوانه ص٥١٢.

وفي الآية من الدلالة على التزهيد في الدنيا وزينتها والتحريض على التقوى ما فيها؛ وقد أخرج الترمذي ـ وصحّحه ـ وابنُ ماجه عن سَهْل بن سَعْد قال: قال: رسولُ الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تَعْدِلُ عند الله تعالى جَناحَ بعوضة ما سَقى منها كافراً شَرْبَةَ ماء»[١].

وعن عليٍّ كرم الله وجهه: الدنيا أحقرُ من ذراع خنزير ميتٍ بال عليه كلبٌ في يدِ مجذوم.

هذا، واستدلَّ بعضُهم بقوله تعالى: «لبيوتهم سقفا» على أن السَّقف لربِّ البيت الأسفل لا لصاحب العلو؛ لأنه منسوبٌ إلى البيت.

﴿وَمَن يَعْشُ﴾ أي: يتعامَ ويُعرض ﴿عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وهو القرآن، وإضافتُه إلى الرحمن للإيذان بنزوله رحمةً للعالمين، وجُوِّز أن يكون مصدراً أُضيف إلى المفعول، أي: مَنْ يعشُ عن أن يَذْكُرَ الرحمنَ. وأن يكون مصدراً أُضيف إلى الفاعل، أي: عن تذكير الرحمن عبادَه سبحانه.

وقرأ يحيى بن سلام البصري: «يعشَ» بفتح الشين كـ: يَرضَ[٢]، أي: يَعْمَ، يقال: عَشِيَ كـ: رَضِيَ، إذا حصلت الآفةُ في بصرِه، وعشَا كغزا، إذا نظرَ نظرَ العَشِي لعارض، قال الحطيئة:

متى تَأْتِهِ تعشو إلى ضوء ناره تَجِدْ خيرَ نار عندها خيرُ مُوْقِدِ[٣]

أي: تنظر إليها نظر العَشِي لِمَا يُضْعِفُ بَصَرَك من عِظَم الوقود واتِّساع الضوء، ولو لم يكن كذلك لم يكن لكلمة الغاية موقع، وأظهرُ منه في المقصود قولُ حاتم[٤]:

أعشو إذا ما جارتي بَرزَتْ حتى يُواري جارتي الخِدْرُ

لأنه قيَّد بالوقت وأتى بالغاية، وما هو خَلْقيٌّ لا يزول.

وقال بعضهم: لم أرَ أحداً يُجيز: عَشَوْتُ عنه، إذا أعرضت، وإنما يقال: تَعاشَيْتُ وتَعامَيْتُ عن الشيء؛ إذا تغافلت عنه كأنك لم تَرَه، ويقال: عشوتُ إلى

(١) سنن الترمذي (٢٣٢٠)، وسنن ابن ماجه (٤١١٠).
(٢) البحر المحيط ٨/ ١٦.
(٣) ديوان الحطيئة ص١٦١.
(٤) كما في الكشاف ٣/ ٤٨٨، وينسب أيضاً لمسكين الدارمي. ينظر الخزانة ٣/ ٧١-٧٣، وينظر كذلك ما سلف ١/ ٤٧٣.

النار، إذا استدللت عليها ببصرٍ ضعيف، وهو مما لا يلتفت إليه.

ومثل[١] عَشِي وعشا: عَرِجَ ـ بكسر الراء ـ لمن به الآفةُ، وعَرَجَ بفتحها لمن مشَى مِشْيةَ العرجان من غير عَرَجٍ، على ما في «الكشاف»[٢]، وفيه خلافٌ لأهل اللغة؛ ففي «القاموس»: يقال: عَرَجَ ـ أي: بالفتح ـ إذا أصابه شيء في رِجْله وليس بخِلْقة، فإذا كان خِلْقةً فَعَرِجَ، كَفَرِحَ، أو يُثَلَّث في غير الخِلْقة[٣].

وقرأ زيد بن عليٍّ: «يعشو» بإثبات الواو، وخرَّج ذلك الزمخشري[٤] على أنَّ «مَنْ» موصولة لا شرطية جازمة، وجُوِّز أن تكون شرطية، والمَدَّة إما للإشباع، أو على لغةِ مَن يَجزمُ المعتلَّ الآخر بحذف الحركة، على ما حكاه الأخفش[٥]، وجوز كون الفعل مجزوماً بحذف النون، والواو ضمير الجمع، وقد رُوعي فيه معنى «مَن»، وتخريجُ الزمخشري مبني على الفصيح المطَّرد المتبادر.

﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ أي: نُتِحْ له شيطاناً لِيستوليَ عليه استيلاءَ القيض على البيض، وهو القشرُ الأعلى.

﴿فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ دائماً لا يُفارقه ولا يزال يُوسوسه ويغويه، وهذا عقابٌ على الكُفر بالخَتْم وعدم الفلاح، كما يقال: إن الله تعالى يُعاقِبُ على المعصية بمزيد اكتساب السيئات.

وقرأ عليٌّ كرم الله تعالى وجهه والسُّلمي والأعمش ويعقوب وأبو عمرو ـ بخلاف عنه ـ وحمَّاد عن عاصم وعصمة عن الأعمش وعن عاصم، والعليمي عن أبي بكر: «يُقَيِّض» بالياء[٦]، على إسناده إلى ضمير «الرحمن».

---

(١) في (م): ومثله.

(٢) ٣/ ٤٨٧-٤٨٨.

(٣) القاموس المحيط (عرج).

(٤) في الكشاف ٣/ ٤٨٨، وقراءة زيد بن علي ذكرها أيضاً في البحر ٨/ ١٦.

(٥) كما في البحر المحيط ٨/ ١٦.

(٦) قراءة علي ﷺ في البحر المحيط ٨/ ١٦، وقراءة السلمي والأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥، وقراءة يعقوب والعليمي عن أبي بكر في النشر ٢/ ٣٦٩، والمشهور عن أبي عمرو وعاصم: «نقيض» بالنون.

وقرأ ابن عباس: «يُقَيَّض» بالياء والبناء للمفعول، «شيطانٌ» بالرفع[1].

والفعل في جميع القراءات مجزوم، ولم نسمع أنه قُرئ بالرفع. وفي «الكشاف»[2]: حقّ من قرأ: «من يعشو» بالواو أن يرفَعه. أي: بناءً على تخريجه ذلك على أن «مَن» موصولة، وجوز على ذلك أيضاً أن يكون «نقيّض» مرفوعاً لكنه سُكِّن تخفيفاً.

وفي «البحر»[3]: يجوز أن تكون «مَنْ» موصولة وجزم «نُقيِّض» تشبيهاً للموصول باسم الشرط، وإذا كان ذلك مسموعاً في «الذي» وهو لم يكن اسمَ شرط قطُّ فالأولى أن يكون فيما استُعمل موصولاً وشرطاً، قال الشاعر:

ولا تَحفِرَنْ[4] بئراً تُريد أخاً بها ... فإنَّك فيها أنت مَن دونه تَقَعْ

كذاك الذي يبغي على الناس ظالماً ... تُصِبْه على رَغْمٍ عواقبُ ما صَنَعْ

أنشدهما ابنُ الأعرابي[5]، وهو مذهبٌ للكوفيين، وله وجهٌ من القياس، وهو أنه كما شبِّه الموصول باسم الشرط فدخلت الفاء في خبره فكذلك يُشبَّه به فينجزم الخبر، إلا أن دخولَ الفاء مُنقاسٌ إذا كان الخبر مسبَّباً عن الصلة بشروطه المذكورة في النحو، وهذا لا يَقيسه البصريون.

﴿وَإِنَّهُمْ﴾ أي: الشياطين الذين قُيِّض وقُدِّر كلُّ واحد منهم لكلِّ واحدٍ ممن يعشو ﴿لَيَصُدُّونَهُمْ﴾ أي: لَيصدُّون قرناءهم، وهم الكُفَّارُ المُعبَّر عنهم بـ «من يعش»، وجمع ضمير الشيطان؛ لأنَّ المرادَ به الجنس، وجمع ضمير «من» رعاية للمعنى، كما أفرد أولاً رعايةً للفظ.

وفي «الانتصاف»[6]: إن في هذه الآية نُكتتين بديعتين: الأولى: الدلالة على

---

(١) ذكرها ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/ ٥٥.
(٢) ٣/ ٤٨٨.
(٣) ٨/ ١٦.
(٤) في الأصل و(م): لا تحقرن، والمثبت من البحر، وبه يستقيم وزن البيت ومعناه.
(٥) وهما في أمالي الزجاجي ص ١٨٥ منسوبان لسابق البربري.
(٦) ٣/ ٤٨٨ (بحاشية الكشاف).

أن النكرةَ الواقعة في سياق الشرط تُفيد العموم، وهي مسألة اضطربَ فيها الأصوليون، وإمام الحرمين من القائلين بإفادتها العموم[١] حتى استدركَ على الأئمة إطلاقَهم القولَ بأن النكرةَ في سياق الإثبات تخصُّ، وقال: إنَّ الشرط يعمُّ والنكرة في سياقه تعمّ. وقد ردَّ عليه الفقيه أبو الحسن علي الأبياري[٢] شارح كتابه ردًّا عنيفاً. وفي هذه الآيةِ للإمام ومن قال بقوله كفاية، وذلك أن الشيطانَ ذُكر فيها مُنَكَّراً في سياق شرط، ونحن نعلم أنه إنما أُريد عموم الشياطين لا واحد؛ لوجهين: أحدهما: أنه قد ثبت أن لكلِّ أحدٍ شيطاناً، فكيف بالعاشي عن ذِكْر الله تعالى. والآخر: من الآية، وهو أنه أعيد عليه الضمير مجموعاً في قوله تعالى: «وإنهم» فإنه عائدٌ إلى الشيطان قولاً واحداً، ولولا إفادتُه عمومَ الشُّمول لما جاز عودُ ضمير الجمع عليه بلا إشكال. فهذه نكتةٌ تجد عند سماعها لمخالفي هذا الرأي سكتةً.

النكتة الثانية: أن فيها ردًّا على مَنْ زَعم أن العودَ على معنى «من» يمنع من العَوْد على لفظها بعد ذلك، واحتجَّ لذلك بأنه إجمالٌ بعد تفسير، وهو خلافُ المعهود من الفصاحة، وقد نقض ذلك الكندي وغيره بآيات، واستخرج جدِّي[٣] من هذه الآية نقضَ ذلك أيضاً؛ لأنه أُعيد الضمير على اللفظ في «يعش» و«له»، وعلى المعنى في «ليصدّونهم» ثم على اللفظ في «حتى إذا جاءنا»، وقد قدَّمتُ أن الذي مَنَع قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملةٍ واحدة، وأما إذا تعدَّدت الجملُ واستقلَّت كلٌّ بنفسها فقد لا يمنع ذلك. انتهى.

وفي كون ضمير «إنهم» عائداً على الشيطان قولاً واحداً نظر؛ فقد قال أبو حيان[٤]: الظاهرُ أن ضميرَ النصب في «إنهم ليصدونهم» عائدٌ على «من» على

---

(١) البرهان ١/ ٢٣٢.

(٢) علي بن إسماعيل بن علي، من العلماء الأعلام، كان بارعاً في علوم شتى له تصانيف حسنة، منها كتاب شرح البرهان للجويني، وكتاب سفينة النجاة على طريقة الإحياء. توفي سنة (٦١٦هـ). الديباج المذهب ٢/ ١٢١.

(٣) هو أحمد بن إسماعيل بن فارس التميمي السكندري، سلفت ترجمته ١٠/ ٣٩١.

(٤) البحر المحيط ٨/ ١٦.

المعنى، وهو أولى من عَوْدِ ضمير «إنهم» على الشيطان كما ذهب إليه ابن عطية[1] لتناسق الضمائر في «إنهم» وما بعده، فلا تَغْفُل.

﴿عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾المُستبين الذي يدعو إليه ذكرُ الرحمن.

﴿وَيَحْسَبُونَ﴾ أي: العاشون ﴿أَنَّهُم﴾ أي: الشياطين ﴿مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ أي: إلى ذلك السبيل الحقِّ، وإلا لَمَا اتَّبعوهم، أو: ويحسبُ العاشون أنَّ أنفسهم مهتدون، فإنَّ اعتقادَ كون الشياطين مُهتدين مستلزمٌ لاعتقاد كونهم كذلك، لاتِّحاد مَسْلَكهما. والظاهر أنَّ أبا حيان يختار هذا الوجهَ للتناسق أيضاً.

والجملة حالٌ من مفعول «يصدون» بتقدير المبتدأ، أَوْ من فاعله، أو منهما لاشتمالها على ضميريهما، أي: وإنهم ليَصدُّونهم عن الطريق الحقّ وهم يحسبون أنهم مهتدون إليه.

وصيغةُ المضارع في الأفعال الأربعة للدلالة على الاستمرار التجدُّدي لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ فإنَّ «حتى» وإن كانت ابتدائيةً داخلةً على الجملة الشرطية لكنها تقتضي حتماً أن تكون غايةً لأمر مُمتدٍّ، وأُفرد الضمير في جاء وما بعده لما أنَّ المرادَ حكايةُ مقالة كلِّ واحدٍ من العاشين لِقرينه لِتهويلِ الأمر وتفظيع الحال، والمعنى: يستمرُّ أمرُ العاشين على ما ذُكر حتى إذا جاءنا كلُّ واحد منهم مع قرينه يومَ القيامة ﴿قَالَ﴾ مُخاطباً له: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ﴾ أي: في الدنيا، وقيل: في الآخرة ﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ أي: بُعدَ كلٍّ منهما من الآخر. والمرادُ بهما المشرقُ والمغرب، كما اختاره الزجاج والفراء[2] وغيرهما، لكن غُلِّب المشرق على المغرب وثُنِّيا كالمَوْصلين لِلمَوْصل والجزيرة، وأُضيف البُعد إليهما، والأصل: بُعْدَ المشرقِ من المغرب، والمغربِ من المشرق، وإنما اختصر هذا المبسوط لِعدمِ الإلباس؛ إذ لا خَفاء أنه لا يُراد بُعْدُهما من شيء واحد؛ لأنَّ البُعدَ من أحدِهما قُربٌ من الآخر، ولأنهما مُتقابلان، فَبُعد أحدِهما من الآخر مَثَلٌ في غاية البعد لا بعدهما عن شيء آخر. وإشعارُ السِّياق بالمبالغة لا يُنكر، فلا لبس من هذا الوجه أيضاً.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٥.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٤/ ٤١٢، وللفراء ٣/ ٣٣.

وقال ابن السائب: لا تغليب، والمرادُ مشرقُ الشمس في أقصر يوم من السنة، ومشرقُها في أطول يوم منها.

﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾﴾ أي: أنت، وقيل: أي: هو، على أنه من كلامه تعالى. وهو كما ترى.

وقرأ أبو جعفر وشيبة وأبو بكر والحرميان وقتادة والزهري والجحدري: «جاءانا» على التثنية[1]، أي: العاشي والقرين. وقوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ﴾ إلخ حكايةٌ لما سيُقال لهم حينئذ من جهة الله عز وجل توبيخاً وتقريعاً، وفاعل «ينفعكم» ضميرٌ مستتر يعودُ على ما يُفهم مما قبلُ، أي: لن ينفعَكم هو، أي: تمنِّيكم لِمُباعدتهم أو الندم أو القول المذكور.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ بدل من «اليوم»، أي: إذْ تبيَّن أنَّكم ظَلَمْتم في الدنيا، قاله غير واحد، وفُسِّر ذلك بالتبيُّن، قيل: لئلا يُشكل جعلُه ـ وهو ماض ـ بدلاً من «اليوم» وهو مستقبل؛ لأن تَبيُّنَ كونهم ظالمين عند أنفسهم إنما يكون يومَ القيامة، فاليوم وزمان التبيُّن مُتَّحدان، وهذا كقوله:

إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة[2]

وأُورد عليه أن السؤالَ عائدٌ؛ لأن «إذ» ظرفٌ لما مضى من الزمان، ولا يخرجُ عن ذلك باعتبار التبيُّن. وتفصَّى بعضهم عن الإشكال بأن «إذ» قد تخرج من المُضِي إلى الاستقبال على ما ذهب إليه جماعةٌ منهم ابنُ مالك مُحتجّاً بقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ * إِذِ ٱلْأَغْلَـٰلُ﴾ [غافر: ٧٠-٧١] وإلى الحال كما ذهب إليه بعضُهم محتجّاً بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١] فلتكن هنا للاستقبال، وأهلُ العربية يُضَعِّفون دعوى خروجها من المضي.

وقال الجلبي: لعل الأظهرَ حَمْلُها على التعليل فيتعلَّق بالنفي، فقد قال سيبويه: إنها بمعنى التعليل حرفٌ بمنزلة لام العلة، نعم أنكر الجمهورُ هذا القِسْمَ لكنَّ إثبات

(١) وقرأ بها ابن عامر أيضاً. التيسير ص١٩٦، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٢) سلف ص٣١٤ من هذا الجزء.

سيبويه إياه يكفي حُجَّة؛ فإنَّ القولَ ما قالت حَذامِ.

وتُعقِّب بأنه لا يكفي في تخريج كلام الله سبحانه إثباتُ سيبويه وحدَه مع إطباق جميع أئمة العربية على خلافه، وأيضاً تعليلُ النفي بعدُ يُبعده.

وقال أبو حيان: لا يجوز البدل على بقاء «إذ» على موضوعها من كونها ظرفاً لما مضى من الزمان، فإنْ جُعلتْ لمطلق الوقت جاز[1]. ولا يخفى أن ذلك مجازٌ، فهل تكفي البدلية قرينةً له، فإن كَفَتْ فذاك.

وقال ابن جني[2]: راجعتُ أبا عليٍّ في هذه المسألة ـ يعني الإبدال المذكور ـ مراراً، وآخر ما تحصَّل منه أنَّ الدنيا والآخرة متَّصلتان، وهما سواءٌ في حُكمِ الله سبحانه وعِلْمِهِ جل شأنه إذْ لا يجري عليه عز وجل زمانٌ، فكأن «إذ» مستقبل أو «اليوم» ماضٍ فصحَّ ذلك، ورُدَّ بأن المُعتبر حال الحكاية، والكلامُ فيها واردٌ على ما تعارفه العرب، ولولاه لَسُدَّ بابُ النكات، ولَغَت الاعتباراتُ في العبارات، ومثله غَنيٌّ عن البيان.

وقال أبو البقاء[3]: التقديرُ: بعد إذْ ظلمتُم. فَحُذفَ المُضاف للعلم به.

وقال الحوفي: «إذ» متعلّقة بما دلَّ عليه المعنى، كأنه قيل: ولن ينفعكم اليومَ اجتماعُكم إذْ ظلمتُم، مثلاً.

ومن الناس من استشكل الآيةَ من حيث إن فيها إعمالَ «ينفعكم» الدالّ على الاستقبال لاقترانه بـ «لن» في «اليوم»، وهو الزمانُ الحاضر، و«إذ» وهو للزمان الماضي، وأُجيب بأنه يدفع الثاني بما قدَّروه من التبيُّن لأنَّ تبيُّنَ الحال يكون في الاستقبال، والأول بأنَّ «اليوم» تعريفُه للعهد، وهو يومُ القيامة، لا للحضور كتعريف الآن وإن كان نوعاً منه.

وقيل: يُدفع بأنَّ الاستقبالَ بالنسبة إلى وقت الخطاب، وهو بعضُ أوقات اليوم. وهو كما ترى، فتأمَّل ولا تَغْفُل.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٧.

(٢) الخصائص ٢/ ١٧٢.

(٣) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٠٢.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ تعليلٌ لنفي النفع، أي: لأنَّ حقَّكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مُشتركين في سببه في الدنيا.

وجوِّز أن يكون الفعلُ مُسنداً إليه، أي: لن ينفعكم كونُكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصَّعب اشتراكُهم فيه لتعاونهم في تحمُّل أعبائه وتقسُّمهم لِشدَّته وعَنائه، وذلك أن كلَّ واحدٍ منكم به من العذاب ما لا تبلُغه طاقته.

أو: لن ينفعَكم ذلك من حيث التأسِّي، فإن المكروبَ يتأسَّى ويتروَّح بوجدان المُشارك، وهو الذي عنته الخنساء بقولها:

يُذَكِّرني طلوعُ الشمس صخراً ... وأذكُره بكلِّ مَغيبِ شمسِ
ولولا كثرةُ الباكين حولي ... على إخوانهم لَقتلتُ نفسي
وما يبكون مثلَ أخي ولكن ... أُعزِّي النفسَ عنه بالتأسّي[1]

فهؤلاء لا يؤسِّيهم[2] اشتراكُهم ولا يُروِّحهم؛ لِعِظَم ما هم فيه.

أو: لن ينفعكم ذلك من حيث التشفِّي، أي: لن يحصل لكم التشفِّي بكون قرنائكم مُعذَّبين مِثْلكم حيث كنتم تدَّعون عليهم بقولكم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب:٦٨] وقولكم: ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ [الأعراف:٣٨] لتَتَشفَّوا بذلك.

واعتُرض على الوجه الأول من هذه الأوجه الثلاثة بأنَّ الانتفاعَ بالتعاون في تحمُّل أعباء العذاب ليس ما يخطُر ببالهم حتى يُرَدَّ عليهم بنفيه.

وأُجيب بأنه غيرُ بعيدٍ أن يخطُر ذلك ببالهم؛ لمكان المُقارنة والصُّحبة، والغريق يَتشبَّثُ بالحشيش، والظمآنُ يحسب السرابَ شراباً.

وقرأ ابنُ عامر: «إنكم» بكسر الهمزة[3]، وهو يقوي ما ذُكر أولاً من إضمار

---

(١) ديوان الخنساء ص ٨٤-٨٥.

(٢) في (م): يؤسيهم. بدون «لا».

(٣) ذكرها الداني في جامع البيان ٢/ ٤٠١ من رواية التغلبي عن ابن ذكوان، والقراءة المشهورة عن ابن عامر بفتح الهمزة.

الفاعل، وتقدير اللام في «أنكم» معنى ولفظاً، لأنه لا يُمكن أن يكونَ فاعلاً فيتعيَّن الإضمارُ، ولأنَّ الجملةَ عليها تكون استئنافاً تعليليّاً فيناسب تقدير اللام لِتتوافقَ القراءتان.

وقولُه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ﴾ إنكارُ تعجيب من أن يكون ﷺ هو الذي يقدر على هدايتهم، وهم قد تمرَّنوا في الكُفر واعتادوه، واستغرقوا في الضلال بحيث صار ما بهم من العَشَا عمًى مقروناً بالصَّمم.

﴿وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾﴾ عطفٌ على العمى باعتبار تغاير الوَصْفين ـ أَعني العمَى والضلال ـ بحسب المفهوم وإن اتَّحدا مآلاً، ومدارُ الإنكار هو التمكُّن والاستقرار في الضلال المُفرِط الذي لا يخفى، لا تَوهُّمُ القصور منه عليه الصلاة والسلام، ففيه رمزٌ إلى أنه لا يقدر على ذلك إلا الله تعالى وحدَه بالقَسْر والإلجاء، وقد كان ﷺ يُبالغ في المُجاهدة في دُعاء قومه وهم لا يَزيدون إلا غيّاً وتعامِياً عما يُشاهدونه من شواهد النبوة، وتصامّاً عما يسمعونه من بيِّنات القرآن، فنزلت «أفأنت» إلخ.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ﴾ فإنْ قبضناك قبل أن نُبصِّرك عذابَهم، ونَشفي بذلك صدرَك وصُدورَ المؤمنين ﴿فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ لا محالةَ في الدنيا والآخرة، واقتصر بعضُهم على عذاب الآخرة؛ لقوله تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [غافر: ٧٧] والقرآن يُفسِّر بعضُه بعضاً، وما ذكرنا أتمُّ فائدةً وأوفقُ بإطلاق الانتقام، وأما تلك الآيةُ فليس فيها ذِكرُه.

و«ما» مَزيدة للتأكيد، وهي بمنزلة لام القسم في استجلاب النون المؤكِّدة.

﴿أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ﴾ أي: أو أردنا أن نُريك العذابَ الذي وعدناهم ﴿فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ بحيث لا مَناصَ لهم من تحت مُلكنا وقَهْرنا، واعتبارُ الإرادة لأنها أنسبُ بذِكْر الاقتدار بعد، وفي التعبير بالوَعْد وهو سبحانه لا يُخلف المِعياد إشارةٌ إلى أنه هو الواقع، وهكذا كان إذْ لم يُفلتْ أحدٌ من صناديدهم في بدر وغيرها إلا مَنْ تحصَّن بالإيمان.

وقرىء: «نُرِيَنْكَ» بالنون الخفيفة(١).

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾ تسلية له ﷺ وأمرٌ له عليه الصلاة والسلام أو لأُمته بالدوام على التمسُّك بالآياتِ والعمل بها، والفاء في جواب شرط مُقدَّر، أي: إذا كان أحدُ هذين الأمرين واقعاً لا محالةَ فاستمسِكْ بالذي أوحيناه إليك، وقوله تعالى: «إنك» إلخ تعليلٌ للاستمساك أو للأمر به.

وقرأ بعضُ قُرَّاء الشام: «أُوْحِيْ» بإسكان اللام(٢)، وقرأ الضحَّاك: «أَوحى» مَبنياً للفاعل(٣).

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: ما أُوحي إليك، والمراد به القرآن ﴿لَذِكْرٌ﴾ لَشَرفٌ عظيمٌ ﴿لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ هم قريشٌ على ما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن زيد.

وأخرج ابن عدي وابن مردويه عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه وابن عباس رضي الله عنهما قالا: كان رسول الله ﷺ يعرضُ نَفْسَه على القبائل بمكة ويَعِدُهم الظُّهور، فإذا قالوا: لمن المُلك بعدَك؟ أمسكَ فلم يُجبهم بشيء؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لم يُؤمر في ذلك بشيء، حتى نزلت: (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) فكان ﷺ بعدُ إذا سُئل قال: «لقريش» فلا يُجيبونه حتى قَبِلته الأنصارُ على ذلك(٤).

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عَدِي بن حاتم قال: كنتُ قاعداً عند رسول الله ﷺ فقال: «ألا إنَّ الله تعالى عَلِمَ ما في قلبي من حبِّي لقومي فبشَّرني فيهم فقال سبحانه: (وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ) الآية، فجعل الذِّكر والشَّرف لقومي في كتابه»، الحديث، وفيه: «فالحمد لله الذي جعلَ الصِّدِّيقَ من قومي والشهيدَ من قومي، إنَّ الله تعالى قلبَ العبادَ ظهراً وبَطْناً، فكان خيرَ العرب قريشٌ، وهي الشجرةُ المباركةُ» إلى أنْ قال عَدِي: ما رأيتُ رسولَ الله ﷺ ذُكر عنده قريش بخير قطُّ إلا سرَّه، حتى يتبيَّن ذلك السرور في وجهه للناس كُلِّهم، وكان عليه الصلاة

---

(١) البحر ٨/ ١٨، وقرأ بها يعقوب في رواية رويس. النشر ٢/ ٢٤٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٧.

(٣) البحر المحيط ٨/ ١٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ١٨.

والسلام كثيراً ما يتلو هذه الآية: (وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ) إلخ[١].

وقيل: هم العربُ مطلقاً لما أن القرآن نزل بلغتهم، ثم يختصُّ بذلك الشرف الأخصُّ فالأخصُّ منهم حتى يكونَ الشرفُ لِقريش أكثرَ من غيرهم، ثم لبني هاشم أكثرَ مما يكون لسائر قريش.

وفي روايةٍ عن قتادة: هم من اتَّبعه ﷺ من أمته.

وقال الحسن: هم الأمة، والمعنى: وإنه لَتذكرةٌ وموعظةٌ لك ولأُمَّتك. والأرجحُ عندي القولُ الأول.

﴿وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ۝٤٤﴾ يومَ القيامة عنه وعن قيامكم بحقوقه. وقال الحسن والكلبي والزجاج: تُسألون عن شُكر ما جعله الله تعالى لكم من الشَّرف، قيل: إنَّ هذه الآية تدلُّ على أنَّ الإنسانَ يرغب في الثناء الحسن والذِّكرِ الجميل، إذْ لو لم يكن ذلك مرغوباً فيه ما امتنَّ الله تعالى به على رسوله ﷺ، والذِّكر الجميل قائمٌ مقامَ الحياة، ولذا قيل: ذِكْر الفتى عمره الثاني، وقال ابن دُريد:

وإنما المرءُ حديثٌ بعدَه ... فكن حديثاً حسناً لمن وعى[٢]

وقال آخر:

إنما الدنيا محاسنها ... طِيْبُ ما يبقى من الخبر[٣]

ويُحكى أنَّ الطاغيةَ هلاكو سأل أصحابَه: من المَلِك؟ فقالوا له: أنت الذي دوَّخت البلادَ ومَلَكْتَ الأرضَ وطاعَتْك الملوك ـ وكان المُؤذِّن إذْ ذاك يُؤذِّن ـ فقال: لا، المَلِكُ هذا الذي له أَزْيَدُ من ستِّ مئة سنة قَدْ مات وهو يُذكر على المآذن في كلِّ يوم وليلة خمسَ مرات. يريدُ محمداً رسول الله ﷺ.

﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾ أي: هل حكمنا بعبادة غيرِ الله سبحانه، وهل جاءت في مِلَّة من مِلَلِ المُرسَلين

---

(١) الدر المنثور ٦/ ١٨-١٩، والمعجم الكبير للطبراني ١٧/ ٨٦-٨٧ مطولاً، وفي إسناده حصين بن مخارق السلولي أبو جنادة. متهم بالكذب، كما في ميزان الاعتدال ٤/ ٥١١.

(٢) مقصورة ابن دريد بشرح التبريزي ص١٨٥.

(٣) البحر المحيط ١/ ٤٤٦ و٨/ ١٨ دون نسبة.

عليهم السلام؟ والمرادُ الاستشهادُ بإجماع المُرسلين على التوحيد، والتنبيهُ على أنه ليس بِبِدْعٍ ابتدعه ﷺ حتى يُكذَّب ويُعادى له. والكلام بتقدير مضافٍ، أي: واسأل أممَ مَن أرسلنا، أو على جَعْل سؤال الأُمم بمنزلة سؤال المرسلين إليهم؛ قال الفراء[(١)]: هم إنما يُخبرون عن كُتب الرسل، فإذا سألهم عليه الصلاة والسلام فكأنه سأل المُرسلين عليهم السلام.

وعلى الوجهين المسؤولُ الأُمم، ورُوي ذلك عن الحسن ومجاهد وقتادة والسدي وعطاء، وهو رواية عن ابن عباس أيضاً.

وأخرج ابن المنذر وغيره عن قتادة أنه قال: في بعض القراءات: «وَاسأل مَنْ أرسلنا إليهم رُسُلَنا قَبْلَك»[(٢)].

وأخرج هو وسعيد بن منصور عن مجاهد قال: كان عبد الله يقرأ: «واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا» وعن ابن مسعود أنه قرأ: «وأسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبلُ مؤمني أهل الكتاب»[(٣)]

وجعل بعضُهم السؤالَ مجازاً عن النظر والفحص عن مِللهم كما[(٤)] في سؤال الديار والأطلال ونحوها من قولهم: سَلِ الأرضَ مَنْ شَقَّ أنهارَكِ وغَرَسَ أشجارَكِ وجَنَى ثمارَكِ.

وروي عن ابن عباس أيضاً وابن جُبير والزهري وابن زيد أنَّ الكلام على ظاهره، وأنه عليه الصلاة والسلام قيل له ذلك ليلةَ الإسراء حين جُمع له الأنبياءُ في البيت المَقْدس، فأمَّهم، ولم يَسْألهم عليه الصلاة والسلام إذْ لم يكن في شكٍّ[(٥)].

---

(١) معاني القرآن ٣/ ٣٤.

(٢) الدر المنثور ٦/ ١٩، وأخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٤.

(٣) الدر المنثور ٦/ ١٩، وأخرج القراءتين الطبري ٢٠/ ٦٠٤-٦٠٥.

(٤) قوله: كما، ليس في (م).

(٥) أخرجه الطبري ٢٠/ ٦٠٥ عن ابن زيد، وينظر تفسير البغوي ٤/ ١٤١، وتفسير القرطبي ١٩/ ٥٤.

وفي بعض الآثار أن ميكال قال لجبريل عليهما السلام: هل سأل محمدٌ ﷺ عن ذلك؟ فقال: هو أعظمُ يقيناً وأوثقُ إيماناً من أن يسأل.

وتُعقِّب هذا القولُ بأنَّ المرادَ بهذا السؤال إلزامُ المشركين وهم مُنكرون الإسراء. وللبحث فيه مجال.

والخطابُ على جميع ما سمعتَ لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام.

وفي «البحر»: الذي يظهر أنه خِطابٌ للسامع الذي يريدُ أن يفحصَ عن الدِّيانات، قيل له: اسأل أيُّها الناظرُ أتباعَ الرُّسل أجاءتْ رُسلهم بعبادة غيرِ الله عز وجل، فإنهم يُخبرونك أنَّ ذلك لم يَقَعْ، ولا يُمكن أن يأتُوا به[1]. ولَعمري إنه خِلافُ الظاهر جدّاً.

ومما يقضي منه العَجَب ما قيل: إنَّ المعنى: واسألني ـ أوْ: واسألنا ـ عن مَنْ أرسلنا، وعُلّق «اسأل»، فارتفع «مَنْ» وهو اسمُ استفهام على الابتداء، «وأرسلنا» خبرهُ، والجُملة في موضع نصب بـ «اسأل» بعد إسقاط الخافض، كأن سؤاله: مَنْ أرْسَلتَ يا ربِّ قبلي مِنْ رُسُلكَ، أجعلتَ في رسالته آلهةً تُعبد؟ ثم ساق السؤالَ فحكى المعنى، فردَّ الخطاب إلى النبي ﷺ في قوله تعالى: «من قبلك». انتهى.

واسأل مَنْ قرأ أبا جاد: أيَرْضَى بهذا الكلام، ويَسْتَحْسِنُ تفسير كلام الله تعالى المجيد بذلك؟

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ ملتبساً بها ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ أشراف قومهِ، وخُصُّوا بالذِّكر لأن غيرهم تَبَعٌ ﴿فَقَالَ﴾ لهم: ﴿إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾﴾ إليكم؛ وأُريدَ باقتصاصِ ذلك تسليةُ رسول الله ﷺ وإبطالُ قولهم: (لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) لأنَّ موسى عليه السلام مع عدم زخارف الدنيا لديه، كان له مع فرعون وهو مَلِكٌ جبّارٌ ما كان، وقد أيَّده الله سبحانه بوحيه وما أُنزل عليه، والاستشهادُ بدعوته عليه السلام إلى التوحيد إثر ما أُشير إليه من إجماع جميع الرُّسل عليهم السلام عليه، ويُعلم من ذلك وجهُ مناسبة الآياتِ لما قبلها.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ١٩.

وقال أبو حيان[١]: مناسبتُها من وجهين: الأول: أنه ذُكر فيما قبلُ قولُ المشركين: «لولا نزل» إلخ، وفيه زَعْمُ أن العِظَم بالجاه والمال، وأُشير في هذه الآيات إلى أن مثل ذلك سبق إليه فرعون في قوله: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ [الزخرف:٥١] إلخ فهو قُدوتهم في ذلك، وقد انتُقم منه، فكذلك ينتقم منهم. الثاني: أنه سبحانه لما قال: «واسأل» إلخ ذكرَ جل وعلا قصةَ موسى وعيسى عليهما السلام، وهما أكثرُ أتباعاً ممن سَبق من الأنبياء، وكلٌّ جاء بالتوحيد، فلم يكن فيما جاءا به إباحةُ اتِّخاذ آلهة من دون الله تعالى كما اتَّخذتْ قريش، فناسبَ ذِكْرُ قِصَّتهما الآية التي قبلها.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾﴾ أي: فاجؤوا الضَّحِك منها، أي: استهزؤوا بها أولَ ما رَأَوْها ولم يتأمَّلوا فيها، وفي «الكشاف»[٢]: جاز أن تُجاب «لمَّا» بـ «إذا» المفاجأة لأنَّ فعلَ المُفاجأة مُقدَّر معها، وهو عاملُ النصب في محلِّها، كأنه قيل: فلما جاءهم بآياتنا فاجؤوا وقت ضَحِكهم. فالجواب عنده ذلك الفعلُ، وهو العاملُ في «لما»، وقُدِّر ماضياً لأنه المعروفُ في جوابها، و«إذا» مفعولٌ به لا ظرف.

وقال أبو حيان[٣]: لا نعلم نحويّاً ذهب إلى ما ذهب إليه هذا الرجلُ من أنَّ «إذا» الفُجائية تكون منصوبةً بفعل مُقدَّر تقديره: فاجأ، بل المذاهبُ فيها ثلاثةٌ:

الأول: أنها حرفٌ، فلا تحتاج إلى عامل.

الثاني: أنها ظرفُ مكان، فإن صُرِّح بعدَ الاسم بعدَها بخبر له كان ذلك الخبرُ عاملاً فيها نحو: خرجتُ فإذا زيدٌ قائمٌ، فقائمٌ هو الناصب لها، والتقدير: خرجتُ ففي المكان الذي خرجتُ فيه زيدٌ قائم.

الثالث: أنها ظرفُ زمان، والعامل فيها الخبرُ أيضاً؛ كأنه قيل: ففي الزمان الذي خرجتُ فيه زيدٌ قائم. وإذا لم يذكر بعد الاسم خبرٌ، أو ذُكر اسمٌ منصوب على الحال كانت «إذا» خبراً للمبتدأ، فإن كان جُثَّة، وقلنا: «إذا» ظرفُ مكان، كان

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٠.
(٢) ٣/ ٤٩٠.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٠.

الأمرُ واضحاً، وإنْ قلنا: ظرفُ زمان كان الكلامُ على حذفِ مضاف، أي: ففي الزمان حضورُ زيد.

ثم إنَّ المفاجأة التي ادَّعاها لا يدلُّ المعنى على أنها تكون من الكلام السابق، بل يدلُّ على أنها تكون من الكلام التي هي فيه؛ تقول: خرجتُ فإذا الأسدُ. فالمعنى: ففاجأني الأسدُ، دون: ففاجأتُ الأسدَ. انتهى.

وقال الخفاجيُّ[(١)]: ما قيل: إنَّ نصبَها بفعل المفاجأة المُقدَّر هكذا لم يَقُلْه أحدٌ من النُّحاة، لا يُلتفَتُ إليه، وتفصيلُه في شروح «المغني»[(٢)].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ﴾ من الآيات ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَاۖ﴾ أي: من آيةٍ مِثْلها في كونها آيةً دالَّةً على النبوَّة، واستُشكل بأنه يلزم كونُ كلٍّ واحدة من الآيات فاضلةً ومفضولةً معاً، وهو يُؤدِّي إلى التناقض وتفضيلِ الشيء على نَفْسِهِ لعموم «آية» في النفي.

وأُجيب بأنَّ الغرضَ من هذا الكلام أنهنَّ موصوفاتٌ بالكِبَر لا يكدنَ يتفاوتْنَ فيه، على معنى أن كلَّ واحدة لكمالها في نفسها إذا نُظِرَ إليها قيل: هي أكبرُ من البواقي لاستقلالها بإفادة المقصودِ على التمام، كما قال الحماسي:

مَنْ تلق منهم تَقُلْ لاقيتُ سَيِّدهم ... مثلُ النجوم التي يسري بها الساري[(٣)]

وإذا لُوحظ الكل توقّف عن التفضيل بينهنَّ، ولقد فاضلَتْ فاطمةُ بنت خرشب الأنمارية بين أولادها الكَمَلَة: ربيعة الحفاظ، وعُمارة الوهاب، وأنس الفوارس، ثم قالت لمَّا[(٤)] أبصرتْ مَراتبهم متدانيةً قليلةَ التفاوت: ثَكِلْتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيُّهم أفضلُ، هم كالحَلْقة المُفرغَة لا يُدرى أين طرفاها.

وقال بعضُ الأجِلَّة: المرادُ بأفعل الزيادةُ من وجه، أي: ما نُريهم من آيةٍ إلا هي مُختصَّةٌ بنوع من الإعجاز مفضَّلة على غيرها بذلك الاعتبار، ولا ضيرَ في كون

---

(١) حاشية الشهاب ٧/ ٤٤٤.

(٢) مغني اللبيب ص١٢٠.

(٣) البيت لعبيد بن العرندس الكلابي، وهو في الحماسة البصرية ١/ ١٥١.

(٤) قوله: لما، ساقط من (م)، والقصة في الكشاف ٣/ ٤٩١.

الشيء الواحد فاضلاً ومفضولاً باعتبارين، وقد أطال الكلامَ في ذلك جلالُ الدين الدواني في حواشيه على الشرح الجديد للتجريد، فَلْيُراجِعْ ذلك من أراده.

وفي «البحر»[1]: قيل: كانت آياته عليه السلام من كِبار الآيات، وكانت كلُّ واحدة أكبرَ من التي قبلها، فعلى هذا يكون ثَمَّ صفةٌ محذوفة، أي: مِن أُختها السابقةِ عليها، ولا يبقى في الكلام تعارضٌ، ولا يكون ذلك الحُكم في الآية الأولى؛ لأنه لم يسبقها شيء فتكونَ أكبرَ منه، وذكر بعضُهم في الأكْبَرية أنَّ الأُولى تقتضي عِلْماً، والثانية تقتضي عِلْماً مُنضمّاً إلى عِلْم الأُولى فيزدادُ الرجوعُ. انتهى.

والأَولى ما تقدَّم؛ لشيوع إرادة ذلك المعنى مِن مثل هذا التركيب.

﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسِّنين والجَراد والقُمَّل وغيرها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٤٨﴾ لكي يرجِعوا ويتوبوا عمَّا هم عليه من الكُفر.

﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ قال الجمهور: وهو خِطابُ تعظيم، فقد كانوا يقولون للعالم الماهر: ساحر، لاستعظامهم علمَ السِّحر، وحكاه في «مجمع البيان» عن الكلبي والجُبَّائي[2]. وقيل: المعنى: يا غالبَ السَّحَرة، مِنْ: ساحَرَه فَسَحَره، كخاصَمَهُ فَخَصَمهُ، فهو خطابُ تعظيم أيضاً.

وقيل: الساحر على المعنى المعروف فيه، وقد تعوَّدوا دُعاءه عليه السلام بذلك قبلُ، ومقتضى مقامِ طلب الدُّعاء منه عليه السلام أن لا يَدْعوه به، إلا أنهم لِفَرْط حَيْرتهم[3] سبق لسانُهم إلى ما تعوَّدوا به.

وقيل: هو خطابُ استهزاء وانتقاصٍ دعاهم إليه شدَّةُ شَكِيمتهم ومزيدُ حَماقتهم. وروي ذلك عن الحسن.

ودفع الزمخشري المُنافاةَ بين هذا الخطاب وقولهم الآتي: «إننا لمهتدون» بأن ذلك القول وعدٌ مَنْويٌّ إخلافهُ، وعهدٌ معزومٌ على نَكْثه، مُعلَّق بشرطِ أنْ يدعوَ لهم

---

(١) ٨/ ٢١.

(٢) مجمع البيان ٢٥/ ٨٩.

(٣) في (م): حسرتهم.

ويَنكشِفَ عنهم العذابُ[1]. وفيه أنَّ الوعدَ وإن كان مَنْوِيَّ الإخلاف لكنْ إظهارُ الإخلاف حال التضرُّع إليه عليه السلام يُنافيه؛ لأنهم في استلانةِ قلبه عليه السلام.

وقيل: الأظهرُ أنهم قالوا: يا موسى، كما في «الأعراف» [الآية:١٣٤] لكن حكى الله تعالى كلامَهم هنا على حسب حالهم، ووَفْق ما في قلوبهم؛ تقبيحاً لذلك وتسليةً لحبيبه ﷺ، ويكون ذلك على عكسِ قوله سبحانه: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء:١٥٧] وجُعِلَ على هذا قولُهم الآتي مُجْمَل ما فصَّل هنالك من الإيمان وإرسالِ بني إسرائيل، فلا يُحتاج إلى التزام كونِ القولين في مجلسين للجَمْع بين ما هنا وما هناك. ولا يخلو عن بُعد، والالتزامُ المذكور لا أرى ضرراً فيه.

وقُرئ: «يا أيُّهُ» بضمِّ الهاء[2].

﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ لِيكشِفَ عنَّا العذاب ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي: بعهده عندك، والمرادُ به النبوَّة، وسُمِّيت عهداً إمَّا لأنَّ الله تعالى عاهدَ نبيَّه عليه السلام أن يُكرمه بها، وعاهدَ النبيُّ ربَّه سبحانه على أن يستقلَّ بأعبائها، أو لِمَا فيها من الكُلفة بالقيام بأعبائها، ومن الاختصاصِ كما بين المتواثِقين، أو لأنَّ لها حقوقاً تُحفظ كما يُحفَظُ العهدُ، أو مِنَ العهدِ الذي يُكتب للوُلاة؛ كأنَّ النبوَّةَ منشورٌ من الله تعالى بتولية مَنْ أكرمه بها.

والباء إما صلة لـ «ادعُ» أو متعلِّق بمحذوف وقع حالاً من الضمير فيه، أي: متوسِّلاً إليه تعالى بما عَهِدَ، أو بمحذوف دلَّ عليه التماسُهم، مثل: أَسْعِفْنا إلى ما نَطْلب. وإما أنْ تكونَ للقسم، والجوابُ ما يأتي، وهي على هذا لِلقَسَم حقيقةً، وعلى ما قبلَه لِلقَسَم الاستعطافي. وعلى الوجهِ الأول للسَّببيَّة. وإدخالُ ذلك في الاستعطاف خروجٌ عن الاصطلاح.

وجُوِّز أن يُرَادَ بالعهد عهدُ استجابة الدعوة؛ كأنه قيل: بما عاهدكَ الله تعالى مُكرماً لك من استجابةِ دعوتك. أو عهدُ كشفِ العذاب عمَّن اهتدى، وأمرُ الباء في الوجهين على ما مرَّ. وأن يُرادَ بالعهد الإيمان والطاعة، أي: بما عَهِدَ عندك فوفَّيت

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩١.

(٢) قرأ بها ابن عامر، التيسير ص١٦٢، والنشر ٢/ ١٤٢.

به، على أنه مِنْ: عَهِدَ إليه أن يفعلَ كذا، أي: أخذَ منه العهدَ على فِعْله، ومنه العهدُ الذي يُكتب للولاة. و«عندك» يُغني عن ذِكْر الصِّلة مع إفادة أنه محفوظٌ مخزون عند المُخاطَب. والأَولى على هذا أن تكونَ «ما» موصولةً، وهذا الوجهُ فيه كما في «الكشف» نُبُوٌّ لفظاً ومعنًى وسياقاً على ما لا يخفى على الفَطِن.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾﴾ لمؤمنون ثابتون على الإيمان، وهو إما معلَّق بشرط كَشْفِ العذاب كما في قولهم المَحْكي في سورة الأعراف: ﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ [الآية: ١٣٤] أو غير معلَّق، ويجب حينئذ أن يكون هذا منهم في مجلس آخر. وإن قلنا: لم يَصدُرْ منهم طلبُ الدُّعاء إلا مرةً أو أكثرَ منها لكن على طَرْز واحد، قيل هنا: أرادوا من الاهتداء الإيمان وإرسال بني إسرائيل كما سمعتَ آنفاً.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ أي: بدعوته، ففي الكلام حذفٌ، أي: فدعانا بكَشْفِ العذابِ، فَكَشَفْناه، فلما كَشَفناه عنهم ﴿إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾ فاجأهم نَكْثُ عهدهم بالاهتداء، أو فاجؤوا وقتَ نَكْثِ عَهْدهم.

وقرأ أبو حيوة: «يَنْكِثون» بكسر الكاف(١).

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ أي: رَفَعَ صوتَه بنفسه فيما بين قومه بذلك القول، ولعلَّه جمعَ عُظَماء القِبْطِ في محلّه الذي هو فيه بعد أنْ كُشِفَ العذابُ، فنادى فيما بينهم بذلك لِتنتشر مَقالته في جميع القِبْط، ويَعْظُمَ في نُفوسهم مخافةَ أن يُؤمنوا بموسى عليه السلام ويتركوه.

ويجوز أن يكونَ إسنادُ النداء إليه مجازاً، والمرادُ: أمرَ بالنداء بذلك في الأسواق والأزقَّة ومجامع الناس، وهذا كما يقال: بنى الأميرُ المدينةَ.

«ونادى» قيل: معطوفٌ على فاجأ المُقدَّر، ونُزِّلَ منزلةَ اللازم، وعُدِّي بـ «في» كقوله:

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

يَـجـرحْ فـي عـراقـيـبـهـا نَـصْـلـي[1]

للدلالة على تمكين النداء فيهم.

وعَنى بـ «ملك مصر» ضَبْطَها والتصرُّفَ فيها بالحُكم، ولم يُرِدْ مصرَ نفسَها، بل هي وما يتبعها، وذلك من إسكندرية إلى أسوان، كما في «البحر»[2]. والأنهار: الخُلْجان التي تخرجُ من النيل المبارك، كنهر المَلكِ، ونهر دمياط، ونهر تِنِّيس. ولعل نهر طولون كان منها إذ ذاك لكنه اندرسَ فجدَّده أحمدُ بن طولون ملكُ مصر في الإسلام.

وأراد بقوله: «من تحتي»: من تحت أمري.

وقال غيرُ واحد: كانت أنهارٌ تخرجُ من النيل وتجري من تحت قَصْره وهو مُشرِفٌ عليها. وقيل: كان له سريرٌ عظيم مرتفعٌ تجري من تحته أنهارٌ أخرجها من النيل. وقال قتادة: كانت له جِنانٌ وبساتينُ بين يديه تجري فيها الأنهارُ.

وفسَّر الضحاكُ الأنهارَ بالقُوّادِ والرُّؤساء الجبابرة، ومعنى كونهم يَجرون من تحته أنهم يسيرون تحت لِوائه، ويأتمرون بأَمْره. وقد أبعدَ جدّاً، وكذا مَنْ فسَّرها بالأموال، ومَنْ فسَّرها بالخيل وقال: كما يسمَّى الفرس بحراً يُسمَّى نهراً. بل التفاسيرُ الثلاثةُ تقربُ من تفاسير الباطنية، فلا ينبغي أن يُلتفتَ إليها.

والواو في «وهذه» إلخ إما عاطفةٌ لهذه الأنهار على المُلك؛ فجملة «تجري» حالٌ منها، أو للحال فـ «هذه» مبتدأ و«الأنهار» صفة أو عطف بيان، وجملة «تجري» خبرٌ للمبتدأ، وجملةُ «هذه» إلخ حالٌ من ضمير المتكلِّم. وجُوِّز أن تكون للعطف. «وهذه تجري» مبتدأ وخبر، والجملةُ عطفٌ على اسم «ليس» وخبرها.

وقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٥١﴾ على تقدير المفعول، أي: أفلا تبصرون ذلك، أي: ما ذُكِرَ، ويجوز أن يُنزَّل منزلةَ اللازم، والمعنى: أليس لكم بصرٌ أو بصيرة.

---

(١) قائله ذو الرمّة، وهو في ديوانه ١/ ١٥٦، وصدره:

وإن تَـعـتـذرْ بـالـمَـحْـل من ذي ضـروعـهـا

(٢) ٨/ ٢٢.

وقرأ عيسى: «تبصرونِ» بكسر النون[1]، فتكون الياء الواقعةُ مفعولاً محذوفةً.

وقرأ فهد بن الصقر[2]: «يُبْصِرون» بياء الغيبة ـ ذكره في «الكامل» للهذلي[3] ـ والساجي عن يعقوب، ذكره ابن خالويه[4].

ولا يخفى ما بين افتخار اللَّعين بملك مصر ودعواه الرُّبوبية من البُعد البعيد. وعن الرشيد أنه لما قرأ هذه الآيةَ قال: لأُولِّينها ـ يعني مصر ـ أَخسَّ عبيدي. فولَّاها الخصيب وكان على وضوئه.

وعن عبد الله بن طاهر أنه وُلِّيها فخرج إليها، فلما شارفَها ووقع عليها بصرُه قال: هي القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال: «أليس لي ملك مصر» والله لهي أقلُّ عندي من أنْ أدخُلها، فَثَنى عِنانه[5].

﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه البَسطة والسَّعة في المُلك والمال ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ أي: ضعيفٌ حقير، أو مبتذَلٌ ذليل، فهو من المَهانة، وهي القِلَّة أو الذِّلَّة.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝٥٢﴾ أي: الكلام، والجمهورُ أنه عليه السلام كان بلسانه بعضُ شيء من أَثَرِ الجَمْرة، لكن اللعين بالغ.

ومَن ذهب إلى أنَّ الله تعالى كان أجابَ سؤالَه حلَّ عُقدةٍ من لسانه فلم يبقَ فيه منها أثرٌ، قال: المعنى: «ولا يكادُ يُبين» حُجَّتَه الدَّالةَ على صِدْقه فيما يدَّعي، لا أنه لا قُدرة له على الإفصاح باللفظ. وهو افتراءٌ عليه عليه السلام، ألا ترى إلى مُناظرته له وردِّه عليه وإفحامه إيَّاه.

وقيل: عابه بما كان به عليه السلام من الحَبْسة أيامَ كان عنده. وأراد اللعين أنه عليه السلام ليس معه من العُدَدِ وآلات المُلك والسياسة ما يعتضدُ به، وهو في نَفْسه

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٢) من جلة أصحاب يعقوب، روى عنه القراءة عرضاً. غاية النهاية ٢/ ١٣.

(٣) كتاب الكامل في القراءات الخمسين لأبي القاسم يوسف بن علي بن عبادة الهذلي المغربي، المتوفى سنة (٤٦٥هـ)، وهو مشتمل على خمسين قراءة. كشف الظنون ٢/ ١٣٨١.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥.

(٥) ذكر القصة الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٢، والقرطبي في تفسيره ١٩/ ٦٠.

مُخِلٌّ بما يُنعتُ به الرجالُ من اللَّسَنِ وإبانةِ الكلام.

و«أم» على ما نُقل عن سيبويه[١] و الخليل مُتَّصلة، وقد نُزِّل السببُ بعدها منزلةَ المسبَّب على ما ذهب إليه الزمخشري، والمعنى: أفلا تُبصرون أَمْ تُبصرون، إلا أنه وُضع «أم أنا خيرٌ» موضعَ: أمْ تُبصرون[٢].

وإيضاحُ ذلك أن فرعونَ عليه اللعنة لما قدَّم أسبابَ البسطة والرِّياسة بقوله: «أليس لي» إلخ وعَقَّبه بقوله: «أفلا تُبصرون» استقصاراً لهم وتنبيهاً على أنه من الوضوح بمكانٍ لا يخفى على ذي عينين قال في مقابله: «أَمْ أنا خيرٌ» بمعنى: أمْ تُبصرون أني أنا المُقدَّم المتبوع. وفي العدول تنبيهٌ على أن هذا الشِّقَّ هو المُسَلَّم لا محالةَ عندكم، فكأنه يَحكيه عن لسانهم بعدما أبصروا، وهو أسلوبٌ عجيبٌ وفنٌّ غريب. وجعله الزمخشري من إنزال السَّبب مكان المُسبَّب؛ لأن كونه خيراً في نفسه ـ أي: محصَّلاً له أسباب التقدُّم والمُلك ـ سببٌ لأن يقال فيه: أنت خيرٌ منه. وقولهم: أنت خيرٌ، سببٌ لكونهم بُصراءَ، وسببُ السَّبب قد يقال له سبب، فلا يَرِدُ ما يقال: إن السَّببَ قولهم: أنت خيرٌ، لا قوله: أنا خير.

وقال القاضي البيضاوي: إنه من إنزال المُسبَّب منزلةَ السَّبب[٣]؛ لأن عِلْمهم بأنه خيرٌ مستفادٌ من الإبصار.

وفيه أن المذكورَ «أنا خيرٌ»، لا: أمْ تعلمون أني خير. وله أن يقول: ذلك يغني غناه؛ لأنه جعله مُسلَّماً معلوماً عندهم، فقال: «أم أنا خيرٌ» لا: أَمْ تعلمون، كما سلف.

ولا يخفى أن ما ذكره الزمخشري أَظْهرُ؛ كذا في «الكشف».

وقال العلامة الثاني في تقرير ذلك: إنَّ قوله: «أنا خيرٌ»، سببٌ لقولهم من جهة بَعْثِهِ على النظر في أحواله واستعداده لما ادَّعاه، وقولهم: أنت خيرٌ، سببٌ لكونهم

---

(١) الكتاب ٣/ ١٧٣.

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٢.

(٣) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٤٦.

بُصراءَ عنده، فـ «أنا خيرٌ» سببٌ له بالواسطة، لكن لا يخفى أنه سببٌ للعلم بذلك والحُكم به. وأما بحسب الوجود فالأمر بالعكس؛ لأن إبصارَهم سببٌ لقولهم: أنت خيرٌ، فتأمَّل.

وبالجملة إن ما بعد «أم» مُؤَوَّل بجملة فعلية معادلة[1] لفظاً ومعنًى هي ما سمعتَ، ونحو ذلك من حيث التأويل: ﴿أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف:١٩٣] أي: أَمْ صَمَتُّم. وقولُه:

أمُخْدَجُ اليدين أم أتَمَّتِ[2]

أي: أَمْ مُتمّاً. وقيل: حُذِفَ المُعادِل لدلالة المعنى عليه، والتقدير: أفلا تُبصرون أمْ تُبصرون أنا خير.. إلخ. وتُعقِّب بأن هذا لا يجوز إلا إذا كان بعدَ «أم»: «لا»، نحو: أيقوم زيدٌ أمْ لا، أي: أَمْ لا يقوم، فأما حذفُه دون «لا» فليس من كلامهم.

وجُوِّز أن يكون في الكلام طيٌّ على نَهْج الاحتباك، والمعنى: أهو خيرٌ مني فلا تبصرون ما ذكَّرتُكم به أَمْ أنا خيرٌ منه لأنكم تُبصرونه. ولا ينبغي الالتفاتُ إليه.

وجَوَّز غيرُ واحد كونَ «أَمْ» منقطعةً مُقدَّرة بـ «بل» والهمزة التي للتقرير؛ كأن اللعين قال إثرَ ما عدَّد أسباب فَضْله ومبادي خَيْريَّته: أَثبتَ عندكم واستقرَّ لديكم أني خيرٌ، وهذه حالي من هذا.. إلخ. ورجَّحه بعضُهم؛ لما فيه من عدم التكلُّف في أمر المُعادِل اللازم أو الأحسن[3] في المتصلة. وقال السدي وأبو عُبيدة: «أم» بمعنى «بل»، فيكون قد انتقل من ذلك الكلام إلى إخباره بأنه خيرٌ، كقول الشاعر:

بَدَتْ مثلَ قَرْنِ الشمس في رَوْنق الضُّحى   وصورتِها أَمْ أنتِ في العينِ أَمْلحُ[4]

---

(١) تحرفت في (م) إلى: معلولة، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٤٤٦.

(٢) قائله جحدر بن ضبيعة، وقبله: إذا الكُماة بالكماة التفَّتِ. وهو في حماسة أبي تمام ٢/ ٣٤ (بشرح التبريزي)، والبحر المحيط ٨/ ٢٣، وفي الحماسة: الحرب، بدل: اليدين.

(٣) في (م): أولاً لحسن. والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٧/ ٤٤٦.

(٤) نسبه ابن جني في المحتسب ١/ ٩٩، والخصائص ٢/ ٤٥٨ لذي الرمة، وهو في ملحقات ديوانه ٣/ ١٨٥٧، وفي هذه المصادر: أو أنت...

وقال أبو البقاء(١): إنها منقطعة لفظاً متصلة معنىً، وأراد ما تقدَّم من التأويل، وليس فيه مخالفةٌ لما أجمع عليه النُّحاة كما تُوُهِّم.

وجملة «لا يكادُ يبين» معطوفةٌ على الصِّلة، أو مستأنفةٌ، أو حالية.

وقُرئ: «أمَا أنا خيرٌ» بإدخال الهمزة على «ما» النافية(٢).

وقرأ الباقر رضي الله عنه: «يَبين» بفتح الياء من بان؛ إذا ظهر(٣).

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ كنايةٌ عن تمليكه. قال مجاهد: كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه بِسِوارين وطوَّقوه بطَوق من ذهب علامة لِسُودَدِه(٤).

فقال فرعون: هلّا ألقى ربُّ موسى عليه أساورَ من ذهب إنْ كان صادقاً. وهذا من اللعين لِزَعْمه أن الرِّياسةَ من لوازم الرِّسالة؛ كما قال كُفَّار قريش في عظيم القريتين.

والأسورة جمع سِوار نحو خِمار وأخمرة. وقرأ الأعمش: «أساور» ورُوِيَتْ عن أبيّ وعن أبي عمرو(٥) جمع أسورة، فهو جمعُ الجمع. وقرأ الجمهور: «أساورة»(٦) جمعُ إسوار بمعنى السِّوار، والهاء عوضٌ من ياء أساوير، فإنها تكون في الجمع المحذوف مَدَّته للعِوض عنها كما في زنادقة جمع زِنْديق.

وقد قرأ: «أساوير» عبد الله وأُبيّ في الرواية المشهورة(٧).

وقرأ الضحاك: «ألقى» مَبنيًّا للفاعل ـ أي: الله تعالى ـ «أساورةً» بالنصب(٨).

---

(١) إملاء ما من به الرحمن (بهامش الفتوحات الإلهية) ٤/ ٣٠٢.
(٢) ذكرها الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٥.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣.
(٤) قال في القاموس المحيط (سود): السُّوْدَد والسُّوْدُد: السيادة.
(٥) قراءة الأعمش في القراءات الشاذة ص١٣٥، وقراءة أُبي في تفسير القرطبي ١٩/ ٦٢، وهي غير المشهورة عن أبي عمرو.
(٦) قرأ حفص ويعقوب: «أَسْوِرة»، والباقون: «أساورة». التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٧) القراءات الشاذة ص١٣٥.
(٨) البحر المحيط ٨/ ٢٣.

﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ۝٥٣﴾ مِن قَرنته به فاقترنَ، وفُسِّر بمقرونين، أي: به؛ لأنه لازمُ معناه بناءً على هذا، وفُسِّر أيضاً بمتقارنين مِن اقترن بمعنى تَقارن، والاقترانُ مجازٌ أو كنايةٌ عن الإعانة.

ولذا قال ابن عباس: يُعينونه على مَن خالفه. وقيل: عن التصديق، ولولا ذلك لم يكن لِذِكْره بعدَ قوله: «معه» فائدةٌ، وهو على الأول حِسِّي، وعلى الثاني مَعنوي. وقيل: متقارنين بمعنى مجتمعين كثيرين. وعن قتادة: مُتتابعين.

﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلب منهم الخِفَّة في مُطاوعته، على أن السين للطلب على حقيقتها، ومعنى الخِفَّة السُّرعة لإجابته ومتابعته، كما يقال: هم خُفوف إذا دُعوا، وهو مجاز مشهور، وقال ابنُ الأعرابي: استخفَّ أحلامَهم، أي: وجدهم خفيفةً أحلامُهم، أي: قليلة عقولُهم، فصيغة الاستفعال للوجدان كالإفعال، كما يقال: أَحمدتُه: وجدته محموداً، وفي نسبته ذلك للقوم تجوُّز.

﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أَمرهم به ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ۝٥٤﴾ فلذلك سارعوا إلى طاعةِ ذلك الفاسق الغَوِيّ ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أي: أسخطونا، كما قال عليٌّ كرم الله تعالى وجهه. وفي معناه ما قيل: أي: أَغضبونا أشدَّ الغضب، أي: بأعمالهم.

والغضبُ عند الخَلْق مجازٌ عن إرادة العقوبة، فيكون صفةَ ذات، أو عن العقوبة فيكون صفةَ فعل.

وقال أبو عبد الله الرِّضا ﷺ: إنَّ الله سبحانه لا يأسَفُ كأسفنا، ولكن له جل شأنُه أولياء يأسفون ويَرضَوْن، فجعل سبحانه رِضاهم رضاه وغَضَبهم غضبه تعالى، وعلى ذلك قال عز وجل: «مَنْ أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة»[1]، وقال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]. وعليه قيل: المعنى: فلما آسفوا موسى عليه السلام ومن معه.

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ الطبراني في الأوسط (٦٠٩) من حديث أنس ﷺ، وأخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب».

والسلف لا يُؤَوِّلون ويقولون: الغضبُ فينا انفعالٌ نفساني، وصفاتُه سبحانه ليست كصفاتنا بوجهٍ من الوجوه. ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما تفسيرُ الأَسَف بالحزن، وأنه قال هنا: أي: أحزنوا أولياءَنا المؤمنين، نحوُ السحرة وبني إسرائيل.

وذكر الراغب[١] أنَّ الأسفَ: الحزن والغَضَب معاً، وقد يقال لكلٍّ منهما على الانفراد، وحقيقته ثورانُ دمِ القلب شهوةَ الانتقام، فمتى كان ذلك على مَن دونه انتشر فصار غضباً، ومتى كان على مَن فوقَه انقبضَ فصار حُزناً، ولذلك سُئل ابن عباس عنهما فقال: مَخْرجهما واحدٌ واللفظُ مختلفٌ؛ فمن نازع من يَقوَى عليه أظهره غيظاً وغضباً، ومَن نازعَ مَن لا يَقوَى عليه أظهره حُزناً وجزعاً، وبهذا النظر قال الشاعر:

فحزنُ كلِّ أخي حزنٍ أخو الغَضَب[٢]

انتهى. وعلى جميعِ الأقوال «آسَفَ» منقولٌ بالهمزة من أَسِفَ.

﴿انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ في اليمّ ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا﴾ قال ابن عباس وزيد بن أسلم وقتادة: أي: مُتقدِّمين إلى النار. وقال غير واحد: قدوة للكُفَّار الذين بعدهم يقتدون بهم في استيجاب مثلِ عقابهم ونزوله بهم، والكلام على الاستعارة؛ لأنَّ الخَلَف يقتدي بالسلف فلما اقتدَوا بهم في الكُفر جُعلوا كأنهم اقتدوا بهم في معلول الغضب. وهو مصدر نُعت به، ولذا يصح إطلاقُه على القليل والكثير. وقيل: جمعُ سالف، كحارس وحَرَس، وخادِم وخَدَم، وهذا يحتمل أن يُرادَ بالجمع فيه ظاهرُه، ويحتمل أن يُرادَ به اسمُ الجمع، فإن فَعَلاً ليس من أبنية الجُموع لِغلبته في المفردات، والمشهور في جمعه أَسلاف، وجاء سُلَّاف أيضاً.

وقرأ أبو عبد الله وأصحابه وسعيدُ بن عياض والأعمش والأعرج وطلحة وحمزة والكسائي: «سُلُفاً» بضمتين[٣] جمع سَليف، كفريق لفظاً ومعنى. سمع القاسمُ بنُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (أسف).

(٢) قائله المتنبي، وهو في ديوانه ١/ ٢٢٣، وصدره: جزاك ربك بالأحزان مغفرة..

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٣، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.

معن[1] العرب تقول: مضى سليفٌ من الناس، يعنون فريقاً منهم. وقيل: جمع سالف[2] كصُبُر جمع صابر، أو جمع سَلَف كخَشَب[3].

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه ومجاهد والأعرج أيضاً: «سُلَفاً» بضمٍّ ففتح[4]، إما على أنه أُبدلت فيه ضمة اللام فتحةً تخفيفاً كما يقال في جُدُد - بضمِّ الدال -: جُدَد، بفتحها. أو على أنه جمع سُلْفة بمعنى الأمة والجماعة من الناس، أي: فجعلناهم أُمةً سلفَتْ. والسُّلَف بالضم فالفتح في غير هذا: وَلَدُ القَبْج[5]، والجمع سُلفان كصُردان، ويُضَمّ.

﴿وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ أي: عِظةً لهم، والمراد بهم الكُفَّار بعدَهم، والجارُّ مُتعلِّق على التنازع بـ «سلفاً» و«مثلاً»، ويجوز أن يرادَ بالمَثَل القصة العجيبة التي تسيرُ مسيرَ الأمثال؛ ومعنى كونهم مَثَلاً للكُفَّار أن يقال لهم: مَثَلُكم مثلُ قومِ فرعون. ويجوز تعلُّق الجارِّ بالثاني، وتعميم «الآخرين» بحيث يشمل المؤمنين. وكونهم قصةً عجيبة للجميع ظاهرٌ.

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ إلخ بيانٌ لِعِناد قريش بالباطل والردِّ عليهم؛ فقد رُوي أن عبد الله بن الزبعرى قبل إسلامه قال للنبيِّ ﷺ وقد سمعه يقول: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٩٨]: أليست النصارى يعبدون المسيحَ، وأنت تقول: كان نبيًّا وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً، فإن كان في النار فقد رضينا أن نكونَ نحن وآلهتُنا معه. فَفَرِحَ قريش وضحِكوا وارتفعَتْ أصواتُهم[6]، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾ فالمعنى: ولما ضَرَبَ ابنُ الزِّبعرى عيسى ابن مريم مَثَلاً وحاجَّك بعبادة النصارى إيَّاه، إذا قومُك من ذلك

---

(١) ذكره الفراء في معاني القرآن ٣/ ٣٦.
(٢) في (م): سلف. وهو خطأ.
(٣) في الأصل و(م): كجنب، وهو تحريف. والمثبت من زاد المسير ٧/ ٣٢٣، وتفسير البيضاوي (بهامش حاشية الشهاب) ٧/ ٤٤٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٥.
(٤) القراءات الشاذة ص١٣٥، والمحرر الوجيز ٥/ ٦٠، وتفسير القرطبي ١٩/ ٦٥.
(٥) القبج: الحَجَل. اللسان (قبج).
(٦) سيرد بتمامه قريباً.

ولأَجْله يرتفعُ لهم جَلَبَةٌ وضجيجٌ فَرَحاً وجَدَلاً. والحُجَّة لما كانت تسير مسيرَ الأمثال شُهرةً قيل لها: مَثَل. أو المَثَل بمعنى المِثَال، أي: جعله مقياساً وشاهداً على إبطال قوله عليه الصلاة والسلام: إنَّ آلهتَهم من حَصَب جهنم، وجعل عليه السلام نَفْسَه مثلاً من باب: «الحجُّ عرفة»(١).

وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثَّاب وابن عامر ونافع والكسائي: «يَصُدُّون» بضمِّ الصاد(٢) من الصدود، ورُوي ذلك عن عليٍّ كرم الله تعالى وجهه، وأنكر ابنُ عباس رضي الله عنهما هذه القراءة، وهو قبلَ بلوغه تواتُرُها، والمعنى عليها: إذا قومك من أجل ذلك يُعرضون عن الحقّ بالجَدَل بحُجَّة داحضة واهية، وقيل: المراد يَثْبُتون على ما كانوا عليه من الإعراض.

وقال الكسائي والفراء(٣): يَصِدُّون ـ بالكسر ـ ويَصُدُّون ـ بالضَّمِّ ـ لغتان بمعنى واحد، مثل: «يَعْرُشُون» و«يَعْرِشُون»، ومعناهما: يضجُّون، وجوز أن يكون يُعرضون.

﴿وَقَالُوٓاْ﴾ تمهيداً لما بَنَوْا عليه من الباطل المُموَّه بما يغترُّ به السُّفهاء ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي: ظاهرٌ عندك أن عيسى عليه السلام خيرٌ من آلهتنا فحيث كان هو في النار فلا بأس بكونها وإيَّانا فيها.

وحقَّق الكوفيون الهمزتين همزة الاستفهام والهمزة الأصلية؛ وسَهَّل باقي السبعة الثانية بَيْنَ بَيْنَ(٤).

وقرأ ورش في رواية أبي الأزهر بهمزة واحدة على مثال الخبر(٥). والظاهر أنه على حذف همزة الاستفهام.

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٧٧٤)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٦٤ من حديث عبد الرحمن بن يَعْمَر الدِّيلي.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٥، وقراءة نافع وابن عامر والكسائي وأبي جعفر ـ وهي أيضاً قراءة خلف ـ في التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٦٩.
(٣) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٦-٣٧، وقول الكسائي في تفسير القرطبي ١٩/ ٦٦.
(٤) التيسير ص١٩٧، والنشر ١/ ٣٦٤-٣٦٥.
(٥) ذكرها أبو حيان في البحر ٨/ ٢٥.

وقوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾﴾ إبطالٌ لباطلهم إجمالاً؛ اكتفاءً بما فصّل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ [الأنبياء:١٠١] وتنبيهاً على أنه مما لا يذهب على ذي مُسكة بُطلانه، فكيف على غيره، ولكنَّ العِنادَ يُعْمي ويُصِمّ، أي: ما ضربوا لك ذلك إلا لأجل الجدال والخصام لا لِطَلبِ الحقّ، فإنه في غاية البُطلان، بل هم قومٌ لُدٌّ شِداد الخُصومة مجبولون على المَحْك ـ أي: سوء الخُلُق ـ واللَّجاج، فـ «جَدَلاً» منتصب على أنه مفعول لأجله، وقيل: هو مصدر في موضع الحال، أي: مُجادلين.

وقرأ ابن مِقْسم: «جِدالاً» بكسر الجيم وألفٍ بعد الدال[1].

ـ وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ﴾ أي: ما عيسى ابن مريم ﴿إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ بالنبوَّة وروادفها، فهو مرفوعُ المنزلة عليُّ القدر، لكن ليس له من استحقاق المعبودية من نصيب = كلامٌ حكيم مشتملٌ على ما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ [الأنبياء:١٠١] ولكن على سبيل الرمز، وعلى فسادِ رأي النصارى في إيثارهم عبادته عليه السلام تعريضاً بمكان عبادة قريش غيرَه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: أمراً عجيباً حقيقاً بأن يسيرَ ذِكْره كالأمثال السائرة ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ حيث خلقناه من غير أب وجعلنا له من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ونحو ذلك ما لم نجعلْ لغيره في زمانه = كلامٌ أُجْمِلَ فيه وجه الافتتان به وعليه، ووجه دلالته على قُدرة خالقه تعالى شأنه، وبُعد استحقاقه عليه السلام عمَّا قرف به إفراطاً وتفريطاً.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا﴾ إلخ، تذييلٌ لوجه دلالته على القُدرة، وأن الافتتان من عدم التأمُّل، وتضمينٌ للإنكار على من اتَّخذ الملائكة آلهة كما اتُّخِذَ عيسى عليهم السلام، أي: ولو نشاء ـ لِقُدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفَطْر ـ لجعلنا بطريق التوليد، ومآلُه: لَوَلَّدْنا ﴿مِنكُم﴾ يا رجال ﴿مَلَائِكَةً﴾ كما ولَّدنا عيسى من غير أب ﴿فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ أي: يخلفونكم في الأرض كما يَخْلُفكم أولادُكم، أو: يكونون خَلَفاً ونسلاً لكم، ليُعْرَفَ تميُّزنا بالقدرة الباهرة، وليُعْلَم أن

(١) البحر ٨/ ٢٥.

الملائكة ذواتٌ ممكِنةٌ تُخلق توليداً كما تُخلق إبداعاً، فمِن أين لهم استحقاقُ الألوهية، والانتساب إليه سبحانه وتعالى بالبنوَّة؟!

وجوِّز أن يكون معنى «لجعلنا» إلخ: لحوَّلنا بعضَكم ملائكةً.

فـ «من» ابتدائية أو تبعيضية، و«ملائكة» مفعولٌ ثانٍ أو حال. وقيل: «مِنْ» للبدل كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة:٣٨]، وقوله:

ولم تذقْ من البقول الفُستقا[1]

أي: ولو نشاء لجعلنا بدلكم ملائكةً يكونون مكانكم بعد إذهابكم، وإليه يُشير كلامُ قتادة ومجاهد. والمرادُ بيان كمال قُدرته تعالى لا التوعُّدُ بالاستئصال - وإنْ تضمَّنه - فإنه غيرُ ملائم للمقام. وقيل: لا مانعَ من قَصْدهما معاً، نعم كثيرٌ من النحويين لا يُثبتون لـ «من» معنى البدلية ويتأوَّلون ما ورد مما يوهم ذلك، والأظهر ما قُرِّر أولاً.

وذكر العلامة الطيبي عليه الرحمة أن قوله تعالى: «إن هو إلا عبد» إلخ، جوابٌ عن جدل الكَفَرة في قوله سبحانه: «إنكم وما تعبدون» إلخ، وأن تقريره: إن جَدَلَكم هذا باطلٌ لأنه عليه السلام ما دخل في ذلك النص الصريح؛ لأن الكلام معكم أيها المشركون، وأنتم المخاطبون به، وإنما المراد بـ «ما تعبدون» الأصنام التي تَنْحِتونها بأيديكم، وأما عيسى عليه السلام فما هو إلا عبد مكرَّم مُنْعَمٌ عليه بالنبوَّة مرفوعُ المنزلة والذِّكر، مشهورٌ في بني إسرائيل كالمثل السائر، فمن أين يدخل في قولنا: «إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم»، ثم لا اعتراضَ علينا أنْ نجعل قوماً أهلاً للنار وآخرين أهلاً للجنة، إذ لو نشاء لجعلنا منكم ومن أنفسكم أيها الكفرة ملائكةً، أي: عبيداً مكرمون مهتدون، وإلى الجنة صائرون، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة:١٣]. اهـ.

وعلى ما ذكرنا إن الكلام في إبطال قولهم[2] قد تمَّ عند قوله تعالى: «خَصِمون»

---

(١) الرجز لأبي نخيلة، واسمه يعمر بن حزن، وقبله: جارية لم تأكل المُرَقَّقا. المغني ص٤٢٢، وشرح شواهد المغني للسيوطي ٢/ ٧٣٥، واللسان (فستق).

(٢) قوله: قولهم، ليس في (م).

وما بعدُ؛ لما سمعت قبلُ، وهو أدقُّ وأولى مما ذكره، بل ما أشار إليه من أن قوله تعالى: «ولو نشاء» إلخ لنفي الاعتراض، ليس بشيء.

وروي أن ابن الزِّبَعْرى قال للنبيِّ ﷺ حين سمع قوله تعالى: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ) أهذا لنا ولآلهتنا أَمْ لجميع الأُمَم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم» فقال: خصمتك وربِّ الكعبة، أليست النصارى يعبدون المسيح، واليهود عزيراً، وبنو مليح الملائكة؟ فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، ففرحوا وضَحِكوا، وسكتَ رسولُ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ الآية [الأنبياء:١٠١]، أو نزلت هذه الآية[١].

وأنكر بعضُهم السكوت، وذكر أن ابن الزِّبَعْرى حين قال للنبي عليه الصلاة والسلام: خصمتكَ. ردَّ عليه ﷺ بقوله: «ما أجهلك بلغة قومك، أما فهمت أن «ما» لما لا يَعقِل»[٢]. وروى مُحيي السنة في «المعالم» أن ابن الزِّبَعْرى قال له عليه الصلاة والسلام: أنت قلت: «إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم»؟ قال: نعم. قال: أليست اليهودُ تعبد عزيراً، والنصارى تعبدُ المسيحَ، وبنو مُليح يعبدون الملائكة؟ فقال النبي ﷺ: «بل هم يعبدون الشيطان» فأنزل الله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ)[٣] وهذا أثبت من الخبر الذي قبله.

وتُعقِّب ما تقدم في الخبر السابق من سؤال ابن الزبعرى: أهذا لنا.. إلخ، وقوله عليه الصلاة والسلام: «هو لكم» إلخ = بأنه ليس بثبت.

وذكر من أثبته أنه ﷺ إنما لم يُجِبْ حين سئل عن الخصوص والعموم بالخصوص عملاً بما تقتضيه كلمة «ما» لأن إخراجَ المعهودين عن الحكم عند

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح المشكل (٩٨٦) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وعنده بدل «أو نزلت»: ونزلت، وهو أشبه. وفي إسناده عاصم بن أبي النجود، وحديثه حسن. وأخرجه الواحدي في أسباب النزول ص٣١٥ دون ذكر آية الزخرف.

(٢) قال ابن حجر في تخريج أحاديث الكشاف ص١١١-١١٢: لا أصل له. وينظر ما سلف ١٧/ ١٩٦.

(٣) معالم التنزيل (وهو تفسير البغوي) ٣/ ٢٧٠.

المُحاجَّة مُوهم للرخصة في عبادتهم في الجملة، فعمَّمه عليه الصلاة والسلام للكلِّ لكنْ لا بطريق عبارة النص بل بطريق الدلالة بجامع الاشتراك في المعبودية من دون الله تعالى، ثم بيَّن أنهم بمعزل من أن يكونوا معبوديهم بما جاء في خبر محيي السنة من قوله عليه الصلاة والسلام: «بل هم يعبدون الشيطان» كما نطق به قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ الآية [سبأ:٤١] وقد تقدَّم ما ينفعك تذكُّره فتذكَّر.

وفي «الدر المنثور»[١]: أخرج الإمام أحمد وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لقريش: «إنه ليس أحدٌ يُعبد من دون الله تعالى فيه خير». فقالوا: ألستَ تزعُم أنَّ عيسى كان نبيًّا وعبداً من عباد الله تعالى صالحاً؛ فإنْ كنتَ صادقاً فإنه كآلهتنا، فأنزل الله سبحانه: (وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) إلخ[٢]. والكلام في الآيات على هذه الرواية يُعلم مما تقدَّم بأدنى التفات.

وقيل: إن المشركين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩] قالوا: نحن أهدى من النصارى لأنهم عبدوا آدميًّا ونحن نعبد الملائكة، فنزلت. فالمثل ما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآية، والضارب هو تعالى شأنه، أي: ولمَّا بيَّن الله سبحانه حالَه العجيبة اتَّخذه قومك ذريعةً إلى ترويج ما هم فيه من الباطل بأنه مع كونه مخلوقاً بشراً قد عُبِدَ، فنحن أهدى حيث عبدنا ملائكةً مُطهَّرين مُكْرَمين عليه، وهو الذي عَنَوْه بقولهم: «أآلهتنا خيرٌ أم هو» فأبطل الله تعالى ذلك بأنه مُقايسة باطلٍ بباطل، وأنهم في اتِّخاذهم العبدَ المُنعَم عليه إلهاً مُبْطِلون مثلكم في اتِّخاذ الملائكة وهم عباد مُكرمون. ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم﴾ دلالة على أن الملائكة عليهم السلام مخلوقون مثله، وأنه سبحانه قادرٌ على أعجب من خلق عيسى عليه السلام، وأنه لا فرقَ في ذلك بين المخلوق توالداً وإبداعاً، فلا يصلح القِسْمان للإلهية. وفي رواية عن ابن عباس وقتادة أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ﴾ الآية [آل عمران:٥٩]

(١) ٦/ ١٩-٢٠.
(٢) مسند أحمد (٢٩١٨)، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/ ٣٢٨٤ ومعجم الطبراني الكبير (١٢٧٤٠).

قالت قريش: ما أراد محمدٌ ـ ﷺ ـ من ذكر عيسى عليه السلام إلا أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى[١]. ومعنى «يصدون»: يضجُّون ويضجرون، والضمير في «أم هو» لنبيِّنا عليه الصلاة والسلام، وغرضهم بالموازنة بينه ﷺ وبين آلهتهم الاستهزاءُ به عليه الصلاة والسلام. وقوله تعالى: (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ)[٢]، ردٌّ وتكذيب لهم في افترائهم عليه ﷺ ببيانِ أن عيسى عليه السلام في الحقيقة وفيما أُوحي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ليس إلا أنه عبدٌ مُنعَم عليه كما ذكر، فكيف يرضى ﷺ بمعبوديته؟ أو كيف يتوهّم الرضا بمعبودية نفسه؟ ثم بيَّن جل شأنه أن مثل عيسى ليس ببدع من قدرة الله تعالى، وأنه قادر على أبدعَ منه وأبدع مع التنبيه على سقوط الملائكة عليهم السلام أيضاً عن درجة المعبودية بقوله سبحانه: (وَلَوْ نَشَآءُ) إلخ.

وفيه أن الدلالة على ذلك المعنى غير واضحة، وكذلك رجوع الضمير إلى نبينا عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: «أم هو» مع رجوعه إلى عيسى في قوله سبحانه: «إن هو إلا عبد» وفيه من فكِّ النظم ما يجب أن يُصان الكتاب المُعجز عنه، ولا يكاد يقبل القول برجوع الضمير الثاني إليه ﷺ، ولعل الرواية عن الحِبْر غير ثابتة.

وجوّز أن يكون مرادهم التنصُّل عمَّا أنكر عليهم من قولهم: الملائكة عليهم السلام بناتُ الله سبحانه، ومن عبادتهم إياهم، كأنهم قالوا: ما قلنا بِدْعاً من القول ولا فعلنا منكراً من الفعل، فإن النصارى جعلوا المسيحَ ابنَ الله عز وجل، فنحن أشفّ منهم قولاً وفعلاً حيث نسبنا إليه تعالى الملائكة عليهم السلام، وهم نسبوا إليه الأناسيَّ. وقوله تعالى: «ولو نشاء» إلخ عليه كما في الوجه الثاني.

﴿وَإِنَّهُۥ﴾ أي: عيسى عليه السلام ﴿لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ أي: إنه بنزوله شَرطٌ من أشراطها، أو بحدوثه بغير أب، أو بإحيائه الموتى، دليلٌ على صحَّة البعث الذي هو معظم ما يُنكره الكفرة من الأمور الواقعة في الساعة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٠.
(٢) وقع في الأصل و(م) بدل قوله: «إن هو إلا عبد...»: «ولو نشاء» إلخ، وهو وهم من المصنف رحمه الله، والمثبت من تفسير أبي السعود ٨/ ٥٢.

وأيّاما كان فعِلْمُ الساعة مجازٌ عمّا تُعْلَم به، والتعبير به للمبالغة.

وقرأ أبيٌّ: «لَذِكْرٌ»[١]، وهو مجاز كذلك.

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة وأبو مالك الغفاري وزيد بن علي وقتادة ومجاهد والضحاك ومالك بن دينار والأعمش والكلبي، قال ابن عطية: وأبو نضرة: «لَعَلَمٌ» بفتح العين واللام، أي: لعلامة. وقرأ عكرمة، قال ابن خالويه: وأبو نضرة: «لَلْعَلَم» معرَّفاً بفتحتين[٢]، والحصر إضافي. وقيل: باعتبار أنه أعظم العلامات. وقد نطقت الأخبار بنزوله عليه السلام؛ فقد أخرج البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود وابن ماجه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لَينزِلَنَّ ابنُ مريم حَكماً عدلاً، فليكسرنَّ الصليب، ولَيقتلنَّ الخنزير، ولَيضعنَّ الجزية، ولَتُتركنَّ القِلاص فلا يُسعى[٣] عليها، ولتَذهبنَّ الشحناء والتباغض والتحاسد، ولَيُدْعَوَنَّ إلى المال فلا يقبله أحدٌ»[٤].

وفي رواية: «وإنه نازلٌ، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحُمرة والبياض ينزل بين مُمَصَّرتين، كأنَّ رأسَه يقطر وإن لم يُصبه بلل، فليقاتل الناس على الإسلام» وفيه: «ويُهلك المسيح الدجال»[٥].

وفي أخرى: قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم»[٦]، وفي رواية: «فأمَّكم منكم» قال ابن أبي ذئب: تدري ما أمَّكم منكم؟ قال: تخبرني، قال: فأمَّكم بكتاب ربِّكم عز وجل وسنَّة نبيِّكم ﷺ[٧].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٤.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٥-١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٦١، والبحر المحيط ٨/ ٢٦.

(٣) في الأصل و(م): فلا يسقى، وهو خطأ، والمثبت من المصادر.

(٤) صحيح البخاري (٣٤٤٨)، وصحيح مسلم (١٥٥) واللفظ له، وسنن أبي داود (٤٣٢٤)، وسنن الترمذي (٢٢٣٣)، وسنن ابن ماجه (٤٠٧٨)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٠٤٠٤).

(٥) هذه الرواية عند أبي داود (٤٣٢٤). وقوله: ممصرتين: هما الثوبان فيهما صُفرة خفيفة. النهاية (صفر).

(٦) صحيح البخاري (٣٤٤٩).

(٧) صحيح مسلم (١٥٥)-(٢٤٥).

والمشهور نزوله عليه السلام بدمشق والناس في صلاة الصبح، فيتأخَّر الإمام وهو المهدي، فيقدِّمه عيسى عليه السلام ويُصلِّي خلفه ويقول: إنما أقيمت لك.

وقيل: بل يتقدَّم هو ويؤم الناس.

والأكثرون على اقتدائه بالمهدي في تلك الصلاة دفعاً لتوهّم نزوله ناسخاً، وأما في غيرها فيؤم هو الناس، لأنه الأفضل، والشيعة تأبى ذلك.

وفي بعض الروايات أنه عليه السلام ينزل على ثَنِيَّة يقال لها: أَفيق، بفاء وقاف بوزن أمير، وهي هنا مكان بالقدس الشريف نفسه.

ويمكث في الأرض على ما جاء في رواية عن ابن عباس أربعين سنة[1]، وفي رواية: سبع سنين. قيل: والأربعون إنما هي مدة مُكْثه قبل الرفع وبعده، ثم يموت ويُدفَن في الحُجرة الشريفة النبويَّة. وتمام الكلام في «البحور الزاخرة» للسفاريني.

وعن الحسن وقتادة وابن جبير أن ضمير «إنه» للقرآن؛ لِمَا أن فيه الإعلام بالساعة، فجَعْلُه عينَ العلم مبالغةٌ أيضاً. وضُعِّفَ بأنه لم يجرِ للقرآن ذكرٌ هنا، مع عدم مناسبة ذلك للسياق.

وقالت فرقة: يعود على النبي ﷺ، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بعثتُ أنا والساعة كهاتين»[2]، وفيه من البعد ما فيه.

وكأن هؤلاء يجعلون ضمير «أم هو» وضمير «إن هو» له ﷺ أيضاً، وهو كما ترى.

﴿فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكُّنَّ في وقوعها ﴿وَاتَّبِعُونِۚ﴾ أي: واتَّبعوا هداي أو شرعي أو رسولي، وقيل: هو قول الرسول ﷺ مأموراً من جهته عز وجل، فهو بتقدير القول، أي: وقل: اتَّبعوني.

﴿هَٰذَا﴾ أي: الذي أدعوكم إليه، أو القرآن، على أن الضمير في «إنه» له. ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ موصل إلى الحقّ.

---

(١) قوله: «يمكث في الأرض أربعين سنة»، جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند أبي داود (٤٣٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١) من حديث أنس رضي الله عنه. وسلف عند تفسير الآية (١٨٧) من سورة الأعراف.

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَٰنُ﴾ عن اتباعي ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ أي: بيِّن العداوة أو مُظهرها حيث أخرج أباكم من الجنة وعرَّضكم للبليَّة.

﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالأمور الواضحات، وهي المُعجزات، أو آيات الإنجيل، أو الشرائع، ولا مانع من إرادة الجميع ﴿قَالَ﴾ لبني إسرائيل: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: الإنجيل، كما قال القشيري والماوردي[1]، وقال السدي: بالنبوَّة. وفي رواية أُخرى عنه: هي قضايا يحكم بها العقل، وقال أبو حيان[2]: أي: بما تقتضيه الحِكمة الإلهية من الشرائع. وقال الضحاك: أي: بالموعظة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم﴾ متعلِّق بمقدَّر، أي: وجئتكم لأُبيِّن لكم، ولم يترك العاطف ليتعلَّق بما قبله، ليؤذن بالاهتمام بالعلَّة حيث جعلت كأنها كلامٌ برأسه. وفي «الإرشاد»[3]: هو عطف على مقدَّر يُنبئ عنه المجيء بالحكمة، كأنه قيل: قد جئتكم بالحِكمة لأُعلِّمكم إياها ولأُبيِّن لكم ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو أمر الديانات وما يتعلَّق بالتكليف دون الأمور التي لم يتعبّدوا بمعرفتها، ككيفية نضد الأفلاك وأسباب اختلاف تشكُّلات القمر مثلاً، فإن الأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيان ما يختلف فيه من ذلك، ومثلها ما يتعلَّق بأمر الدنيا ككيفية الزراعة وما يصلح الزرع وما يفسده مثلاً، فإن الأنبياء عليهم السلام لم يُبعثوا لبيانه أيضاً كما يُشير إليه قوله ﷺ في قصة تأبير النخل: «أنتم أعلم بأمور دنياكم»[4].

وجُوِّز أن يُراد بهذا البعض بعض أمور الدين المكلّف بها، وأُريد بالبيان البيان على سبيل التفصيل، وهي لا يمكن بيان جميعها تفصيلاً، وبعضها مفوّض للاجتهاد. وقال أبو عبيدة: المراد: بعض الذي حرّم عليهم، وقد أحلَّ عليه السلام لهم لحومَ الإبل والشَّحمَ من كلِّ حيوان وصيدَ السمك يوم السبت[5].

---

(١) النكت والعيون ٥/ ٢٣٦، وتفسير القرطبي ١٩/ ٧٣.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٦.
(٣) تفسير أبي السعود ٨/ ٥٣.
(٤) أخرجه مسلم (٢٣٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: بأمر، بدل: بأمور.
(٥) كذا في الأصل و(م) ولعل في الكلام سقطاً، ففي البحر المحيط ٨/ ٢٦ (والكلام منه): قال أبو عبيدة: «بعض» بمعنى «كل»، وردَّه الناس عليه، وقال مقاتل: هو كقوله: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم =

وقال مجاهد: بعض الذي يختلفون فيه من تبديل التوراة. وقال قتادة: لأبيِّن لكم اختلاف الذين تحزَّبوا في أمره عليه السلام.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ من مخالفتي ﴿وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾﴾ فيما أُبلغه عنه تعالى.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعة فيه، وهو اعتقاد التوحيد والتعبُّد بالشرائع.

﴿هَٰذَا﴾ أي: هذا التوحيد والتعبُّد بالشرائع ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ لا يضلُّ سالكه. وهو إما من تتمة كلام عيسى عليه السلام، أو استئنافٌ من الله تعالى مُقرِّر لمقالة عيسى عليه السلام.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفرق المتحزِّبة ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين من بُعث إليهم وخاطبهم بما خاطبهم من اليهود والنصارى، وهم أمة دعوته عليه السلام، وقيل: المراد النصارى، وهم أمة إجابته عليه السلام، وقد اختلفوا فرقاً ملكانية ونسطورية ويعقوبية ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المختلفين، وهم الذين لم يقولوا: إنه عبد الله ورسوله ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾﴾ هو يوم القيامة، و«أليم» صفة «عذاب»، أو «يوم» على الإسناد المجازي.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ الضمير لقريش، و«أن تأتيهم» بدل من «الساعة»، والاستثناء مفرَّغ، وجوِّز جعل «إلا» بمعنى «غير».

والاستفهام للإنكار، و«ينظرون» بمعنى ينتظرون، أي: ما ينتظرون شيئاً إلا إتيان الساعة فجأة وهم غافلون عنها، وفي ذلك تهكُّم بهم حيث جعل إتيان الساعة كالمنتظَر الذي لا بدَّ من وقوعه.

ولما جاز اجتماع الفجأة والشعور وجب أن يقيّد ذلك بقوله سبحانه: «وهم لا يشعرون» لعدم إغناء الأول عنه فلا استدراك. وقيل: يجوز أن يراد بـ «لا يشعرون» الإثبات، لأن الكلام واردٌ على الإنكار، كأنه قيل: هل يزعمون أنها تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون، أي: لا يكون ذلك، بل تأتيهم وهم فطنون. وفيه ما فيه.

= ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] أي: في الإنجيل، لحم الإبل والشحم من كل حيوان، وصيد السمك يوم السبت. وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٠٥.

وقيل: ضمير «ينظرون» للذين ظلموا. وقيل: للناس مطلقاً، وأيِّد بما أخرجه ابن مردويه عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «تقوم الساعة والرجلان يحلبان النعجة، والرجلان يطويان الثوب» ثم قرأ عليه الصلاة والسلام: (هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)(١).

﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ الظرف متعلِّق بـ «عدو»، والفصل لا يضره، والمراد أن المَحبَّات تنقطع يوم إذ تأتيهم الساعة، ولا يبقى إلا محبة المتقين، وهم المتصادقون في الله عز وجل؛ لِمَا أنهم يرون ثوابَ التحابّ في الله تعالى، واعتبارُ الانقطاع لأن الخِلَّ حال كونه خِلًّا محالٌ أن يصير عدوًّا.

وقيل: المعنى: الأخلَّاء تنقطع خُلَّتهم ذلك اليوم إلا المجتنبين أخِلَّاءَ السوء.

والفرق بين الوجهين أن المتّقي في الأول هو المحبُّ لصاحبه في الله تعالى، فاتقى الحبَّ أن يشوبه غرض غير إلهي. وفي الثاني هو من اتقى صحبة الأشرار. والاستثناء فيهما متصل.

وجوِّز أن يكون «يومئذ» متعلقاً بـ «الأخلاء»، والمراد به في الدنيا، ومتعلّق «عدو» مقدَّر، أي: في الآخرة. والآية قيل: نزلت في أُبيّ بن خلف وعقبة بن أبي مُعيط.

﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ حكاية لما ينادَى به المتَّقون المتحابُّون في الله تعالى يومئذ، فهو بتقدير قول، أي: فيقال لهم: يا عبادي.. إلخ، أو: فأقول لهم، بناء على أن المنادي هو الله عز وجل تشريفاً لهم.

وعن المعتمر بن سليمان: أن الناس حين يُبعثون ليس منهم أحدٌ إلا يفزع فينادي منادٍ: «يا عباد..» إلخ فيرجوها الناس كلُّهم، فيتبعها قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾﴾ فييأس منها الكفار. فـ «يا عباد» عامٌّ مخصوص إما بالآية السابقة وإما باللاحقة، والأول أوفق من أوجه عديدة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢١.

والموصول إما صفة للمنادَى، أو بدل، أو مفعول لمقدَّر، أي: أمدح ونحوه، وجملة «وكانوا مسلمين» حال من ضمير «آمنوا» بتقدير «قد» أو بدونه، وجوِّز عطفها على الصِّلة، ورجحت الحالية بأنَّ الكلام عليها أبلغُ، لأن المراد بالإسلام هنا الانقياد والإخلاص ليفيد ذكره بعد الإيمان، فإذا جعل حالاً أفاد بعد تلبُّسهم به في الماضي اتِّصاله بزمان الإيمان، و«كان» تدلُّ على الاستمرار أيضاً، ومن هنا جاء التأكيد والأبلغيَّة، بخلاف العطف، وكذا الحال المفردة بأن يقال: الذين آمنوا بآياتنا مخلصين.

وقرأ غير واحد من السبعة: «يا عبادي» بالياء على الأصل، والحذف كثير شائع، وبه قرأ حفص وحمزة والكسائي[1].

وقرأ ابن محيصن: «لا خوفُ» بالرفع من غير تنوين، والحسن والزهري وابن أبي إسحاق وعيسى وابن يعمر ويعقوب بفتحها من غير تنوين[2].

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ نساؤكم المؤمنات، فالإضافة للاختصاص التامِّ، فيخرج من لم يؤمن منهنَّ ﴿تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ تُسَرُّون سروراً يظهر حَباره، أي: أَثَره من النُّضرة والحُسْن على وجوهكم؛ كقوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤]. أو: تزيَّنون، من الحبر بفتح الحاء وكسرها، وهو الزينة وحُسْن الهيئة؛ وهذا مُتَّحد بما قبله معنى، والفرق في المشتقِّ منه. وقال الزجاج: أي: تُكرمون إكراماً يُبالغ فيه، والحَبرة ـ بالفتح ـ المبالغة في الفعل الموصوف بأنه جميل، ومنه الإكرام، فهو في الأصل عامٌّ أُريد به بعض أفراده هنا.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ بعد دخولهم الجنة حيثما[3] أمروا به ﴿بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ﴾ كذلك، والصِّحاف جمع صَحْفة، قيل: هي كالقصعة، وقيل: أعظم أواني الأكل الجَفْنة، ثم القصعة، ثم الصَّحْفة، ثم الكِيلة.

---

(١) قرأ شعبة بفتح الياء وصلاً وسكونها وقفاً، ونافع وأبو جعفر وأبو عمرو وابن عامر ورويس بإثباتها ساكنة في الحالين، والباقون بحذفها في الحالين. النشر ٢/ ٣٧٠، والبدور الزاهرة ص٢٩١.

(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٦، وقراءة يعقوب في النشر ٢/ ٢١١.

(٣) كذا في الأصل و(م)، وفي تفسير أبي السعود ٨/ ٥٤: حسبما.

والأكواب جمع كوب، وهو كوزٌ لا عروةَ له، وهذا معنى قول مجاهد: لا أُذن له. وهو على ما رُوي عن قتادة دون الإبريق، وقال: بلغنا أنه مُدَوَّر الرأس. ولمَّا كانت أواني المأكول أكثرَ بالنسبة لأواني المشروب عادةً جُمع الأول جمع كثرة والثاني جمع قلَّة. وقد تضافرت الأخبار بكثرة الصِّحاف؛ أخرج ابن المبارك وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة»، والطبراني في «الأوسط» بسند رجاله ثقات عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجةً لمن يقوم على رأسه عشرةُ آلاف خادم، بيد كلِّ واحد صحفتان واحدةٌ من ذهب والأُخرى من فضة، في كلِّ واحدة لون ليس في الأُخرى مثلُه، يأكل من آخرها مثلَ ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذَّة مثل الذي يجد لأولها، ثم يكون ذلك كرشح المِسْك الإذفر، لا يبولون ولا يتغوَّطون ولا يمتخطون، إخواناً على سرر متقابلين»(١).

وفي حديث رواه عكرمة: «إن أدنى أهل الجنة منزلةً وأسفلَهم درجة لَرَجلٌ لا يدخل بعده أحدٌ، يُفسح له في بصره مسيرةَ عام في قصور من ذهب، وخيام من لؤلؤ ليس فيها موضع شبر إلا معمور يُغدَى عليه كلّ يوم ويُراح بسبعين ألف صحفة، في كلِّ صحفة لون ليس في الأُخرى مثلُه، شهوته في آخرها كشهوته في أولها، لو نزل عليه جميعُ أهل الأرض لَوسع عليهم مما أُعطي، لا ينقص ذلك مما أُوتي شيئاً»(٢)، وروى ابن أبي شيبة هذا العدد عن كعب أيضاً(٣)، وإذا كان ذلك للأدنى فما ظنُّك بالأعلى، رزقنا الله تعالى ما يليق بجوده وكرمه.

وأمال أبو الحارث عن الكسائي ـ كما ذكر ابن خالويه(٤) ـ «بصحاف».

﴿وَفِيهَا﴾ أي: في الجنة ﴿مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ من فنون الملاذِّ ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ أي: تستلذُّ وتقرُّ بمشاهدته، وذِكْرُ ذلك الشامل لكلِّ لذَّة ونعيم بعد ذِكرِ الطواف عليهم بأواني الذهب الذي هو بعضٌ من التنعُّم والترفُّه تعميمٌ بعد

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٢، والزهد لابن المبارك (١٥٣٠)، والمعجم الأوسط (٧٦٧٤).

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٢، وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٢.

(٤) في القراءات الشاذة ص١٣٧.

تخصيص، كما أن ذِكْرَ لذَّة العين التي هي جاسوس النفس بعد اشتهاء النفس تخصيصٌ بعد تعميم.

وقال بعض الأجِلَّة: إنَّ قولَه تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ﴾ دلَّ على الأطعمة ﴿وَأَكْوَابٍ﴾ على الأشربة، ولا يبعد أن يحمل قوله سبحانه: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ﴾ على المَنْكَح والمَلْبَس وما يتصل بهما ليتكامل جميع المُشتهيات النفسانية، فبقيت اللذَّة الكبرى، وهي النظرُ إلى وجه الله تعالى الكريم، فكنى عنه بقوله عز وجل ﴿وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ ولهذا قال رسول الله ﷺ فيما رواه النسائي عن أنس: «حُبِّب إليَّ الطِّيب والنساء، وجُعلت قُرَّةُ عيني في الصلاة»[1] وقال قيس بن ملوَّح:

ولقد هممتُ بقتلها من حُبِّها ... كيما تكون خصيمتي في المحشر
حتى يطولَ على الصراط وقوفنا ... وتلذَّ عيني من لذيذ المنظر[2]

ويُوافق هذا قولَ الإمام جعفر الصادق ﷺ: شتان بين ما تشتهي الأنفس وبين ما تلذُّ الأعين، لأن جميعَ ما في الجنة من النعيم والشهوات في جنب ما تلذُّ الأعين كأصبع تُغمس في البحر؛ لأن شهواتِ الجنة لها حدٌّ ونهاية، لأنها مخلوقة، ولا تلذُّ عين في الدار الباقية إلا بالنظر إلى الباقي جلَّ وعزَّ، ولا حدَّ لذلك، ولا صفة ولا نهاية. انتهى. ويُعلم مما ذكر أن المعنى على اعتبار: وفيها ما تلذُّ الأعين.

وعلى ذلك بنى الزمخشري[3] قوله: هذا حصر لأنواع النعم، لأنها إما مشتهاةٌ في القلوب أو مستلذَّة في الأعين. وتعقَّبه في «الكشف» فقال: فيه نظرٌ، لانتقاضه بمستلذَّات سائر المشاعر الخمس. فإن قيل: إنها من القسم الأول. قلنا: مستلذّ العين كذلك، فالوجه أنه ذكر تعظيماً لنعيمها بأنه مما يتوافق فيه القلب والعين، وهو الغاية عندهم في المحبوب؛ لأن العين مقدّمة القلب؛ وهذا قول بأنه ليس في الجملة الثانية اعتبار موصول آخر، بل هي والجملة قبلها صلتان لموصول واحد

---

(١) سنن النسائي ٧/ ٦٢، وأخرجه أيضاً أحمد (١٢٢٩٣).
(٢) لم نقف على البيتين في ديوان قيس المطبوع، وأوردهما العبدلكاني في حماسة الظرفاء ص٧٥، وذكر ابن المعتز في طبقات الشعراء ص٤٤٦ البيت الأول وعزاه للصيني.
(٣) في الكشاف ٣/ ٤٩٥-٤٩٦.

وهو المذكور، وما تقدَّم هو الذي يقتضيه كلام الأكثرين، وحذف الموصول في مثل ذلك شائع، ولا مانع من إدخال النظر إلى وجهه تعالى الكريم فيما تلذّ الأعين على ما ذكرناه أولاً.

و«أل» في الأنفس والأعين للاستغراق على ما قيل، ولا فرق بين جمع القِلَّة والكثرة. ولعل من يقول بأنَّ استغراق المفرد أشملُ من استغراق الجمع، ويفرق بين الجمعين في المبدأ والمنتهى، يقول بأن استغراق جمع القلة أشملُ من استغراق جمع الكثرة.

وقيل: هي للعهد.

وقيل: عوض عن المضاف إليه، أي: ما تشتهيه أنفسهم وتلذُّ أعينهم.

وجمع النفس والعين الباصرة على أَفْعُل في كلامهم أكثر من جمعهما على غيره، بل ليس في القرآن الكريم جمع الباصرة إلا على ذلك، وما أنسب هذا الجمع هنا لمكان «الأخلاء».

وحملُ ما تشتهيه النفس على المنكح والملبس وما يتصل بهما خلافُ الظاهر. وفي الأخبار أيضاً ما هو ظاهر في العموم، أخرج ابن أبي شيبة والترمذي وابن مردويه عن بُريدة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: هل في الجنة خيلٌ، فإنها تُعجبني؟ قال: «إنْ أحببتَ ذلك أُتيت بفرس من ياقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت» فقال له رجل: إنَّ الإبل تُعجبني، فهل في الجنة من إبل؟ فقال: «يا عبد الله، إنْ أُدخلت الجنة فلك فيها ما اشتهت[1] نفسك ولذَّت عينك»[2].

وأخرج أيضاً نحوه عن عبد الرحمن بن سابط، وقال: هو أصحُّ من الأول[3]. وجاء نحوه أيضاً في روايات أُخر فلا يضرُّ ما قيل من ضعف إسناده.

(١) في الأصل: ما تشتهي، والمثبت من المصادر.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣، ومصنف ابن أبي شيبة ١٣/ ١٠٧-١٠٨، وسنن الترمذي (٢٥٤٣)، وهو في مسند أحمد (٢٢٩٨٢). وإسناده ضعيف، وينظر الكلام عليه في حاشية المسند.

(٣) سنن الترمذي بعد الحديث (٢٥٤٣).

ولا يُشكل على العموم أن اللواطة مثلاً لا تكون في الجنة؛ لأن ما لا يَليق أن يكون فيها لا يُشتهى، بل قيل في خصوص اللواطة: إنه لا يشتهيها في الدنيا الأنفس السليمة[١].

واختلف الناس هل يكون في الجنة حمل أم لا، فذهب بعضٌ إلى الأول؛ فقد أخرج الإمام أحمد وهناد والدارمي وعبد بن حميد وابن ماجه وابن حبان والترمذي وحسنه وابن المنذر والبيهقي في «البعث» عن أبي سعيد الخدري قال: قلنا: يا رسول الله، إن الولد من قُرَّة العين وتمام السرور، فهل يولد لأهل الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي»[٢].

وذهب طاوس وإبراهيم النخعي ومجاهد وعطاء وإسحاق بن إبراهيم إلى الثاني، فقد روي عن أبي رَزين العقيلي عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ أهل الجنة لا يكون لهم ولد»[٣]، وفي حديث لقيط الطويل ـ الذي رواه عبد الله بن الإمام أحمد[٤] وأبو بكر بن عمرو[٥] وأبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم[٦] والطبراني[٧] وابن حبان ومحمد بن إسحاق بن منده وابن مردويه وأبو نُعيم وجماعة من الحُفَّاظ، وتلقَّاه الأئمة بالقَبول. وقال فيه ابن منده: لا يُنكر هذا الحديث إلا جاحدٌ أو جاهل أو مخالف للكتاب والسنة ـ قلت: يا رسول [الله] أوَ لنا فيها ـ يعني الجنة ـ أزواج،

(١) في هامش الأصل: وقيل: إن أهل الجنة لا أ[ولاد] لهم. انتهى منه.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٣، ومسند أحمد (١١٠٦٣)، والزهد لهناد (٩٣) وسنن الدارمي (٢٨٧٦)، ومنتخب عبد بن حميد (٩٣٩)، وسنن ابن ماجه (٤٣٣٨)، وصحيح ابن حبان (٧٤٠٤)، وسنن الترمذي (٢٥٦٣)، والبعث والنشور (٤٤٢).
(٣) سنن الترمذي بعد الحديث (٢٥٦٣).
(٤) السنة (٩٥١)، وهو في المسند (١٦٢٠٦)، وسلف ١٦/ ١٧١-١٧٢
(٥) يعني ابن أبي عاصم في كتاب السنة (٦٣٦).
(٦) الأصبهاني الحافظ، القاضي، المعروف بال[illegible] تفسير القرآن، والسنَّة، و[illegible] توفي سنة (٣٤٩هـ). السير ١٦/ ٦.
(٧) المعجم الكبير ١٩/ (٤٧٧).

أَوَ منهن مصلحات؟ قال: «المصلحات للمصلحين تلذُّونهنَّ ويَلَذُّونكم[(١)] مثل لذَّاتكم في الدنيا، غير أنْ لا تَوَالُد».

وقال مجاهد وعطاء قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: مطهَّرة من الولد والحيض والغائط والبول ونحوها. وقال إسحاق بن إبراهيم في حديث أبي سعيد السابق: إنه على معنى: «إذا اشتهى المؤمن الولد في الجنة كان حملُه ووضعُه وسِنُّه في ساعة كما يشتهي» ولكن لا يشتهي. وتُعقِّب بأن «إذا» لمتحقِّق الوقوع، ولو أُريد ما ذكر لقيل: لو اشتهى. وفي «حادي الأرواح»: إسناد حديث أبي سعيد على شرط الصحيح، فرجاله يُحتجُّ بهم فيه، ولكنه غريب جدًّا[(٢)].

وقال السفاريني في «البحور الزاخرة»[(٣)]: حديث أبي سعيد أجودُ أسانيده إسنادُ الترمذي، وقد حكم عليه بالغرابة، وأنه لا يعرف إلا من حديث أبي الصديق الناجي، وقد اضطرب لفظه، فتارة يروى عنه: إذا اشتهى الولد، وتارة: إنه يشتهي الولد، وتارة: إن الرجل لَيُولد له. و«إذا» قد تستعمل لمجرد التعليق الأعم من المحقَّق وغيره. ورجَّح القول بعدم الولادة بعشرة وجوه مذكورة فيها.

وأنا أختار القول بالولادة كما نطق بها حديث أبي سعيد، وقد قال فيه الأستاذ أبو سهل فيما نقله الحاكم[(٤)]: إنه لا يُنكره إلا أهلُ الزيغ، وفيه غير إسناد. وليس تكوُّن الولد على الوجه المعهود في الدنيا، بل يكون كما نطق به الحديث، ومتى كان كذلك فلا يستبعد تكوُّنه من نسيم يخرج وقتَ الجماع، وزعمُ أن الولد إنما يُخلق من المني، فحيث لا مني في الجنة ـ كما جاء في الأخبار ـ لا خَلْق؛ فيه تعجيزٌ للقدرة. ولا ينافي ذلك ما في حديث لَقيط؛ لأن المراد هناك نفي التوالد المعهود في الدنيا كما يُشير إليه وقوع «غير أن لا توالد» بعد قوله عليه الصلاة

---

(١) الأصل: تلذونهن ويلذذنكم، والمثبت من زاد المعاد ٣/ ٥٩٢ (والكلام منه)، وفي مسند أحمد: تلذونهم ويلذذن بكم، وفي السنة لابن أبي عاصم: يلذونهن ويلذونكم.

(٢) حادي الأرواح ص٣١٢.

(٣) البحور الزاخرة في علوم الآخرة لأبي العون محمد بن أحمد السفاريني النابلسي الحنبلي، المتوفى سنة (١١٨٨هـ). ذيل كشف الظنون ١/ ١٦٧.

(٤) ذكره ابن القيم في حادي الأرواح ص٣٢٠.

والسلام: «مثل لذاتكم في الدنيا» ويقال نحو ذلك في حديث أبي رَزين جمعاً بين الأخبار. ثم إن التوالد ليس على سبيل الاستمرار، بل هو تابع للاشتهاء ولا يلزم استمراره، فالقولُ بأنه إن استمرَّ لزم وجود أشخاص لا نهاية لها، وإن انقطع لزم انقطاع نوعٍ من لذَّة أهل الجنة، ليس بشيء.

وما قيل: إنه قد ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: «يبقى في الجنة فضل فينشئ الله تعالى لها خَلْقاً يُسكنهم إيَّاها»(١) ولو كان في الجنة إيلادٌ لكان الفضلُ لأولادهم، الملازمة فيه ممنوعة، لجواز أن يقال: من يشتهي الولد يشتهي أن يكون معه في منزله.

والقولُ بأنَّ التوالدَ في الدنيا لحكمة بقاء النوع، وهو باق في الجنة بدون توالد، فيكون عبثاً؛ يَرِدُ عليه أنه: ما المانع من أن يكون هناك لِلَّذَّة ونحوها، كالأكل والشرب، فإنهما في الدنيا لشيء وفي الجنة لشيء آخر؟

وبالجملة: ما ذكر لترجيح عدم الولادة من الوجوه مما لا يخفى حاله على مَن له ذهنٌ وجيه.

وقرأ غير واحد من السبعة وغيرهم: «ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين»(٢) بحذف الضمير العائد على «ما» من الجملتين المتعاطفتين، وفي مصحف عبد الله: «ما تشتهيه الأنفس وتلذُّه الأعين» بالضمير فيهما(٣)، والقراءة به في الأولى(٤) دون الثانية لأبي جعفر وشيبة ونافع وابن عامر وحفص(٥).

﴿وَأَنتُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنة. وقيل: في الملاذِّ المفهومة مما تقدَّم، وهو كما ترى.

﴿خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ دائمون أَبَدَ الآبِدينَ، والجملة داخلةٌ في حيِّز النداء، وهي

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٣٨٠)، ومسلم (٢٨٤٨) (٣٨) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية شعبة وحمزة والكسائي، من العشرة يعقوب وخلف. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٦.

(٤) في (م): الأول.

(٥) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

كالتأكيد لقوله تعالى: «لا خوفٌ عليكم». ونُودوا بذلك إتماماً للنعمة وإكمالاً للسرور، فإنَّ كلَّ نعيم زائلٍ موجبٌ لكلفة الحفظ وخوف الزوال، ومستعقبٌ للتحسُّر في ثاني الأحوال، ولله تعالى درُّ القائل:

وإذا نظرت فإن بؤساً زائلاً ... للمرء خيرٌ من نعيم زائل[1]

وعن النصراباذي أنه إن كان خلودهم لشهوة الأنفس ولذَّة الأعين فالفناء خيرٌ من ذلك، وإن كان لفناء الأوصاف والاتِّصاف بصفات الحق والمقام فيها على سرر الرضا والمشاهدة فأنتم إذاً أنتم. وأنت تعلم أن ما ذكره يدخل في عموم ما تقدم دخولاً أوليًّا. وذكر بعضهم هنا أن الخطاب هنا من باب الالتفات، وأنه للتشريف.

وقال الطيبي: ذُقْ مع طبعك المستقيم معنى الخطاب. والالتفات وتقديم الظرف في «وأنتم فيها خالدون» لتقف على ما لا يكتنهه الوصف.

﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ﴾ مبتدأ وخبر، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا﴾ صفة «الجنة». وقوله سبحانه: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ متعلّق بـ «أورثتموها».

وقيل: «تلك الجنة» مبتدأ وصفة، و«التي أورثتموها» الخبر، والجارُّ بعده متعلِّق به. وقيل: «تلك» مبتدأ و«الجنة» صفتها و«التي أورثتموها» صفة الجنة، و«بما كنتم» متعلق بمحذوف هو الخبر.

والإشارة على الوجه الأول إلى الجنة المذكورة في قوله تعالى: «ادخلوا الجنة»، وعلى الأخيرين إلى الجنة الواقعة صفة على ما قيل، والباء للسببية أو للمقابلة.

وقد شبّه ما استحقوه بأعمالهم الحسنة من الجنة ونعيمها الباقي لهم بما يخلِّفه المرء لوارثه من الأملاك والأرزاق، ويلزمه تشبيه العمل نفسه بالمورِّث ـ اسم فاعل ـ فاستعير الميراث لِمَا استحقوه، ثم اشتقَّ أورثتموها، فيكون هناك استعارةٌ تبعية، وقال بعضٌ: الاستعارة تمثيلية. وجوِّز أن تكون مكنية. وقيل: الإرث مجازٌ مرسل للنيل والأخذ.

(١) ذكره الشهاب في حاشيته ٧/ ٤٥٠.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ما من أحدٍ إلا وله منزلٌ في الجنة ومنزلٌ في النار، فالكافر يرثُ المؤمنَ منزلَه في النار، والمؤمنُ يَرِثُ الكافرَ منزلَه في الجنة، وذلك قوله تعالى: (وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)»[1]. ولا يخلو الكلام عن مجاز عليه أيضاً.

وأيًّاما كان فسببية العمل لإيراث الجنة ونَيْلها ليس إلا بفضل الله تعالى ورحمته عز وجل. والمراد بقوله ﷺ: «لن يُدخل أحدَكم الجنةَ عملُه»[2] نَفْيُ[3] إدخال العمل الجنةَ على سبيل الاستقلال والسببية التامة، فلا تعارض.

وأخرج هناد وعبد بن حُميد في «الزهد» عن ابن مسعود قال: تَجُوزون الصراط بعفو الله تعالى، وتدخلون الجنة برحمة الله تعالى، وتقتسمون المنازل بأعمالكم[4]. فتأمل.

وقرئ: «وُرِّثتموها»[5].

﴿لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ﴾ بحسب الأنواع والأصناف لا بحسب الأفراد فقط.

﴿مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ أي: لا تأكلون إلا بعضَها، وأعقابُها باقية في أشجارها، فهي مُزيَّنة بالثمار أبداً موقرة بها لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا، وفي الحديث: «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها إلا نَبَتَ مكانَها مثلاها»[6].

فـ «من» تبعيضية. وجوِّز كونها ابتدائية، والتقديم للحصر الإضافي، وقيل: لرعاية الفاصلة.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وأخرجه ابن ماجه (٤٣٤١) وآخره عنده: فذلك قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠]، وسلف ١٨/ ٣٠.

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٨٧)، والبخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تحرفت في (م) إلى: ففي.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وهو في الزهد لهناد (٣٢٣).

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٦.

(٦) أخرجه البزار (٣٥٣٠ - كشف)، والطبراني في الكبير (١٤٤٩) من حديث ثوبان رضي الله عنه، ولفظ الطبراني: «إن الرجل إذا نزع من الجنة عادت مكانها أخرى».

ولعل تكرير ذكر المطاعم في القرآن العظيم مع أنها كَلَا شيءٍ بالنسبة إلى سائر أنواع نعيم الجنة؛ لِمَا كان بأكثرهم في الدنيا من الشِّدة والفاقة، فهو تسليةٌ لهم. وقيل: إن ذلك لكون أكثر المخاطبين عوامًّا، نظرهم مقصور على الأكل والشُّرب. وتُعقِّب بأنه غير تامٍّ، وللصوفية كلام سيأتي في مواضع إن شاء الله عز وجل.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي: الراسخين في الإجرام، الكاملين فيه، وهم الكفار، فكأنه قيل: إنَّ الكفار ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾﴾ وأيِّد إرادة ذلك بجعلهم قسيمَ المؤمنين بالآيات في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فلا تدلُّ الآية على خلود عُصاة المؤمنين كما ذهب إليه المعتزلة والخوارج، ولا يضرُّ عدمُ التعرُّض لبيان حكمهم بناءً على أن المراد بالذين آمنوا المتقون؛ لقوله تعالى: (يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ) والقولُ بأن «الذين آمنوا» شاملٌ لهم لأن العلة إيمانهم وإسلامهم، لا يخفى ما فيه.

والظرف متعلق بـ «خالدون»، وخالدون خبر «إن». وجُوِّز أن يكون الظرفُ هو الخبر و«خالدون» فاعلُه لاعتماده.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾ أي: لا يُخفَّف عنهم، من فَتَرتْ عنه الحُمَّى: إذا سَكَنَتْ قليلاً، والمادة بأيِّ صيغة كانت تدلُّ على الضعف مطلقاً.

﴿وَهُمْ فِيهِ﴾ أي: في العذاب. وقرأ عبد الله: «فيها»[(١)]، أي: في جهنم.

﴿مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾﴾ حزينون من شدة البأس. قال الراغب: الإبلاس: الحزن المعترض من شدَّة البأس، ومنه اشتقَّ إبليس فيما قيل. ولمَّا كان المُبْلِس كثيراً ما يلزم السكوت وينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلانٌ، إذا سكت وانقطعت حُجَّته[(٢)]. انتهى.

وقد فسِّر الإبلاس هنا بالسكوت وانقطاع الحُجَّة.

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ لسوء اختيارهم، و«هم» ضمير فصل

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢٠، والكشاف ٣/ ٤٩٦، والبحر المحيط ٨/ ٢٧.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم (بلس).

فيفيد التخصيص. وقرأ عبد الله وأبو زيد: «الظالمون» بالرفع[١] على أن «هم» مبتدأ وهو خبره، وذكر أبو عمر الجَرْميُّ أن لغة تميم جعلُ ما هو فَصْلٌ عند غيرهم مبتدأ، ويرفعون ما بعده على الخبر، وقال أبو زيد: سمعتهم يقرؤون: «تجدوه عند الله هو خير وأعظم» [المزمل: ٢٠][٢] برفع: خير وأعظم، وقال قيس بن ذريح:

تحنُّ إلى ليلى وأنت تركتَها وكنتَ عليها بالمَلا أنت أقدرُ[٣]

وقال سيبويه: بَلَغَنا أنَّ رؤبة كان يقول: أظنُّ زيداً هو خيرٌ منك، يعني بالرفع[٤].

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: من شدة العذاب. وفي بعض الآثار: يُلقى على أهل النار الجوعُ حتى يَعْدِلَ ما هم فيه من العذاب، فيقولون: ادعوا مالكاً. فيدعون: ﴿يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ أي: لِيُمتنا، مِن: قَضَى عليه، إذا أماته، ومرادهم: سَلْ ربَّك أن يقضيَ علينا حتى نستريحَ، وإضافتهم الربَّ إلى ضميره لحثِّه، لا للإنكار، وهذا لا يُنافي الإبلاس على التفسير الأول؛ لأنه صراخٌ وتمنٍّ للموت من فرطِ الشدة، وأما على التفسير الثاني أنه وإن نفاه لكن زمان كلٍّ غيرُ زمان الآخر، فإنَّ أزمنة العذاب متطاولةٌ وأحقابه ممتدَّة، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لِغلبة اليأس وعِلْمهم أنه لا خَلاصَ لهم ولو بالموت، ويغوثون أوقاتاً لشدَّة ما بهم.

وتُعقِّب بأنه لا يُناسب دوام الجملة الاسمية، أعني: وهم مُبْلِسون.

وقيل: إنَّ «نادَوا» معطوفٌ بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً، ولا يخفى أن تلك الجملة حالية لا تنفكُّ عن الخلود.

وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه وابن مسعود وابن وثَّاب والأعمش: «يا مالِ»

(١) معاني القرآن للفراء ٣/ ٣٧، وإعراب القرآن للنحاس ٤/ ١٢١، والبحر ٨/ ٢٧.
(٢) البحر ٨/ ٢٧، وهي قراءة شاذة.
(٣) كتاب سيبويه ٢/ ٣٩٣، وشرح المفصل ٣/ ١١٢ وفيهما: تُبَكِّي على لبنى. . .، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٧.
(٤) الكتاب ٢/ ٣٩٢، والبحر ٨/ ٢٧.

بالترخيم[١] على لغة من ينتظر، وقرأ أبو السوار: «يا مالُ» بالترخيم[٢] أيضاً لكن على لغة من لم ينتظر.

قال ابن جني[٣]: وللترخيم في هذا الموضع سرٌّ، وذلك أنهم لعظم ما هم فيه ضَعُفَتْ قواهم وذلَّت أنفسهم، فكان هذا من موضع الاختصار ضرورةً.

وبهذا يجاب عن قول ابن عباس وقد حكيت له القراءة به على اللغة الأولى: ما أَشْغَلَ أهل النار عن الترخيم[٤]! مشيراً بذلك إلى إنكارها، فإنَّ «ما» للتعجب، وفيها معنى الصدّ، يعني أنهم في حالة تَشغلهم عن الالتفات إلى الترخيم وتركِ النداء على الوجه الأكثر في الاستعمال. وحاصلُ الجواب أنَّ هذا الترخيم لم يصدر عنهم لقَصْدِ التصرف في الكلام والتفنُّنِ فيه، كما في قوله:

يحيي رُفات العظام بالية ... والحقُّ يامالِ غيرُ ما تَصِفُ[٥]

بل للعجز وضيق المجال عن الإتمام كما يُشاهد في بعض المَكْروبين.

﴿قَالَ﴾ أي: مالك: ﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ مُقيمون في العذاب أبداً لا خَلاص لكم منه بموت ولا غيره، وهذا تقنيطٌ ونِكاية لهم فوق ما هم فيه، ولا يضر في ذلك عِلْمه بيأسهم إنْ قلنا به.

وذكر بعض الأَجِلَّة أنَّ فيه استهزاءً؛ لأنه أقام المُكْث مقامَ الخلود، والمُكْث يُشعر بالانقطاع؛ لأنه كما قال الراغب: ثَبات مع انتظار[٦]. ويمكن أن يكون وجه الاستهزاء التعبير بـ «ماكثون» من حيث إنه يشعر بالاختيار.

وإجابتهم بذلك بعد مُدَّة. قال ابن عباس: يُجيبهم بعد مضي ألف سنة. وقال نوف: بعد مئة. وقيل: ثمانين. وقيل: أربعين.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٣٦، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٦.
(٣) المحتسب ٢/ ٢٥٧.
(٤) الكشاف ٣/ ٤٩٦.
(٥) البيت لعمرو بن امرئ القيس الخزرجي، ضمن قصيدة ذكرها البغدادي في الخزانة ٤/ ٢٧٥، وصدره فيها: خالفتَ في الرأي كلَّ ذي فَخَر..
(٦) مفردات ألفاظ القرآن (مكث).

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٨﴾ خطابُ توبيخ وتقريع من جهته تعالى مُقرِّر لجواب مالك ومُبيِّنٌ لسبب مُكثهم، ولا مانع من خطابه سبحانه الكفرةَ تقريعاً لهم. وقيل: هو من كلام بعض الملائكة عليهم السلام، وهو كما يقول أحدُ خدم الملك للرعية: أعلمناكم وفعلنا بكم.

قيل: لا يجوز أن يكون من قول مالك لا لأن ضمير الجمع يُنافيه، بل لأن مالكاً لا يصح منه أن يقوله؛ لأنه لا خِدْمةَ له غير خَزْنِه للنار. وفيه بحث.

وقيل: في «قال» ضميره تعالى، فالكلُّ مقولُه عز وجل.

وقيل: إن قوله تعالى: «إنكم ماكثون» خاتمة حال الفريقين، وقوله سبحانه: «لقد» إلخ كلامٌ آخرُ مع قريش، والمراد عليه: جئناكم في هذه السورة أو القرآن بالحقِّ، وعلى ما تقدم: لقد جئناكم في الدنيا بالحقِّ، وهو التوحيد وسائر ما يجب الإيمان به، وذلك بإرسال الرُّسل وإنزال الكتب ولكن أكثرَكم للحقِّ - أيِّ حقٍّ كان - كارهون، لا تقبلونه وتنفرون منه. وفسر الحقَّ بذلك دون الحقِّ المعهود سواء كان الخطاب لأهل النار أو لقريش لمكان «أكثركم»؛ فإن الحقَّ المعهود كلُّهم كارهون له مُشمئِزُّون منه. وقد يقال: الظاهر العهد، وعبَّر بالأكثر لأن من الأتباع من يكفر تقليداً.

وقرئ: «لقد جئتكم»[1].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ كلامٌ مبتدأ ناعٍ على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ، و«أم» منقطعة وما فيها من[2] معنى «بل» للانتقال من توبيخ أهل النار إلى حكاية جناية هؤلاء، والهمزة للإنكار، فإن أريد بالإبرام الإحكام حقيقةً فهي لإنكار الوقوع واستبعاده، وإن أُريد الإحكام صورةً فهي لإنكار الواقع واستقباحه، أي: بل أبرم مشركو مكة أمراً من كيدهم ومَكْرهم برسول الله ﷺ. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ۝٧٩﴾ كيدنا حقيقةً لا هم، أو فإنا مبرمون كيدَنا بهم حقيقةً كما أبرموا كيدَهم صورةً، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ [الطور: ٤٢].

---

(١) الكشاف ٣/ ٤٩٦.

(٢) قوله: من، ساقط من (م).

والآية إشارةٌ إلى ما كان منهم من تدبير قتله عليه الصلاة والسلام في دار الندوة، وإلى ما كان منه عز وجل من تدميرهم.

وقيل: هو من تتمة الكلام السابق، والمعنى: أم أبرموا في تكذيب الحقِّ وردِّه ولم يقتصروا على كراهته، فإنا مُبرِمون أمراً في مجازاتهم. فإن كان ذلك خطاباً لأهل النار، فإبرام الأمر في مجازاتهم هو تخليدُهم في النار معذَّبين؛ وإنْ كان خطاباً لقريش فهو خِذْلانهم ونصر النبيِّ ﷺ عليهم؛ فكأنه قيل: فإنا مُبرمون أمراً في مجازاتهم وإظهار أمرك، وفيه إشارة إلى أن إبرامَهم لا يُفيدهم، ولا يُغني عنهم شيئاً. والعدول عن الخطاب في «أكثركم» إلى الغيبة في «أبرموا» على هذا القيل للإشعار بأنَّ ذلك أسوأ من كراهتهم.

ويؤيِّد ما ذكر أولاً ـ على ما قيل ـ قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ لأنه يدلُّ على أن ما أبرموه كان أمراً قد أخفَوْه، فيناسب الكيدَ دون تكذيب الحقِّ؛ لأن الكَفَرة مجاهرون فيه، والمراد بالسرِّ هنا حديثُ النفس، أي: بل أيحسبون أنَّا لا نسمع حديثَ أنفسهم بذلك الكيد ﴿وَنَجْوَنهُم﴾ أي: تناجيهم وتحادثهم سرًّا.

وقال غير واحد: السرُّ ما حدَّثوا به أنفسهم أو غيرهم في مكان خالٍ، والنجوى ما تكلَّموا به فيما بينهم بطريق التناجي.

﴿بَلَى﴾ نسمعهما ونطَّلع عليهما ﴿وَرُسُلُنَا﴾ الذين يحفظون عليهم أعمالهم ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمون لهم ﴿يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ أي: يكتبونهما، أو يكتبون كلَّ ما صدر عنهم من الأفعال والأقوال التي من جملتها ما ذكر.

والمضارع للاستمرار التجدُّدي، وهو مع فاعله خبر، و«لديهم» حال قُدِّم للفاصلة، أو خبر أيضاً، وجملة المبتدأ والخبر إما عطف على ما يترجم عنه «بلى» أو حال، أي: نسمع ذلك والحال أنَّ رسلنا يكتبونه.

وإذا كان المراد بالسرِّ حديثَ النفس فالآيةُ ظاهرة في أن السرَّ والكلام المخيل مسموعٌ له تعالى، وكذا هي ظاهرة في أن الحفظة تكتبه كغيره من أقوالهم وأفعالهم الظاهرة، ولا يَبْعُدُ ذلك بأن يُطلعهم الله تعالى عليه بطريق من طرق الاطلاع فيكتبوه.

ومَن خصَّ كتابتهم بالأمور الغير القلبية خصَّ السرَّ بما حدّث به الغير في مكان خالٍ.

والظاهر أن حسبانهم ذلك حقيقة، ولا يُستبعد من الكَفَرة الجَهَلة، فقد أخرج ابنُ جرير عن محمد بن كعب القرظي قال: بينا ثلاثةٌ عند الكعبة وأستارِها: قُرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، فقال واحدٌ منهم: ترون الله تعالى يسمع كلامَنا؟ فقال واحد: إذا جَهرتم سمع، وإذا أسررتم لم يسمع. فنزلت: «أم يحسبون» الآية[1].

وقيل: إنهم نُزِّلوا في إقدامهم على الباطل وعدم خوفهم من الله عز وجل منزلةَ من يحسب أن الله سبحانه لا يسمع سرَّه ونجواه.

﴿قُلْ﴾ أي: للكفرة، تحقيقاً للحقِّ وتنبيهاً لهم على أن مخالفتك لهم بعدم عبادتك ما يعبدون من الملائكة عليهم السلام ليس لِبغضك وعداوتك لهم أو لمعبوديهم، بل إنما هو لجزمك باستحالة ما نَسبوا إليهم وبَنَوا عليه عبادتهم من كونهم بناتِ الله سبحانه وتعالى.

﴿إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ أي: لذلك الولد، «وكان» بمعنى: صحَّ، كما يقال: ما كان لك أن تفعل كذا، وهو أحدُ استعمالاتها، و«أول» أفعل تفضيل، والمُفضَّل عليه المقولُ لهم. وجُوِّز اعتبار ذلك مطلقاً؛ والمراد إظهار الرغبة والمسارعة. والمنساقُ إلى الذهن الأول.

ووجه الملازمة أنه عليه الصلاة والسلام أعلمُ الناس بشؤونه تعالى وبما يجوز عليه وبما لا يجوز، وأحرصهم على مراعاة حقوقه وما تُوجبه من تعظيم وَلَده سبحانه، فإنَّ حقَّ الوالد على شخص يوجب عليه تعظيم ولده؛ لِمَا أنَّ تعظيمَ الولد تعظيمُ الوالد؛ فالمعنى: إن كان للرحمن ولد وصحَّ ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه، وحُجَّةٍ واضحة تُدلون بها، فأنا أول من يُعظِّم ذلك الولد وأَسْبَقُكم إلى طاعته والانقياد له كما يُعظِّم الرجلُ ولدَ الملك لعظم أبيه، وهذا نفي لكينونة ولدٍ له سبحانه على أبلغ وجه، وهو الطريق البرهاني والمذهب الكلامي، فإنه في الحقيقة قياسٌ استثنائي استُدلَّ فيه بنفي اللازم البيِّن انتفاؤه ـ وهو عبادته ﷺ للولد ـ على نفي الملزوم، وهو كينونة الولد له سبحانه، وذلك نظيرُ قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٣، وتفسير الطبري ٢٠/ ٦٥٣.

ﺀَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢] لكنه جيء بـ «إنْ» دون «لو» لجَعْلِ ما في حيِّزها بمنزلة ما لا قَطْعَ بعدمه على طريق المساهلة وإرخاءِ العنان للتبكيت والإفحام.

وفي «الكشف»: إن في الآية مبالغةً من حيث إنه جعل الممكن في نفسه ـ أعني عبادته عليه الصلاة والسلام لِمَا يدعونه ولداً ـ مُحالاً، فهو نفيٌ لعبادة الولد على أبلغ وجه حيث جعل مُسبَّباً عن محال، ثم نفي للولد كذلك من طريق آخر، وهو أنه لمَّا لم يعبد ﷺ الولدَ ـ مع كونه أولى بعبادته لو كان ـ دلَّ على نَفْيه، ونحو ما ذكر في الآية مرويٌّ عن قتادة والسدي والطبري[١].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حُميد وابن جرير عن مجاهد أن المعنى: قل: إنْ كان للرحمن ولدٌ في زعمكم فأنا أولُ من عبد الله تعالى وحدَه وكذَّبكم بما تقولون[٢]. فالمرادُ من كونه عليه الصلاة والسلام أولَ العابدين كونُه ﷺ أولَ من يُنكر ذلك عليهم. والملازمة في الشرطية باعتبار أن نسبتهم الولد له تعالى تقتضي أن يُكذِّبهم النبي ﷺ، وأن يكون أولَ من يُنكره؛ لأنه صاحبُ الدعوة إلى التوحيد. وقد خَفِيَ ذلك على الإمام فنفى صحةَ هذا الوجه[٣].

وتكلَّف بعضُهم فقال: إنَّ تسبُّب الجزاء عن الشرط عليه باعتبار الأولية في العبادة والتوحيد من بينهم، فإنهم إذا أطبقوا على ذلك الزعم يكون النبي ﷺ أولهم في عبادة الله تعالى وحده لا محالة.

وقيل: إن السببية باعتبار الإخبار والذِّكر نحو: إن تضربني فأنا لا أضربُك. وهو أولى مما قبله، والإنصاف أن الارتباط خفيٌّ لا يظهر إلا لمجاهد.

وحكى أبو حاتم عن جماعة ولم يُسَمِّ أحداً منهم أن «العابدين» مِنْ عَبِدَ يَعْبَدُ ـ كفرح يفرح ـ إذا أَنِفَ من الشيء، ومنه قوله:

وأعبَدُ أن أهجو كُليباً بدارمِ[٤]

---

(١) في تفسيره ٢٠/٦٥٦.

(٢) تفسير عبد الرزاق ٢/٢٠٣، وتفسير الطبري ٢٠/٦٥٤.

(٣) تفسير الرازي ٢٧/٢٣١.

(٤) قائله الفرزدق، وليس في ديوانه، وهو في إصلاح المنطق ص٥٩، وتفسير القرطبي ١٩/٩٠، وصدره فيهما: أولئك أحلاسي فجئني بمثلهم. وجاء بلفظ آخر عند غيرهما.

وقول الآخر:

متى ما يَشَأْ ذو الوُدِّ يصرِمْ خليلَه ويَعْبَدْ عليه لا محالةَ ظالما[١]

أي: إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول الآنفين من الولد، أو من كونه لله سبحانه ونسبته له عز وجل. وروي نحو هذا عن ابن عباس؛ أخرج الطستي عنه أن نافع بن الأزرق قال له: أخبرني عن قوله تعالى: (فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ) فقال: أنا أول من ينفرُ عن أن يكون لله تعالى وَلَد[٢]. وأُيِّد ذلك بقراءة السُّلمي واليماني: «العَبِدين»[٣] جمع عَبِد، كحَذِر وحَذِرين، وهو المعروف في معنى أَنِف، وقلَّما يقال فيه: عابد. ومن هنا ضعَّف ابن عرفة هذا الوجه؛ لِمَا فيه من استعمال ما قلَّ استعماله في كلامهم.

وذكر الخليل في كتاب «العين» أنه قرئ: «العَبْدين» بسكون الباء[٤]، تخفيف «العَبِدين» بكسرها. وقال أبو حاتم: العَبِد ـ بكسر الباء ـ الشديد الغضب. وقال أبو عُبيدة: العرب تقول: عبدني حقِّي، أي: جَحَدني[٥].

وروي عن الحسن وابن زيد وزهير بن محمد ـ وهو رواية عن ابن عباس ـ وقتادة والسدي أيضاً: أن «إن» نافية، أي: ما كان للرحمن ولد، فأنا أولُ مَن قال ذلك وعبد ووحَّد، و«كان» عليه للاستمرار، والمقصود استمرارُ النفي لا نفي الاستمرار، والفاء للسببية. وتُعقِّب بأنه خلافُ الظاهر مع خفاء وجه السببية أو حسنها، وزعم مكي أنه لا يجوز لإيهامه نفي الولد فيما مضى، وهو كما ترى.

وقرأ عبد الله وابن وثاب وطلحة والأعمش، وحمزة والكسائي ـ كما قال القاضي[٦] ـ: «وُلْد» بضمِّ الواو وسكون اللام، جمع وَلَد بفتحهما[٧].

---

(١) البيت للمرقِّش الأصغر، وهو في المفضليات ص٢٤٦، والحماسة البصرية ٢/ ٣٣.
(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤.
(٣) القراءات الشاذة ص١٣٧، والمحتسب ٢/ ٢٥٧.
(٤) العين ٢/ ٥٠، والبحر المحيط ٨/ ٢٨.
(٥) ينظر مجاز القرآن ٢/ ٢٠٧.
(٦) تفسير البيضاوي (مع حاشية الشهاب) ٧/ ٤٥٣.
(٧) البحر المحيط ٨/ ٢٩، وقراءة حمزة والكسائي في التيسير ص١٥٠، والنشر ٢/ ٣١٩.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾﴾ أي: عن وصفهم، أو الذي يصفونه به من كونه سبحانه له ولدٌ.

وفي إضافة اسم الربِّ إلى أعظم الأجرام وأقواها تنبيهٌ على أنها وما فيها من المخلوقات حيث كانت تحت مَلكوته تعالى وربوبيَّته عزَّ وجلَّ كيف يتوهَّم أن يكون شيء منها جُزءاً منه سبحانه، وهو يُنافي وجوبَ الوجود.

وفي تكرير ذلك الاسم الجليل تفخيمٌ لشأن العرش.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ فدعهم غيرَ ملتفت إليهم حيث لم يُذعنوا للحقِّ بعد ما سمعوا هذا البرهان الجليَّ ﴿يَخُوضُوا﴾ في أباطيلهم ﴿وَيَلْعَبُوا﴾ في دنياهم، فإنَّ ما هم فيه من الأقوال والأفعال ليس إلا من باب الجهل، والجزم لجواب الأمر.

﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾﴾ وهو يومُ القيامة عند الأكثرين. وعن عكرمة وجماعة أنه يوم بدر، وقد وُعدوا الهلاك فيه، وقريبٌ منه تفسيره بيوم الموت. وقيل: ينبغي تفسيره به دون يوم القيامة؛ لأنَّ الغايةَ للخوض واللَّعب إنما هو يوم الموت لانقطاعهما بالموت.

وانتُصر للأكثرين بأنَّ يوم القيامة هو اليوم الموعود، وبه سُمِّي في لسان الشرع، وتفسيره بذاك مخالفٌ للمعروف ولِمَا بعدُ من ذكر الساعة، وما ذكر من أمر الانقطاع مدفوعٌ بأن الموت وما بعدَه في حكم القيامة، ولذا ورد: «من مات فقد قامت قيامته»[1]، ومثله قد يُراد به الدلالة على طول المدة مع قطع النظر عن الانتهاء، فيقال: لا يزالُ في ضلالة إلى أن تقومَ القيامة.

وقرأ أبو جعفر وابن محيصن وعبيد بن عقيل عن أبي عمرو: «يَلْقَوا» مضارع لقي[2]. والآية قيل: منسوخة بآية السيف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ الظرفان متعلِّقان بـ «إله» لأنه صفة بمعنى معبود، مِنْ أَلَهَ بمعنى عَبَدَ، وهو خبر مبتدأ محذوف، أي: هو إلهٌ، وذلك عائد الموصول، وحُذف لطول الصلة بمتعلق الخبر والعطف عليه.

---

(١) أورده الديلمي في مسند الفردوس (١١١٧) عن أنس رضي الله عنه.
(٢) قراءة أبي جعفر في النشر ٢/ ٣٧٠، والكلام من البحر المحيط ٨/ ٢٩.

وقال غير واحد: الجارُّ متعلِّق بـ «إله» باعتبار ما ينبئ عنه من معنى المعبودية بالحق بناءً على اختصاصه بالمعبود بالحق، وهذا كتعلُّق الجارِّ بالعَلم المُشتَهِر بصفة، نحو قولك: هو حاتمٌ في طيِّئ حاتمٌ في تغلب، وعلى هذا تُخرَّج قراءة عمر وعليٍّ وعبد الله وأُبيّ والحكم بن أبي العالي[1] وبلال بن أبي بُردة وابن يعمر وجابر وابن زيد[2] وعمر بن عبد العزيز وأبو شيخ الهنائي وحُميد وابن مِقْسم وابن السَّمَيْفع: «وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله» فيعلّق الجارُّ بالاسم الجليل باعتبار الوصف المُشتهِر به. واعتبر بعضُهم معنى الاستحقاق للعبادة، وعلَّل ذلك بأنَّ العبادة بالفعل لا تلزم.

وجوِّز كون الجارّ والمجرور صلة الموصول، و«إله» خبر مبتدأ محذوف أيضاً على أن الجملة بيانٌ للصلة، وأنَّ كونه سبحانه في السماء على سبيل الإلهية لا على معنى الاستقرار.

واختير كون «إله» في هذا الوجه خبر مبتدأ محذوف على كونه خبراً آخرَ للمبتدأ المذكور، أو بدلاً من الموصول، أو من ضميره بناءً على تجويزه؛ لأن إبدالَ النكرة الغير الموصوفة من المعرفة إذا أفادت ما لم يُستفد أولاً كما هنا جائزٌ حسنٌ على ما قال أبو عليٍّ في «الحجة» لأن البيان هاهنا أتمُّ وأهمُّ، فلذا رجح مع ما فيه من التقدير، وحينئذ فلا فاصل أجنبي بين المتعاطفَين، ولا يجوز كون الجارِّ والمجرور خبراً مقدَّماً، و«إله» مبتدأ مؤخَّراً؛ للزوم خلوِّ الجملة عن العائد مع فساد المعنى.

وفي الآية نفي الآلهة السماوية والأرضية، واختصاص الإلهية به عزَّ وجلَّ لما فيها من تعريف طرفي الإسناد، والموصول في مثل ذلك كالمُعرَّف بالأداة.

وللاعتناء بكلٍّ من إلهيته تعالى في السماء وإلهيته عز وجل في الأرض، قيل «وهو الذي في السماء إلهٌ وفي الأرض إلهٌ» ولم يقل: وهو الذي في السماء وفي الأرض إلهٌ. أو: وهو الذي في السماء والأرض إلهٌ. وحديث الإعادة قيل: مما لا يجري هاهنا، لأن القاعدة أغلبية كأكثر قواعدِ العربية.

---

(١) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر ٨/ ٢٩، وعنه نقل المصنف، والصواب: الحكم بن أبي العاصي، كما في المحرر الوجيز ٥/ ٦٦.

(٢) كذا في الأصل و(م) ومطبوع البحر، وفي المحرر: وجابر بن زيد. وهي في القراءات الشاذة ص١٣٦ عن علي وابن مسعود.

وقال بعض الأفاضل: يجوز إجراء القاعدة فيه، والمغايرة بين الشيئين أعمُّ من أن تكون بالذات أو بالوصف والاعتبار، والمراد هنا الثاني. ولا شكَّ أن طريق عبادة أهل السماء له تعالى غير طريق عبادة أهل الأرض على ما يشهد به تتبع الآثار، فإذا كان «إله» بمعنى معبود كان معنى الآية أنه تعالى معبودٌ في السماء على وجه، ومعبود في الأرض على وجه آخر، وإن كان بمعنى التحيُّر فيه، فالتحيُّر في أهل السماء غير التحيُّر في أهل الأرض، فلا جرم تكون أطوارهم مخالفة لأطوارِ أهل الأرض، ومن ذلك اختلافُ علومهم، فإن علومَ أهل الأرض إن كانت ضرورية فأكثرها مستندةٌ إلى الحسّ، وإن كانت نظرية كانت مكتسبة من النظر، فإذا انسدَّ طريق النظر والحِسِّ عَجَزوا وتحيَّروا، ولا كذلك أهلُ السماء لتنزُّههم عن الكسب والحسّ، فتحيُّرهم على نحو آخر، أو نقول: التحيُّر في إدراك ذاته تعالى وصفاته إنما ينشأ من مشاهدة آثار عظمته وكمال قُدرته سبحانه، ولا شك أن تلك الآثار في السماء أعظمُ من الآثار في الأرض. وعليه فيجوز أن يكون الإله بمعنى المتحيَّر فيه، ويكون مجازاً عن عظيمِ الشأن من باب ذكر اللازم وإرادة الملزوم، فيكون المعنى أنه تعالى عظيم الشأن في السماء على نحوٍ، وعظيم الشأن في الأرض على نحوٍ آخرَ. اهـ. ولا يخلو عن شيء كما لا يخفى.

﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾﴾ كالدليل على النفي والاختصاص المشار إليهما، فإن من لا يتَّصف بكمال الحكمة والعلم لا يستحقُّ الإلهية.

﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء ومخلوقات الجوِّ المشاهدة وغيرها ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: العلم بالساعة، أي: الزمان الذي تقوم القيامة فيه، فالمصدر مضافٌ لمفعوله، و«الساعة» بمعناها اللغوي، وهو مقدار قليل من الزمان، ويجوز أن يُراد بها معناها الشرعيُّ، وهو يوم القيامة، والمحذورُ مندفعٌ بأدنى تأمُّل، وفي تقديم الخبر إشارةٌ إلى استئثاره تعالى بعلم ذلك.

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾﴾ للجزاء. والالتفات إلى الخطاب للتهديد. وقرأ الأكثر بياء الغيبة، والفعل في القراءتين مبنيٌّ للمفعول؛ وقرئ بفتح تاء الخطاب والبناء

للفاعل[١]. وقرئ: «تحشرون» بتاء الخطاب أيضاً، والبناء للمفعول[٢].

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: ولا يملك آلهتُهم الذين يدعونهم ﴿مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زَعَموا أنهم شفعاؤهم عند الله عز وجل.

وقرئ: «تَدْعون» بتاء الخطاب والتخفيف، والسُّلمي وابن وثَّاب بها وشدِّ الدال[٣].

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الذي هو التوحيد ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ أي: يعلمونه، والجملة في موضع الحال، وقيِّد بها؛ لأن الشهادةَ عن غير علم بالمشهود به لا يُعوَّل عليها، وجمع الضمير باعتبار معنى «مَنْ» كما أن الإفراد أولاً باعتبار لفظه، والمراد به الملائكة وعيسى وعُزير وأضرابهم صلوات الله تعالى وسلامه عليهم.

والاستثناء قيل: متصل إنْ أُريد بالذين يدعون من دونه كل ما يُعبد من دون الله عز وجل، ومنفصل إن أريد بذلك الأصنام فقط. وقيل: هو منفصلٌ مطلقاً، وعُلِّل بأن المرادَ نفي ملك الآلهة الباطلة الشفاعةَ للكفرة، ومَنْ شهد بالحقِّ منها لا يملك الشفاعةَ لهم أيضاً، وإنما يملك الشفاعة للمؤمنين، فكأنه قيل ـ على تقدير التعميم ـ: ولا يملك الذين يدعونهم من دون الله تعالى كائنين ما كانوا الشفاعةَ لهم، لكن مَنْ شهد بالحق يملك الشفاعة لمن شاء الله سبحانه من المؤمنين؛ فالكلام نظيرُ قولك: ما جاء القومُ إليَّ إلا زيداً جاء إلى عمرو. فتأمَّل.

وقال مجاهد وغيره: المراد بمن شهد بالحقّ المشفوعُ فيهم. وجُعِلَ الاستثناء عليه متصلاً، والمستثنى منه محذوفاً، كأنه قيل: ولا يملك هؤلاء الملائكة وأضرابهم الشفاعة في أحد إلا فيمن وحَّد عن إيقان وإخلاص، ومثله في حذف المستثنى منه قولُه:

---

(١) قرأ بياء الغيبة ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ورويس، وقرأ الباقون بتاء الخطاب، ويعقوب على أصله في فتح حرف المضارعة وكسر الجيم. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

(٢) ذكرها الزمخشري في الكشاف ٣/ ٤٩٨.

(٣) القراءات الشاذة ص١٣٦، والدر المصون ٩/ ٦١١.

نـجـا سـالـم والـنـفـس مـنـه بِـشِـدْقـهِ ولـم ينـجُ إلا جَفْـنَ سيـفٍ ومِـئْزرا[١]

أي: ولم ينجُ شيء إلا جفن سيف.

واستدل بالآية على أن العلم مما لا بدَّ منه في الشهادة دون المشاهدة.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ أي: سألت العابدين أو المعبودين ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لِتعذُّر المكابرة في ذلك من فرط ظهوره، ووجه قول المعبودين ذلك أظهرُ من أن يخفى.

﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾﴾ فكيف يُصْرَفون عن عبادته تعالى إلى عبادة غيره سبحانه ويُشركونه معه عز وجل مع إقرارهم بأنه تعالى خالقُهم، أو مع عِلْمهم بإقرار آلهتهم بذلك، والفاء جزائية، أي: إذا كان الأمر كذلك فأنَّى.. إلخ، والمراد التعجُّب من إشراكهم مع ذلك.

وقيل: المعنى: فكيف يُكذِّبون بعد علمهم بذلك؟! فهو تعجُّب من عبادة غيره تعالى، وإنكارهم للتوحيد مع أنه مركوز في فطرتهم.

وأيًّاما كان فهو متعلِّق بما قبله من التوحيد والإقرار بأنه تعالى هو الخالق.

وأما كون المعنى: فكيف ـ أو أين ـ يصرفون عن التصديق بالبعث مع أنَّ الإعادةَ أهونُ من الإبداء، وجعله متعلقاً بأمر الساعة كما قيل، فيأباه السياق.

وقرأ عبد الوارث عن أبي عمرو: «تؤفكون» بتاء الخطاب[٢].

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾ بجر «قيله»، وهي قراءة عاصم وحمزة والسُّلمي وابن وثَّاب والأعمش[٣].

وقرأ الأعرج وأبو قلابة ومجاهد والحسن وقتادة ومسلم بن جندب برفعه، وهي قراءة شاذة[٤]. وقرأ الجمهور بنصبه[٥].

---

(١) البيت لحذيفة بن أنس الهذلي، وهو في ديوان الهذليين ٣/ ٢٢، ومجالس ثعلب ص٤٥٦.

(٢) القراءات الشاذة ص١٣٦.

(٣) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠ عن عاصم وحمزة، والكلام من البحر ٨/ ٣٠.

(٤) القراءات الشاذة ص١٣٦.

(٥) التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.

واختلف في التخريج فقيل: الجرّ على عطفه على لفظ «الساعة» في قوله تعالى: «وعنده علم الساعة» أي: عنده علم قيله. والنصب على عطفه على محلّها لأنها في محلِّ نصب بـ «علم» المضافِ إليها، فإنه كما قدَّمنا مصدر مضاف لمفعوله، فكأنه قيل: يعلم الساعةَ، ويعلم قيلَه. والرفع على عطفه على «علم الساعة» على حذف مضاف، والأصل: وعلم قيله، فحذف المضاف وأُقيم المضاف إليه مُقامه، ونُسب الوجه الأول لأبي عليٍّ، والثالث لابن جني، وجميع الأوجه للزجَّاج[1]، وضمير «قيله» عليها للرسول ﷺ المفهوم من قوله تعالى: «ولئن سألتهم».

والقيل والقال والقول مصادر جاءت بمعنى واحد، والمنادى وما في حيِّزه مقولُ القول، والكلامُ خارجٌ مخرجَ التحسُّر والتحزُّن والتشكِّي من عدم إيمان أولئك القوم، وفي الإشارة إليهم بـ «هؤلاء» دون قوله: قومي ونحوه تحقيرٌ لهم وتبرٌّ منهم لسوء حالهم، والمراد من إخباره تعالى بعلمه ذلك وعيدُه سبحانه إياهم.

وقيل: الجرّ على إضمار حرف القَسَم، والنصب على حذفه وإيصال فعله إليه محذوفاً، والرفع على نحو: لَعَمْرُكَ لأفعلنَّ، وإليه ذهب الزمخشري[2]. وجعل المقول «يا رب» وقوله سبحانه: «إن هؤلاء» إلخ جواب القسم على الأوجه الثلاثة، وضمير «قيله» كما سبق. والكلام إخبارٌ منه تعالى أنهم لا يؤمنون، وإقسامه سبحانه عليه بقوله ﷺ: «يا رب» لرفع شأنه عليه الصلاة والسلام وتعظيمِ دعائه والتجائه إليه تعالى، والواو عنده للعطف؛ أعني عطف الجملة القَسَمية على الجملة الشرطية، لكن لمَّا كان القسم بمنزلة الجملة الاعتراضية صارت الواو كالمضمحلِّ عنها معنى العطف.

وفيه أن الحذف الذي تضمَّنه تخريجه من ألفاظ شاع استعمالها في القسم كـ: عَمْرُكَ، وايْمُنُ الله، واضحُ الوجه على الأوجه الثلاثة، وأما في غيرها كالقيل هنا فلا يخلو عن ضعف.

وقيل: الجرّ على أن الواو واو القسم، والجواب محذوفٌ، أي: لَننصرنَّه، أو

---

(١) الحجة لأبي علي الفارسي ٦/ ١٥٩، والمحتسب ٢/ ٢٥٨، ومعاني القرآن للزجاج ٤/ ٤٢١.
(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٨.

لَنفعلَنَّ بهم ما نشاء. حكاه في «البحر»[١]، وهو كما ترى.

وقيل: النصب على العطف على مفعول «يكتبون» المحذوف، أي: يكتبون أقوالَهم وأفعالَهم وقيله: يا رب.. إلخ. وليس بشيء.

وقيل: هو على العطف على مفعول «يعلمون» أعني: الحقّ، أي: يعلمون الحقَّ وقيله.. إلخ. وهو قولٌ لا يكاد يعقل.

وعن الأخفش أنه على العطف على «سرَّهم ونجواهم»، ورُدَّ بأنه ليس بقويٍّ في المعنى مع وقوع الفصل بما لا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النَّظم. وتُعُقِّب أن ما ذُكر من الفصل ظاهر، وأما ضعف المعنى وتنافر النظم فغيرُ مُسلَّم؛ لأن تقديره: أم يحسبون أنا لا نسمع سرَّهم ونجواهم وأنا لا نسمع قِيلَه... إلخ. وهو منتظمٌ أتمَّ انتظام. وعنه أيضاً أنه على إضمار فعل من القيل ناصب له على المصدرية، والتقدير: قال قيله، ويُؤيِّده قراءةُ ابن مسعود: «وقال الرسول»[٢]، والجملة معطوفة على ما قبلها. ورُدَّ بأنه لا يظهر فيه ما يحسن عطفه على الجملة قبله، وليس التأكيد بالمصدر في موقعه ولا ارتباط لقوله تعالى: «فاصفح» به.

وقال العلامة الطيبي في توجيهه: إن قوله تعالى: «ولئن سألتهم» تقديره: وقلنا لك: ولئن سألتهم.. إلخ، وقلت: «يا رب» يأساً من إيمانهم، وإنما جعل غائباً على طريق الالتفات، لأنه كأنه ﷺ فاقدٌ نفسه للتحزُّن عليهم حيث لم ينفع فيهم سعيه واحتشاده.

وقيل: الواو على هذا الوجه للحال، و«قال» بتقدير «قد»، والجملة حالية، أي: فأنى يُؤْفَكون وقد قال الرسول يا رب.. إلخ. وحاصلُه: فأنى يؤفكون وقد شكا الرسول عليه الصلاة والسلام إصرارهم على الكفر. وهو خلاف الظاهر.

وقيل: الرفع على الابتداء، والخبر «يا رب» إلى «لا يؤمنون» أو هو محذوف، أي: مسموع، أو متقبَّل، فجملة النداء وما بعده في موضع نصب بـ «قيله»، والجملة حال أو معطوفة، ولا يخفى ما في ذلك.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٣٠.

(٢) في القراءات الشاذة ص١٣٧: «فقال يا رب». ولم ينسبها لأحد.

والأَوْجَهُ عندي ما نُسب إلى الزجاج، والاعتراض عليه بالفصل هينٌ، وبضعف المعنى والتنافرِ غيرُ مُسلَّم، ففي «الكشف» بعد ذكر تخريج الزجاج الجرّ: إن الفاصلَ أعني من قوله تعالى: «وإليه ترجعون» إلى «يؤفكون» يصلحُ اعتراضاً، لأن قوله سبحانه: «وعنده علم الساعة» مرتبطٌ بقوله تعالى: «حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون» على ما لا يخفى، والكلام مسوقٌ للوعيد البالغ بقوله تعالى: «وإليه ترجعون» إلى قوله عز وجل: «وهم يعلمون» متصل بقوله تعالى: «وعنده علم الساعة» اتصال العصا بلحاها. وقوله تعالى: «ولئن سألتهم» خطابٌ لمن يتأتى منه السؤال، تتميم لذلك الكلام باستحقاقهم ما أُوعدوه لعنادهم البالغ، ومنه يظهر وقوعُ التعجب في قوله سبحانه: «فأنى يؤفكون»، وعلى هذا ظهر ارتباطُ: وعلم قِيلِه، بقوله تعالى: «وعنده علم الساعة» وأن الفاصل متصلٌ بهما اتصالاً يجلُّ موقعه.

ومن هذا التقرير يلوح أن ما ذهب إليه الزجاج في الأوجه الثلاثة حسن، ولك أن تُرجِّحه على ما ذهب إليه الأخفش بتوافق القراءتين، وأنَّ حَمْلَ «ولئن سألتهم» على الخطاب المتروك إلى غير معيَّن أوفقُ بالمقام من حمله على خطابه عليه الصلاة والسلام، وسلامته من إضمار القول قبل قوله تعالى: «ولئن سألتهم» مع أن السياقَ غيرُ ظاهر الدلالة عليه. اهـ، وهو أحسن ما رأيته للمفسِّرين في هذا المقام.

وقرأ أبو قلابة: «يا ربَّ» بفتح الباء[1]، ووجهه ظاهر[2].

﴿فَاصْفَحْ﴾ فأَعرِضْ ﴿عَنْهُمْ﴾ ولا تطمع في إيمانهم. وأصلُ الصَّفح: ليُّ صفحة العُنق، فكنى به عن الإعراض.

﴿وَقُلْ﴾ لهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: أمري سلامٌ، أي: تَسلُّمٌ منكم ومتاركة، فليس ذلك أمراً بالسلام عليهم والتحية، وإنما هو أمر بالمتاركة، وحاصله: إذا أبيتم القَبول، فأمري التسلُّم منكم. واستدلَّ بعضهم بذلك على جواز السلام على الكُفَّار وابتدائهم بالتحية؛ أخرج ابن أبي شيبة عن شعيب بن الحبحاب قال: كنت مع

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٦٧، وتفسير القرطبي ١٩/ ٩٧.

(٢) وهو قَلْبُ الياء ألفاً، ثم حذفُها اجتزاءً عنها بالفتحة. الدر المصون ٩/ ٦١٣.

عليٌّ بن عبد الله البارقي فمرَّ علينا يهوديٌّ أو نصراني، فسلَّم عليه، قال شعيب: فقلت: إنه يهوديٌّ أو نصراني. فقرأ عليٌّ آخرَ سورة الزخرف: «وقيله يا ربِّ» إلى الآخر[١].

وأخرج ابن أبي شيبة أيضاً عن عون بن عبد الله أنه قال: قلت لعمر بن عبد العزيز: كيف تقول أنت في ابتداء أهل الذِّمة بالسلام؟ فقال: ما أرى بأساً أن نبتدئهم. قلت: لِمَ ؟ قال: لقوله تعالى: (فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ)[٢]. ومما ذكرنا يُعلم ضَعْفُه.

وقال السدي: المعنى: قل خيراً بدلاً من شرِّهم. وقال مقاتل: اردُدْ عليهم معروفاً. وحكى الماوردي[٣]: أي: قل ما تَسْلَمُ به من شَرِّهم. والكلُّ كما ترى، والحقُّ ما قَدَّمنا.

﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ حالَهم السيئة وإنْ تأخَّر ذلك، وهو وعيدٌ من الله سبحانه لهم وتسليةٌ لرسوله ﷺ.

وقرأ أبو جعفر والحسن والأعرج ونافع وهشام: «تعلمون» بتاء الخطاب[٤] على أنه داخلٌ في حيِّز «قل».

وإنْ أُريد من الآية الكَفُّ عن القتال فهي منسوخةٌ، وإنْ أُريد الكَفُّ عن مقابلتهم بالكلام فليست بمنسوخة، والله تعالى أعلم.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٢٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٥٦.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤، ومصنف ابن أبي شيبة ٨/ ٦٢٧، ولفظه: عن عبد الله بن عون قال: سأل محمد بن كعب عمر بن عبد العزيز عن ابتداء أهل الذمة بالسلام، فقال: نرد عليهم ولا نبدؤهم، فقلت: وكيف تقول أنت؟ قال: ما أرى بأساً أن نبدأهم، قلت: ولم؟ قال: لقول الله: ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

(٣) النكت والعيون ٥/ ٢٤٣.

(٤) وقرأ بالتاء أيضاً ابن ذكوان. التيسير ص١٩٧، والنشر ٢/ ٣٧٠.